



الأكاديمية العربية الدولية
Arab International Academy

الأكاديمية العربية الدولية

المقررات الجامعية

الخلاصة

في فقه الدعوة

جمع وإعداد

الباحث في القرآن والسنّة

علي بن نايف الشحود

الطبعة الأولى

٢٠٠٩-١٤٣٠ مـ

((ماليزيا))

((بهانج- دار المعمور))

((حقوق الطبع لكل مسلم))

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تعهُم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

فإن الله تعالى يقول في محكم كتابه العزيز: {أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلُهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} (١٢٥) سورة النحل.

أي أدعُ -أيها الرسول- أنت ومن اتبعك إلى دين ربك وطريقه المستقيم، بالطريقة الحكيمية التي أوحاها الله إليك في الكتاب والسنة، وحاطب الناس بالأسلوب المناسب لهم، وانصح لهم نصائحًا حسنة، يرغبهم في الخير، وينفرهم من الشر، وجادلهم بأحسن طرق المجادلة من الرفق واللين. فما عليك إلا البلاغ، وقد بلغت، أما هدايتهم فعلى الله وحده، فهو أعلم من ضل عن سبيله، وهو أعلم بالمهتدin¹.

فالدعوة إلى دين الله تعالى جزء لا يتجزأ من هذه الرسالة العظيمة، وقد فصل القول فيها القرآن الكريم، والرسول الأمين ﷺ في أقواله وأفعاله وسائر أحواله .

وقد كتب عنها الكثير الطيب ولاسيما في عصرنا هذا، وقد سبق لي أن جمعت كتاباً كبيراً في هذا الموضوع وهو ((المفصل في فقه الدعوة إلى الله)) .

وهناك مذكورة في فقه الدعوة جمع وإعداد: الأستاذ حسام عبد الرحمن، وهي مختصرة وجيزة في باهها، ولكن الأدلة فيها غير دقيقة، والعزو غير دقيق، ولا تخلو من بعض الآراء الشادة والمنحرفة .

¹ - التفسير الميسر - (٤ / ٤٩١)

وقد استفدت منها كثيراً، وسرت على تقسيماتها من حيث المبدأ، إلا أن لم أعرج على أدلتها بتناً، ولا على الآراء الشاذة فيها، بل بینت بطلانها في أمكتتها.

فدين الله تعالى ليس من عند البشر حتى يفسره كل واحد حسب هواه ؟ بل هو من عند الله تعالى، ومن ثم لا يجوز تفسيره بغير ما فسره السلف الصالح رضي الله عنهم والعجيب في أمر في بعض الدعاء أنهم يتصرفون في دين الله تعالى تصرفًا عجيباً ليرضوا أعداء الإسلام - وما هم براضين - فيحرّفون الكلم عن موضعه، ويخالفون الإجماع القطعي بحجة المصلحة وتطور الزمان !!!!.

ولكن لا عجب ولا غرابة بعد أن بين لنا الحبيب المصطفى ﷺ خطر هؤلاء على الأمة وحدرنا منهم، فعن أبي ثميم الجيشهاني، قال: سمعت أبا ذر، يقول: كنْتُ مُخَاصِّرَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمًا إِلَى مَنْزِلِهِ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: غَيْرُ الدَّجَالِ أَخْوَفُ عَلَى أُمَّتِي مِنَ الدَّجَالِ فَلَمَّا حَشِيتُ أَنَّ يَدْخُلُ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ شَيْءٍ أَخْوَفُ عَلَى أُمَّتِكَ مِنَ الدَّجَالِ؟ قَالَ: الْأَئِمَّةُ الْمُضَلِّلُونَ^٢.

هذا وقد تطرقت في كتابي للمباحث التالية:

المبحث الأول = تعاريف

المبحث الثاني = خصائص الدعوة الإسلامية

المبحث الثالث = أساليب الإقناع وطرقه المختلفة

المبحث الرابع = قواعد وأسس للفهم الصحيح

المبحث الخامس = درجات الإصلاح في نظر الدعوة الصحيحة

المبحث السادس = من صفات الداعية الناجح

المبحث السابع = موقف الداعي من المجتمع

المبحث الثامن = القواعد والأصول المرتبطة بالدعوة وفوئها

^٢ - مسند أحمد (علم الكتب) - (٧ / ٢١٦٢٢) (٢١٢٩٧) - صحيح لغيره

المبحث التاسع = قواعد أساسية في الدعوة إلى الله – تعالى –

المبحث العاشر = التعريف قبل التكليف

المبحث الحادي عشر = التدرج في التكاليف

المبحث الثاني عشر = التيسير لا التعسir، والتبسيط لا التعقيد

المبحث الثالث عشر = الأصول قبل الفروع

المبحث الرابع عشر = الترغيب قبل الترهيب أو البشارة قبل النذارة

المبحث الخامس عشر = التفهيم لا التلقين

المبحث السادس عشر = التربية لا التعرية

المبحث السابع عشر = تلميذ إمام (أستاذ وذي تجربة) لا تلميذ كتاب

المبحث الثامن عشر = نصائح لا بد من مراعاتها أثناء الدعوة

المبحث التاسع عشر = قواعد في التصورات والأساليب والوسائل

المبحث العشرون = الخلاصة في فقه الأولويات

١ - أولوية الـ (كيف) على الـ (كم)، (أولوية الكيفية على الكمية)

٢ - الأولويات في مجال العلم والفكر

٣ - الأولويات في مجال الفتوى والدعوة

٤ - الأولويات في مجال العمل

٥ - الأولويات في مجال المأمورات

٦ - الأولويات في مجال النهيات

٧ - الأولويات في مجال الإصلاح (أي أثناء عملية الإصلاح)

المبحث الحادي والعشرون = معرفة سنن الله الكونية في القرآن الكريم

وذكرت لكل قول دليلاً معتبراً من القرآن والسنة المقبولة، وشرحت كثير من

الآيات القرآنية، فما لم يذكر مصدره فهو من التفسير الميسر، وأما الأحاديث فقد

قمت بتأريجها من مصادرها الأساسية والحكم عليها وشرح غريبها، وتوسعت في بعض الموضوعات حسب مقتضى الحال .

قال تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (١٠٨) سورة يوسف.

أسأل الله تعالى أن ينفع به كاتبه وقارئه وناشره والدال عليه في الدارين .

الباحث في القرآن والسنّة

علي بن نايف الشحود

في ١٢ شوال ١٤٣٠ هـ الموافق ل ٢٠٠٩/١٠/٢ م



المبحث الأول

تعريف

علم فقه الدعوة:

هو علم يبحث في كيفية الدعوة إلى الله دعوة صحيحة واعية معتمدة على دراسة فنون الشريعة المختلفة وعلوم أخرى كالادارة وعلم الاجتماع وعلم النفس وغيرها، ولذا فهو علم مهم وواسع شامل ودقيق.

هل هذا العلم بدعة؟

لا، بل كان موجوداً في زمن الرسول - ﷺ - كما جاء ذلك في أحاديث كثيرة، وإن لم يكن مكتوباً في الكتب، وهذا العلم - أيضاً - كان في زمن الأنبياء كُلُّهم - عليهم السلام - كما ورد ذلك في آيات كثيرة.

معنى الكلمة "دعوة" في اللغة:

لها عدة معانٍ، منها :

١- النداء، مثل: دعوتُ الرجل، أي: ناديته.

٢- الحث على قصد شيء ما، مثل: دعوتُ إلى إفطار.

٣- الدعوة إلى أمر يراد إثباته أو الدفع عنْه سواءً أكان حَقّاً أم باطلاً، مثل: {وَيَا قَوْمَ مَا لَيْ أَدْعُوكُمْ إِلَى التَّحَاجَةِ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ} (٤١) سورة غافر.

٤- المحاولة القولية أو الفعلية لإمالة الناس إلى مذهب أو ملة.

٥- الابتهاج والسؤال، مثل: دعوتُ الله أن يغفر لي .

ماذا نسمّي من يعمل بالدعوة؟

نسمّيه: الداعي أو الداعية، والجمع: دعاء.

أصناف الدعوة أو أصناف الدعاء :

هناك صنفان :

١- دعاء إلى الخير والمُهدي، أمثلة: الأنبياء والرُّسُل، الصحابة والتَّابِعونَ، الأئمَّةُ والخطَّابُاءُ... الخ.

٢- دعاء إلى الشر والضلال، أمثلة: الشياطين، الملحدون، المُفسدون... الخ.

عن أبي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبَعَهُ لَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الِّإِثْمِ مِثْلُ أَثَامِ مَنْ تَبَعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئاً. رواه مسلم.^٣

الداعية إلى الله :

هو الذي يُحاوِلُ دعوة الناس بالقول والعمل إلى الإسلام وإلى تطبيق منهجه واعتباقي عقيداته بالحكمة والمواعظة الحسنة.

الدعوة إلى الله واجب تقييل :

أي: أنها أمانة عظيمة لا بد من حملها، ومن أراد حمل شيء ثقيلاً فلا بد أن :

أ- يكون قوياً، وإلا لم يستطع حمله.

ب- يحمله بطريقة سليمة، وإلا أفسد نفسه وأفسد المحمول.

لذلك جهز الله سبحانه وتعالى -رسوله- عندما قال: "يَا أَيُّهَا الْمُزَمِّلُ (١) قُمِ الْلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نصْفَهُ أَوْ اثْقَلْهُ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْرَدْ عَلَيْهِ وَرَتَّلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سُنُّلُقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥)" [المزمول: ١ - ٥] سورة المزمول، ليسَتْطيع حمل الدعوة: "إِنَّا سُنُّلُقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا".

وبعد الرسول -رسول الله- حمل الصحابة -رضوان الله عليهم- الأمانة وبعدهم التابعون.. وهكذا حتى وصلتنا.

أهداف الدعوة التي نعنيها :

الدعوة التي نعنيها والتي يجب على المسلمين القيام بها تهدف إلى :

١- تأسيس مجتمع إسلامي في المجتمعات الجاهلية.

^٣ - صحيح مسلم- المكتن - (٦٩٨٠) وصحيح ابن حبان - (١ / ٣١٨)(١١٢)

٢- دعوة الإصلاح في المجتمعات المسلمة التي أصاها شيء من الانحراف.

٣- استمرار الدعوة في المجتمعات القائمة بالحق للحفاظ على سلامتها وحمايتها من أهل الباطل.

وهكذا نرى أنَّ أهداف الدعوة تختلف باختلاف المجتمع وطبيعته.

حكم الدعوة إلى الله والأدلة على ذلك:

الدعوة إلى الله فريضة شرعية، والأدلة على وجودها كثيرة منها :

١- قال الله - تعالى - : {وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَاْنُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (٤٠) سورة آل عمران .

ولتكن منكم - أيها المؤمنون - جماعة تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف، وهو ما عُرف حسنه شرعاً وعقلاً وتنهى عن المنكر، وهو ما عُرف قبحه شرعاً وعقلاً وأولئك هم الفائزون بجنتات النعيم.

واللام في "ولتكن" هي لام الأمر التي تدل على الوجوب.

٢- قال الله - تعالى - : {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا يَبَيِّنُهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ الْلَّاعِنُونَ} (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَأْبُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُّوْبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} (١٦٠) سورة البقرة

إن الذين يُخْفِونَ ما أنزلنا من الآيات الواضحات الدالة على نبوة محمد ﷺ وما جاء به، وهم أحبّار اليهود وعلماء النصارى وغيرهم من يكتُم ما أنزل الله من بعد ما أظهرناه للناس في التوراة والإنجيل، أولئك يطردُهم الله من رحمته، ويدعو عليهم باللعنة جميع الخلقة.

إلا الذين رجعوا مستغفرين الله من خطاياهم، وأصلحوا ما أفسدوه، وبيّنوا ما كتموه، فأولئك أقبل توبتهم وأحازبهم بالمغفرة، وأنا التواب على من تاب من عبادي، الرحيم بهم؛ إذ وفقتهم للتوبة قبلتها منهم.

وفي هاتين الآيتين وَعِدْ شدِيدٌ لِمَنْ كَتَمَ ما جاءت به الرسالات الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة والمهدى النافع للقلوب.

٣- قال الله - تعالى -: "وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّابَرِ (٣)" سورة العصر.

أقسم الله بالدهر على أن بي آدم لفي هلكة ونقصان. ولا يجوز للعبد أن يقسم إلا بالله، فإن القسم بغير الله شرك. إلا الذين آمنوا بالله وعملوا عملا صالحا، وأوصى بعضهم بعضاً بالاستمساك بالحق، والعمل بطاعة الله، والصبر على ذلك.

٤- عن قيس بن أبي حازم، عن أبي بكر الصديق رض، عن النبي صل، قال: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تَقْرُّوْنَ هَذِهِ الْآيَةَ وَتَسْعُوْنَهَا عَلَىٰ غَيْرِ مَا وَضَعَهَا اللَّهُ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ، لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} [المائدة: ١٢٥]، إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُعِيْرُوهُ، يُوْشِكُ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ ٤.

٥- قال الله - تعالى -: {إِذْ أَدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلُهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهَتَّدِينَ} (١٢٥) سورة التحل.

ادع -أيها الرسول- أنت ومن اتبعك إلى دين ربك وطريقه المستقيم، بالطريقة الحكيمه التي أوحها الله إليك في الكتاب والسنّة، وحاطب الناس بالأسلوب المناسب لهم، وانصح لهم نصحاً حسناً، يرغبهم في الخير، وينفرهم من الشر، وجادلهم بأحسن طرق المجادلة من الرفق واللين. فما عليك إلا البلاغ، وقد بلغت، أما هدايتهم فعلى الله وحده، فهو أعلم. من ضل عن سبيله، وهو أعلم بالمهتدين.

٦- القاعدة الفقهية: " ما لا يَتِمُ الْوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ " . وإقامة الدين وإظهار الإسلام والحق واجب، ولكنه لا يحصل إلا بالدعوة فهي واجبة.

هل الدعوة فرض عين أم فرض كفاية؟

هي فرض كفاية على الأمة إن كان فيها من يقوم بالدعوة والتعليم. وأما عند قلة الدعاء وغلبة الجهل فإن الدعوة تكون فرض عين .

٤ - صحيح ابن حبان - (١ / ٥٤٠) صحيح

هل الدعوة فرض على الرجال وحدهم، أم تشمل النساء؟

الدعوة فرض على الرجال والنساء، كل حسب إمكاناته وقدراته. وقد وصف الله - تبارك وتعالى - المجتمع الإسلامي بأنه مجتمع دعوة يقوم بها المؤمنون والمؤمنات فقال - عز وجل - : {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلَيَاءِ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيِّدُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (٧١) سورة التوبة

والمؤمنون والمؤمنات بالله ورسوله بعضهم أنصار بعض، يأمرون الناس بالإيمان والعمل الصالح، وينهون عن الكفر والمعاصي، ويؤدون الصلاة، ويعطون الزكاة، ويطيعون الله ورسوله، وينهون عما نهوا عنه، أولئك سيرحمهم الله فينقذهم من عذابه ويدخلهم جنته. إن الله عزيز في ملته، حكيم في تشريعاته وأحكامه.

وفي مقابل هذه الصورة الطيبة بين الله - سبحانه - صورة المنافقين والمنافقات يدعون إلى الباطل، فقال - تعالى - : {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَاوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيهِمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} (٦٧) سورة التوبة

المنافقون والمنافقات صنف واحد في إعلانهم الإيمان واستبعادهم الكفر، يأمرون بالكفر بالله ومعصية رسوله وينهون عن الإيمان والطاعة، ويسكونون أيديهم عن النفقة في سبيل الله، نسوا الله فلا يذكرونها، فنسيهم من رحمته، فلم يوفقهم إلى خير. إن المنافقين هم الخارجون عن الإيمان بالله ورسوله.

وقال الله - تعالى - : {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرَجْتُ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَاوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} (١١٠) سورة آل عمران

أنتم - يا أمة محمد - خير الأمم وأنفع الناس للناس، تأمرون بالمعروف، وهو ما عُرف حسنه شرعاً وعقلاً وتنهون عن المنكر، وهو ما عُرف قبحه شرعاً وعقلاً وتصدقون بالله تصديقاً جازماً بؤيده العمل. ولو آمن أهل الكتاب من اليهود والنصارى بمحمد ﷺ وما

جاءهم به من عند الله كما آمنتكم، لكن خيرا لهم في الدنيا والآخرة، منهم المؤمنون المصدقون برسالة محمد ﷺ العاملون بها، وهم قليل، وأكثرهم الخارجون عن دين الله وطاعته.

سبب خيرية الأمة الإسلامية مذكور في الآية وهو:

١- لأن الناس في الأمة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر (أي يقومون بواجب الدعوة).

٢- لأنهم يؤمّنون بالله - عز وجل - . قال الله - عز وجل - : {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَذْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسَبِّحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (١٠٨) سورة يوسف

قل لهم -أيها الرسول-: هذه طريقي، أدعو إلى عبادة الله وحده، على حجة من الله وبيّن، أنا ومن اقتدى بي، وأنزه الله سبحانه وتعالى عن الشركاء، ولست من المشركين مع الله غيره.

هذه سبيلي: أي: هذه طريقي في الحياة.

ما هي؟

أدعو إلى الله: سبيلي الدعوة إلى الله.

ولكن، كيف تكون الدعوة إلى الله؟

على بصيرة: أي: على نور ومعرفة وعلم وفقه لطريق الدعوة وقواعدها .

ولكن، مع من أدعو؟

أنا ومن اتبعني: أي: مع الدعاة الذين يتبعون الحق ويدعون إليه.

وبسّحان الله وما أنا من المشركين: أي: وفي طريقي ودعوي أذكُرُ الله وأنزّهُ عن كل نقصٍ وأتَوْكِلُ عليه وأخلصُ له النية غير مُشْرِكٍ به .

الدعوة ضرورة اجتماعية :

أي أن الدعوة ضرورية للمجتمع لا يَسْتَعْنِي عنها، بل هو محتاج إليها دائمًا لعدة أسباب، منها :

١- الناس في حاجة إلى مَنْ يُبَيِّن لهم ما أَمْرَ اللَّهُ بِهِ وَمَا نَهَى عَنْهُ فَيَدْلِلُهُمْ عَلَى طَرِيقِ الْخَيْرِ وَيُبَعِّدُهُمْ عَنْ طَرِيقِ الْشَّرِّ.

٢- في المجتمع مَنْ يَحْاول إِفْسَادِهِ وَتَدْمِيرِ أَفْكَارِهِ وَأَخْلَاقِهِ وَجَرَّهُ إِلَى طَرِيقِ الضَّيَاعِ. فَلَنْ نَظُرْ مَثَلًا إِلَى نَشْرِ الْإِلْحَادِ، وَنَشْرِ الْمَخْدَرَاتِ وَالدُّعْوَةِ إِلَى الزُّنَاقِ وَشَرْبِ الْخَمْرِ ... وَ... وَ...، وَهَذَا نَرَى أَنَّ الْجَمَعَ يَحْتَاجُ إِلَى الدُّعَاءِ الْوَاعِنِ الَّذِينَ يَحْمُونَهُ وَيَحْفَظُونَ أَهْلَهُ بِالرُّفْقِ وَالْحَكْمَةِ، وَنَسْتَطِعُ تَسْمِيَةَ الدُّعَاءِ "حُرَّاسًا لِلْمَجَمِعِ" يَسْهُرُونَ عَلَى الْخَيْرِ لَهُ.

٣- السُّكُوتُ عَنِ الْمُنْكَرِاتِ وَالْمُفْسِدَاتِ يَؤْدِي فِي النِّهَايَةِ إِلَى ضَيَاعِ الْجَمَعَ كُلِّهِ بِصَالِحِهِ وَطَالِهِ.

وَقَدْ شَبَّهَ الرَّسُولُ - ﷺ - الْجَمَعَ بِالسُّفِينَةِ فِي الْبَحْرِ، وَلَكِي تَنْجُو السُّفِينَةُ وَتَصُلُّ إِلَى شَاطَئِ الْأَمَانِ لَا بُدَّ أَنْ يُمْنَعَ الْمُفْسِدُونَ وَالْمُخَرَّبُونَ مِنْ ثَقِبِهَا. فَعَنْ عَامِرَ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ يَخْطُبُ يَقُولُ، وَأَوْمَأَ بِأَصْبِعِهِ إِلَى أَذْنِيهِ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ، وَالْوَاقِعِ فِيهَا، الْمُدَاهِنِ فِيهَا، مَثَلُ قَوْمٍ رَكَبُوا سَفِينَةً، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، وَأَوْعَرَهَا، وَشَرَّهَا، وَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا إِلَيْهَا، مَرُوا عَلَى مَنْ فَوْهُمْ، فَأَذَّوْهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، فَاسْتَقَيْنَا مِنْهُ، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْهُمْ، إِنْ تَرَكُوهُمْ وَأَمْرُهُمْ، هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخْدُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ، نَجَوْا جَمِيعًا. رواه البخاري.

وَقَالَ اللَّهُ - تَعَالَى -: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} (٢٥) سُورَةُ الْأَنْفَالِ.

وَاحْذَرُوا - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - اخْتِبَارًا وَمَحْنَةً يُعَمِّ بِهَا الْمُسِيءُ وَغَيْرُهُ لَا يُخَصُّ بِهَا أَهْلُ الْمَعْاصِي وَلَا مَنْ باشَرَ الذَّنْبَ، بل تُصِيبُ الصَّالِحِينَ مَعَهُمْ إِذَا قَدَرُوا عَلَى إِنْكَارِ الظُّلْمِ وَلَمْ يَنْكُرُوهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ لِمَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ وَنَكَاهَهُ.

٠ - مسند أَحْمَدَ (عَالَمُ الْكُتُبِ) - (٦ / ٢٧٦) (١٨٣٧٠) - وَصَحِيفَةُ الْبَخَارِيِّ - الْمَكْتُبَ - (٢٤٩٣)

أي: أن ترك الفساد في المجتمع دون محاولة إزالته بالحكمة ودون الدعوة إلى الله قد تكون نتيجته عذاباً لا يصيب الذين ظلموا فحسب، بل يعم الجميع.

٤- إن نهاية الأمة والمجتمع يكون بكترة الخبث والفساد وعدم وجود من يدعوا إلى الله. لذلك جاء عن عبد الله بن عمرو، سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا رأيتم أمتي تهابُ الظالمَ أَنْ تَقُولَ لَهُ: إِنَّكَ أَنْتَ ظَالِمٌ، فَقَدْ ثُوِّدَ عَمِّنْهُمْ. رواه الإمام أحمد.

أي: عندما لا يكون في الأمة من يقول كلمة الحق بالطريقة الصحيحة فإن النتيجة ستكون نهاية الأمة.

٥- إن المجتمع الذي لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر، يخشى أن تصيبه لعنة الله، كما أصابت الكافرين من بني إسرائيل، قال تعالى: {لَعْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاؤُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرِيمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَمُوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} (٧٨) كاُنوا لَا يَتَنَاهُونَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِسْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُو هُمْ أُولَيَاءُ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٨١) [المائدة: ٧٨ - ٨١].

يخبر تعالى أنه طرد من رحمته الكافرين من بني إسرائيل في الكتاب الذي أنزله على داود - عليه السلام - وهو الزبور، وفي الكتاب الذي أنزله على عيسى - عليه السلام - وهو الإنجيل؛ بسبب عصيانهم واعتدائهم على حرمات الله.

كان هؤلاء اليهود يُجاهرون بالمعاصي ويرضونها، ولا ينهى بعضهم بعضاً عن أيٍّ منكر فعلوه، وهذا من أفعالهم السيئة، وبه استحقوا أن يُطردُوا من رحمة الله تعالى تَرَى - أيها الرسول - كثيراً من هؤلاء اليهود يتخذون المشركين أولياء لهم، ساء ما عملوه من الم الولاية التي كانت سبباً في غضب الله عليهم، وخلودهم في عذاب الله يوم القيمة.

٧ - مسند أحمد (علم الكتب) - (٢ / ٥٩٨) صحيح

ولو أن هؤلاء اليهود الذين ينادون المشركين كانوا قد آمنوا بالله تعالى والنبي محمد ﷺ، وأقرُوا بما أنزل إليه - وهو القرآن الكريم - ما اتخذوا الكفار أصحاباً وأنصاراً، ولكن كثيراً منهم خارجون عن طاعة الله ورسوله.

فضل الدعوة إلى الله :

فضلها عظيم، وهناك الكثير من الآيات والأحاديث التي تدل على ذلك، منها :

١- قال الله - تعالى - : {وَمَنْ أَحْسَنْ قَوْلًا مِّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} (٣٣) سورة فصلت

أي: لا أحد أحسن قوله من دعا إلى توحيد الله وعبادته وحده وعمل صالحاً وقال: إني من المسلمين المنقادين لأمر الله وشرعه. وفي الآية حث على الدعوة إلى الله سبحانه، وبيان فضل العلماء الداعين إليه على بصيرة، وفق ما جاء عن رسول الله محمد ﷺ.

٢- عن أبي مسعود، قال: أتى رجُلُ النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: مَا عَنْدِي مَا أُعْطِيَكَ، لَكِنْ أَتَتْنِي فُلَانًا، قَالَ: فَأَتَى الرَّجُلُ، فَأَعْطَاهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ أَوْ عَامِلِهِ. رواه مسلم ^٧.

فإن كنت تريده أضعافاً مضاعفةً من الأجرور فدل الناس على الخير وادع إلى الله، وإن رسول الله - ﷺ - له أجور الأمة إلى يوم القيمة، ومن بعده الصحابة والتابعون وكل داعية يحمل الدعوة بصدق وإخلاصٍ وفهم .

٣- عن سهيل بن سعد، أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: لَأُعْطِيَنَّ الرَّأْيَةَ غَدَّاً رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهَ عَلَى يَدِيهِ، قَالَ: فَبَاتَ النَّاسُ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فَقَالَ: أَيْنَ عَلَيُّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ؟ قَالُوا: تَشْتَكِي عَيْنَاهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَأَرْسِلُوا إِلَيْهِ، فَلَمَّا جَاءَ بَصَقَ فِي عَيْنِيهِ وَدَعَا لَهُ، فَبَرَّ حَتَّى كَانَ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجْعٌ وَأَعْطَاهُ الرَّأْيَةَ، فَقَالَ عَلَيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَتُلْهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْنَا؟ قَالَ: أَنْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحِتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَحْبُبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقٍّ

^٧ - صحيح مسلم - المكتبة - (٥٠٠٧) وصحيح ابن حبان - (١) / (٥٢٥) (٢٨٩)

الله فيه، فوالله لآن يهدى الله بك رجلاً واحداً خيراً لك من أن يكون لك حمرٌ
النعم. متفق عليه .^٨

أي: إن كنت سبباً في هداية إنسان واحد فلك أجر عظيم، وهو خير لك من الإبل
الحمراء (وكانت ثمينة جداً عند العرب)، وفي عصرنا: خير لك من الأبنية والقصور
والسيارات الفارهة ...

٤ - عن أبي أمامة الباهلي قال ذكر لرسول الله - ﷺ - رجلان أحدهما عابد والآخر عالم
فقال رسول الله - ﷺ - « فضل العالم على العابد كفضلى على أذنك ». ثم قال رسول
الله - ﷺ - « إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى
الحوت ليصلون على معلم الناس الخير ». رواه الإمام الترمذى .^٩

وقال بعض العلماء: إن أثر الدعوة ونشر المدى يصل للحيوانات (الحفاظ عليها
ورعايتها) مما يدعوها إلى الدعاء للداعية !



^٨ - صحيح البخاري - المكتبة - (٣٧٠١) وصحيح مسلم - المكتبة - (٦٣٧٦) وصحيح ابن حبان - (١٥) / (٣٧٧) (٦٩٣٢)

^٩ - سنن الترمذى - المكتبة - (٢٩٠١) قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح غريب. قال سمعت أبا عممار
الحسين بن حريث الخزاعي يقول سمعت الفضيل بن عياض يقول عالم معلم يدعى كبيراً في ملائكة
السموات .

المبحث الثاني

خصائص الدعوة الإسلامية

للدعوة الإسلامية خصائص تُنفردُ بها عن غيرها من الدعوات، ومنها :

- ١- أنها رَبَانِيَّةٌ، فهي من عند الله. وأنها لم تتغير ولم تتبدل، وهذا يطمئن النفس أنها خير لأنفسنا، وأن السعادة تكمن في تفديها، وأن الشقاء يترتب على تركها:
أ. فالخير والبركة والسعادة ووفرة الإنتاج كلها من برَكَاتِ تطبيقِ الشريعة المبنية على هذه العقيدة:

قال تعالى: { وَلَوْاَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخْذَنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } . (الأعراف: ٩٦).

فلوأن أهل القرى آمنوا بدل التكذيب، واتقوا بدل الاستهتار لفتح الله عليهم برَكَات من السماء والأرض.. هكذا.. «برَكَاتِ من السماء والأرض» مفتوحة بلا حساب. من فوقهم ومن تحت أرجلهم. والتعبير القرآني بعمومه وشموله يلقي ظلال الفيض الغامر، الذي لا ينحصر بما يعده البشر من الأرزاق والأقوات..

وأمام هذا النص - والنص الذي قبله - نقف أمام حقيقة من حقائق العقيدة وحقائق الحياة البشرية والكونية سواء. وأمام عامل من العوامل المؤثرة في تاريخ الإنسان، تغفل عنه المذاهب الوضعية وتغفله كل الإغفال. بل تكروه كل الإنكار!..

إن العقيدة الإيمانية في الله، وتقواه، ليست مسألة منعزلة عن واقع الحياة، وعن خط تاريخ الإنسان.

إن الإيمان بالله، وتقواه، ليؤهلاًن لفيض من برَكَاتِ السماء والأرض. وعدا من الله. ومن أوف بعهده من الله؟

ونحن - المؤمنين بالله - نتلقى هذا الوعد بقلب المؤمن، فنصدقه ابتداء، لا نسأل عن عللاته وأسبابه ولا نتردد لحظة في توقع مدلوله.. نحن نؤمن بالله - بالغيب - ونصدق بوعده مقتضى هذا الإيمان..

ثم ننظر إلى وعد الله نظرة التدبر - كما يأمرنا إيماناً كذلك - فنجد علته وسببيه! إن الإيمان بالله دليل على حيوية في الفطرة وسلامة في أجهزة الاستقبال الفطرية وصدق في الإدراك الإنساني، وحيوية في البنية البشرية، ورحابة في مجال الإحساس بحقائق الوجود.. وهذه كلها من مؤهلات النجاح في الحياة الواقعية.

والإيمان بالله قوة دافعة، تجمع جوانب الكينونة البشرية كلها، وتحجّه بها إلى وجهة واحدة، وتطلقها تستمد من قوة الله، وتعمل لتحقيق مشيئته في خلافة الأرض وعمرانها، وفي دفع الفساد والفتنة عنها، وفي ترقية الحياة ونمائها.. وهذه كذلك من مؤهلات النجاح في الحياة الواقعية. والإيمان بالله تحرر من العبودية للهوى ومن العبودية للعبيد. وما من شك أن الإنسان المتحرر بالعبودية لله، أقدر على الخلافة في الأرض خلافة راشدة صاعدة. من العبيد للهوى ولبعضهم بعضاً! وتقوى الله يقظة واعية تصون من الاندفاع والتهور والشطط والغرور، في دفعه الحركة ودفعه الحياة..

وتوجه الجهد البشري في حذر وتحرج، فلا يعتدي، ولا يتهور، ولا يتجاوز حدود النشاط الصالح.

وحيث تسير الحياة متناسقة بين الدوافع والكوابح، عاملة في الأرض، متطلعة إلى السماء، متحررة من الهوى والطغيان البشري، عابدة خاسعة لله.. تسير سيرة صالحة منتجة تستحق مدد الله بعد رضاه. فلا حرج تحفها البركة، ويعمها الخير، وينظفها الفلاح.. والمسألة - من هذا الجانب - مسألة واقع منظور - إلى جانب لطف الله المستور - واقع له عللها وأسبابه الظاهرة، إلى جانب قدر الله الغيبي الموعود..

والبركات التي يعد الله بها الذين يؤمنون ويتقون، في توكيده ويقين، ألوان شتى لا يفصلها النص ولا يحددتها.

وإيحاء النص القرآني يصور الفيض الماء الطاف من كل مكان، النابع من كل مكان، بلا تحديد ولا تفصيل ولا بيان. فهي البركات بكل أنواعها وألوانها، وبكل صورها وأشكالها، ما يعهده الناس وما يتخيّلونه، وما لم يتهيأ لهم في الواقع ولا خيال! والذين يتصرّرون بالإيمان بالله وتقواه مسألة تعبدية بحثة، لا صلة لها بواقع الناس في الأرض، لا يعرفون الإيمان ولا يعرفون

الحياة! وما أجرهم أن ينظروا هذه الصلة قائمة يشهد بها الله - سبحانه - وكفى بالله شهيدا. ويتحققها النظر بأسبابها التي يعرفها الناس: «وَلَوْاَنَّ أَهْلَ الْقُرْبَى آمَنُوا وَأَنَّقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخْدَنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ».. ولقد ينظر بعض الناس فيرى أمنا - يقولون: إنهم مسلمون - مضيقا عليهم في الرزق، لا يجدون إلا الجدب والمحق!.. ويرى أمنا لا يؤمنون ولا يتقوون، مفتوحا عليهم في الرزق والقوة والنفوذ.. فيتساءل: وأين إذن هي السنة التي لا تختلف؟

ولكن هذا وذلك وهم تخيله ظواهر الأحوال! إن أولئك الذين يقولون: إنهم مسلمون.. لا مؤمنون ولا متقوون! إنهم لا يخلصون عبوديتهم لله، ولا يتحققون في واقعهم شهادة أن لا إله إلا الله! إنهم يسلمون رقابهم لعبيد منهم، يتلذذون عليهم، ويشرعون لهم - سواء القوانين أو القيم والتقاليد - وما أولئك بالمؤمنين. فالمؤمن لا يدع عبدا من العبيد يتأنه عليه، ولا يجعل عبدا من العبيد ربه الذي يصرف حياته بشرعه وأمره.. ويوم كان أسلاف هؤلاء الذين يزعمون الإيمان مسلمين حقا. دانت لهم الدنيا، وفاضت عليهم بركات من السماء والأرض، وتحقق لهم وعد الله^{١٠}.

٢- أنها وسليمة في اختيار الله لها. إن العقيدة الإسلامية وسط بين الدين ينكرون كل ما وراء الطبيعة مما لم تصل إليه حواسهم، وبين الدين يثبتون للعالم أكثر من إله، والذين يحلون روح الإله في الملوك والحكام، بل وفي بعض الحيوانات والنباتات والجمادات؟!!.

فقد رفضت العقيدة الإسلامية الإنكار الملحّ، كما رفضت التعبد الجاهل والإشراك الغافل، وأثبتت للعالم إله واحدا لا شريك له. كما أنها وسط في الصفات الواجبة لله تعالى، فلم تسلك سبيلا الغلو في التجريد فتجعل صفات الإله صوراً ذهنية مجردة عن معنى قائم بذات لا توحى بخوف ولا رجاء، كما فعلت الفلسفة اليونانية، ولم تسلك كذلك سبيلا التشبيه والتمثيل والتحسّن كما فعلت بعض العقائد حيث جعلت الإله كأنه أحد المخلوقين يلتحقه ما يلتحقهم من نقص وعيوب. فالعقيدة الإسلامية تزه الله تعالى إجمالاً عن

^{١٠} -- في ظلال القرآن -- موافقا للمطبوع - (٣ / ١٣٣٨)

مشاهدة المخلوقين بقواعد مثل قوله تعالى: {..لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} (١١) سورة الشورى، وقوله تعالى: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ} (٤) سورة الإخلاص، وقوله تعالى: {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} (٦٥) سورة مریم.

ومع هذا تصفه بصفات إيجابية فعالة تبع الخوف والرجلاء في نفوس العباد كما في قوله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نُومٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْهُ إِلَّا يَأْذِنَهُ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمْ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} (٢٥٥) سورة البقرة .

ثم إنما وسط بين التسليم الساذج والتقليد الأعمى في العقائد، وبين الغلو والتغلب بالعقل لإدراك كل شيء حتى الألوهية. فهي تنهى عن التقليد الأعمى، حيث عاب الله على القائلين {بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءِنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ أَثَارِهِمْ مُهَتَّدُونَ} (٢٢) سورة الزخرف، وتنهى عن التغلب بالعقل لإدراك كيفية صفات الرب عز وجل فقال تعالى: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِعِلْمًا} (١١٠) سورة طه، وقال تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا} (٣٦) سورة الإسراء، وتدعوهم إلى التوسط والأخذ بالمدركات كوسائل قال تعالى: {وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوْقِنِينَ} (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) [الذاريات/ ٢٠، ٢١].

فليس فيها الغلو في التجريد الذي جعل صفات الإله مجرد سلوب لا تعطي معنى، ولا توحى بخوف أو رجاء — كما فعلت الفلسفة اليونانية — فكل ما وصفت به الإله أنه ليس بكلذا وليس بكلذا.. من غير أن تقول ما صفات هذا الإله الإيجابية؟ وما أثرها في هذا العالم؟ ويعقابل هذا أنها خلت من التشبيه والتجسيم الذي وقعت فيه عقائد أخرى كاليهودية، التي جعلت الخالق كأحد المخلوقين من الناس، ووصفته بالنوم والتعب والراحة، والتحيز والمحاباة

والقصوة... وجعلته يلتقي ببعض الأنبياء فيصارعه فيغلبه ويصرعه، فلم يتمكن الرب من الإفلات منه حتى أنعم عليه بلقب حديد!

وقال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطَا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِتَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقُلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} (١٤٣) سورة البقرة

إنما الأمة الوسط التي تشهد على الناس جميعاً، فتقيم بينهم العدل والقسط وتضع لهم الموازين والقيم وتبدي فيهم رأيها فيكون هو الرأي المعتمد وتزن قيمهم وتصوراهم وتقاليدهم وشعاراً مفترض في أمرها، وتقول: هذا حق منها وهذا باطل. لا التي تتلقى من الناس تصوراً لها وقيمة لها وموازينها. وهي شهيدة على الناس، وفي مقام الحكم العدل بينهم.. وبينما هي تشهد على الناس هكذا، فإنّ الرسول هو الذي يشهد عليها فيقرر لها موازينها وقيمةها ويحكم على أعمالها وتقاليدها ويزن ما يصدر عنها، ويقول فيه الكلمة الأخيرة..

وبهذا تتحدد حقيقة هذه الأمة ووظيفتها.. لتعرفها، ولتشعر بضخامتها. ولتقدر دورها حق قدره، وتستعد له استعداداً لائقاً..

وإنما للأمة الوسط بكل معانٍ الوسط سواء من الوساطة بمعنى الحسن والفضل، أو من الوسط بمعنى الاعتدال والقصد، أو من الوسط بمعنى المادي الحسي..

«أُمَّةً وَسَطَا».. في التصور والاعتقاد.. لا تغلو في التجدد الروحي ولا في الارتكاس المادي. إنما تتبع الفطرة المثلثة في روح متلبس بجسد، أو جسد متلبس به روح. وتعطي لهذا الكيان المزدوج الطاقات حقه المتكامل من كل زاد، وتعمل لترقية الحياة ورفعها في الوقت الذي تعمل فيه على حفظ الحياة وامتدادها، وتطلق كل نشاط في عالم الأشواق وعالم النوازع، بلا تفريط ولا إفراط، في قصد وتناسق واعتدال.

«أُمَّةً وَسَطَا».. في التفكير والشعور.. لا تحمد على ما علمت وتغلق منافذ التجربة والمعرفة.. ولا تتبع كذلك كل ناعق، وتقلد تقليد القردة المضحكة.. إنما تستمسك بما لديها

من تصورات ومناهج وأصول ثم تنظر في كل نتاج للفكر والتجريب وشعارها الدائم:الحقيقة ضالة المؤمن أى وجدتها أخذها،في ثبت وثيقين.

«أُمَّةٌ وَسَطًا»..في التنظيم والتنسيق..لا تدع الحياة كلها للمشاعر،والضمائر،ولا تدعها كذلك للتشريع والتأديب.إنما ترفع ضمائر البشر بالتجهيز والتهذيب،وتكتفى نظام المجتمع بالتشريع والتأديب وتزاوج بين هذه وتلك،فلا تكل الناس إلى سوط السلطان،ولا تكلهم كذلك إلى وحي الوجدان..ولكن مزاج من هذا وذاك.

«أُمَّةٌ وَسَطًا»..في الارتباطات وال العلاقات..لا تلغى شخصية الفرد و مقوماته،ولا تلاشى شخصيته في شخصية الجماعة أو الدولة ولا تطلقه كذلك فرداً أثراً جشعًا لا هم له إلا ذاته..إنما تطلق من الدوافع والطاقات ما يؤدي إلى الحركة والنمو وتطلق من النوازع والخصائص ما يحقق شخصية الفرد و كيانه.

ثم تضع من الكوابح ما يقف دون الغلو،ومن المنشطات ما يثير رغبة الفرد في خدمة الجماعة وتقرر من التكاليف والواجبات ما يجعل الفرد خادماً للجماعة،والجماعة كافلة للفرد في تناسق واتساق.

«أُمَّةٌ وَسَطًا»..في المكان..في سرة الأرض،وفي أوسط بقاعها.وما تزال هذه الأمة التي غمر أرضها الإسلام إلى هذه اللحظة هي الأمة التي تتوسط أقطار الأرض بين شرق وغرب،وجنوب وشمال،وما تزال موقعها هذا تشهد الناس جميراً،وتشهد على الناس جميراً وتعطي ما عندها لأهل الأرض قاطبة وعن طريقها تعبير ثمار الطبيعة وثمار الروح والفكر من هنا إلى هناك وتحكم في هذه الحركة ماديتها و معنوتها على السواء.

«أُمَّةٌ وَسَطًا»..في الزمان..تنهي عهد طفولة البشرية من قبلها وتحرس عهد الرشد العقلي من بعدها.

وتقف في الوسط تنفض عن البشرية ما علق بها من أوهام وخرافات من عهد طفولتها وتصدّها عن الفتنة بالعقل والهوى وتزاوج بين تراثها الروحي من عهود الرسالات،ورصيدها العقلي المستمر في النماء وتسير بها على الصراط السوي بين هذا وذاك.

وما يعوق هذه الأمة اليوم عن أن تأخذ مكانها هذا الذي وحبه الله لها، إلا أنها تخلت عن منهج الله الذي اختاره لها، واتخذت لها مناهج مختلفة ليست هي التي اختارها الله لها، واصطبغت بصيغات شتى ليست صبغة الله واحدة منها! والله يريد لها أن تصطبغ بصبغته وحدها.

وأمة تلك وظيفتها، وذلك دورها، خليةة بأن تحتمل التبعية وتبذل التضحية، فللقيادة تكاليفها، وللقومية تبعاتها، ولا بد أن تفتن قبل ذلك وتبتل، ليتأكد خلوصها لله وجردتها، واستعدادها للطاعة المطلقة للقيادة الراشدة^{١١}.

٣- أنها إيجابية في نظرها للكون والإنسان والحياة .

ميزات التصور الإسلامي عن الإنسان والكون والحياة :

أ- وضوح الأفكار التي يبني عليها نظام حياة المسلم

ب- منطقية هذه المعتقدات ومعقوليتها وملاءمتها للفطرة.

ج - تمتاز المعتقدات الإسلامية بعرضها عرضا مقنعا إذ يستنبطها القرآن من لفت الأنظار إلى الواقع المحسوس.

د - لوتساءل إنسان عن اتخاذ القرآن الأسلوب الاستجوابي الحسي العاطفي لقلنا أنه يريد أن تتحول المعرفة إلى حركة فكرية وعاطفية ثم إلى قوة دافعة لتحقيق مدلولها في عالم الواقع.

ما زال الإنسان منذ وجوده على البساطة مأخوذاً بسوء الفهم لنفسه يميل إلى جانب الإفراط حينا قال تعالى: {مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي } (٣٨) سورة القصص. وإلى جانب التفريط حينا آخر فيظن أنه أرذل كائن في الكون فيحيى رأسه أمام شجر أو شمس أو بقر، فيبين الإسلام الإنسان على حقيقته وبين أصله، وميزاته وما فضل به ومهنته في الحياة وعلاقته بالكون.

^{١١} - في ظلال القرآن - موافقاً للمطبوع - (١٣٠ / ١)

أولاً: نظرة الاسلام إلى الانسان ترجع حقيقة الانسان إلى أصلين: الأصل البعيد: الخلقة الأولى من طين، الأصل القريب: خلقه من نطفة، قال تعالى: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَا خَلْقَ الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ} (٧) ثُمَّ جَعَلَ تَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوْحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٩) } [السجدة: ٧ - ١٠].

ولفت القرآن، نظر الإنسان إلى حقاره ذلك الماء الذي خلق منه في رحم أمه قال تعالى: {فَلَيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ} (٥) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (٦) } [الطارق: ٦، ٥] ليندد بغطرسة الإنسان ويهذب كبرياته فيجعله متواضعاً واقعياً في حياته ثم بين له عناية الله في ظلمات الرحم حينما أنشأه حينما ورباه حتى أتم خلقه قال تعالى: {خَلَقْتُمُ مَنْ تَفْسِي وَاحِدَةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةً أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَمَّا إِلَهٌ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرِفُونَ} (٦) سورة الزمر. فين حقيقة الإنسان وأصل خلقته

ثانياً - الإنسان مخلوق مكرم :

بين الإسلام للنوع البشري أنه ليس من الذلة والمهانة في درجة يتساوى فيها مع الحيوان وسائر المخلوقات قال تعالى: {وَلَقَدْ كَرَمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيَّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا} (٧٠) سورة الإسراء. فقد رزق الله الإنسان قدرة جعله بها يسيطر على ماحوله من الكائنات وسخرها الله له فمنعه أن يذل نفسه لشيء منها .

ثالثاً - الإنسان مميز مختار :

وهذا مما كرم الله به الإنسان أن جعله قادر على التمييز بين الخير والشر وأعطاء الارادة يستطيع أن يختار بين الطرق المؤدية للخير والشر قال تعالى: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا} (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠) } [الشمس: ٧ - ١٠]

رابعاً - وما كرم الله به الإنسان وفضله :

* القدرة على التعلم والمعرفة قال تعالى: { أَقْرُأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلِمَ بِالْقَلْمِ (٤) عَلِمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) } [العلق: ٣ - ٥]

* تزويده بأدوات القدرة على التعلم قال تعالى: { وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْقَادَ لِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } (٧٨) سورة النحل

* وأيضاً من هذه الأدوات اللسان والقدرة على البيان قال تعالى: { أَلَمْ تَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) } [البلد: ٨ - ١٠]

وقال: { عَلِمَ الْبَيَانَ } (٤) سورة الرحمن

* وأهم أهداف التفكير والتعلم عند الإنسان أن يتعلموا شريعة الله وأيضاً التفكير في خلق السماوات والأرض وفي أنفسهم قال تعالى: { وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ } (٢١) سورة الذاريات

خامسًا— مسؤولية الإنسان وجزاؤه :

عندما كرم الإسلام الإنسان وفضله وميزه على الكائنات حمله مسؤولية تطبيق الشريعة وتحقيق العبادة لله قال تعالى: { إِنَّا عَرَضْنَا الْأُمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَيْنَ أَنْ يَحْمِلُنَّهَا وَأَشْفَقْنَاهُمْ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا } (٧٢) سورة الأحزاب

وعندما جعل له الحرية والإرادة والقدرة جعله مجزياً بما اختار قال تعالى: { فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) } سورة الزلزلة

وعن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: " لَا تَزُولُ قَدْمُ عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ، وَعَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ، وَفِيمَا أَنْفَقَهُ " ١٢١ .

سادسًا— المهمة العليا للإنسان، عبادة الله، وجماع كل هذه المسؤوليات إخلاص العبادة لله وحده قال تعالى: { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ } (٥٦) سورة الذاريات

١٢ - معرفة الصحابة لأبي نعيم - (٤ / ٢١٠٥) (٥٢٩٢) صحيح لغيره

وَتَنَازَ نَظَرَةُ الْإِسْلَامِ لِلْكَوْنِ بِأَنَّهَا تَعْمَلُ عَلَى تَحْرِيكِ عَوَاطِفِ الْإِنْسَانِ وَشَعُورِهِ بِعَظَمَةِ اللَّهِ
وَصَغْرِهِ أَمَامَهُ إِضَافَةً إِلَى الْبَرَاهِينِ الْعُقْلِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ
أَوْلًَا— الْكَوْنُ كُلُّهُ مُخْلُوقٌ لِلَّهِ خَلْقَهُ لِهُدُفُونَ وَغَایَةٍ، قَالَ تَعَالَى : {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ
وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ} (٦) مَا خَلَقْنَا هُمْ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} (٣٩) سُورَةُ
الْدُخَانِ

أَمَّا تَحْرِيكِ الْعَوَاطِفِ فِي الْأَسْتِفَهَامِ وَالْحَضُورِ عَلَى الْعِبَادَةِ قَالَ تَعَالَى : {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ
قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوَيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا
يُشْرِكُونَ} (٦٧) سُورَةُ الْزَّمَرِ.

ثَانِيًّا — خَضُوعُ الْكَوْنِ لِسُنْنَتِهِ الْمُنْهَاجِ وَفَقْدَانُ أَقْدَارِ قَدْرِهِ الْمُنْهَاجِ قَالَ تَعَالَى : { وَآتَيْنَا لَهُمُ اللَّيْلَ
سَلْخًا مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلَمُونَ} (٣٧) وَالشَّمْسُ تَحْرِي لِمُسْتَقْرَرٍ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ
الْعَلِيِّ (٣٨) وَالْقَمَرُ قَدَرَنَا هُمْ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا
أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرُ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} (٤٠) { [يَسٌ: ٣٧ -

[٤٠]

وَقَالَ : {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آتِيَّنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَتَبَعُّونَ
فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُو عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَلَنَاهُ تَفْصِيلًا} (١٢) سُورَةُ الْإِسْرَاءِ

فَيَتَضَعَّفُ مِنَ الْآيَةِ الْأُولَى أَنْ جَمِيعَ الْخَلَائِقَ مُقْدَرَةٌ مَعِيشَتِهَا، كَمَا يَتَضَعَّفُ مِنَ الْآيَةِ الثَّانِيَّةِ أَنْ
مَا تَوَصِّلُ إِلَيْهِ الْعِلْمُ فِي الْرِّيَاضِيَّاتِ كُلُّ ذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى مَا تَعْلَمَهُ الْإِنْسَانُ مِنْ عَدْدِ الْأَيَّامِ
وَالسِّنِينِ .

ثَالِثًا — الْكَوْنُ مُسِيرٌ مُدْبِرٌ دَائِمًا بِقُدْرَةِ اللَّهِ، قَالَ تَعَالَى : {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي
الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَحْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقْعُ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ
اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} (٦٥) سُورَةُ الْحِجَّةِ

والإنسان جزء من هذا الكون واقع عليه ما قدره الله تعالى: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ} (٦١) سورة الأنعام.

رابعاً - وكذلك الإنسان قد رتب الله سنتنا اجتماعية لحياته، فأرسل على أساسها الرسل وعذب الأمم وأهلك بعضها وغير أحواها قال تعالى: {قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سِنْنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} (١٣٧) سورة آل عمران خامساً - ومن الفقرتين السابقتين يتضح معنا أن كل ما في الكون خاضع لله ولتدبره ولأمره وإرادته ومشيئته قال تعالى: {سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مَنْ شَيْءٌ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا يَنْفَقُهُنَّ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} (٤٤) سورة الإسراء.

سادساً - كثير ما في الكون مسخر للإنسان زاخر بالنعم، لذا فإن الدين الإسلامي يتميز بأن الإنسان يستخدم ما حوله من كائنات في سبيل مصلحته قال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} (٢٩) سورة البقرة

ونجد لذلك أثر تربوي: أن هذه الآية وأمثالها كثیر ترقق قلب الإنسان وتربي عواطفه وانفعالاته على الخشوع لله وتربي العقل على مبدأ علمي هذا من الناحية العلمية والاجتماعية والحضارية، أما من الناحية التربوية فقد ربانا الله على عدم التعدي في استخدام ماحولنا في هذا الكون .

وأما نظرة الإسلام إلى الحياة فيقوم على الأسس التالية :

أولاً - مبدأ الحياة وكيف جعلها الله دار اختيار وامتحان

إن الإسلام نظر إلى الحياة نظرة حدية ملؤها الشعور بالمسؤولية فرأينا أن للحياة مبدأين :

أولهما: خلق آدم من طين ثم سواه ونفخ فيه من روحه وأسجد الملائكة له قال تعالى: {فَسَاجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ} (٣٠) سورة الحجر

ولقد ميز الله البشرية منذ خلقها بميزتين: ١— العلم والعقل، والإرادة والاختيار، والتمييز بين الخير والشر ٢— أنه مخلوق من طين ثم من دم ولحm، قال تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا} (٢٨) سورة النساء، وقال: {بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} (١٦) سورة الأعلى

وقال: {وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّيْرِ (٣)} سورة العصر .

ولكي ندرك كمال التصور القرآني للنفس والكون والحياة فتأمل وصف القرآن للحياة، فجعلها دار امتحان يمر بها ليصل إلى الدار الباقية .

ثانياً— وصف القرآن للحياة الدنيا

إن الدنيا متعة مؤقت فلا يغتر العبد بها وينسى المدف الذي خلق من أجله قال تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ}

(٨٦) سورة البقرة

هناك عدة صفات للحياة الدنيا وعلاقتها بالإنسان :

أ— متعة مؤقت ومكان عبور

ب— مملوءة بالزينة والزخرف والشهوات

ج— يجوز لل المسلم بل يحق له التمتع بالحياة الدنيا وزينتها في حدود الشرع

د— الدنيا عالم له قوانينه الاجتماعية والبشرية التي سنها الله بين الأمم

ه— الحياة الدنيا قصيرة الأمد قال تعالى: {يَتَخَافَّوْنَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثُمْ إِلَّا عَشِيرًا} (١٠٣) سورة طه

والحياة الدنيا دار تعب وكدح وجد قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ} (٦) سورة الإنسان

ز— المؤمنون ينصرهم الله في الدنيا والآخرة قال تعالى: {إِنَّا لَنَصْرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} (٥١) سورة غافر

ح — الحياة الدنيا دار لعب ولهو وتفاخر وتکاثر قال تعالى: {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعْبٌ وَلَهُوَ زِينَةٌ وَنَفَّاخُرٌ بَيْنُكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأُوْلَادِ كَمَثَلٍ غَيْثٌ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بِنَائِهِ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} (٢٠) سورة الحديد
٤- **أَنَّهَا وَاقِعَةٌ** حين تعامل مع الفرد والمجتمع .

المراد بالواقعية في شريعة الإسلام أنها تراعي واقع الحياة التي يعيش فيها الإنسان، فالشرع في الإسلام ملائمة لفطرة الإنسان وواقعه وحياته، وهذا فهي الشريعة القادرة على إسعاد البشرية كلها.

فكل عقائد الإسلام ليس فيها شيء غير واقعي، فالإيمان لابد أن يكون بإله واحد لا شريك له حتى تجتمع حواس الإنسان وإرادته وتكون كلها لله سبحانه.

والإيمان في شريعة الإسلام عقيدة واقعية، فالمؤمن لا يحكم بإيمانه إلا إذا قام بالعمل واجتهد، فالإيمان قول واعتقاد وعمل. والرسول في عقيدة الإسلام بشر يأكل الطعام ويعيش في الأسواق. والقرآن كلام الله المترد على رسوله المتبع بتلاوته، وحرروفه وألفاظه من الله تعالى. فليس في شريعة الإسلام وعقائده ما يستغرب أو ما هو مثالي لا يمكن أن يتلائم مع واقع البشرية.

إن الأديان والفلسفات الوضعية والديانات المحرفة لم تكن واقعية، لأنها لم تلب حاجات البشرية ولم تسعدها، والواقع يشهد بذلك. لقد جاء الإسلام بعبادات واقعية. لأنه عرف ظماء الجانب الروحي في الإنسان إلى الاتصال بالله، ففرض عليه من العبادات ما يروي ظماء ويشبع نهمه ويملا فراغ نفسه. فقد قضى الله أن في الإنسان جوعة لا يسدتها إلا الإيمان بالله والصلة به. {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} (١٤) سورة الملكي سبحانه.

ومع هذا لم يشرع له عبادات فوق طاقته، بل جعلها ميسرة سهلة، قال عز وجل:

{وَجَاهَدُوا فِي اللَّهِ حَقًّا جَهَادَهُ هُوَ جَهَادُهُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مُّلَّةٌ أَيْكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّا كُمُّ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ

وَكُوُّلُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَأَتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَانَا كُمْ فَسِعْمَ
الْمَوْلَى وَنَعْمَ النَّصِيرُ} (٧٨) سورة الحج.

ومن واقعية الإسلام أن جعل محفزات ومرغبات للعمل الصالح، ومرهبات ومنغرات عن العمل السيء، لأن الإنسان بفطرته وطبيعته لا يحرّكه إلى الخير ولا يبعده عن الشر إلا شوق يحفزه ويدفعه، أو خشية تحجزه وتنعه، وليس كالشوق إلى مثوبة الله وحنته والنظر إلى وجهه حافر، ولا كالخوف من عذابه وبطشه وانتقامه حاجز ومانع.

ومن واقعية شريعة الإسلام أنها لم تحرم على الإنسان شيئاً هو في حاجته، وكذلك لم تبح له شيئاً يعود عليه بالضرر، قال عز وجل: {يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتُكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ
وَكُلُوا وَاشْرُبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} (٣١) {قُلْ مَنْ حَرَمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي
أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيَّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
كَذَلِكَ تُفَاصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} (٣٢) سورة الأعراف.

ومن واقعية شريعة الإسلام أنها أقرت بأن الإنسان مفظور على الميل إلى اللهو والمرح والترويح عن النفس، ففضّلت ووجهت تلك الغريزة، ولم تمنعها وتنكّتها، بل هذبّتها، فأباحت كلّهوليس فيه محظوظ وصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وحرّمت ما اشتمل على ضد ذلك، كالغناء بآلات اللهو والطرب والموسيقى والكلام الفاحش البذيء، وأباحت الشعر والإنشاد بالدف وبالكلام المباح.

فَعَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ أَبَا بَكْرَ دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا جَارِيَتَانِ فِي أَيَّامِ مِنِّي ٌغَيْانِ، وَرَسُولُ اللَّهِ ٌصَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
مُسَحَّى بِشَوْبِهِ، فَأَنْتَهَرَهُمَا أَبُوبَكْرُ، فَكَشَفَ رَسُولُ اللَّهِ ٌصَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْهُ وَقَالَ: دَعْهُمَا يَا أَبَا بَكْرِ،
فَإِنَّهَا أَيَّامُ عِيدٍ، قَالَتْ: وَرَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ٌصَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَرُنِي بِرِدَائِهِ، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَى الْحَبَشَةِ، وَهُمْ
يَلْعَبُونَ وَأَنَا جَارِيَةٌ، فَاقْدُرُوا قَدْرَ الْجَارِيَةِ الْعَرِبِيَّةِ الْحَدِيثَةِ السَّنَنِ^{١٣}.

^{١٣} - صحيح البخاري- المكتـ - (٩٨٧) وصحيح مسلم- المكتـ - (٢١٠٠) وصحيح ابن حبان - ط الرسـلة - (٥٨٦٨) / (١٧٧) / (١٣)

المسجى : المغطى - العربية : المشتهية للعب الحريصة عليه

وعن عائشة، أن أبا بكر، دخل عليهما وعندما حاربتان ثغريان بدفرين، وتعنيان في آياتهما، ورسول الله ﷺ مُستتر بشوبه، فانتهرا هما أبو بكر، فكشف رسول الله ﷺ ثوبه وقال: دعهما يا أبا بكر، فإنها أيام عيد، قالت عائشة: ولما قدم وقد الحبسة على رسول الله ﷺ قاموا يلعبون في المسجد، فرأيت رسول الله ﷺ يسترني بردائه، وأنا أنظر إليهم وهم يلعبون في المسجد حتى أكون أنا الذي أسام، فاقرروا قدر الحاربة الحديثة السن الحرية على الله.

قال الزهرى: وأخبارى سعيد بن المسيب، أن أبا هريرة قال: دخل عمر، والحبسة يلعبون في المسجد، فرجراهم عمر، فقال رسول الله ﷺ: دعهم يا عمر، فإنهم هم بتوارفدهة.^{١٤} وقالت عائشة: قال رسول الله ﷺ يومئذ: لتعلم يهود أن في ديننا فسحة، إني أرسلت بحنيفية سمح.^{١٥}

٥- أنها أخلاقية في وسائلها وغايتها.

فهي تأمر أهلها بكل خير، وتنهاهم عن كل شر، فتأمرهم بالعدل والاعتدال، وتنهاهم عن الظلم والانحراف، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَا عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعْظُمُ لَعْلَكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النحل: ٩٠]

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَأْمُرُ فِي كِتَابِهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ - ﷺ - بِالْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ، وَيَنْهَا إِلَى الْإِحْسَانِ وَالْفَضْلِ، وَيَأْمُرُ بِصَلَةِ الرَّحْمَنِ وَإِعْطَاءِ ذُوِيِّ الْقُرْبَىٰ مَا هُمْ بِحَاجَةٍ إِلَيْهِ، وَيَنْهَا عَنِ ارْتِكَابِ الْمُحَرَّمَاتِ وَالْمُنْكَرَاتِ وَالْفَوَاحِشِ، مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، مَمَّا يَأْتِيهِ الْعَبْدُ سَرَّاً وَخَفْيَةً وَاللَّهُ تَعَالَى إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالْخَيْرِ، وَيَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالشَّرِّ، لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ مَا أَوْدَعَهُ اللَّهُ فِي الْفِطْرَةِ مِنْ وَحْيٍ قَوِيمٍ أَصِيلٍ، فَتَعْمَلُوا بِمُقْتَضَاهُ.

لقد جاء هذا الكتاب لينسىء أمة وينظم مجتمعا، ثم لينسىء عالما ويفهم نظاما. جاء دعوة عالمية إنسانية لا تعصب فيها لقبيلة أو أمة أو جنس إنما العقيدة وحدتها هي الأصرة والرابطة والقومية والعصبية.

^{١٤} - صحيح ابن حبان - ط الرسالة - (١٨٦ / ١٣) (٥٨٧٦) صحيح

^{١٥} - مسند أحمد (علم الكتاب) - (٨ / ٢٠٢) (٢٤٨٥٥) - ٢٥٣٦٧ صحيح

ومن ثم جاء بالمبادئ التي تكفل تماسك الجماعة والجماعات، واطمئنان الأفراد والأمم والشعوب، والثقة بالمعاملات والوعود والعقود:

جاء «بِالْعَدْلِ» الذي يكفل لكل فرد ولكل جماعة ولكل قوم قاعدة ثابتة للتعامل، لا تميل مع الهوى، ولا تتأثر باللود والبغض، ولا تتبدل بمحارة للصهر والنسب، والغنى والفقير، والقوية والضعف. إنما تمضي في طريقها تكيل بعكيل واحد للجميع، وتزن بميزان واحد للجميع. وإلى جوار العدل.. «الإِحْسَانِ».. يلطف من حدة العدل الصارم الحازم، ويُدْعِي الباب مفتوحاً لمن يريد أن يتسامح في بعض حقه إيثاراً لود القلوب، وشفاء لغل الصدور. ولمن يريد أن ينهض بما فوق العدل الواجب عليه ليداوي جرحاً أو يكسب فضلاً.

والإحسان أوسع مدلولاً، فكل عمل طيب إحسان، والأمر بالإحسان يشمل كل عمل وكل تعامل، فيشمل محيط الحياة كلها في علاقات العبد بربه، وعلاقاته بأسرته، وعلاقاته بالجماعة، وعلاقاته بالبشرية جمِيعاً.

ومن الإحسان «إِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىِ» إنما يبرز الأمر به تعظيمًا لشأنه، وتوكيده عليه. وما يبين هذا على عصبية الأسرة، إنما يبينه على مبدأ التكافل الذي يتدرج به الإسلام من المحيط المحلي إلى المحيط العام. وفق نظريته التنظيمية لهذا التكافل.

«وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ».. والفحشاء كل أمر يفحش أي يتجاوز الحد. ومنه ما خصص به غالباً وهو فاحشة الاعتداء على العرض، لأنَّه فعل فاحش فيه اعتداء وفيه تجاوز للحد حتى ليدل على الفحشاء ويختص بها. والمنكر كل فعل تناكره الفطرة ومن ثم تناكره الشريعة فهي شريعة الفطرة. وقد تنحرف الفطرة أحياناً فتبقى الشريعة ثابتة تشير إلى أصل الفطرة قبل انحرافها. والبغى الظلم وتجاوز الحق والعدل.

وما من مجتمع يمكن أن يقوم على الفحشاء والمنكر والبغى. ما من مجتمع تشيع فيه الفاحشة بكل مدلولاً لها، والمنكر بكل مغراته، والبغى بكل معقباته، ثم يقوم..

والفطرة البشرية تنتفض بعد فترة معينة ضد هذه العوامل المدamaة، مهما تبلغ قوتها، ومهما يستخدم الطغاة من الوسائل لحمايتها. وتاريخ البشرية كلها انتفاضات وانتفاضات ضد الفحشاء والمنكر والبغى. فلا يهم أن تقوم عهود وأن تقوم دول عليها حيناً من

الدهر، فالانتقاد عليها دليل على أنها عناصر غريبة على جسم الحياة، فهي تنافض لطردها، كما ينافض الحي ضد أي جسم غريب يدخل إليه. وأمر الله بالعدل والإحسان ونفيه عن الفحشاء والمنكر والبغى يوافق الفطرة السليمة الصحيحة، ويقويها ويدفعها للمقاومة باسم الله. لذلك يحيى التعقيب: «يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» فهي عظة للتذكرة تذكرة وحي الفطرة الأصيل القويم^{١٦}.

٦- أنها شمولية في منهاجها .

شمول جميع حاجات الفرد، في قلبه وعاطفته وأحاسيسه وفي مشاعره وجوارحه وفي متطلبات حياته الفردية والأسرية والاجتماعية والعالمية، فهي شاملة لكل ما يحتاجه أو مما يحقق السعادة للناس في الدنيا والآخرة.

إن هذه العقيدة تشمل الإنسان كله، جسمه وعقله وروحه، كما تشمل سلوكه وفكره ومشاعره، كما تشمل دنياه وآخرته.

ليس في كيان الإنسان ولا في حياته شيء لا يتصل بهذه العقيدة ولا تتصل العقيدة به. إنما تصاحبه في كل لحظة من لحظات حياته، وفي كل عمل يعمله، أو فكر يفكّر، أو شعور يختلّ في ضميره.

ويتضح لنا الشمول في مجالات متعددة، وعلى محاور مختلفة، تلتقي كلها في النهاية:

ا- ففي مجال الاعتقاد تشمل - كما رأينا - الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والنبين والكتب السماوية والقدر خيره وشره.

ب- وفي مجال العمل تشمل العمل للدنيا والعمل للآخرة في ذات الوقت.

ت- وفي مجال الكائن البشري تشمل حركة جسمه وتفكير عقله وانطلاقه روحه.

ث- وفي مجال المجموع البشري تشمل الفرد والجماعة والأمة والدولة في ذات الوقت.

^{١٦} - في ظلال القرآن - موافقاً للمطبوع - (٤ / ٢١٩٠)

ج- وفي مجال العلاقات تشمل علاقة الإنسان بربه وعلاقته بنفسه وعلاقته بغيره (في داخل الأسرة وفي داخل المجتمع وفيما بين المسلمين وغير المسلمين، وفيما بين الإنسان والكون كذلك !).

ولن توجد دائرة أوسع من هذه ولا أشمل. لأن هذه تشمل كل شيء في الوجود ! ^{١٧} .
 فهي عامة، شاملة، صالحة لكل زمان ومكان، وحال، وأمة. بل إن الحياة لا تستقيم إلا بها. قال تعالى: { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَّتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيَتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا .. }
(٢) سورة المائدة

إن قول الله سبحانه وتعالى في هذه الآية: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَّتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيَتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا» .. يتضمن توحيد المصدر الذي تتلقى منه هذه الأمة منهجه حيالها ونظام مجتمعها، وشرياع ارتباطها ومصالحها إلى يوم القيمة، كما يتضمن استقرار هذا الدين بكل جزئياته الاعتقادية والتبعيدية والتشريعية فلا تعديل فيها ولا تغيير فقد اكتمل هذا الدين وتم وانتهى أمره. وتعديل شيء فيه كإنكاره كله لأنه إنكار لما قرره الله من تمامه وكماله وهذا الإنكار هو الكفر الذي لا جدال فيه.. أما العدول عنه كله إلى منهجه آخر، ونظام آخر، وشريعة أخرى فلا يحتاج منا إلى وصف، فقد وصفه الله - سبحانه - في السورة. ولا زيادة بعد وصف الله - سبحانه - لمستزيد..

إن هذه الآية تقرر - بما لا مجال للجدال فيه - أنه دين خالد، وشريعة خالدة. وأن هذه الصورة التي رضي بها الله للمسلمين دينا هي الصورة الأخيرة.. إنها شريعة ذلك الزمان وشريعة كل زمان وليس لكل زمان شريعة، ولا لكل عصر دين.. إنما هي الرسالة الأخيرة للبشر، قد اكتملت وتمت، ورضي بها الله للناس دينا.

فمن شاء أن يبدل، أو يحور، أو يغير، أو يطهور! إلى آخر هذه التعبيرات التي تلوك في هذا الزمان، فليبيتغ غير الإسلام دينا.. «وَمَنْ يَتَنَعَّمْ بِغَيْرِ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ».

^{١٧} - ركائز الإيمان للعلامة محمد قطب بتحقيق (ص ٤٢٢)

إن هذا المنهج الإلهي المشتمل على التصور الاعتقادي، والشعائر التعبدية، والشرايع المنظمة لنشاط الحياة كله يحكم ويصرف ويهيمن على نشاط الحياة كله وهو يسمح للحياة بأن تنمو في إطاره وترتقي وتطور دون خروج على أصل فيه ولا فرع، لأنه لهذا جاء، وهذا كان آخر رسالة للبشر أجمعين..

إن تطور الحياة في ظل هذا المنهج لا يعني مخالفتها أو إهمالها لأصل فيه ولا فرع ولكن يعني أن طبيعة المنهج تحتوي كل الإمكانيات التي تسع ذلك التطور بلا خروج على أصل أو فرع، يعني أن كل تطور في الحياة كان محسوباً حسابه في ذلك المنهج لأن الله - سبحانه - لم يكن يخفي عليه - وهو يوضع هذا المنهج في صورته الأخيرة، ويلعن إكماله وارتضاءه للناس دينا - أن هناك تطورات ستقمع، وأن هناك حاجات ستتبرز، وأن هناك مقتضيات ستتطلبها هذه التطورات وال حاجات. فلا بد إذن أن يكون هذا المنهج قد احتوى هذه المقتضيات جمِيعاً.^{١٨}.

ويقف المؤمن أمام هذه الكلمات الهائلة فلا يكاد ينتهي من استعراض ما تحمله في ثناياها من حقائق كبيرة، وتجيئها عميقه، ومقتضيات وتكليف..

إن المؤمن يقف أولاً: أمام إكمال هذا الدين يستعرض موكب الإيمان، وموكب الرسالات، وموكب الرسل، منذ فجر البشرية، ومنذ أول رسول - آدم عليه السلام - إلى هذه الرسالة الأخيرة. رسالة النبي الأمي إلى البشر أجمعين.. فماذا يرى؟.. يرى هذا الموكب المطابق المتواصل. موكب الهدى والنور. ويرى معالم الطريق، على طول الطريق. ولكنه يجد كل رسول - قبل خاتم النبيين - إنما أرسل لقومه. ويرى كل رسالة - قبل الرسالة الأخيرة - إنما جاءت لمرحلة من الزمان.. رسالة خاصة، لجامعة خاصة، في بيئه خاصة.. ومن ثم كانت كل تلك الرسالات محكومة بظروفها هذه متكيفة بهذه الظروف.. كلها تدعى إلى إله واحد - وهذا هو التوحيد - وكلها تدعى إلى عبودية واحدة لهذا إله الواحد - وهذا هو الدين - وكلها تدعى إلى التلقي عن هذا إله الواحد والطاعة لهذا إله الواحد - وهذا

^{١٨} - في ظلال القرآن - موافقاً للمطبوع - (٢ / ٨٣٣)

هو الإسلام - ولكن لكل منها شريعة للحياة الواقعية تناسب حالة الجماعة وحالة البيئة وحالة الزمان والظروف ..

حتى إذا أراد الله أن يختتم رسالته إلى البشر أرسل إلى الناس كافة، رسولاً خاتم النبئين برسالة «لِلإِنْسَانِ» لا بمحومعة من الأناسي في بيئه خاصة، في زمان خاص، في ظروف خاصة.. رسالة تناطح «لِلإِنْسَانِ» من وراء الظروف والبيئات والأزمات لأنها تناطح فطرة الإنسان التي لا تتبدل ولا تتحور ولا ينالها التغيير:

«فَطَرَ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيْمُ».. وفصل في هذه الرسالة شريعة تتناول حياة «لِلإِنْسَانِ» من جميع أطراها، وفي كل جوانب نشاطها وتضع لها المبادئ الكلية والقواعد الأساسية فيما يتطور فيها ويتحور بتغير الزمان والمكان وتضع لها الأحكام التفصيلية والقوانين الجزئية فيما لا يتتطور ولا يتحور بتغير الزمان والمكان.. وكذلك كانت هذه الشريعة بمبادئها الكلية وأحكامها التفصيلية محتوية كل ما تحتاج إليه حياة «لِلإِنْسَانِ» منذ تلك الرسالة إلى آخر الزمان من ضوابط وتجهيزات وتشريعات وتنظيمات، لكي تستمر، وتنمو، وتتطور، وتتجدد حول هذا المhor وداخل هذا الإطار.. وقال الله - سبحانه - للذين آمنوا: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَنَّمَّتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي. وَرَضِيَتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا»..

فأعلن لهم إكمال العقيدة، وإكمال الشريعة معاً.. فهذا هو الدين.. ولم يعد للمؤمن أن يتصور أن بهذا الدين - بمعناه هذا - نقصاً يستدعي الإكمال.. ولا قصوراً يستدعي الإضافة.. ولا محلية أو زمانية تستدعي التطوير أو التحوير.. وإنما هو مؤمن وما هو مقر بصدق الله وما هو مفترض ما ارتضاه الله للمؤمنين! إن شريعة ذلك الزمان الذي نزل فيه القرآن، هي شريعة كل زمان، لأنها - بشهادة الله - شريعة الدين الذي جاء «لِلإِنْسَانِ» في كل زمان وفي كل مكان لا لجماعة من بين الإنسان، في جيل من الأجيال، في مكان من الأمكنة، كما كانت تجليء الرسل والرسالات.

الأحكام التفصيلية جاءت لتبقى كما هي.. والمبادئ الكلية جاءت لتكون هي الإطار الذي تنمو في داخله الحياة البشرية إلى آخر الزمان دون أن تخرج عليه، إلا أن تخرج من إطار

الإيمان! والله الذي خلق «الإنسان» ويعلم من خلق هو الذي رضي له هذا الدين المحتوى على هذه الشريعة.

فلا يقول: إن شريعة الأمس ليست شريعة اليوم، إلا رجل يزعم لنفسه أنه أعلم من الله بحاجات الإنسان وبأطوار الإنسان! ويقف المؤمن ثانياً: أمم إتمام نعمة الله على المؤمنين، بـأكمال هذا الدين وهي النعمة التامة الضخمة الهائلة.

النعمة التي تمثل مولد «الإنسان» في الحقيقة، كما تمثل نشأته واكتماله. «فالإنسان» لا وجود له قبل أن يعرف إلهه كما يعرفه هذا الدين له. وقبل أن يعرف الوجود الذي يعيش فيه كما يعرفه له هذا الدين. وقبل أن يعرف نفسه ودوره في هذا الوجود وكرامته على ربه، كما يعرف ذلك كله من دينه الذي رضي له ربه.

و«الإنسان» لا وجود له قبل أن يتحرر من عبادة العبيد بعبادة الله وحده وقبل أن ينال المساواة الحقيقية بأن تكون شريعته من صنع الله وبسلطانه لا من صنع أحد ولا بسلطانه. إن معرفة «الإنسان» بهذه الحقائق الكبرى كما صورها هذا الدين هي بدء مولد «الإنسان».. إنه بدون هذه المعرفة على هذا المستوى يمكن أن يكون «حيواناً» أو أن يكون «مشروع إنسان» في طريقه إلى التكوين! ولكنه لا يكون «الإنسان» في أكمل صورة للإنسان، إلا بـمعرفـة هذه الحقائق الكبيرة كما صورها القرآن..

والمسافة بعيدة بين هذه الصورة، وسائر الصور التي اصطنعها البشر في كل زمان! وإن تحقيق هذه الصورة في الحياة الإنسانية، هو الذي يحقق «الإنسان» «إنسانيته» كاملة.. يتحققـها له وهو يخرجـه بالتصور الاعتقادي، في الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، من دائرة الحس الحيواني الذي لا يدرك إلا المحسوسات، إلى دائرة «التصور» الإنساني، الذي يدرك المحسوسات وما وراء المحسوسات.

عالم الشهادة وعالم الغيب.. عالم المادة وعالم ما وراء المادة.. وينقذه من ضيق الحس الحيواني المحدود!

ويتحققها له وهو يخرجه بتوحيد الله، من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده، والتساوي والتحرر والاستعلاء أمام كل من عداه. فإلى الله وحده يتوجه بالعبادة، ومن الله وحده يتلقى المنهج والشريعة والنظام، وعلى الله وحده يتوكّل ومنه وحده يخاف ..

ويتحققها له، بالمنهج الرباني، حين يرفع اهتماماته ويهذب نوازعه، ويجمع طاقته للخير والبناء والارقاء والاستعلاء على نوازع الحيوان، ولذائق البهيمة وانطلاق الأنعام!
ولا يدرك حقيقة نعمة الله في هذا الدين، ولا يقدرها قدرها، من لم يعرف حقيقة الجاهلية ومن لم يذق ولاتها - والجاهلية في كل زمان وفي كل مكان هي منهج الحياة الذي لم يشرعه الله - فهذا الذي عرف الجاهلية وذاق ولاتها.. ولاتها في التصور والاعتقاد، وولاتها في واقع الحياة.. هو الذي يحس ويشعر، ويرى ويعلم، ويدرك ويتدوّق حقيقة نعمة الله في هذا الدين..

الذي يعرف ويعاني ولاتات الضلال والعمى، ولاتات الحيرة والتمزق، ولاتات الضياع والخواء، في معتقدات الجاهلية وتصوراتها في كل زمان وفي كل مكان.. هو الذي يعرف ويتدوّق نعمة الإيمان.

والذي يعرف ويعاني ولاتات الطغيان والهوى، ولاتات التخبط والاضطراب، ولاتات التفريط والإفراط في كل أنظمة الحياة الجاهلية، هو الذي يعرف ويتدوّق نعمة الحياة في ظل الإيمان. بمنهج الإسلام. ولقد كان العرب المخاطبون بهذا القرآن أول مرة، يعرفون ويدركون ويتدوّقون هذه الكلمات. لأن مدلولاتها كانت متمثلة في حياتهم، في ذات الجبل الذي خوطب بهذا القرآن..

كانوا قد ذاقوا الجاهلية.. ذاقوا تصوراتها الاعتقادية. وذاقوا أوضاعها الاجتماعية. وذاقوا أخلاقها الفردية والجماعية. وبلغوا من هذا كله ما يدركون معه حقيقة نعمة الله عليهم بهذا الدين وحقيقة فضل الله عليهم ومنتها بالإسلام.

كان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية وساربهم في الطريق الصاعد، إلى القمة السامية فإذا هم على القمة ينظرون من على إلى سائر أمم الأرض من حولهم نظرهم إلى ماضيهم في جاهليتهم كذلك.

كان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية في التصورات الاعتقادية حول ربوية الأصنام، والملائكة، والجن، والكواكب، والأسلاف وسائر هذه الأساطير الساذجة والخرافات السخيفة لينقلهم إلى أفق التوحيد. إلى أفق الإيمان ياله واحد، قادر قاهر، رحيم ودود، سميع بصير، عليم خبير. عادل كامل. قريب محب. لا واسطة بينه وبين أحد والكل له عباد، والكل له عبيد.. ومن ثم حررهم من سلطان الكهانة، ومن سلطان الرياسة، يوم حررهم من سلطان الوهم والخرافة..

وكان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية في الأوضاع الاجتماعية. من الفوارق الطبقية ومن العادات الزرية ومن الاستبداد الذي كان يزاوله كل من تهيأ له قدر من السلطان (لا كما هو سائد خطأ من أن الحياة العربية كانت تمثل الديمقراطية!).

«فقد كانت القدرة على الظلم قرينةً معنى العزة والجاه في عرف السيد والمسود من أمراء الجزيرة من أقصاها في الجنوب إلى أقصاها في الشمال. وما كان الشاعر النجاشي إلا قادحاً مبالغًا في القدر حين استضعف مهجوه، لأن:

قبيلته لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

«وما كان حجر بن الحارث إلا ملكاً عربياً حين سام بي أسد أن يستعبدهم بالعصا، وتسلل إليه شاعرهم عبيد بن الأبرص حيث يقول:

أنت الملك فيهم وهم العبيد إلى القيامة ذلوا لسوطك مثلما ذل الأشيقر ذو الخزامة
«وكان عمر بن هند ملكاً عربياً حين عود الناس أن يخاطبهم من وراء ستار وحين استكثروا على سادة القبائل أن تألف أمها لهم من خدمته في داره.

«وكان النعمان بن المنذر ملكاً عربياً حين بلغ به العسف أن يتخذ لنفسه يوماً للرضا يغدق فيه النعم على كل قادم إليه خبط عشواء ويوماً للغضب يقتل فيه كل طالع عليه من الصباح إلى المساء.

«وقد قيل عن عزة كليب وائل: إنه سمي بذلك لأنه كان يرمي الكليب حيث يعجبه الصيد، فلا يجسر أحد على الدنو من مكان يسمع فيه نباحه. وقيل: «لا حر بوادي عوف»

لأنه من عزته كان لا يأوي بواديه من يملك حرية في حواره. فكلهم أحراز في حكم العبيد...».

وكان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية في التقاليد والعادات والأخلاق والصلات الاجتماعية.. كان قد التقطهم من سفح البنت الموعودة، والمرأة المنكودة، والخمر والقمار وال العلاقات الجنسية الفوضوية، والتبرج والاختلاط مع احتقار المرأة ومهانتها، والثارات والغارات والنهب والسلب، مع تفرق الكلمة وضعف الحيلة أمام أي هجوم خارجي جدي، كالذى حدث في عام الفيل من هجوم الأحباش على الكعبة، وتخاذل وخذلان القبائل كلها، هذه القبائل التي كان يأسها بينها شديدا !

وكان الإسلام قد أنشأ منهم أمة تطل من القمة السامية على البشرية كلها في السفح، في كل جانب من جوانب الحياة. في جيل واحد. عرف السفح وعرف القيمة. عرف الجاهلية وعرف الإسلام. ومن ثم كانوا يتذوقون ويدركون معنى قول الله لهم:

«الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ، وَأَتَمَّتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي، وَرَضِيَتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينَكُمْ»..

ويقف المؤمن ثالثا: أمام ارتضاء الله الإسلام دينا للذين آمنوا.. يقف أمام رعاية الله - سبحانه - وعنايته بهذه الأمة، حتى ليختار لها دينها ويرتضيه.. وهو تعبير يشي بحب الله لهذه الأمة ورضاه عنها، حتى ليختار لها منهج حياتها..

وإن هذه الكلمات الهائلة لتلقى على عاتق هذه الأمة عبئا ثقيلا، يكافئ هذه الرعاية الجليلة.. أستغفر الله..

فما يكافئ هذه الرعاية الجليلة من الملك الجليل شيء تملك هذه الأمة بكل أحياها أن تقدمه.. وإنما هو جهد الطاقة في شكر النعمة، ومعرفة المنعم.. وإنما هو إدراك الواجب ثم القيام بما يستطيع منه، وطلب المغفرة والتجاوز عن التقصير والقصور فيه.

إن ارتضاء الله الإسلام دينا لهذه الأمة، ليقتضي منها ابتداء أن تدرك قيمة هذا الاختيار. ثم تحرض على الاستقامة على هذا الدين جهد ما في الطاقة من وسع واقتدار.. وإنما أنكد وما أحمق من يهمل - بله أن يرفض - ما رضيه الله له، ليختار لنفسه غير ما اختاره الله!.. وإنما - إذن - بجريمة نكدة لا تذهب بغير جزاء، ولا يترك صاحبها يمضي ناجيا أبدا

وقد رفض ما ارتضاه له الله.. ولقد يترك الله الذين لم يتخذوا الإسلام دينا لهم، يرتكبون ما يرتكبون ويمهلهم إلى حين.. فأما الذين عرفوا هذا الدين ثم تركوه أو رفضوه.. واتخذوا لأنفسهم مناهج في الحياة غير المنهج الذي ارتضاه لهم الله.. فلن يتركهم الله أبداً ولن يمهلهم أبداً، حتى يذوقوا وبال أمرهم وهم مستحقون!^{١٩}.

٧- آئتها عالمية في الدعوة إليها .

إنما الرسالة الأخيرة، فهي الرسالة الشاملة، التي لا تختص بقوم ولا أرض ولا جيل.. ولقد كانت الرسالات قبلها رسالات محلية قومية محدودة بفترة من الزمان - ما بين عهدي رسولين - وكانت البشرية تخطو على هدى هذه الرسالات خطوات محدودة، تأهيلًا لها للرسالة الأخيرة. وكانت كل رسالة تتضمن تعديلاً وتحويراً في الشريعة يناسب تدرج البشرية. حتى إذا جاءت الرسالة الأخيرة جاءت كاملة في أصولها، قابلة للتطبيق المتعدد في فروعها، وجاءت للبشر جميعاً، لأنه ليست هنا لك رسالات بعدها للأقوام والأجيال في كل مكان.

وجاءت وفق الفطرة الإنسانية التي يلتقي عندها الناس جميعاً. ومن ثم حملها النبي الأمي الذي لم يدخل على فطرته الصافية - كما خرجت من يد الله - إلا تعليم الله. فلم تشب هذه الفطرة شائبة من تعليم الأرض ومن أفكار الناس! ليحمل رسالة الفطرة إلى فطرة الناس جميعاً: «فُلْ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا» ..

وهذه الآية التي يؤمر فيها رسول الله - ﷺ - أن يواجه برسالته الناس جميعاً، هي آية مكية في سورة مكية .. وهي تجده المزورين من أهل الكتاب، الذين يزعمون أن محمداً - ﷺ - لم يكن يدور في خلده وهو في مكة أن يمد بصره برسالته إلى غير أهلها، وأنه إنما بدأ يفكر في أن يتتجاوز بها قريشاً، ثم يتجاوز بها العرب إلى دعوة أهل الكتاب، ثم يتجاوز بها الجزيرة العربية إلى ما وراءها ..

^{١٩} - في ظلال القرآن - موافقاً للمطبوع - (٢ / ٨٤٢)

كل أولئك بعد أن أغراه النجاح الذي ساقته إليه الظروف! وإن هي إلا فرية من ذيول الحرب التي شنواها قديما على هذا الدين وأهله. وما يزالون ماضين فيها! وليس البلية في أن يرصد أهل الكتاب كيدهم كله لهذا الدين وأهله. وأن يكون «المستشرون» الذين يكتبون مثل هذا الكذب هم طليعة المجموع على هذا الدين وأهله .. إنما البلية الكبرى أن كثيرا من السذج الأغوار من يسمون أنفسهم بال المسلمين يتخذون من هؤلاء المزورين على نبيهم ودينهم، المحاربين لهم ولعقيدتهم، أساتذة لهم، يتلقون عنهم في هذا الدين نفسه، ويستشهدون بما يكتبونه عن تاريخ هذا الدين وحقائقه، ثم يزعم هؤلاء السذج الأغوار لأنفسهم أنهم «متفقون!» .^{٢٠}

٨- آنَّهَا شُورِيَّةٌ فِي الْحُكْمِ هَا .

قال الله تعالى: { وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالْتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدُوانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } (٢) سورة المائدة

إنما تبعة القيادة والقوامة والشهادة على الناس .. التبعة التي لا بد أن ينسى فيها المؤمنون ما يقع على أشخاصهم من الأذى ليقدموا للناس نموذجا من السلوك الذي يتحققه الإسلام، ومن التسامي الذي يصنعه الإسلام. وهذا يؤدون للإسلام شهادة طيبة تجذب الناس إليه وتحببهم فيه.

وهو تكليف ضخم ولكنه - في صورته هذه - لا يعنت النفس البشرية، ولا يحملها فوق طاقتها. فهو يعترف لها بأن من حقها أن تغضب، ومن حقها أن تكره. ولكن ليس من حقها أن تعتدي في فورة الغضب ودفعه الشنان .. ثم يجعل تعاون الأمة المؤمنة في البر والتقوى لا في الإثم والعدوان ويخوفها عقاب الله، ويأمرها بتقواه، لتستعين بهذه المشاعر على الكبت والضبط، وعلى التسامي والتسامح، تقوى لله، وطلبها لرضاه.

ولقد استطاعت التربية الإسلامية، بالمنهج الرباني، أن تروض نفوس العرب على الانقياد لهذه المشاعر القوية، والاعتياد لهذا السلوك الكريم .. وكانت أبعد ما تكون عن هذا المستوى

^{٢٠} في ظلال القرآن — موافقاً للمطبوع — (٣ / ١٣٧٩)

وعن هذا الاتجاه .. كان المنهج العربي المسلوك والمبدأ العربي المشهور: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» .. كانت حمية الجاهلية، ونعرة العصبية. كان التعاون على الإثم والعدوان أقرب وأرجح من التعاون على البر والتقوى و كان الحلف على النصرة، في الباطل قبل الحق. وندر أن قام في الجاهلية حلف للحق. وذلك طبيعي في بيئه لا ترتبط بالله ولا تستمد تقاليدها ولا أخلاقها من منهج الله وميزان الله .. يمثل ذلك كله ذلك المبدأ الجاهلي المشهور: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» .. وهو المبدأ الذي يعبر عنه الشاعر الجاهلي في صورة أخرى، وهو يقول:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت، وإن ترشد غزية أرشد!

ثم جاء الإسلام .. جاء المنهج الرباني للتربية .. جاء ليقول للذين آمنوا: «وَلَا يَجْرِيَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا. وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالْتَّقْوَى، وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدُوانِ. وَاتَّقُوا اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» ..

جاء ليربط القلوب بالله وليربط موازين القيم والأخلاق. بميزان الله. جاء ليخرج العرب - ويخرج البشرية كلها - من حمية الجاهلية، ونعرة العصبية، وضغط المشاعر والانفعالات الشخصية والعائلية والعشائرية في مجال التعامل مع الأصدقاء والأعداء ..

وولد «الإنسان» من جديد في الجزيرة العربية .. ولد الإنسان الذي يتخلق بأخلاق الله .. وكان هذا هو المولد الجديد للعرب كما كان هو المولد الجديد للإنسان في سائر الأرض .. ولم يكن قبل الإسلام في الجزيرة إلا الجاهلية المتعصبة العميماء: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً». كذلك لم يكن في الأرض كلها إلا هذه الجاهلية المتعصبة العميماء!

والمسافة الشاسعة بين درك الجاهلية، وأفق الإسلام هي المسافة بين قول الجاهلية المأثور: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً». وقول الله العظيم: «وَلَا يَجْرِيَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا. وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالْتَّقْوَى، وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدُوانِ» . وشتان شتان!^{٢١}.

^{٢١} - في ظلال القرآن - موافقاً للمطبوع - (٢ / ٨٣٩)

وعن أبي موسى، عن النبي - قال: المؤمن لمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وشباك بين أصابعه.. متفق عليه .^{٢٢}

وقال تعالى: {وَالَّذِينَ اسْتَحْبَأُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} (٣٨) سورة الشورى

وَهُؤُلَاءِ الْمُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ أَعْدَّ لَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى الْثَّوَابَ وَالْجَنَّةَ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَاتِ، هُمُ الَّذِينَ أَحَبُّوا رَبَّهُمُ الْكَرِيمَ إِلَى مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ بِهِ، وَتَوْحِيدِهِ وَإِطَاعَةِ أَوْأَمْرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَدَّوْهَا حَقَّ أَدَائِهَا فِي أَوْقَاتِهَا، وَأَتْمُوهَا بِرُكُوعِهَا وَسُجُودَهَا وَخُشُوعِهَا، وَلَا يُرِمُونَ أَمْرًا حَتَّى يَتَشَاءُرُوا فِيهِ، وَيُدْلِي كُلُّ بَرِأْيٍ لِتَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى وَالصَّوَابُ فِيهِ. وَلَتَسْتَيْنَ حَمِيعَ حَوَابِ الْمَوْضُوعِ، فَلَا يَنْتَكِسُ أَمْرُ الْمُسْلِمِينَ بِاسْتِبْدَادِ فَرْدٍ أَوْ جَمَاعَةٍ فِي الرَّأْيِ. وَيُنْفِقُونَ مِمَّا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ فِي سَيِّلِ الْحَيْرِ وَالْبَرِّ، فِيمَا فِيهِ نَفْعٌ لِجَمَاعَةٍ .^{٢٣}

وهنا في هذه الآيات يصور خصائص هذه الجماعة التي تطبعها وتميزها. ومع أن هذه الآيات مكية، نزلت قبل قيام الدولة المسلمة في المدينة، فإننا نجد فيها أن من صفة هذه الجماعة المسلمة: «وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ» .. مما يوحى بأن وضع الشورى أعمق في حياة المسلمين من مجرد أن تكون نظاماً سياسياً للدولة، فهو طابع أساسي للجماعة كلها، يقوم عليه أمرها كجماعة، ثم يتسرّب من الجماعة إلى الدولة، بوصفها إفرازاً طبيعياً للجماعة .^{٢٤}

وقال ابن كثير: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} أي: لا يرمون أمراً حتى يتشاروا فيه، ليتساعدوا بأرائهم في مثل الحروب وما جرى بمحارها، كما قال تعالى: {وَشَارِرُهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَّمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} [آل عمران: ١٥٩] وهذا كان عليه [الصلوة] السلام، يشاورهم في الحروب ونحوها، ليطيب بذلك قلوبهم. وهكذا لما حضرت عمر بن الخطاب [رضي الله عنه] الوفاة حين طعن، جعل الأمر بعده شورى في ستة نفر، وهم:

^{٢٢} - صحيح البخاري - المكتبة - (٤٨١) وصحيح مسلم - المكتبة - (٦٧٥٠)

^{٢٣} - أيسير التفاسير لأسعد حومد - (٤١٨٩ / ١)

^{٢٤} - في ظلال القرآن - موافقاً للمطبع - (٣١٦٠ / ٥)

عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنهم أجمعين، فاجتمع رأي الصحابة كلهم على تقديم عثمان عليهم، رضي الله عنهم^{٢٥}.
وقال القرطبي: " مدح الله المشاورة في الأمور. مدح القوم الذين كانوا يمتشلون ذلك. وقد كان النبي - ﷺ - يشاور أصحابه في الآراء المتعلقة بمصالح الحروب ؛ وذلك في الآراء كثير. ولم يكن يشاورهم في الأحكام ؛ لأنها متصلة من عند الله على جميع الأقسام من الفرض والندب والمكروه والمحرام. فأما الصحابة بعد استئثار الله تعالى به علينا فكانوا يتشاورون في الأحكام ويستبطونها من الكتاب والسنة. وأول ما تشاور فيه الصحابة الخلافة ؛ فإن النبي - ﷺ - لم ينص عليها حتى كان فيها بين أبي بكر والأنصار ما سبق بيانه. وقال عمر رضي الله عنه: نرضي لدنيانا من رضيه رسول الله - ﷺ - لدیننا وتشاوروا في أهل الردة فاستقر رأي أبي بكر على القتال. وتشاوروا في الجد وميراثه، وفي حد الخمر وعدهده. وتشاوروا بعد رسول الله - ﷺ - في الحروب ؛ حتى شاور عمر الهرمزان حين وفده عليه مسلما في المغازي، فقال له الهرمزان: مثلكما ومثل من فيها من الناس من عدو المسلمين مثل طائر له ريش وله جناح فإن كسر أحد الجناحين نهضت الرجالان بجناح والرأس وإن كسر الجناح الآخر نهضت الرجالان والرأس وإن شدح الرأس ذهب الرجالان والجناحان. والرأس كسرى والجناح الواحد قيسرا والآخر فارسا ؛ فمر المسلمين فلينفروا إلى كسرى... وذكر الحديث. وقال بعض العقلاة: ما أخطأت قط ! إذا حزبني أمر شاورت قومي ففعلت الذي يرون ؛ فإن أصبت فيهم المصيبيون، وإن أخطأت فهم المخطبون".^{٢٦}

٩- آنها عميقهُ الأثر في أعماقِ النفوس والحياة .
فلا قلق في النفس، ولا اضطراب في الفكر؛ لأن هذه العقيدة تصل المؤمن بحالقه - عز وجل - فيرضى به رباً مدبراً، وحاكماً مشرعًا، فيطمئن قلبه بقدرها، وينشرح صدره لحكمها، ويستنير فكره بمعرفيته.

^{٢٥} - تفسير ابن كثير - دار طيبة - (٢١١ / ٧)

^{٢٦} - تفسير القرطبي - موافق للمطبوع - (٣٧ / ١٦)

فال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانَهُمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلَيْمًا حَكِيمًا (٤) لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمَنَاتِ جَنَّاتٍ تَحْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ حَالَدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥) وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِيبُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَأَعْنَاهُمْ وَأَعْدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦)}

{الفتح: ٤ - ٦}

والسكينة لفظ معبر مصور ذو ظلال والسكينة حين يتر لها الله في قلب، تكون طمأنينة وراحة، ويقينا وثقة، ووقارا وثباتا، واستسلاما ورضى.

ولقد كانت قلوب المؤمنين في هذه الواقعة تحييش بمشاعر شتى، وتفور بانفعالات متنوعة. كان فيها الانتظار والتطلع إلى تصديق رؤيا رسول الله - ﷺ - بدخول المسجد الحرام ثم مواجهة موقف قريش وقبول الرسول - ﷺ - للرجوع عن البيت في هذا العام، بعد الإحرام، وبعد إشعار الم Heidi وتقليده. كان هذا أمرا شاقا على نفوسهم ما في ذلك ريب.

قال عمر رضي الله عنه : فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ - ﷺ - فَقُلْتُ : أَلَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ ؟ قَالَ : بَلَى قُلْتُ : أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ ؟ وَعَدُونَا عَلَى الْبَاطِلِ ؟ قَالَ : بَلَى ، قَالَ : قُلْتُ : فَلَمْ نُعْطِي الدِّينَيَةَ فِي دِينِنَا إِذَا ؟ قَالَ : إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ ، وَأَسْتُ أَعْصِيَهُ ، وَهُوَ نَاصِرِي . قُلْتُ : أَوْلَسْتَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَّا تِبْيَتَ فَنَطَوْفُ بِهِ ؟ قَالَ : بَلَى قَالَ : أَفَأَخْبَرْتُكَ أَنَّكَ تَأْتِيَهُ الْعَامَ ؟ قُلْتُ : لَا . قَالَ : فَإِنَّكَ آتِيهِ ، وَمُنْطَوْفٌ بِهِ ، قَالَ : فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه ، فَقُلْتُ : يَا أَبَا بَكْرٍ ، أَلَيْسَ هَذَا نَبِيُّ اللَّهِ حَقًا ؟ قَالَ : بَلَى . قُلْتُ : أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُونَا عَلَى الْبَاطِلِ ؟ قَالَ : بَلَى . قُلْتُ : فَلَمْ نُعْطِي الدِّينَيَةَ فِي دِينِنَا إِذَا ؟ قَالَ : أَبِيهَا الرَّجُلُ ، إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ، وَلَنْ يَعْصِي رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وَهُوَ نَاصِرٌ ، فَاسْتَمْسَكَ بِعَرْزَهِ ، وَقَالَ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ : نَطَوْفُ بِعَرْزِهِ حَتَّى تَمُوتَ ، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ لَعَلَى الْحَقِّ . قُلْتُ : أَوْلَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَّا

الْبَيْتَ وَنَطَوْفُ بِهِ ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: أَفَحَبْرَكَ اللَّهُ يَأْتِيهِ الْعَامَ ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: إِنَّكَ آتِيهِ، وَمُتَطَوْفٌ بِهِ ٢٧١ .

فهذه صورة مما كان يجيش في القلوب ..

وكان المؤمنون ضيقى الصدور بشروط قريش الأخرى، من رد من يسلم ويأتي محمداً بغير إذن وليه.

ومن حمياتهم الجاهلية في رد اسم الرحمن الرحيم. وفي رد صفة رسول الله - ﷺ - وقد روي أن عليا - رضي الله عنه - أبى أن يمحوهذه الصفة كما طلب سهيل بن عمرو بعد كتابتها، فمحها رسول الله بنفسه وهو يقول: «اللهم إنا نعلم أن رسولك»..

وكانت حميتها لدينهم وحماستهم للقاء المشركين بالغة، يبدو هذا في بيعتهم الإجتماعية ثم انتهى الأمر إلى المصالحة والمهادنة والرجوع. فلم يكن هينا على نفوسهم أن تنتهي الأمور إلى ما انتهت إليه. يبدو هذا في تباطئهم في النحر والحلق، حتى قالها رسول الله - ﷺ - ثلاثاً. وهم من هم طاعة لأمر رسول الله وامثالاً. كالذى حكاه عنهم لقريش عروة ابن مسعود التقى. ولم ينحرروا ويحلقوها ويقصروا إلا حين رأوا رسول الله يفعل هذا بنفسه، فهزم هذه الحركة العملية ما لم يهزهم القول، وثابوا إلى الطاعة كالذى كان في دهشة المأمور! وهم كانوا قد خرجوا من المدينة بنية العمرة، لا ينونون قتالاً، ولم يستعدوا له نفسياً ولا عملياً. ثم فوجئوا بموقف قريش، وبما شاع من قتلها لعثمان، وبإرسال النفر الذين رموا في عسكر المسلمين بالليل والحجارة.

فَلِمَّا عَزَمَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - عَلَى الْمَنَاجِزَةِ وَطَلَبَ الْبَيْعَةَ أَعْطَوْهَا لَهُ عَنْ بَكْرَةِ أَيِّهِمْ. وَلَكِنْ هَذَا لَا يَنْفِي مَوْقِفَ الْمَفَاجَأَةِ عَلَى غَيْرِ مَا كَانَ نَفْوَسَهُمْ قَدْ خَرَجَتْ لَهُ وَهُوَ بَعْضُ مَا كَانَ يَجْبَسُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ اِنْفِعَالَاتِ وَتَأْثِيرَاتٍ. وَهُمْ أَلْفُ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَقَرِيشٌ فِي دَارِهَا، وَمِنْ خَلْفِهِمْ الْأَعْرَابُ وَالْمَشْرِكُونَ.

^{٢٧} -مسند أحمد (علم الكتب) - (٦ / ٤٢٨) وصحيح البخاري - المكتبة - (٢٧٣٢١ و ٢٧٣٢٢)

وَهِينَ يَسْتَرْجِعُ الْإِنْسَانُ هَذِهِ الصُّورَ يَدْرِكُ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ» ..

وَيَذُوقُ طَعْمَ الْفَظْدَ وَطَعْمَ الْعَبَارَةِ، وَيَتَصَوَّرُ الْمَوْقَفَ يَوْمَئِذٍ وَيَعِيشُ فِيهِ مَعَ هَذِهِ النَّصْوَصِ، وَيَحْسُسُ بَرْدَ السَّكِينَةِ وَسَلَامَهَا فِي تِلْكَ الْقُلُوبِ.

وَلَمَّا كَانَ اللَّهُ يَعْلَمُ مِنْ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَئِذٍ، أَنَّ مَا جَاءَ فِيهَا جَاشَ عَنِ الْإِيمَانِ، وَالْحَمِيمَةُ الْإِيمَانِيَّةُ لَا لِأَنفُسِهِمْ، وَلَا لِجَاهِلِيَّةِ فِيهِمْ. فَقَدْ تَفَضَّلُ عَلَيْهِمْ بِهَذِهِ السَّكِينَةِ: «لَيَزِدُّوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ» وَالْطَّمَانِيَّةُ دَرْجَةٌ بَعْدَ الْحَمِيمَةِ وَالْحَمَاسَةِ، فِيهَا النِّفَّةُ الَّتِي لَا تَقْلُقُ، وَفِيهَا الرَّضَى الْمَطْمَئِنُ بِالْيَقِينِ.

وَمِنْ ثُمَّ يَلْوُحُ بِأَنَّ النَّصْرَ وَالْغَلْبَ لَمْ يَكُنْ عَسِيرًا وَلَا بَعِيدًا، بَلْ كَانَ هِينَا يَسِيرًا عَلَى اللَّهِ لَوْاَقْتَضَتْ حَكْمَتِهِ يَوْمَئِذٍ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ كَمَا أَرَادَهُ الْمُؤْمِنُونَ، فَإِنَّ اللَّهَ جَنُودُهُ لَا تَحْصَى وَلَا تَغْلِبُ، تَدْرِكُ النَّصْرَ وَتَحْقِقُ الْعَلْبَ وَقَتِيمًا يَشَاءُ: «وَلَلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا حَكِيمًا».. فَهِيَ حَكْمَتِهِ وَهُوَ عِلْمُهُ، تَسِيرُ الْأَمْرُ وَفَقِيمَا كَمَا يَرِيدُ.

وَعَنِ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ: «أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزِدُّوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ». لِيَحْقُقَ لَهُمْ مَا قَدْرُهُ مِنْ فَوْزٍ وَنَعِيمٍ: «لَيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، حَالِدِينَ فِيهَا، وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ، وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا»..

وَإِذَا كَانَ هَذَا فِي حَسَابِ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا، فَهُوَ فَوْزٌ عَظِيمٌ! فَوْزٌ عَظِيمٌ فِي حَقِيقَتِهِ، وَفَوْزٌ عَظِيمٌ فِي نُفُوسِهِ مِنْ يَنْالُونَهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مَقْدِرًا بِتَقْدِيرِهِ، مَوْزُونًا بِعِيزَانِهِ.. وَلَقَدْ فَرَحَ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَهَا بِمَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُمْ وَكَانُوا قَدْ تَطَلَّعُوا بَعْدَ مَا سَمِعُوا افْتَاحَ السُّورَةِ، وَعَلِمُوا مِنْهُ مَا أَفَاضَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ. تَطَلَّعُوا إِلَى نَصِيبِهِمْ هُمْ، وَسَأَلُوا عَنْهُ، فَلَمَّا سَمِعُوا وَعَلِمُوا فَاضَتْ نُفُوسُهُمْ بِالرَّضَى وَالْفَرَحِ وَالْيَقِينِ.

ثُمَّ أَنْبَاهُمْ بِجَانِبِ آخِرٍ مِنْ جُوانِبِ حَكْمَتِهِ فِيمَا قَدِرَ فِي هَذِهِ الْحَادِثَ وَهُوَ مِحْمَازَةُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشَرِّكِينَ وَالْمُشَرِّكَاتِ، بِمَا يَصْدِرُ عَنْهُمْ مِنْ عَمَلٍ وَتَصْرِيفٍ: «وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشَرِّكِينَ وَالْمُشَرِّكَاتِ، الظَّاهِرُّ بِاللَّهِ ظَاهِرٌ السَّوْءُ، عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ. وَغَضِيبٌ

اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ، وَأَعَدَ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا. وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا»..

وقد جمع النص بين المنافقين والمنافقات والمرشكين والمرشكات في صفة ظن السوء بالله وعدم الثقة بنصرته للمؤمنين. وفي ألمهم جمِيعاً «عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ» فهم محصورون فيها، وهي تدور عليهم وتتعقّلهم. وفي غضب الله عليهم ولعنته لهم، وفيما أعده لهم من سوء المصير.. ذلك أن التفاق صفة مرذولة لا تقل عن الشرك سوءاً، بل إنما أحاط ولأن أذى المنافقين والمنافقات للجماعة المسلمة لا يقل عن أذى المرشكين والمرشكات، وإن اختلف هذا الأذى وذاك في مظاهره ونوعه.

وقد جعل الله صفة المنافقين والمنافقات والمرشكين والمرشكات هي ظن السوء بالله. فالقلب المؤمن حسن الظن بربه، يتوقع منه الخير دائماً. يتوقع منه الخير في السراء والضراء. ويؤمن بأن الله يريد به الخير في الحالين.

وسر ذلك أن قلبه موصول بالله. وفيض الخير من الله لا ينقطع أبداً. فمتي اتصل القلب به لمس هذه الحقيقة الأصلية، وأحسها إحساس مباشرة وتدوّق. فأما المنافقون والمرشكون فهم مقطوعو الصلة بالله. ومن ثم لا يحسون تلك الحقيقة ولا يجدونها، فيسوء ظنهم بالله وتعلق قلوبهم بظواهر الأمور، وينبئون عليها أحکامهم. ويتوقعون الشر والسوء لأنفسهم وللمؤمنين، كلما كانت ظواهر الأمور توحّي بهذا على غير ثقة بقدر الله وقدرته، وتدبره الخفي اللطيف.

وقد جمع الله في الآية أعداء الإسلام والمسلمين من شتى الأنواع وبين حالم عنده، وما أعده لهم في النهاية^{٢٨}.

١٠ - آنها جهادية، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرُهُ عَلَى الَّذِينَ كُلُّهُمْ وَلَوْكَرَهُ الْمُشْرِكُونَ} (٣٣) سورة التوبه .

^{٢٨} - في ظلال القرآن — موافقاً للمطبوع - (٦ / ٣٣١٨)

"إن أهل الكتاب هؤلاء لا يقفون عند حد الانحراف عن دين الحق، وعبادة أرباب من دون الله. وعدم الإيمان بالله واليوم الآخر - وفق المفهوم الصحيح للإيمان بالله واليوم الآخر - إنما هم كذلك يعلنون الحرب على دين الحق ويريدون إطفاء نور الله في الأرض المتمثل في هذا الدين، وفي الدعوة التي تنطلق به في الأرض، وفي المنهج الذي يصوغ على وفقه حياة البشر ..

«يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ» ..فهم محاربون لنور الله. سواء بما يطلقونه من أكاذيب ودسائس وفتن أو بما يحرضون به أتباعهم وأشياعهم على حرب هذا الدين وأهله، والوقوف سدا في وجهه - كما كان هو الواقع الذي تواجهه هذه النصوص وكما هو الواقع على مدار التاريخ.

وهذا التقرير - وإن كان يراد به استجاشة قلوب المسلمين إذ ذاك - هو كذلك يصور طبيعة الموقف الدائم لأهل الكتاب من نور الله المتمثل في دينه الحق الذي يهدي الناس بنور الله.

«وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتَمَّمَ نُورُهُ وَلَوْكَرَةُ الْكَافِرُونَ» .. وهو وعد الحق من الله، الدال على سنته التي لا تتبدل، في إتمام نوره بإظهار دينه ولوكره الكافرون ..

وهو وعد تطمئن له قلوب الذين آمنوا فيدفعهم هذا إلى المضي في الطريق على المشقة والألواء في الطريق وعلى الكيد وال الحرب من الكافرين (ومرادهم هنا هم أهل الكتاب السابق ذكرهم) .. كما أنه يتضمن في ثنایاه الوعيد لهؤلاء الكافرين وأمثالهم على مدار الرمان! ويزيد السياق هذا الوعيد وذلك الوعيد توكيدا: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَلَوْكَرَةُ الْمُشْرِكُونَ» ..

وفي هذا النص يتبيّن أن المراد بدين الحق الذي سبق في قوله تعالى: «قَاتَلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدِ وَهُمْ صَاغِرُونَ» .. هو هذا الدين الذي أرسل الله به رسوله الأخير. وأن الذين لا يدينون بهذا الدين هم الذين يشملهم الأمر بالقتال ..

وهذا صحيح على أي وجه أورثنا الآية. فالمقصود إجمالاً دين الحق هو الدينونة لله وحده في الاعتقاد والشعائر والشائع - وهذه هي قاعدة دين الله كله، وهو الدين المثل أخيراً فيما جاء به محمد ﷺ - فأيما شخص أو قوم لم يدينوا لله وحده في الاعتقاد والشعائر والشائع مجتمعة انطبق عليهم أنهم لا يدينون دين الحق، ودخلوا في مدلول آية القتال .. مع مراعاة طبيعة المنهج الحركي للإسلام، ومرحله المتعددة، ووسائله المتعددة كما قلنا مراراً. **«هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الْدِينِ كُلِّهِ، وَلَوْكَرَهُ الْمُشْرِكُونَ» ..**

وهذا توكيده لوعده الله الأول: **«وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتَمَّ نُورَهُ وَلَوْكَرَهُ الْكَافِرُونَ» ..** ولكن في صورة أكثر تحديداً. فنور الله الذي قرر سبحانه أن يتمه، هو دين الحق الذي أرسل به رسوله ليظهره على الدين كله.

ودين الحق - كما أسلفنا - هو الدينونة لله وحده في الاعتقاد والعبادة والتشريع مجتمعة. وهو ممثل في كل دين مساوي جاء به رسول من قبل .. ولا يدخل فيه طبعاً تلك الديانات المحرفة المشوهة المشوهة بالوثنيات في الاعتقاد التي عليها اليهود والنصارىاليوم. كما لا تدخل فيه الأنظمة والأوضاع التي ترفع لافتة الدين، وهي تقيم في الأرض أرباباً يعبدوها الناس من دون الله، في صورة الاتباع للشائع التي لم يتر لها الله. والله سبحانه يقول: إنه أرسل رسوله بالهدي ودين الحق ليظهره على الدين كله .. ويجب أن نفهم **«الدين»**. بمدلوله الواسع الذي بيناه، لندرك أبعاد هذا الوعيد الإلهي ومداه ..

إن **«الدين»** هو **«الدينونة»** .. فيدخل فيه كل منهج وكل مذهب وكل نظام يدين الناس له بالطاعة والاتباع والولاء ..

والله سبحانه يعلن قضاياه بظهور دين الحق الذي أرسل به رسوله على **«الدين»** كله بهذا المدلول الشامل العام!

إن الدينونة ستكون لله وحده. والظهور سيكون للمنهج الذي تمثل فيه الدينونة لله وحده. ولقد تحقق هذا مرة على يد رسول الله - ﷺ - وخلفائه ومن جاء بعدهم فترة طويلة من الزمان. وكان دين الحق أظهر وأغلب وكانت الأديان التي لا تخلص فيها

الدينونة لله تخاف وترجف! ثم تخلى أصحاب دين الحق عنه خطوة فخطوة بفعل عوامل داخلة في تركيب المجتمعات الإسلامية من ناحية وبفعل الحرب الطويلة المدى، المتنوعة الأساليب، التي أعلنها عليه أعداؤه من الوثنين وأهل الكتاب سواء ..

ولكن هذه ليست نهاية المطاف .. إن وعد الله قائم، ينتظر العصبة المسلمة، التي تحمل الراية وتقضى، مبتدئة من نقطة البدء، التي بدأت منها خطوات رسول الله - ﷺ - وهو يحمل دين الحق ويتحرك بنور الله ..^{٢٩}

"لقد وقف بنو إسرائيل في وجه الدين الجديد وقفه العداء والكيد والتضليل، وحاربوه بشتى الوسائل والطرق حربا شعواء لم تضع أوزارها حتى اليوم. حاربوه بالاتهام: «فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا: هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ» ..

كما قال الذين لا يعرفون الكتب ولا يعرفون البشارة بالدين الجديد. وحاربوه بالدس والواقعة داخل المعسكر الإسلامي، للإيقاع بين المهاجرين والأنصار في المدينة، وبين الأوس والخزرج من الأنصار. وحاربوه بالتأمر مع المنافقين تارة ومع المشركين تارة. وحاربوه بالانضمام إلى معسكرات المهاججين كما وقع في غزوة الأحزاب.

وحاربوه بالإشاعات الباطلة كما جرى في حديث الإفك على يد عبد الله بن أبي بن سلول، ثم ما جرى في فتنة عثمان على يد عدو الله عبد الله بن سبأ. وحاربوه بالأكاذيب والإسرائيليات التي دسوها في الحديث وفي السيرة وفي التفسير - حين عجزوا عن الوضع والكذب في القرآن الكريم.

ولم تضع الحرب أوزارها لحظة واحدة حتى اللحظة الحاضرة. فقد دأبت الصهيونية العالمية والصلبية العالمية على الكيد للإسلام، وظلتا تغiran عليه أو تؤلban عليه في غير وناة ولا هدنة في جيل من الأجيال.

حاربوه في الحروب الصليبية في المشرق، وحاربوه في الأندلس في المغرب، وحاربوه في الوسط في دولة الخلافة الأخيرة حربا شعواء حتى مزقوها وقسموا ترکة ما كانوا يسمونه

^{٢٩} - في ظلال القرآن — موافقاً للمطبوع - (٣ / ١٦٤٣)

«الرجل المريض» .. واحتاجوا أن يخلقوا أبطالاً مزيفين في أرض الإسلام يعملون لهم في تنفيذ أحقادهم ومكايدهم ضد الإسلام. فلما أرادوا تحطيم «الخلافة» والإجهاز على آخر مظهر من مظاهر الحكم الإسلامي صنعوا في تركيا «بطلاً» ..

ونفخوا فيه. وترجعت جيوش الحلفاء التي كانت تتحلّل الأستانة أمامه لتحقق منه بطلاً في أعين مواطنيه.

بطلاً يستطيع إلغاء الخلافة، وإلغاء اللغة العربية، وفصل تركيا عن المسلمين، وإعلانها دولة مدنية لا علاقة لها بالدين! وهم يكررون صنع هذه البطولات المريضة كلما أرادوا أن يضربوا الإسلام والحركات الإسلامية في بلد من بلاد المسلمين، ليقيموا مكانه عصبية غير عصبية الدين! ورایة غير رایة الدين.

«يُرِيدُونَ لِيُطْفُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ. وَاللَّهُ مُتَمِّنُ نُورِهِ وَلَوْكَرَهُ الْكَافِرُونَ» .. وهذا النص القرآني يعبر عن حقيقة، ويرسم في الوقت ذاته صورة تدعى إلى الرثاء والاستهزاء! فهي حقيقة أنهم كانوا يقولون بأفواهم: «هذا سُحْرٌ مُّبِينٌ» .. ويدسون ويكيدون محاولين القضاء على الدين الجديد.

وهي صورة بائسة لهم وهم يحاولون إطفاء نور الله بنفحة من أفواههم وهم هم الضعاف المهازيل! «وَاللَّهُ مُتَمِّنُ نُورِهِ وَلَوْكَرَهُ الْكَافِرُونَ» .. وصدق وعد الله. أتم نوره في حياة الرسول - ﷺ - فأقام الجماعة الإسلامية صورة حية واقعة من المنهج الإلهي المختار. صورة ذات معلم واضح وحدود مرسومة، ترسمها الأجيال لا نظرية في بطون الكتب، ولكن حقيقة في عالم الواقع. وأتم نوره فأكمل لل المسلمين دينهم وأتم عليهم نعمته ورضي لهم الإسلام ديناً يحبونه، ويجهدون في سبيله، ويرضي أحدهم أن يلقى في النار ولا يعود إلى الكفر. فتلت حقيقة الدين في القلوب وفي الأرض سواء. وما تزال هذه الحقيقة تبعث بين الحين والحين. وتبغض وتنتفض قائمة - على الرغم من كل ما جرد على الإسلام وال المسلمين من حرب وكيد وتنكيل وتشريد وبطش شديد. لأن نور الله لا يمكن أن تطفئه الأفواه، ولا أن تطمسه كذلك النار والحديد، في أيدي العبيد! وإن خيل للطغاة الجبارين، وللأبطال المصنوعين على أعين الصليبيين واليهود أنهم بالغوا هذا المهد البعيد!

لقد جرى قدر الله أن يظهر هذا الدين، فكان من الحتم أن يكون: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الَّذِينَ كُلُّهُ، وَلَوْكَرَهُ الْمُشْرِكُونَ» .. وشهادة الله لهذا الدين بأنه «بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ» هي الشهادة. وهي كلمة الفصل التي ليس بعدها زيادة.

ولقد تمت إرادة الله فظاهر هذا الدين على الدين كله. ظهر في ذاته كدين، فما يثبت له دين آخر في حقيقته وفي طبيعته. فأما الديانات الوثنية فليست في شيء في هذا المجال. وأما الديانات الكتابية فهذا الدين خانتها، وهو الصورة الأخيرة الكاملة الشاملة منها، فهو هي، في الصورة العليا الصالحة إلى نهاية الزمان.

ولقد حرفت تلك الديانات وشوهرت ومزقت وزيد عليها ما ليس منها، ونقصت من أطرافها، وانتهت حال لا تصلح معه شيء من قيادة الحياة. وحتى لو بقيت من غير تحريف ولا تشويه فهي نسخة سابقة لم تشمل كل مطالب الحياة المتتجددة أبداً، لأنها جاءت في تقدير الله لأمد محدود.

فهذا تحقيق وعد الله من ناحية طبيعة الدين وحقيقته. فأما من ناحية واقع الحياة، فقد صدق وعد الله مرة، فظاهر هذا الدين قوة وحقيقة ونظام حكم على الدين كله فدانت له معظم الرقعة المعمرة في الأرض في مدى قرن من الزمان. ثم زحف زحفاً سلミاً بعد ذلك إلى قلب آسيا وإفريقيا، حتى دخل فيه بالدعوة المحردة خمسة أضعاف من دخلوا في إبان الحركات الجهادية الأولى .. وما يزال يمتد بنفسه دون دولة واحدة - منذ أن قشت

الصهيونية العالمية والصلبيّة العالمية على الخلافة الأخيرة في تركيا على يدي «البطل» الذي صنعوه! - وعلى الرغم من كل ما يرصد له في أنحاء الأرض من حرب وكيد، ومن تحطيم للحركات الإسلامية الناهضة في كل بلد من بلاد الإسلام على أيدي «أبطال» آخرين من صنع الصهيونية العالمية والصلبيّة العالمية على السواء.

وما تزال لهذا الدين أدوار في تاريخ البشرية يؤديها، ظاهراً بإذن الله على الدين كله تحقيقاً لوعده، الذي لا تقف له جهود العبيد المهازيل، مهما بلغوا من القوة والكيد والتضليل!

ولقد كانت تلك الآيات حافراً للمؤمنين المخاطبين بها على حمل الأمانة التي اختارهم الله
لها بعد أن لم يرعها اليهود والنصارى. وكانت تطمئناً لقلوبهم وهم ينفذون قدر الله في
إظهار دينه الذي أراده ليظهره، وإنهم إلا أدلة. وما تزال حافزاً ومطمئناً لقلوب المؤمنين
الواثقين بوعده ربهم، وستظل تبعث في الأجيال القادمة مثل هذه المشاعر حتى يتحقق وعد
الله مرة أخرى في واقع الحياة. بإذن الله.^{٣٠}



البحث الثالث

أساليب الإقناع وطرقه المختلفة

على الداعية أنْ يعرف هذه الأساليب والطرق، ومنها :

- ١- حُسْنُ العَرْضٍ . ٢- جمال الأسلوب .
- ٣- الترغيب في الحق . ٤- المجادلة بالي هي أحسن .
- ٥- مراعاة مُقتضى الحال (أي: الأحوال المختلفة) .
- ٦- استخدام أفضل وسائل الإعلام ومتذمّرات العصر .
- ٧- استعمال الحكمة والموعظة الحسنة .

الحكمة في الدعوة:

قال الإمام العيني: "الحكمة تحتاج إلى علم دقيق بأسرار الحياة وطبائع النفوس وأوضاع المجتمع، وقد أمرنا الله - سبحانه وتعالى - بتعلم الحكمة، وكيف لا؟ وقد أرسل رسوله - ﷺ - بها: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيْهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} (٢) سورة الجمعة.

فالله سبحانه هو الذي أرسل في العرب الذين لا يقرؤون، ولا كتاب عندهم ولا أثر رسالة لديهم، رسولاً منهم إلى الناس جمِيعاً، يقرأ عليهم القرآن، ويظهرهم من العقائد الفاسدة والأخلاق السيئة، ويعلمهم القرآن والسنة، إنهم كانوا من قبل بعثته لفي انحراف واضح عن الحق. وأرسله سبحانه إلى قوم آخرين لم يجيئوا بعد، وسيجيئون من العرب ومن غيرهم. والله تعالى - وحده - هو العزيز الغالب على كل شيء، الحكيم في أقواله وأفعاله.

وقال بعض العلماء: الحكمة في الدعوة هي: القول المناسب بالطريقة المناسبة والوقت المناسب للإنسان المناسب في المكان المناسب والمقدار المناسب والوسائل المناسبة ... وإن الله - عز وجل - قد أرسل الرسل والأنبياء والصالحين وآتاهم الحكمة، ومن الأمثلة على ذلك:

قال الله - تعالى - : {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا} (٥٤) سورة النساء.

وقال الله - تعالى - لعيسى - عليه السلام - : {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نَعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالدَّيْنِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدْسِ ثُكَلَمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالْتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهْيَةَ الطَّيْرِ يَا ذِنِي فَتَسْفَخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا يَا ذِنِي وَتُبَرِّئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ يَا ذِنِي وَإِذْ تُخْرُجُ الْمَوَتَىٰ يَا ذِنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنَكَ إِذْ جَنَّتُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ} (١١٠) سورة المائدة

وقال الله - تعالى - عن داود - عليه السلام - : "... {.. وَقَتَلَ دَاؤُودَ حَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَمَهُ مِمَّا يَشَاءُ..} (٢٥١) سورة البقرة

وقال الله - تعالى - : {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فِيَنَ اللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} (١٢) سورة لقمان.

وقال الله - عز وجل - لسيدنا محمد - عليه الصلاة والسلام - : {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهُمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضْلُلُوكَ وَمَا يُضْلِلُونَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنَزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلِمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا} (١١٣) سورة النساء.

إِلَى أَيِّ شَيْءٍ نَدْعُو النَّاسَ ؟

ندعو الناس إلى دين الله، ودين الله هو الإسلام، {وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} (٨٥) سورة آل عمران.

ندعو الناس إلى الإسلام بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، إسلام الوجه لله في صغير الأمر وكبيره، الإسلام بشموله وعمومه، الإسلام بدنيه وعقيدته وشريعته، الإسلام بنظامه وأخلاقه وسلامه وأخواته ومحبته، الإسلام بدنياه وآخرته وبكل ما أنزل على سيدنا محمد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، سائرین على سنته راجين السعادة والخير لكل الناس في الدنيا والآخرة .

عوامل (أسباب) نجاح الدعوة :

لكي تنجح الدعوة إلى الله، هناك أمور لا بد أن يراعيها الداعي ويعمل على تحقيقها، وأهمها :

١- الفهم الدقيق. ٢- الإيمان العميق. ٣- الحبُّ الوثيق . ٤- الوعيُّ الكامل. ٥- العملُ المُتواصل .

وفي سبيل الوصول إلى الدعوة الصحيحة يبع المسلم الله نفسه وماله ووقته ومواهبِه ... وكلُّ شيء، لأنَّ النتيجة والمُقابل من الله - تعالى - هو الجنة: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَ اللَّهُ أَجْنَبَهُمْ حَقًا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيَعِكُمُ الَّذِي بَأَيَّعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} (١١) سورة التوبة.

فأما الفهم الدقيق، فهو الفهم الصحيح لهذا الدين العظيم وطبيعته ومقاصده الحقيقة وما يدعو إليه. وإنَّ الفهم الخاطئ تكون نتائجه عكسيةً ضارًّا. وأما الإيمان فهو الأصلُ الأساسُ، وهو الغذاءُ المستمرُ الذي يدعو الداعية إلى مزيد من العمل والنشاط، لذا كان لا بدَّ أن يكون عميقاً، لأنَّ صاحبَ الإيمان السَّطْحِي قد يسقط مع مرور الأيام. وأما الحبُّ الوثيق، فهو الحبُّ القويُّ الذي يتوجَّهُ به الداعية نحو:

١- إخوانه الذين يعملون معه .

٢- الناس، وحبُّ الخير لهم وللمجتمع الذي يعيش فيه، وحبُّ الوطن والخير له .

٣- الدعوة، لأنَّها طريق السعادة للناس كُلُّ الناس .

وأما الوعيُّ الكامل، فهو سِيَّعَةُ الثقافةِ والمعلوماتِ ومعرفةُ ما يحدث حول الداعية من أمور، وما يَنْطَوِرُ مِنْ علومٍ واكتشافاتٍ علمية، وما ينتشر من أفكار، وما يحدث من حوادث، و" رحم الله امرءاً عرف عصره واستقامت طريقته ".

وَأَمَّا الْعَمَلُ فَلَا بَدَأْتُكُونَ مُتَوَاصِلًا غَيْرَ مُنْقَطِعٍ، فَعَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: سَدَّدُوا وَقَارُبُوا، وَاعْلَمُوا أَنْ لَنْ يُدْخِلَ أَحَدَكُمْ عَمَلَهُ الْجَنَّةَ، وَأَنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ ..^{٣١}



^{٣١} - مسند أحمد (عام المكتب) - (٥٤١ / ٨) (٢٦٣٤٣) (٢٦٨٧٤) - صحيح

المبحث الرابع

قواعد وأسس لفهم الصحيح

الفهم الدقيق هو الفهم الصحيح الشامل للإسلام وهو الفهم المطلوب وهناك كثير من القواعد والأسس التي وضعها بعض العلماء والتي تُعين وتساعد على ذلك الفهم، ومنها:

- الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة كلها، فهو دولة ووطن، وهو حُلُق وقوه ورحمة وعدلة، وهو ثقافة وقانون وهو علم وقضاء، وهو مادة وثروة أو كسبٌ وغنىًّا وهو دعوة وعقيدة صادقة وعبادة صحيحة ومحبة للناس.

- القرآن الكريم والسنة المطهّرة مرجعان في تعرّف أحكام الإسلام، ويفهمان وفقاً لقواعد اللغة العربية من غير تكُلف ولا تعسُف، ويرجح في فهم السنة المطهّرة إلى علماء الأمة الثقة.

- للإيمان الصادق والعبادة الصحيحة نورٌ وحلاوةٌ يُقدّمها الله في قلب من يشاء من عباده. ولكن الإلهام والخواطر والرؤى ليست من أدلة الأحكام الشرعية، ولا تعتبر بشرطٍ عند اصطدامها بأحكام الدين ونوصوته.

- التّمائِمُ والوَدَعُ والكَهَانَةُ وادعاء معرفة الغيب، وكل ما كان من هذا الباب منكر يجب تغييره، إلا ما كان آية من قرآن أو رُقْيَةٌ مأثورة.

- كل إنسان يؤخذ من كلامه ويترك إلا الرسول - ﷺ - الذي عصمه الله، وكل ما جاء عن الصحابة والتابعين - رضوان الله عليهم - موافقاً لكتاب الله والسنة قبلناه، وإن فهّما أولى بالاتّباع (وهذا يعرفه الأئمّة والعلماء وليس عامة الناس)، ولا تتعرّض للأشخاص في الأمور المختلفة فيها بطبعٍ أو تجريحٍ، ونكلُّهم إلى نياتهم.

- يجوز لكل مسلم لم يبلغ درجة النظر في أدلة الأحكام الفرعية أن يتبع إماماً من الأئمّة، ويحسّن به أن يجتهد ما استطاع في تعرّف أدله، وأن يتقبّل كل إرشاد مصّحّوب بالأدلة إذا تأكّد صلاح من أرْشدَه، وأن يتَّعلَّم ويستكمل نقصة العلمي إن كان من أهل العلم حتى يبلغ درجة النظر.

- الخلاف الفقهي في الفروع لا يكون سبباً للتفرقة في الدين، ولا يؤدي إلى خصومة ولا بعضاً، ولكل مجهود أجرة، ولا مانع من التحقيق العلمي النزيه في المسائل الخلافية في ظلّ الحبّ والتعاون للوصول إلى الحقيقة، من غير خصومة وتعصب.

- رأي الإمام (الحاكم) وناته فيما لا نصّ فيه، وفيما يحتمل وجوهاً عدّة، وفي المصالح المرسّلة معهول به ما لم يصطلح بقاعدة شرعية، وقد يتغير الظرف والعادات.

- كل مسألة لا ينبغي عليها عمل فالخوض فيها من التكليف الذي نهينا عنه شرعاً، ومن ذلك كثرة التفريعات في الأحكام التي لم تقع، والخوض في معان الآيات القرآنية الكريمة التي لم يصل إليها العلم بعد والكلام في المفاضلة بين الصحابة - رضوان الله عليهم - وما شحر بينهم من خلاف، ولكل منهم فضل صحبته وجزاء نيته، وفي التأول مذودة .

- معرفة الله - تبارك وتعالى - وتوحيده وتزييه أسمى عقائد الإسلام، وآيات الصفات وأحاديثها الصحيحة وما يليق بذلك من المتشابه، ونؤمن بها كما جاءت من غير تأويل ولا تعطيل، ولا نتعرض لما جاء فيها من خلاف بين العلماء، ويسعنا ما وسع رسول الله - ﷺ - وأصحابه، {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحَكَّمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَمَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَبَعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءُ الْفُتْنَةِ وَابْتِغَاءِ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلُهِ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلُّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَكُّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ} (٧) سورة آل عمران.

- كل بدعة لا أصل لها ولا دليل ولا قياس في دين الله، واستحسنها الناس بأهوائهم سواء بالزيادة فيها أو بالنقص منها، لا بد من تغييرها بأفضل الوسائل التي لا تؤدي إلى ما هو شرٌّ منها.

- البدعة الإضافية والتركية والالتزام في العبادات المطلقة خلاف فقهي، لكل فيه رأيه (من العلماء)، ولا بأس بتمحيص الحقيقة بالدليل والبرهان.

- محبة الصالحين واحترامهم والثناء عليهم بما عُرف من طيب أعمالهم قربة إلى الله - تبارك وتعالى -، والأولياء هم المذكورون في قول الله - تعالى - {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزُنُونَ} (٦٢) الذين آمنوا و كانوا يتّقون (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤) } [يونس: ٦٤].

والكرامة ثابتة لهم بشرائطها الشرعية، مع اعتقاد أئمهم - رضوان الله عليهم - لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم نفعا ولا ضرا في حياتهم أو بعد ما تهم .

- زيارة القبور ^{أيّاً} كانت سُنّةً مشروعة بالكيفية المأثورة، لكن الاستعانة بالموتى ونداءهم وطلب قضاء الحاجات منهم مباشرة والنذر لهم والتمسح بالقبور، والhalb ^{بغير الله} كبائر لا بد من تغييرها بوسائل حكيمه.

- الدعاء إذا قُرِنَ بالتوسل إلى الله بأحد من خلقه خلاف فرعي في كيفية الدعاء، وليس من مسائل العقيدة، والراجح جوازه بشروطه .

- العرف الخاطئ لا يغير حقائق الألفاظ الشرعية، بل يجب التأكيد من حدود المعانى المقصود بها والوقوف عندها، كما يجب الاحتراز من الخداع اللفظي في كل نواحي الدنيا والدين، فالعبرة بالمسمايات لا بالأسماء .

- العقيدة أساس العمل، وعمل القلب أهم من عمل الجارحة، وتحصيل الكمال في كليهما مطلوب شرعا، وإن اختلفت مراتبنا الطلب .

- الإسلام يحرر العقل، ويبحث على النظر في الكون، ويرفع قدر العلم والعلماء، ويرحب بالصالح النافع في كل شيء، والحكمة ضالة المؤمن أى وجدها فهو أحق الناس بها .

- وقد يتناول كُلُّ من النظر الشرعي والنظر العقلي ما لا يدخل في دائرة الآخر ولكنهما لن يختلفا في القطعي، فإن كانا ظنين فالنظر الشرعي أولى بالاتباع حتى يثبت العقلي أو ينهاه .

- لا نكفر مسلما أقر بالشهادتين وعمل بمقتضاهما وأدى الفرائض - بسبب رأي أو معصية - إلا إن أقر بكلمة الكفر أو أنكر معلوما من الدين بالضرورة، أو كذب صريح

القرآن، أو فسره على وجه لا تتحمله أساليب اللغة العربية بحال، أو عمل عملاً لا يحتمل تأويلاً غير الكفر .^{٣٢}



^{٣٢} - للتوسيع راجع كتبه ((الخلاصة في أحكام الاجتهاد والتقليد)) و((الخلاصة في شرح حديث الولي)) ، و((الواضح في أركان الإيمان))

المبحث الخامس

درجات الإصلاح في نظر الدعوة الصحيحة

- ١- إصلاح النفس حتى يكون المسلم صحيح الجسم متين الخلق، متتفق الفكر، قادرًا على الكسب، سليم العقيدة، صحيح العبادة، مجاحدًا لنفسه، حريصًا على وقته، منظماً في شؤونه، نافعاً للناس، محباً للخير والإصلاح.
- ٢- تكوين البيت المسلم الذي يقوم على أساس تقوى الله وحب الخير واحترام الدعوة، والمحافظة على آداب الإسلام في كل مظاهر الحياة المترتبة، وحسن اختيار الزوجة وحسن تربية الأولاد، لتصبح الأسرة نموذجاً صغيراً صالحاً للمجتمع الذي نشده.
- ٣- إرشاد المجتمع، بنشر دعوة الخير فيه، ومحاربة الرذائل والمنكرات وتشجيع الفضائل والمبادرة إلى فعل الخير، وكسب الرأي العام إلى جانب الفكرة الإسلامية.
- ٤- دعوة الحكومة ومؤسساتها لتطبيق شريعة الله بكل الوسائل الحكيمه وآداب الإسلام السامية، فالحكومة من الشعب وأعضاؤها يحتاجون إلى الإيمان وإدخال النور إلى قلوبهم برفق واحترام ومحبة وسلام وعلم.
- ٥- الدعوة إلى التعاون مع البلاد الإسلامية الراسدة أي القائمة على فهم الإسلام والعمل به فهما وعملاً سليمين؟ وذلك من أجل توحيد الجهود والتعاون على الخير وعلى نشر الفضائل وراحة الناس ومحاربة الشرور وأهل الفساد والتخريب.



المبحث السادس

من صفات الداعية الناجح

إننا لا نستطيع أن نفصل بين الدعوة والداعية، لأن المسلم الذي يفهم دعوته فهماً سليماً لكنه يسيء تقديمها للناس لا يقل خطراً عن المسلم الذي لا يفهم إسلامه الفهم الصحيح ولكنكه يجيد الحوار والكلام، فال الأول يسيء التقدم بالرغم من فهمه، والثاني يسيء العرض مع الجهل. ولذا فإن الدعوة تكون ناجحة مع الداعية الوعي الخلوق والذي توفر فيه صفات معينة. والدعوة تحتاج إلى دعوة مخلصين ورجال عاملين لأن الداعي ينشيء أمةً ويربّي أجيالاً لها صفات أخلاقية حددتها القرآن الكريم، وحققها الرسول - ﷺ - في صاحبته - رضوان الله عليهم -.

والدعوة الصحيحة تكتم أولاً بنوعية الدعوة لا بكميّتهم مع أن الكمية مهمة، ولننظر مثلاً إلى الصحابة الذين كانوا مع الرسول - ﷺ - في دار الأرقام، وكانوا قلةً ولكنهم كانوا عناصر بناءً بنواً أمةً بعد أن توفرت فيهم صفات أرادها الإسلام .

ومن أهم صفات الداعية :

١- حسن الصلة بالله - تعالى - أوّلاً وقبل كل شيء :

فقد الداعية مملوء بحب الله وخشية الله، فيحسن العبادة ويواكب عليها من صلاة، صيام، يتهدج في الليل والناس نيا، يذكر الله ولا يمل، يبتعد عن المحرمات صغيرها وكبيرها، ويسعى للزيادة من الأجر...

إن حسن الصلة بالله عز وجل.. مفتاح كل خير ومغلق كل شر، أن نحسن من صلتنا بالخالق الباري حل في علاه، ذلك أن قلوبنا بيد باريها يقلبها كيما شاء. ومن ذلك كمال التوحيد الإخلاص لله سبحانه واتباع أوامره واحتتاج نواهيه واتباع سنة نبيه صلوات ربى وتسليماته عليه، فعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَاهُ جِبْرِيلَ ﷺ، فَقَالَ: يَا جِبْرِيلُ إِنِّي أَحِبُّ فُلَانًا فَأَحَبَّهُ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ قَالَ: ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا، قَالَ: فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوَضِّعُ لَهُ الْفَبْولُ فِي

الأَرْضِ، وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَبْعَضَ عَبْدًا دَعَا حِبْرِيلَ، فَقَالَ: يَا حِبْرِيلُ، إِنِّي أَبْعَضُ فُلَانًا فَأَبْعَضْهُ، قَالَ: فَيَبْعَضُهُ حِبْرِيلُ، قَالَ: ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُبَعْضُ فُلَانًا فَأَبْعَضُهُ، قَالَ: فَيَبْعَضُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ تُوَضَّعُ لَهُ الْبَعْضَاءُ فِي الْأَرْضِ ^{٣٣}.

وَحَسْنُ الصلة بِاللَّهِ تَسْتُوْجِبُ عَلَيْنَا تَعْلِيقُ الْقَلْبِ بِاللَّهِ لَابْسُوَاهُ بِالذِّكْرِ وَالْمَرْاقِبَةِ وَالْخَشِيَّةِ وَالْحُبُّ، وَعَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: خَرَجَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ صَلَاتِ الصُّبُحِ، فَقَالَ: إِنَّ رَبِّي أَتَانِي الْلَّيْلَةَ فِي أَحْسَنِ صُورَةِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ هَلْ تَدْرِي فِيمَا يَخْتَصِّ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَ: ثُمَّ ذَكَرَ شَيْئًا، قَالَ: فَخُلِّيَ لِي مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ يَخْتَصِّمُونَ فِي الْكُفَّارَاتِ وَالدَّرَجَاتِ، فَأَمَّا الدَّرَجَاتُ: فَإِطْعَامُ الطَّعَامِ وَبَذْلُ السَّلَامِ، وَقِيَامُ اللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، وَأَمَّا الْكُفَّارَاتُ: فَمَسْهِيٌّ عَلَى الْأَقْدَامِ إِلَى الْجَمَاعَاتِ، وَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ فِي الْمَكْرُوهَاتِ، وَجُلُوسُهُ فِي الْمَسَاجِدِ خَلْفَ الصَّلَوَاتِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ قُلْ يُسْمَعُ، وَسَلْ تُعْطَهُ، قَالَ: قُلْتُ: فَعَلَّمْنِي، قَالَ: قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فَعْلَ الخَيْرَاتِ، وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ، وَأَنْ تَعْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي، وَإِذَا أَرْدَتَ فَتَتَّهُ فِي قَوْمٍ فَتَوَفَّنِي إِلَيْكَ وَأَنَا غَيْرُ مَفْتُونٍ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ حُبَكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّا يُبَلِّغُنِي حُبَكَ ^{٣٤}.

وَلَتَكُنْ لَدِينَا الثَّقَةُ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنَا إِذَا أَحَبَبْنَاهُ سَبَحَانَهُ وَدَأْمَنَا عَلَى ذَكْرِهِ وَشَكَرَهُ تَوَلَّنَا بِرِعَايَتِهِ وَفَتْحَ لَنَا مَغَالِقِ الْقُلُوبِ، وَأَسْعَدَ بَعْدَ أَحَبِّ رَبِّهِ فَأَحَبَّهُ وَرَزَقَهُ سَعَادَتِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

إِنْ كَانَتْ صَلَةُ الدَّاعِيَةِ بِاللَّهِ جَيْدَةً فَإِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - يُوفِّقُهُ لِلْخَيْرِ وَيُنَصِّرُهُ وَيُحَفِّظُهُ وَيُنَيرُهُ طَرِيقَهُ وَيُحِبِّبُ النَّاسَ فِيهِ .

٢- الصدق :

قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى -: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} ^(١١٩) سُورَةُ التَّوْبَةِ.

^{٣٣} - مسند أَحْمَدَ (عَالَمُ الْكِتَبِ) - (٣ / ٤٨٦) (٩٣٥٢) - ٩٣٤١ - وَصَحِّحَ مُسْلِمٌ - الْمَكْتَرُ - (٦٨٧٣)

^{٣٤} - كَشْفُ الْأَسْتَارِ - (٣ / ١٣) (٢١٢٨) صَحِّحَ لِعِيرَهُ

يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، امثّلوا أوامر الله واجتنبوا نواهيه في كل ما تفعلون وتركتون، وكونوا مع الصادقين في أيامهم وعهودهم، وفي كل شأن من شؤونكم.

وعن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: "إِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لِيَصُدِّقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صَدِيقًا، وَإِنَّ الْكَذَبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لِيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا" رواه الشيخان ^{٣٥}.

والناس يشقون بالصادق وإن خالفهم، ولنا في رسول الله ﷺ - عبرة، إذ كان يُدعى قبلبعثة "الصادق الأمين" .

والصدق أنواع، منها :

أ- صدق اللسان، وفي المعاريض كفاية وبعد عن الكذب. ففي غزوة بدر قال ابن هشام: " ثُمَّ نَزَلَ قَرِيبًا مِنْ بَدْرٍ فَرَكِبَ هُوَ وَرَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ قَالَ أَبْنُ هِشَامٍ: الرَّجُلُ هُوَ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ. قَالَ أَبْنُ إِسْحَاقَ كَمَا حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى بْنُ حِبْنَانَ: حَتَّى وَقَفَ عَلَى شَيْخٍ مِنْ الْعَرَبِ، فَسَأَلَهُ عَنْ قُرْيَشٍ، وَعَنْ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ وَمَا يَأْتِهُمْ فَقَالَ الشَّيْخُ لَهُ أَخْبَرُ كُمَا حَتَّى تُخْبِرَنِي مِمْنُ أَنْتُمْ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَخْبَرْنَاكَ قَالَ أَدَكَ بِذَكَرِكَ؟ قَالَ نَعَمْ قَالَ الشَّيْخُ فَإِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ خَرَجُوا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كَانَ صَدَقَ الَّذِي أَخْبَرَنِي، فَهُمُ الْيَوْمَ بِمَكَانِ كَذَا وَكَذَا، لِلْمَكَانِ الَّذِي بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَبَلَغَنِي أَنَّ قُرْيَشًا خَرَجُوا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كَانَ الَّذِي أَخْبَرَنِي صَدَقَنِي فَهُمُ الْيَوْمَ بِمَكَانِ كَذَا وَكَذَا لِلْمَكَانِ الَّذِي فِيهِ قُرْيَشٌ. فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ خَبَرِهِ قَالَ مِمْنُ أَنْتُمْ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَحْنُ مِنْ مَاءِ ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْهُ قَالَ يَقُولُ الشَّيْخُ مَا مِنْ مَاءٍ أَمْنٌ مَاءُ الْعِرَاقِ؟

^{٣٦}

^{٣٥} - صحيح البخاري- المكتـ - (٦٠٩٤) وصحـ مسلم- المكتـ - (٦٨٠٣) وشعب الإيمـ - (٦ / ٤٣٨) (٤٤٥٠)

^{٣٦} - سيرة ابن هشـ - (١ / ٦١٥) صـ مـ

ب- الصدق في الأعمال، فيقوم بها بأحسن صورة ويتقنها، فعن عائشة، قالت: قال

رسول الله ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتَقْنَهُ" ^{٣٧}.

ج- صدق الوفاء بالعهد، قال الله - تعالى - : {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمَنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا يَدْلُوا تَبْدِيلًا} (٢٣) سورة الأحزاب.

وعن حميد قال سأله أنساً. حدثنا عمرو بن زرارة حديث زياد قال حدثني حميد الطويل عن أنس - ^{٣٨} - قال غاب عمى أنس بن النضر عن قتال بدر فقال يا رسول الله، غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لعن الله أشهدنـي قتال المشركـين ليرـين الله ما أصـنع، فلـمـا كـانـ يـومـ أـحـدـ وـالـكـشـفـ الـمـسـلـمـونـ قـالـ «الـلـهـمـ إـنـيـ أـعـذـرـ إـلـيـكـ مـمـاـ صـنـعـ هـوـلـاءـ - يـعنـيـ أـصـحـابـهـ - وـأـبـرـأـ إـلـيـكـ مـمـاـ صـنـعـ هـوـلـاءـ» - يـعنـيـ المـشـرـكـينـ - ثـمـ تـقـدـمـ، فـاسـتـقـبـلـهـ سـعـدـ بـنـ مـعـاذـ، فـقـالـ يـاـ سـعـدـ بـنـ مـعـاذـ، الـجـنـةـ، وـرـبـ النـضـرـ إـنـيـ أـجـدـ رـيـجـهـاـ مـنـ دـوـنـ أـحـدـ. قـالـ سـعـدـ فـمـاـ اسـتـطـعـتـ يـاـ رـسـوـلـ الـلـهـ مـاـ صـنـعـ. قـالـ أـنـسـ فـوـجـدـنـاـ بـهـ بـضـعـاـ وـتـمـانـينـ ضـرـبـةـ بـالـسـيـفـ أـوـ طـعـنـةـ بـرـمـحـ أـوـ رـمـيـةـ بـسـهـمـ، وـوـجـدـنـاـ قـدـ قـتـلـ وـقـدـ مـثـلـ بـهـ الـمـشـرـكـونـ، فـمـاـ عـرـفـهـ أـحـدـ إـلـاـ أـخـتـهـ بـيـانـهـ. قـالـ أـنـسـ كـنـاـ نـرـىـ أـوـ نـظـنـ أـنـ هـذـهـ الـآـيـةـ نـزـلـتـ فـيـهـ وـفـىـ أـشـبـاهـهـ (مـنـ الـمـؤـمـنـينـ رـحـالـ صـدـقـواـ مـاـ عـاهـدـواـ اللـهـ عـلـيـهـ) إـلـىـ آخـرـ الـآـيـةـ ^{٣٩}.

د- صدق النية والإرادة، وهو الإخلاص، قال تعالى: {وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لِهِ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيَرْمُلُوا الرَّكَأَةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيمَةِ} (٥) سورة البينة.

٣- الأمانة:

وهي صفة وصف الله تعالى بها الرسل والأنبياء - عليهم السلام -، ومثال ذلك ما جاء

في سورة الشعراء :

وقال تعالى: {كَذَّبُتْ ثُمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخْوَهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) } [الشعراء: ١٤١ - ١٤٤]

^{٣٧} - شعب الإيمان - (٧ / ٢٣٣) (٤٩٣٠) صحيح

^{٣٨} - صحيح البخاري- المكتر - (٢٨٠٥)

وقال تعالى: { كَذَّبُتْ قَوْمٌ لُّوطَ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخْوَهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَأَتَقْوَا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) } [الشعراء: ١٦٠ - ١٦٣]

وقال تعالى: { كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيُّكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَأَتَقْوَا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) } [الشعراء: ١٧٦ - ١٧٩].

كَذَّبَتْ قَوْمٌ نُوحَ رَسَالَةَ نَبِيِّهِمْ، فَكَانُوا بِهَذَا مَكْذُوبِينَ لِجَمِيعِ الرَّسُلِ؛ لَأَنَّ كُلَّ رَسُولٍ يَأْمُرُ بِتَصْدِيقِ جَمِيعِ الرَّسُلِ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخْوَهُمْ نُوحٌ: أَلَا تَخْشَوْنَ اللَّهَ بِتَرْكِ عِبَادَةِ غَيْرِهِ؟ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فِيمَا أَبْلَغُكُمْ، فَاجْعَلُو إِيمَانَ وَقَايَةَ لَكُمْ مِنْ عِذَابِ اللَّهِ وَأَطِيعُونِ فِيمَا أَمْرَكُمْ بِهِ مِنْ عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ. وَمَا أَطْلَبُ مِنْكُمْ أَجْرًا عَلَى تَبْلِيغِ الرَّسَالَةِ، مَا أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، الْمُتَنَصِّرِ فِي خَلْقِهِ، فَاحْذَرُوْا عِقَابَهُ، وَأَطِيعُونِي بِاِمْتِنَالِ أَوْامِرِهِ، وَاحْتَنَابُ نَوَاهِيهِ.

وقال تعالى: { إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَئِنَّ أَنْ يَحْمِلُنَّهَا وَأَشْفَقُنَّ مِنْهَا وَحَمَلَهَا إِنْسَانٌ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا } (٢٢) سورة الأحزاب
إِنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالْجِبَالَ - الَّتِي اخْتَارَهَا الْقُرْآنُ لِيَحْدُثَ عَنْهَا - هَذِهِ الْخَلَائِقُ
الْضَّخْمَةُ الْمَهِيلَةُ، الَّتِي يَعِيشُ إِلَّا إِنْسَانٌ فِيهَا أَوْ حِيَالَهَا فَيَبْدُو شَيْئًا صَغِيرًا ضَئِيلًا. هَذِهِ الْخَلَائِقُ
تَعْرِفُ بِأَرْبَعِهَا بِلَا مُحَاوِلَةٍ، وَهَنْتَدِي إِلَى نَامُوسِهِ الَّذِي يَحْكُمُهَا بِخَلْقَتِهَا وَتَكْوِينَهَا وَنَظَامَهَا
وَتَطْبِيعِ نَامُوسِ الْخَالِقِ طَاعَةً مُبَاشِرَةً بِلَا تَدْبِرٍ وَلَا وَاسْطَةً. وَبَحْرِي وَفَقْ هَذَا النَّامُوسُ دَائِيَّةً لَا
تَنِي وَلَا تَتَخَلَّفُ دُورَتِهَا جُزْءًا مِنْ ثَانِيَةٍ وَتَؤْدِي وَظِيفَتِهَا بِحُكْمِ خَلْقَتِهَا وَطَبَيْعَتِهَا غَيْرُ شَاعِرَةً
وَلَا مُخْتَارَةً. هَذِهِ الشَّمْسُ تَدْوِرُ فِي فَلَكِهَا الْمُنْتَظَمَةِ الَّتِي لَا تَخْتَلُ أَبَدًا. وَتَرْسِلُ بِأَشْعَرَتِهَا
فَتَؤْدِي وَظِيفَتِهَا الَّتِي قَدَرَهَا اللَّهُ لَهَا وَتَجْذِبُ تَوَابَعَهَا بِلَا إِرَادَةٍ مِنْهَا فَتَؤْدِي دُورَهَا الْكَوْنِي
أَدَاءً كَامِلًا ..

وَهَذِهِ الْأَرْضُ تَدْوِرُ دُورَتِهَا، وَتَخْرُجُ زَرْعَهَا، وَتَقْوَى أَبْنَاءَهَا، وَتَوَارِي مُوتَاهَا، وَتَتَفَجَّرُ
يَنَابِيعَهَا. وَفَقْ سَنَةُ اللَّهِ بِلَا إِرَادَةٍ مِنْهَا.

وهذا القمر.وهذه النجوم والكواكب.وهذه الرياح والسحب.وهذا الهواء وهذا الماء ..وهذه الجبال.

وهذه الوهاد .. كلها .. كلها .. تضي لشأنها، بإذن ربها، وتعرف بارئها، وتخضع لمشيئته بلا جهد منها ولا كد ولا محاولة.لقد أشفقت من أمانة التبعة.أمانة الإرادة.أمانة المعرفة الذاتية، أمانة المحاولة الخاصة.

«وحملها الإنسان».الإنسان الذي يعرف الله بإدراكه وشعوره.ويهتدي إلى ناموسه بتدبره وبصره.ويعمل وفق هذا الناموس.محاولته وجهده.ويطيع الله بإرادته وحمله لنفسه، ومقاومة انحرافاته ونزغاته، ومجاهدة ميوله وشهواته .. وهو في كل خطوة من هذه الخطوات مرید.مدرک.يختار طريقه وهو عارف إلى أين يؤدي به هذا الطريق! إنما أمانة ضخمة حملها هذا المخلوق الصغير الحجم، القليل القوة، الضعيف الحول، المحدود العمر الذي تناوشه الشهوات والترعات والميل والآطماع ..

وإنما لخاطرة أن يأخذ على عاتقه هذه التبعة الثقلة.ومن ثم «كان ظلوما» لنفسه «جهولا» لطاقته.هذا بالقياس إلى ضخامة ما زج بنفسه لحمله.فأما حين ينهض بالتبعية.حين يصل إلى المعرفة الواصلة إلى بارئه، والاهتداء المباشر لناموسه، والطاعة الكاملة لإرادة ربه.المعرفة والاهتداء والطاعة التي تصل في طبيعتها وفي آثارها إلى مثل ما وصلت إليه من سهولة ويسر وكمال في السماوات والأرض والجبال ..الخلائق التي تعرف مباشرة، وتحتدي مباشرة، وتطيع مباشرة، ولا تحول بينها وبين بارئها وناموسه وإراداته الحوائل.ولا تقعدها المثبيطات عن الانقياد والطاعة والأداء .. حين يصل الإنسان إلى هذه الدرجة، وهو واعٌ مدرك مرید.فإنه يصل حقا إلى مقام كريم، ومكان بين حلق الله فريد. إنما الإرادة والإدراك والمحاولة وحمل التبعة .. هي هي ميزة هذا الإنسان على كثير من خلق الله.وهي هي مناط التكريم الذي أعلنه الله في الملأ الأعلى، وهو يسجد الملائكة لآدم.وأعلنه في قرآن الباقي وهو يقول: «ولَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ» ..فليعرف الإنسان مناط

تكريمه عند الله. ولينهض بالأمانة التي اختارها والتي عرضت على السماوات والأرض والجبال، فأيّن أن يحملنها، وأشفقن منها!.!^{٣٩}

والأمانة صفة واجبة على كل مسلم، ولكنها على الداعية أوجب، فيشعر بأن كل شيء في يديه أمانة سيحاسبه الله - عز وجل - عليه، فالجسم والوقت والفراغ والكلمات والدعوة نفسها والناس الذين يعلمهم أو يدعوه... كل ذلك أمانات لا بد من المحافظة عليها.

٤- الإخلاص :

والآيات الدالة على ذلك كثيرة، منها: {وَمَا أَمْرَوْا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءٌ وَيَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ} (٥) سورة البينة وما أمروا فيسائر الشرائع إلا ليعبدوا الله وحده فاصلين بعبادتهم وجهه، مائلين عن الشرك إلى الإيمان، ويقيموا الصلاة، ويؤدون الزكاة، وذلك هو دين الاستقامة، وهو الإسلام.

وقال تعالى: {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أُولَاءِ مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقْرَبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَادِبٌ كَفَّارٌ} (٣) سورة الزمر

وقال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلَيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} (١١٠) سورة الكهف. قل - أيها الرسول - لقلاه المشركين: إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ من ربّي إنما إلهكم الله واحد، فمن كان يخاف عذاب ربّه ويرجو ثوابه يوم لقائه، فليعمل عملاً صالحاً لربّه موافقاً لشرعه، ولا يشرك في العبادة معه أحداً غيره.

وقال عَلْقَمَةُ بْنُ وَقَاصِ الْلَّيْثِيُّ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ عَلَى الْمِنْرِ يُخْبِرُ بِذَلِكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَاتِ، وَإِنَّمَا

^{٣٩} - في ظلال القرآن - موافقاً للمطبوع - (٥ / ٢٨٨٤)

لِكُلِّ امْرِئٍ مَا تَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكُحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ » ^{٤٠} .

وعن مَعْقِلَ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: انْطَلَقْتُ مَعَ أَبِي بَكْرِ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: " يَا أَبَا بَكْرٍ، لِلشَّرِكِ فِي كُمْ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ "، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَهَلِ الشَّرِكُ إِلَّا مِنْ جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لِلشَّرِكِ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ، إِلَّا أَدْلُكَ عَلَى شَيْءٍ إِذَا قُلْتَهُ ذَهَبَ عَنْكَ قَلِيلٌ وَكَثِيرٌ " ^{٤١} قَالَ: " قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَمْ أَعْلَمْ " ^{٤٢} .

وعلى الداعية أن يخلص النية لله - تعالى - ويجدها حيناً بعد حين، فإن وسوس له الشيطان وشككه في نيته، فعليه أن يتغىظ بالله وأن يجدد النية ويمضي في العمل ولا يتركه، فإنما هي وساوس شيطانية ليحبط أعمال المؤمنين .

والأمثلة كثيرة عن المخلصين وقصصهم، منها :

عَنْ قُرَّةَ بْنِ خَالِدٍ، سَمِعْتُ الْحَسَنَ، فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ الْلَّوَامَةِ قَالَ: " إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا تَرَاهُ إِلَّا يَلْعُمُ نَفْسَهُ يَقُولُ: مَا أَرَدْتُ بِكَلِمَتِي، مَا أَرَدْتُ بِحَدِيثِ نَفْسِي، فَلَا تَرَاهُ إِلَّا يُعَاتِبُهَا، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَمْضِي قُدُّمًا فَلَا يُعَاتِبُ نَفْسَهُ " ^{٤٣} .

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: " يَبْيَمَا ثَلَاثَةُ نَفَرٍ يَتَمَشَّوْنَ أَحَدَهُمُ الْمَطَرُ، فَأَوْوَا إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ، فَأَنْحَطَتْ عَلَى فِمْ غَارِهِمْ صَخْرَةً مِنَ الْجَبَلِ، فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْظُرُوا أَعْمَالًا عَمِلْتُمُوهَا صَالِحَةً لِلَّهِ، فَادْعُوا اللَّهَ تَعَالَى بِهَا، لَعَلَّ اللَّهَ يَفْرُجُهَا عَنْكُمْ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالدَّانِ شِيَخَانَ كَبِيرَانِ، وَأَمْرَأَتِي، وَلِي صِبِيَّةٌ صِعَارٌ أَرْعَى عَلَيْهِمْ، فَإِذَا أَرَحْتُ عَلَيْهِمْ، حَلَبْتُ، فَبَدَأْتُ بِوَالَّدِيَّ، فَسَقَيْتُهُمَا قَبْلَ بَنِيَّ، وَأَنَّهُ نَأَى بِي ذَاتَ يَوْمِ الشَّجَرِ، فَلَمْ آتَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا، فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ، فَجِئْتُ بِالْحِلَابِ، فَقُمْتُ عَنْدَ رُؤُوسِهِمَا أَكْرَهُ أَنْ أُوْقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا،

^{٤٠} - مسند الحميدى - المكتز - (٣١) وصحىح البخارى - المكتز - (١)

^{٤١} - الْأَدَبُ الْمُفْرَدُ لِبِلْبَخَارِيِّ (٧٣٨) صحيح لغيره

^{٤٢} - الرُّهْدُ لِأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ (١٦٣٤) صحيح

وأَكْرَهَ أَنْ أَسْقِيَ الصَّبَّيَةَ قَبْلَهُمَا، وَالصَّبَّيَةُ يَتَضَاغُونَ عَنْدَ قَدَمَيِّ، فَلَمْ يَزِلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبُهُمْ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرَجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً، تَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ، فَفَرَّجَ اللَّهُ مِنْهَا فُرْجَةً، فَرَأَوْا مِنْهَا السَّمَاءَ، وَقَالَ الْأَخْرُ: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي ابْنَةٌ عَمٌ أَحْبَبْتُهَا كَأَشَدَّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ، وَطَلَبْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا، فَأَبَتْ حَتَّى آتَيْهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَتَعَبَّتْ حَتَّى جَمَعْتُ مِائَةَ دِينَارٍ، فَجَهْتُهَا بِهَا، فَلَمَّا وَقَعْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا، قَالَتْ: يَا عَبْدَ اللَّهِ اتَّقِ اللَّهَ، وَلَا تَنْفَتِحْ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَقَمْتُ عَنْهَا، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرَجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً، فَفَرَّجَ لَهُمْ وَقَالَ الْأَخْرُ: اللَّهُمَّ إِنِّي كُنْتُ أَسْتَأْجِرُتُ أَجِيرًا بِفَرْقِ أَرْزٍ، فَلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ قَالَ: أَعْطِنِي حَقِّي، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ فَرَقَهُ فَرَغَبَ عَنْهُ، فَلَمْ أَرْزِلْ أَزْرَعَهُ حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ بَقِرًا وَرَعَائِهَا، فَجَاءَنِي فَقَالَ: اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَظْلِمْنِي حَقِّي، قُلْتُ: اذْهَبْ إِلَيْ تِلْكَ الْبَقَرِ وَرَعَائِهَا، فَخُدْهَا فَقَالَ: اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَسْتَهْزِئْ بِي فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئْ بِكَ، حُذْ ذَلِكَ الْبَقَرِ وَرَعَائِهَا، فَأَخَذَهُ فَذَهَبَ بِهِ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرَجْ لَنَا مَا بَقِيَ، فَفَرَّجَ اللَّهُ مَا بَقِيَ ^{٤٣}.

يفرجها عنكم معناه يكشفها بأن يجعل فيها فروجا.

فإذا أرحت عليهم: أي إذا ردت الماشية من المرعى إليهم، وإلى موضع مبيتها، وهو مراحها. يقال: أرحت الماشية وروحتها، يعني.

نَأَى بِي ذَاتِ يَوْمِ الشَّجَرِ: وَمَعْنَاهُ بَعْدِ وَالنَّأْيِ بِالْبَعْدِ.

يتضاغون: أي يصيرون ويستغيثون من الجوع.

فلم يزل ذلك دأبِي: أي حالِي اللازم.

بفرق: بفتح الراء ويسكناها، لغتان، الفتح أجود وأشهر. وهو إناء يسع ثلاثة آصح جمع صاع ومقداره خمسة أرطال وثلث على رأى الشافعي، أو ثانية على رأى أبي حنيفة. ينظر: لسان العرب.

الرّعاء بكسر الراء وضمها: جمع راع وهو من يقوم بمهنة الرعي. (القاموس).

^{٤٣} - صحيح مسلم - المكتبة - (٧١٢٥)

* دلائل الإخلاص*

وللإخلاص دلائل وعلامات كثيرة تظهر في حياة المخلص وسلوكه ونظرته إلى نفسه والناس، منها :

١- الخوف من الشهرة، وخصوصاً إذا كان من أصحاب المواهب. عن إبراهيم بن أدهم قال: "لَمْ يُصَدِّقِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ أَحَبَ الشَّهْرَةَ" ^{٤٤}، وقال إبراهيم بن الأشعث: سمعت الفضيل، يقول: بلغني "أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى، يَقُولُ لِلْعَبْدِ فِي بَعْضِ مِنْهُ مَنْ بِهَا عَلَيْهِ: "أَلَمْ أَنْعَمْ عَلَيْكَ؟ أَلَمْ أُعْطَكَ؟ أَلَمْ أَسْتَرِكَ؟ أَلَمْ أَلْمَ؟ أَلَمْ أُخْمَدْ ذِكْرَكَ؟" قال: وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: إِنْ قَدِرْتَ أَنْ لَا تُعْرِفَ فَافْعُلْ، وَمَا عَلَيْكَ أَلَا تُعْرِفَ، وَمَا عَلَيْكَ أَلَا يُشَنِّ عَلَيْكَ، وَمَا عَلَيْكَ أَنْ تَكُونَ مَذْمُوماً عِنْدَ النَّاسِ إِذَا كُنْتَ مَحْمُوداً عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ" ^{٤٥}.

ولكن لا يفهم من هذا الدعوة إلى الإنطوائية والعزلة، فإبراهيم بن أدهم والفضيل بن عياض وغيرهم إنما هم دعاة مصلحون كان لهم آثار في دعوة المجتمع وتوجيهه وإصلاحه. ولكن الذي يفهم من ذلك اليقظة المستمرة لشهوات النفس الخفية والحذر من مداخل الشيطان، فالشهرة في ذاتها ليست مذمومة، فليس هناك أشهر من الأنبياء والخلفاء الراشدين والأئمة المجتهدون، ولكن المذموم هو طلب الشهرة والحرص عليها.

٢- أئم النفس، فالمخلص يتهم نفسه دائماً بالتقدير، ويخشى من سيناته ألا تُعْفَرُ ومن حسناته ألا تُتَقْبَلْ {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتُوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَّةُ أَنْهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ} (٦٠) سورة المؤمنون.

والذين يجتهدون في أعمال الخير والبر، وقلوبهم خائفة ألا تُتَقْبَلْ أعمالهم، وألا تنجيهم من عذاب ربهم إذا رجعوا إليه للحساب.

٣- العمل في صمت بعيداً عن الأضواء (الجندى المجهول).

^{٤٤} - الزهد لأحمد بن حنبل - (٢٢٧٦) بлагاء

^{٤٥} - التواضع والحمول لابن أبي الدنيا (١٧)

٤- ألا يطلب المدح ولا يغترّ به، عن الأوزاعي، قال: "إذا أتني رجُلٌ على رجُلٍ في وجهه، فليقل: اللهم أنت أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي من الناس، اللهم لا تؤاخذني بما يقولون، واغفر لي ما لا يعلّمون" ^{٤٦} ..

وعن رجُلٍ كان من صدر هذه الأمة، قال: كانوا إذا أتّنوا عليه فسمع ذلك، قال: اللهم لا تؤاخذني بما يقولون، واغفر لي ما لا يعلّمون ^{٤٧} .

٥- ألا يُخَلِّ بِمَدْحَ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْمَدْحَ، وربما كان المانع من المدح هو في النفس أو حسداً متمنكاً، فهو يخاف مراحمته على مركره أو منافسته في مترنه وهو لا يملك أن يُطلق لسانه بذمه فعلى الأقل يسكت عن مدحه !!

٦- استواء العمل في القيادة والجندي، فالمخلص يعمل إن كان مسؤولاً أو كان تابعاً، إن كان مديراً أو كان خادماً، إن كان مفتياً أو كان إمام مسجد أو مصلياً عادياً، فالمهم العمل والدعوة وليس المهم الشخص.

قال ابن عون: ولِيْ عُمْرُ، فَقَالَ: لَأَنْتِ عَنَّ خَالِدًا، حَتَّى يُعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ إِنَّمَا يَنْصُرُ دِينَهُ. يَعْنِي: بِعِيرِ خَالِدٍ ^{٤٨} .

وعن أبي وائل أظلن قال: لَمَّا حَضَرَتْ خَالِدًا الْوَفَاءَ، قَالَ: لَقَدْ طَلَبْتُ الْقَتْلَ مَظَاهِهِ، فَلَمْ يُقْدِرْ لِي إِلَّا أَنْ أَمُوتَ عَلَى فَرَاشِي، وَمَا مِنْ عَمَلِي شَيْءٌ أَرْجَى عَنِّي بَعْدَ التَّوْحِيدِ مِنْ لَيْلَةِ بُنْهَا وَأَنَا مُتَرِّسٌ، وَالسَّمَاءُ تُهَلِّئِي، تَنْتَظِرُ الصُّبْحَ حَتَّى تُغَيِّرَ عَلَى الْكُفَّارِ. ثُمَّ قَالَ: إِذَا مَتُّ، فَانْظُرُوا إِلَى سَلَاحِي وَفَرَسِي، فَاجْعِلُوهُ عُدَّةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ. فَلَمَّا تُوْفِيَ، خَرَجَ عُمَرُ عَلَى جَنَارَتِهِ، فَذَكَرَ قَوْلَهُ: مَا عَلَى آلِ الْوَلِيدِ أَنْ يَسْفَحَنَ عَلَى خَالِدٍ مِنْ دُمُوعِهِنَّ، مَا لَمْ يَكُنْ تَقْعَدَأَوْ لَقْلَقَةً ^{٤٩} .

التقع: التراب على الرؤوس، واللقلقة: الصراخ.

^{٤٦} - شعب الإيمان - (٦ / ٤٥٣٣) صحيح

^{٤٧} - مصنف ابن أبي شيبة - (١٤ / ٥٦) (٣٦٨٥٣)

^{٤٨} - سير أعلام النبلاء - (١ / ٣٧٨)

^{٤٩} - سير أعلام النبلاء - (١ / ٣٨١) صحيح

إن حاجة البشر إلى هداة صالحين، كحاجة الأرض الجُرُز إلى ماء الغمام، والجِياع إلى قوام الطعام.

ولكن كثيراً من العاملين الباذلين يتغون الحرص على رضاء الناس، والازدلاف إلى قلوبهم، ويرجون أن يروا لكل عمل أو قول يقدّمونه أثراً ظاهراً في عيون الناظرين، وآذان السامعين، وأفواه المتكلّمين، فكلما ولدت في نفوسهم مشاعر العجب والارتياح المُدلي إلى الغرور، أرخوا لآخيلتهم العنان، لتسرح في أحاسيس الناس وأحكامهم، ويتساءلون هل رضي المشاهدون أو السامعون أو القارئون عن أعمالهم أم سخطوا؟ ويستتبون كل غاد أو رائح عن رأيه في أقوالهم وأفعالهم، فإن يسمعوا مدحًا وثناءً، طاروا به فرحاً وإعجاباً، وإن يسمعوا ذمّاً وهجاءً، حصرت صدورهم غيظاً وإياساً.

إن ظواهر الحياة وأحداثها تدلّ على أن الكثيرين من المصلحين، ومن دعاء الإحسان وسُعاة الخير، لم يحرّروا سرائرهم، ولم يختبروا صدق نواياهم، فلا يعلم أحدّهم إذا كان يحدّث الناس ليعجبهم أم لينفعهم، وإن كان يكتب للناس ليُطّرِبُهم أم ليُرشّدهم، وإذا أسدى إليهم البرّ والمعروف ليخدمهم أم ليستخدمهم؟! وهل يفعل ذلك وغيره ليقول له الناس: أحسنت وأجدت، أم ليقول لسان حالهم: تركت في نفوسنا أثراً طيّباً مما فعلت! ومن هؤلاء من يظنّ نفسه أنه ابن بُجْدَة الإصلاح، وقطب دائرته، وهو في حقيقة الأمر لا في العير ولا في النغير، وما هو إلا مغور ضعيف النفس، كثير التّقص، يرى في نفسه أضعاف ما يرى فيه غيره^{٥٠}.

٧- الاحتفال برضاء الله لا الناس، فاللهم رضاء الله حتى وإن سخط عليه الناس (مع مراعاة الاحترام والحكمة)، فعن عائشة: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ عَلَيْهِ السَّلَامَ كَفَاهُ اللَّهُ، وَمَنْ أَسْخَطَ اللَّهَ بِرِضَا النَّاسِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ^{٥١} . وإرضاء الناس كلهم غاية لا تدرك، وما أجمل قول القائل :

فليتك تخلو والحياة مريرة وليتك ترضي والأنام غضاب^{٥٢}

^{٥٠} - <http://alboraq.info/showthread.php?t=37921>

^{٥١} - صحيح ابن حبان - (١ / ٥١١) (٢٧٧) صحيح

وليت الذي بيبي وبينك عامر ... وبيبي وبين العالمين خراب
إذا صحَّ منك الودُّ فالكلُّ هيَنٌ وَكُلُّ الذي فوق الترابِ ترابٌ
٨- جعل الرضا والسخط لله لا للنفس .

٩- الصبر على طول الطريق، هذا ما صنع نوح وهذا ما قال عاد يعرضه على ربه وهو يقدم حسابه الأخير في نهاية الأمد الطويل. وهو يصور الجهد الدائب الذي لا ينقطع: {قالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا} (٥) سورة نوح ..
ولا يمل ولا يفتر ولا يئس أمم الإعراض والإصرار: «فَلَمْ يَرْدُهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا» .. فرارا من الداعي إلى الله. مصدر الوجود والحياة، ومصدر النعم والآلاء، ومصدر المدى والنور. وهو لا يطلب أحرا على السماع ولا ضريبة على الاهتداء!^{٥٢}
فلا يستعجل الثمرة قبل أوانها ولا يكسل عن العمل والدعوة بالحكمة والمعونة الحسنة .

١٠- الفرح بكلِّ كِفايَةٍ (موهبةٍ) تَبَرُّزُ، لأنَّها تعني تقدماً في العمل والدعوة إلى الحق .

١١- الحرص على العمل الأنفع والأرضي لله لا الأرضي للنفس، والأنفع للناس والأمة لا الأنفع للنفس. فعن أُمِّ الدَّرْدَاءِ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "أَلَّا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ؟" قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: "صَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ" . قَالَ: "وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالَةُ" .^{٥٣} ..

١٢- السلام من آفة العجب، وعن ابنِ الْمُبَارَكِ ؛ قَالَ: قَالَ هِشَامُ بْنُ حَسَانَ: سَيِّةٌ تسوؤك خَيْرٌ مِنْ حَسَنَةٍ تُعْجِبُكَ^{٥٤} ..

١٣- الحذر من مدح النفس والثناء عليها، قال الله - تعالى -: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُرَكِّونَ أَنفُسَهُمْ بِاللَّهِ يُرَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلِمُونَ فَتَيَّلَ} (٤٩) سورة النساء

^{٥٢} - في ظلال القرآن — موافقاً للمطبوع - (٦ / ٣٧١٢)

^{٥٣} - شعب الإيمان - (٤٢٨ / ١٣) (١٠٥٧٨) صحيح

^{٥٤} - المخالسة وحوافر العلم - (٥ / ٢١٦٠) (٣٠٠) صحيح

ألم تعلم - أيها الرسول - أمر أولئك الذين يُثرون على أنفسهم وأعمالهم، ويصفونها بالطهر والبعد عن السوء؟ بل الله تعالى وحده هو الذي يبني على من يشاء من عباده، لعلمه بحقيقة أعمالهم، ولا يُنقصون من أعمالهم شيئاً مقدار الخيط الذي يكون في شق نَوَّة التمرة.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - قَالَ « إِذَا قَالَ الرَّجُلُ هَلْكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلُكُهُمْ » رواه مسلم ^{٥٥}.

* من ثمرات الإخلاص*

للإخلاص ثمرات طيبة في النفس والحياة، منها :

١ - السكينة النفسية، قال الله - تعالى - : { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءٌ مُتَشَابِهُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتُوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بِلْ أَكْثُرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } (٢٩) سورة الزمر.

ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لشركاء متنازعين، فهو حيران في إرضائهم، وعبدًا خالصًا لمالك واحد يعرف مراده وما يرضيه، هل يستويان مثلاً؟ لا يستويان، كذلك المشرك هو في حيرة وشك، والمؤمن في راحة واطمئنان. فالثناء الكامل التام لله وحده، بل المشركون لا يعلمون الحق فيتبعونه.

٢ - القوة الروحية المستمدّة من سمو الغاية التي أخلص لها نفسه وهي رضاء الله - تبارك وتعالى - .

٣ - الاستمرار في العمل، ولذا قال الصالحون: ما كان الله دام واتّصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل ^{٥٦}.

٤ - تحويل المباحثات والعادات إلى عبادات .

٥ - إحراز ثواب العمل وإن لم يتمه أو لم يعمله، وقال الله - تعالى - : { وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ

^{٥٥} - صحيح مسلم - المكتبة - (٦٨٥٠)

^{٥٦} - القرآن منهاج حياة - (٣ / ٦٠)

وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} (١٠٠) سورة النساء.

وَمَنْ يَخْرُجُ مِنْ أَرْضِ الْشَّرْكِ إِلَى أَرْضِ الْإِسْلَامِ فَرَارًا بِدِينِهِ، رَاجِيًّا فَضْلَ رَبِّهِ، فَاصْدَأَ نَصْرَةً دِينِهِ، يَجِدُ فِي الْأَرْضِ مَكَانًا وَمُتَحَوِّلًا يَنْعَمُ فِيهِ بِمَا يَكُونُ سَبِيلًا فِي قُوَّتِهِ وَذُلَّةِ أَعْدَائِهِ، مَعَ السُّعَةِ فِي رِزْقِهِ وَعِيشَهُ، وَمَنْ يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ قَاصِدًا نَصْرَةَ دِينِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ، وَإِعْلَاءَ كَلْمَةِ اللَّهِ، ثُمَّ يَدْرِكُهُ الْمَوْتُ قَبْلَ بَلوغِهِ مَقْصِدِهِ، فَقَدْ ثَبَّتَ لَهُ جَزَاءُ عَمَلِهِ عَلَى اللَّهِ، فَضْلًا مِنْهُ وَإِحْسَانًا. وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا بِعِبَادِهِ.

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: "مَنْ أَتَى فَرَاسَهُ وَهُوَ يَنْوِي أَنْ يَقُولَ يُصْلِيَ مِنَ الْلَّيْلِ فَعَبَتْهُ عَيْنُهُ حَتَّى يُصْبِحَ، كُتُبَ لَهُ مَا تَوَى، وَكَانَ تَوْمَهُ صَدَقَةً عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ" رواه النسائي ^{٥٧}.

٦- النصر والكفاية الإلهية، فالمخلص مؤيد من الله وعلى قدر إخلاص المرء لله يكون مدد الله وعونه له فعن سعيد بن أبي بُرْدَةَ بْنِ أَبِي مُوسَى، عن أَبِي هُرَيْرَةَ ؛ قَالَ: قَالَ عُمَرُ بْنُ الخطاب رضي الله عنه : مَنْ حَلَّصَتْ نَيْتُهُ وَلَوْ عَلَى نَفْسِهِ ؛ كَفَاهُ اللَّهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ ^{٥٨}.

٧- تأييد الله - تعالى - و معونته في الشدائيد والأزمات .

* من بواعث الإخلاص*

هناك أمور تعين المسلم على إخلاص النية والعمل لله - تعالى -، ومنها :

- ١- العلم الراسنخ {رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا تُخْفِي وَمَا تُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فَيِ الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ} (٣٨) سورة إبراهيم
- ٢- صحبة أهل الإخلاص، ليتأسى بهم ويتخلق بأخلاقهم، وقد صور لنا الرسول - ﷺ - أثر الصحبة والجالسة تصویراً مُعْبِراً، فعن أبى موسى عن النبى ﷺ - قَالَ «إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيلِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيلِ السُّوءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ

^{٥٧} - السنن الكبير للنسائي (١٤٣٩) صحيح

^{٥٨} - الجالسة وحوافر العلم - (٨ / ٢٦٧) (٣٥٣٤) صحيح لغيره

يُحذِّيكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً وَنَافِخُ الْكَبِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً »^{٥٩} ..

وقال الله - عز وجل - : {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الدِّينِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاءِ وَالْعَشِّيْرِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلَنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَأَتَيْهُ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} (٢٨) سورة الكهف.

واصبر نفسك - أيتها النبي - مع أصحابك من فقراء المؤمنين الذين يعبدون ربهم وحده، ويدعونه في الصباح والمساء، يريدون بذلك وجهه، واحلس معهم وخالفتهم، ولا تصرف نظرك عنهم إلى غيرهم من الكفار لإرادة التمتع بزينة الحياة الدنيا، ولا تطع من جعلنا قلبه غافلا عن ذكرنا، وآخر هواه على طاعة مولاه، وصار أمره في جميع أعماله ضياعاً وهلاكاً. وعن أبي هريرة قال: المؤمن من مرأة أحيه، إذا رأى فيها عيّناً أصلحةً^{٦٠} .

وعن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: "المؤمن من مرأة المؤمن، والمؤمن من أخو المؤمن، يكف عنده ضياعه، ويحوطه من ورائه"^{٦١} .

٣- قراءة سيرة المخلصين .

٤- المحادثة للنفس الأمارة بالسوء، ومقاومة رغباتها الذاتية والدنيوية .

٥- الدعاء والاستعانة بالله، {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} (٥) سورة الفاتحة، والدعاء سلاح المؤمن، وسبب من الأسباب الروحية التي شرعها الله للإنسان ليحقق مطالبه ويسد حاجاته. فعن عليٍّ، قال: قال رسول الله ﷺ: الدُّعَاءُ سِلَاحُ الْمُؤْمِنِ، وَعِمَادُ الدِّينِ، وَنُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ^{٦٢} .

٥- الرحمة والرفق والحلم، وهذه صفات لا يستغني عنها الداعية بأية حالة، فلا بد أن

يعرف :

^{٥٩} - صحيح مسلم- المكتبة - (٦٨٦٠)

^{٦٠} - الأدب المفرد لبيهارى (٢٤٠) صحيح

^{٦١} - سنن أبي داود (٤٣٣٥) صحيح

^{٦٢} - مستند أبي يعلى الموصلي - (١ / ٢١٢) (٤٣٩) ضعيف

- أنَّ رسالته للناس جميـعاً هي رسالة رحمة كما أخبرنا الله - عز وجل - مخاطباً الرسول - ﷺ : {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} (١٠٧) سورة الأنبياء والخطاب هنا للرسول - ﷺ - ولكل داعية يسير على خطاه إلى يوم الدين. والرحمة هي رحمة في العقيدة ورحمة في التشريع ورحمة في الأخلاق وفي كل مَنْحَىٰ من مناحي الحياة، حتى مع الحيوان والنبات !
- أنَّ قراءته للفاتحة في كل صلاة هي تذكير له بالرحمة، فهو يبدأ قراءته بـ " بـسـمـ اللـهـ الرـحـمـنـ الرـحـيمـ ، الحـمـدـ اللـهـ رـبـ الـعـالـمـيـنـ الرـحـمـنـ الرـحـيمـ .." .
- أنَّ الرحمة سببٌ كبير في تقبل القلوب للحق، قال الله - تعالى - {فِيمَا رَحْمَةٌ مِّنَ اللَّهِ لِنَتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَطَّا غَلِيظَ الْقُلُبَ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ إِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} (١٥٩) سورة آل عمران

وعن أبي هريرة، قال: أَبْصَرَ الْأَقْرَعُ بْنَ حَابِسٍ التَّمِيمِيَ النَّبِيَّ ﷺ يُقْبَلُ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ، فقال: إِنَّ لِي عَشْرَةً مِنَ الْوَلَدِ، مَا قَبَلْتُ أَحَدًا مِنْهُمْ، فقالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ: مَنْ لَا يَرْحَمْ لَأُرْحَمْ .^{٦٣}

- أنَّ الرحمة مرتبطـةـ بـالـإـشـفـاقـ عـلـىـ النـاسـ لـاـ بـعـضـهـمـ، والـدـاعـيـةـ حـينـ يـنـظـرـ إـلـىـ النـاسـ هـذـهـ النـظـرـةـ الـخـانـيـةـ الـمـشـفـقـةـ فـإـنـهـ يـكـوـنـ مـتـأـسـيـاـ (ـمـقـتـدـيـاـ) بـأـخـلـاقـ الرـسـوـلـ - ﷺـ، حـيـثـ وـصـفـهـ اللـهـ - تـعـالـيـ - : {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَوُوفٌ رَّحِيمٌ} (١٢٨) سورة التوبـةـ .
لـقـدـ جـاءـكـمـ أـيـهـاـ الـمـؤـمـنـوـنـ رـسـوـلـ مـنـ قـوـمـكـمـ، يـشـقـ عـلـيـهـ مـاـ تـلـقـوـنـ مـنـ الـمـكـروـهـ وـالـعـنـتـ، حـرـيـصـ عـلـىـ إـيمـانـكـمـ وـصـلـاحـ شـأـنـكـمـ، وـهـوـ بـالـمـؤـمـنـيـنـ كـثـيرـ الرـأـفـةـ وـالـرـحـمـةـ .
- أنَّ من الرحمة التيسير على الناس لا التعسـيرـ، كما قال الله - تعالى - : {..يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ..} (١٨٥) سورة البقرـةـ .

^{٦٣} - صحيح البخارـيـ - المـكـتـرـ - (٥٩٩٧) وـصـحـيـحـ مـسـلـمـ - المـكـتـرـ - (٦١٧٠) وـصـحـيـحـ اـبـنـ حـيـانـ - (٢٠٢) (٤٥٧)

وعن عائشة - أَنَّ يَهُودَ أَتَوْا النَّبِيَّ - ﷺ - فَقَالُوا السَّامُ عَلَيْكُمْ. فَقَالَتْ عَائشَةُ عَلَيْكُمْ، وَلَعَنْكُمُ اللَّهُ، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ. قَالَ «مَهْلًا يَا عَائشَةً، عَلَيْكِ بِالرُّفْقِ، وَإِيَّاكَ وَالْعُنْفَ وَالْفُحْشَ». قَالَتْ أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا قَالَ «أَوَلَمْ تَسْمَعِي مَا قُلْتُ رَدَدْتُ عَلَيْهِمْ، فَيُسْتَحَابُ لِي فِيهِمْ، وَلَا يُسْتَحَابُ لَهُمْ فِي» ^{٦٤}.

وعن أبي موسى الأشعري، قال: لَمَّا عَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمُعاذَ بْنَ جَبَلٍ إِلَى الْيَمَنِ، أَمَرَنَا أَنْ يَنْزَلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا قَرِيبًا مِنْ صَاحِبِهِ، فَقَالَ لَنَا: يَسِّرْا وَلَا تُعَسِّرْا، وَبَشِّرْا وَلَا تُنَفِّرْا فَلَمَّا قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفْتَنَا فِي شَرَائِنِ كُنَّا نَصْعُبُهُمَا: الْبَعْثُ مِنَ الْعَسْلِ يُبَدِّدُ حَتَّى يَسْتَدَدُ، وَالْمِزْرُ مِنَ الشَّعِيرِ وَالذَّرَّةِ يُبَدِّدُ حَتَّى يَسْتَدَدُ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ أُوتِيَ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَخَوَاتِمَهُ، فَقَالَ ﷺ: حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كُلُّ مُسْكِرٍ يُسْكِرُ عَنِ الصَّلَاةِ. متفق عليه ^{٦٥}.
وعن أنسٍ عن النبي - ﷺ - قَالَ «يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا» ^{٦٦}.

ومن التيسير اختيار الأيسر، فعن عائشة زوج النبي، أنها قالت: مَا خَيْرٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِنْمَا، فَإِنْ كَانَ إِنْمَا كَانَ أَعْدَدَ النَّاسِ عَنْهُ، وَمَا اتَّقَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تُنَهَّكَ حُرْمَةُ اللَّهِ فَيَتَقَمَ لِلَّهِ بِهَا ^{٦٧}.

- والعسر الذي يرغبه بعض المسلمين إنما هو راجع إلى عوامل نفسية عنده وليس سبب ذلك الإسلام، فلا بد من تربية النفس تربية حقةً مستنيرةً دون تعقيد أو تعسیر.

- أَنَّ الْحَلْمَ حَلْقٌ يَحْبِهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَهَذَا مَا قَالَهُ الرَّسُولُ - ﷺ - لِلأشجع رئيْسَ قَبْيلَةِ عبد قيس فَعَنِ الْأَشْجَعِ الْعَصْرَى: أَنَّهُ أَئْتَ النَّبِيَّ ﷺ فِي رُفْقَةِ مِنْ عَبْدِ الْقِيسِ لِيَزُورَهُ فَأَقْبَلُوا، فَلَمَّا قَدِمُوا رَفَعَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَنَاخُوا رِكَابَهُمْ، فَأَبْتَدَرَ الْقَوْمُ، وَلَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا ثِيَابَ سَفَرِهِمْ، وَأَفَّاقَ الْعَصْرَى فَعَقَلَ رِكَابَ أَصْحَابِهِ وَبَعِيرَهُ، ثُمَّ أَخْرَجَ ثِيَابَهُ مِنْ عَيْنِهِ وَذَلِكَ

^{٦٤} - صحيح البخاري- المكتـ - (٦٠٣٠)

^{٦٥} - صحيح البخاري- المكتـ - (٤٣٤١ و ٤٣٤٢) و صحيح مسلم- المكتـ - (٤٦٢٣) و صحيح ابن حبان -

(١٩٦/٥٣٧٦)

^{٦٦} - صحيح البخاري- المكتـ - (٦٩)

^{٦٧} - مسند أبي يعلى الموصلي (٤٣٨٢) صحيح

بِعَيْنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّ فِيكَ لَخَصَّلَتِينِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، قَالَ: مَا هُمَا؟ قَالَ: الْأَنَّةُ وَالْحَلْمُ، قَالَ: شَيْءٌ جُبِّلَتْ عَلَيْهِ أَوْ شَيْءٌ أَتَخَلَّقُهُ؟ قَالَ: لَا بَلْ جُبِّلَتْ عَلَيْهِ، قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ ..^{٦٨}

وَحْلَمُ الْحَلِيمِ لَوْنُ مِنْ أَلْوَانِ الرَّحْمَةِ بِالنَّاسِ، لَأَنَّ الشَّرَ لَا يُداوِي بِالشَّرِّ بِالْحَكْمَةِ وَبِالْحَبِّ وَالْخَيْرِ، قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى -: {وَلَا تَسْتُوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ عَدَاوَةٌ كَانَهُ وَلِيٌ حَمِيمٌ} (٣٤) سُورَةُ فَصْلِتْ.

وَلَا تَسْتُوِي حَسَنَةُ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ، وَاسْتَقَامُوا عَلَى شَرِيعَتِهِ، وَأَحْسَنُوا إِلَى خَلْقِهِ، وَسَيِّئَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِهِ وَخَالَفُوا أَمْرَهُ، وَأَسَأُوا إِلَى خَلْقِهِ. ادْفَعْ بِعَفْوِكَ وَحْلَمْكَ وَإِحْسَانِكَ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ، وَقَابِلْ إِسَاعَتِهِ لَكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، فَبِذَلِكَ يَصِيرُ الْمُسِيءُ إِلَيْكَ الَّذِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ عَدَاوَةٌ قَرِيبٌ لَكَ شَفِيقٌ عَلَيْكَ. وَمَا يُوفَّقُ لَهُذِهِ الْخُصْلَةِ الْحَمِيمَةِ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا أَنفُسَهُمْ عَلَى مَا تَكَرَّهُ، وَأَجْبَرُوهُمْ عَلَى مَا يَحْبَهُ اللَّهُ، وَمَا يُوفَّقُ لَهُ إِلَّا ذُو نَصِيبٍ وَافِرٍ مِنْ السَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

- أَنَّ مِنَ الرَّحْمَةِ الْقُولَ الْحَسَنِ، قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى -: {وَإِذْ أَحَدَنَا مِيشَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنَا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَأَثُرُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرَضُونَ} (٨٣) سُورَةُ الْبَقْرَةِ.

نعم، لِكُلِّ النَّاسِ: أَيْضُهُمْ وَأَسْوَدُهُمْ، غَنِيَّهُمْ وَفَقِيرُهُمْ، عَالَمُهُمْ وَجَاهِلُهُمْ، مُسْلِمُهُمْ وَكَافِرُهُمْ، لِكُلِّ النَّاسِ. فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: كُلُّ نَفْسٍ كُتُبَ عَلَيْهَا الصَّدَقَةُ كُلُّ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ، فَمِنْ ذَلِكَ أَنْ يَعْدِلَ بَيْنَ الْأَتْنَيْنِ صَدَقَةً، وَأَنْ يُعِينَ الرَّجُلَ عَلَى دَائِبِهِ فَيَحْمَلُهُ عَلَيْهَا وَيَرْفَعَ مَتَاعَهُ عَلَيْهَا صَدَقَةً، وَيُمْيِطُ الْأَذَى عَنِ الْطَّرِيقِ صَدَقَةً، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ خُطْوَةٍ يَمْشِي إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ .^{٦٩}

- أَنَّ الَّذِي لَا تَوَجِّدُ فِي قَلْبِهِ رَحْمَةً لِلنَّاسِ لَا يَسْتَحِقُ أَنْ يَكُونَ دَاعِيَةً .

^{٦٨} - صَحِيحُ ابْنِ حِيَانَ - (١٦ / ١٧٨) (٧٢٠٣) صَحِيحٌ

^{٦٩} - مُسْنَدُ أَحْمَدَ (عَالَمُ الْكِتَبِ) - (٣٢٣ / ٣) (٨٦٠٨) (٨٥٩٣) صَحِيحٌ لِغَيْرِهِ

- أن من الرحمة أن يوكل لكل إنسان ما يستطيع القيام به من أعمال، {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ .} (٢٨٦) سورة البقرة

٦- الصبر:

وهو أكثر خلق تكرر في القرآن الكريم، لأنه لا إيمان لمن لا صبر له وإن وجد فإيمان ضعيف.

والصبر له مجالات ذُكرت في القرآن الكريم، منها :

١- الصبر على بلاء الدنيا، قال الله - تعالى - : {وَلَنْبَلُونَكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أَوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأَوْلَئِكَ هُمُ الْمُهَتَّدُونَ (١٥٧) } سورة البقرة

ولنختبرنكم بشيء يسير من الخوف، ومن الجوع، وبنقص من الأموال بتعسر الحصول عليها، أو ذهابها، ومن الأنفس: بالموت أو الشهادة في سبيل الله، وبنقص من ثمرات النخيل والأعناب والحبوب، بقلة ناجحها أو فسادها. وبشّر - أيها النبي - الصابرين على هذا وأمثاله بما يفرحهم ويُسرُّهم من حسن العاقبة في الدنيا والآخرة.

من صفة هؤلاء الصابرين أنهم إذا أصابهم شيء يكرهونه قالوا: إِنَّا عَبِيدٌ لِمَلَوْكَوْنَ اللَّهِ، مدبرون بأمره وتصريفيه، يفعل بما يشاء، وإنما إليه راجعون بالموت، ثم بالبعث للحساب والجزاء.

أولئك الصابرون لهم ثناء من ربهم ورحمة عظيمة منه سبحانه، وأولئك هم المهددون إلى الرشاد.

٢- الصبر عن الشهوات الحرام، أو عن المتع الحلال التي تصدُّ عن ذكر الله وعبادته .

٣- الصبر على طاعة الله، والقيام بها على أكمل وجه دون تكاسل أو ملل، {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنُهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} (٦٥) سورة مرثية

والصبر هنا يكون قبل الطاعة بتصحيح النية، وأثناء الطاعة حتى تكتمل، وبعدها فلا يرائي ولا يعجب بعمله.

٤- الصبر على مشاق الدعوة، فطريق الدعوة طويلة لا بد لها من صبر وعدم استعجال للثمرات. وأنباء الدعوة قد يتعرض الداعية إلى إعراض من قبل الناس، أو أذى منهم بالقول أو الفعل، أو... أو...

٥- الصبر في مجال العلاقات الإنسانية، قال الله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْسُحُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا} (٢٠) سورة الفرقان

وما أرسلنا قبلك - أيها الرسول - أحداً من رسلنا إلا كانوا بشرًا، يأكلون الطعام، ويمسحون في الأسواق. وجعلنا بعضكم - أيها الناس - لبعض ابتلاء واحتباراً بالهدى والضلال، والغنى والفقر، والصحة والمرض، هل تصبرون، فتقوموا بما أوجبه الله عليكم، وتشكروا له، فيشيكم مولاكم، أو لا تصبرون فتستحقوا العقوبة؟ وكان ربك - أيها الرسول - بصيراً من يجزع أو يصبر، ومن يكفر أو يشك.

ومن الأمور التي تعين على الصبر كما جاء ذلك في القرآن الكريم :

أ- المعرفة بطبيعة الحياة الدنيا، وأنها لا تثبت على حال، في يوم لك ويوم عليك، قال الله تعالى - {إِنَّ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ تُدَأْوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَحَدَّدُ مِنْكُمْ شُهَدَاءُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} (١٤٠) سورة آل عمران.

إن الشدة بعد الرخاء، والرخاء بعد الشدة، هما اللذان يكشفان عن معادن النفوس، وطبائع القلوب، ودرجة الغبش فيها والصفاء، ودرجة الهملاع فيها والصبر، ودرجة الثقة فيها بالله أو القنوط، ودرجة الاستسلام فيها لقدر الله أو البرم به والجموح! عندئذ يتميز الصف ويتكشف عن: مؤمنين ومنافقين، ويظهر هؤلاء وهؤلاء على حقيقتهم، وتتكشف في دنيا الناس دخائل نفوسهم. ويزول عن الصف ذلك الدخل وتلك الخلخلة التي تنشأ من قلة التنساق بين أعضائه وأفراده، وهم مختلطون مبهمون! والله سبحانه يعلم المؤمنين

والمنافقين. والله سبحانه يعلم ما تنطوي عليه الصدور. ولكن الأحداث ومداولة الأيام بين الناس تكشف المخبوء، وتجعله واقعا في حياة الناس، وتحول الإيمان إلى عمل ظاهر، وتحول النفاق كذلك إلى تصرف ظاهر، ومن ثم يتعلق به الحساب والجزاء. فالله سبحانه لا يحاسب الناس على ما يعلمه من أمرهم ولكن يحاسبهم على وقوعه منهم. ومداولة الأيام، وتعاقب الشدة والرخاء، محك لا ينطوي، وميزان لا يظلم. والرخاء في هذا كالشدة.

وكم من نفوس تصر للشدة وتماسك، ولكنها ترافق بالرخاء وتنحل. والنفس المؤمنة هي التي تصر للضراء ولا تستخفها السراء، وتنجح إلى الله في الحالين، وتؤمن أن ما أصابها من الخير والشر فيإذن الله.

وقد كان الله يربى هذه الجماعة - وهي في مطلع خطواتها لقيادة البشرية - فرباها بهذا الابتلاء بالشدة بعد الابتلاء بالرخاء، والابتلاء بالهزيمة المريمة بعد الابتلاء بالنصر العجيب - وإن يكن هذا وهذه قد وقعا وفق أسبابهما ووفق سنن الله الجارية في النصر والهزيمة. لتعلم هذه الجماعة أسباب النصر والهزيمة. ولتزيد طاعة لله، وتوكلا عليه، والتصاقا بركته. ولتعرف طبيعة هذا المنهج وتكليفه معرفة اليقين ^{٧٠}.

ب- معرفة الإنسان بنفسه، أنه مملوك لله رب العالمين، {وَمَا بِكُمْ مِّنْ نِعْمَةٍ فِيمَنَ اللَّهُ ثُمَّ إِذَا مَسَكُمُ الْضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ} (٥٣) سورة النحل.

وما بكم من نعمة هداية، أو صحة جسم، وسعة رزقٍ وولد، وغير ذلك، فمن الله وحده، فهو النعم بها عليكم، ثم إذا نزل بكم السقم والبلاء والقطح فإلى الله وحده تُضْحُون بالدعاء .

ويقول الشاعر :

" وما المال والأهلون إلا وداعٌ ولا بد يوماً أن تُرَدَّ الوداع "

^{٧٠} - في ظلال القرآن — موافقاً للمطبوع - (٤٨١ / ١)

ج- اليقين بحسن الجزاء من الله - تعالى -، قال الله - تعالى -: {مَا عَنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عَنَّ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (٩٦) سورة النحل

ما عندكم من حطام الدنيا يذهب، وما عند الله لكم من الرزق والثواب لا يزول. ولئنْ يُتَّسِّعَ
الذين تحملوا مشاق التكاليف - ومنها الوفاء بالعهد - ثواهم بحسن أعمالهم، فنعطيهم
على أدناها، كما نعطيهم على أعلىها تفضلاً.

وقال الله - تعالى -: {قُلْ يَا عَبَادَ الَّذِينَ آتَيْنَا إِنَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} (١٠) سورة الزمر .
قل - أيها النبي - لعباد المؤمنين بالله ورسوله: اتقوا ربكم بطاعته واحتسب معصيته. للذين
أحسنوا في هذه الدنيا بعبادة ربهم وطاعته حسنة في الآخرة، وهي الجنة، وحسنة في الدنيا
من صحة ورزق ونصر وغير ذلك. وأرض الله واسعة، فها جروا فيها إلى حيث تعبدون
ربكم، وتتمكنون من إقامة دينكم. إنما يعطى الصابرون ثواهم في الآخرة بغير حد ولا عد
ولا مقدار، وهذا تعظيم لجزاء الصابرين وثواهم.

د- اليقين بالفرج، وبأن نصر الله وتوفيقه قريب وأن بعد العسر يسراً قال الله - تعالى -:
{فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوْفَّونَ} (٦٠) سورة الروم
فاصبر - أيها الرسول - على ما ينالك من أذى قومك وتکذيبهم لك، إن ما وعدك الله به
من نصر وتمكين وثواب حق لا شك فيه، ولا يستفرئك عن دينك الذين لا يوفون
بالميعاد، ولا يصدقون بالبعث والجزاء.

إنه الصبر وسيلة المؤمنين في الطريق الطويل الشائك الذي قد يbedo أحيانا بلا نهاية! والثقة
بوعد الله الحق، والثبات بلا قلق ولا زعزعة ولا حيرة ولا شكوك .. الصبر والثقة والثبات
على الرغم من اضطراب الآخرين، ومن تکذيبهم للحق وشكهم في وعد الله. ذلك أنهم
محجوبون عن العلم محرومون من أسباب اليقين. فاما المؤمنون الواصلون الممسكون بحبل
الله فطريقهم هو طريق الصبر والثقة واليقين. مهما يطل هذا الطريق، ومهما تتحجب نهايته
وراء الضباب والغيوم! وهكذا تختتم السورة التي بدأت بوعد الله في نصر الروم بعد بضع

سنين، ونصر المؤمنين. تختتم بالصبر حتى يأتي وعد الله والصبر كذلك على محاولات الاستخفاف والرزعنة من الذين لا يوفون ^{٧١}.

وقال الله - تعالى - : {لَيُنْفِقُ ذُو سَعَةً مِّنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلَيُنْفِقُ مِمَّا أَتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا أَتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا} (٧) سورة الطلاق.

ويقول الشاعر:

" ولرَبَّ نازلة يضيق لها الفتى ذرعاً، وعند الله منها المخرج
صاقت فلما استحکمت حلقاتها فرجت، وکت أطنهما لا تفرج "
هـ - الاستعانة بالله، قال الله - تعالى - لرسول الله - ﷺ : {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ} (٤٨) سورة الطور.
واصبر - أيها الرسول - لحكم ربك وأمره فيما حملك من الرسالة، وعلى ما يلحقك من
أذى قومك، فإنك بمرأى منا وحفظ واعتناء، وسبّح بحمد ربك حين تقوم إلى الصلاة،
وحين تقوم من نومك، ومن الليل فسبّح بحمد ربك وعظمته، وصلّ له، وافعل ذلك عند
صلاة الصبح وقت إدبار النجوم.

و- الاقتداء بأهل الصبر والعزائم، وذلك من خلال التأمل في سيرهم، وفي القرآن الكريم
من ذلك الكثير .

ز- الإيمان بقدر الله وسنته، فقدر الله - تعالى - نافذ لا محالة، قال الله - تبارك وتعالى -: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّنْ قَبْلِ أَنْ تَبَرَّأُهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} (٢٢) لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولَا تَفْرَحُوا بِمَا آتاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) سورة الحديد
ما أصابكم - أيها الناس - من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم من الأمراض والجروح
والأسقام إلا هو مكتوب في اللوح الحفظ من قبل أن تخلق الخليقة. إن ذلك على الله
تعالى يسير.

^{٧١} - في ظلال القرآن — موافقاً للمطبوع - (٥ / ٢٧٧٨)

لكي لا تخزنوا على ما فاتكم من الدنيا، ولا تفرحوا بما آتاكتم فرح بطر وأشر. والله لا يحب كل متكبر بما أوتى من الدنيا فخور به على غيره.

ح- الحذر من الآفات العائقة عن الصبر، ومنها: الاستعجال، الغضب، شدة الحزن والضيق، اليأس، ...

٧- الحرص :

لا بد أن يشعر المدعون الداعية حريص عليه، وهذا الشعور يفتح قلبه ويستثير عواطفه، وقد وصف الله - تعالى - الرسول - ﷺ - : {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنْتُمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَوِوفٌ رَّحِيمٌ} (١٢٨) سورة التوبة.

لقد جاءكم أيها المؤمنون رسول من قومكم، يشق عليه ما تلقون من المكره والعنـت، حريص على إيمانكم وصلاح شأنكم، وهو بالمؤمنين كثير الرأفة والرحمة.

ولقد عرض علينا القرآن الكريم مواقف حرص الرسل والأنبياء على أقوامهم، فكل منهم كان يأتي إلى قومه قائلاً: إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم، ويخاطبهم دائماً بقوله: يا قومي، لأنك يحبهم ويحب الخير لهم.

قالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَمَّا وَاللَّهِ مَا خَلَقَ اللَّهُ مُؤْمِنًا يَسْمَعُ بِي، وَيَرَانِي إِلَّا أَحَبَّنِي، قُلْتُ: وَمَا عِلْمُكَ بِذَلِكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ قَالَ: إِنَّ أُمِّي كَانَتِ امْرَأَةً مُشْرِكَةً وَكُنْتُ أَدْعُوهَا إِلَى إِسْلَامٍ، فَتَأْبَى عَلَيَّ، فَدَعَوْنَاهَا يَوْمًا، فَأَسْمَعْتُنِي فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا أَكْرَهَ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا أَبْكِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي كُنْتُ أَدْعُو أُمِّي إِلَى إِسْلَامٍ، فَتَأْبَى عَلَيَّ وَأَدْعُوهَا، فَأَسْمَعْتُنِي فِي كَمَا أَكْرَهَ فَادْعَ اللَّهَ أَنْ يَهْدِي أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلَّهُمَّ اهْدِهَا، فَلَمَّا أَتَيْتُ الْبَابَ إِذَا هُوَ مُجَافٌ، فَسَمِعْتُ حَضْخَضَةَ الْمَاءِ، وَسَمِعْتُ حَشْفَ رَجُلٍ أَوْ رِجْلٍ، فَقَالَتْ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، كَمَا أَنْتَ وَفَتَحْتَ الْبَابَ وَلَبِسْتَ دِرْعَهَا وَعَجَلْتَ عَلَى حِمَارِهَا، فَقَالَتْ: إِنِّي أَشْهُدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهُدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَبْكِي مِنَ الْفَرَحِ كَمَا بَكَيْتُ مِنَ الْحُزْنِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَبْشِرْ، فَقَدِ اسْتَجَابَ اللَّهُ دَعْوَتِكَ، قَدْ هَدَى اللَّهُ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَقَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَبْشِرْ،

الله، ادع الله أن يحببني أنا وأمي إلى عباده المؤمنين ويحببهم إلىي، فقال رسول الله ﷺ:
اللهم حب عبيدك وأمه إلى عبادك المؤمنين وحببهم إليهما .^{٧٢}

٨- الأمل والثقة بنصر الله :

فالداعية إيمانه عميق وثقته كبيرة في انتصار هذا الدين، ويؤمن أن الإسلام لا بد وأن
تعلورايتها ويعم خيره الأرض ويسعد الناس ويدفعهم على ما فيه خيرهم .

- والأمل في الدعوة شرط في النجاح، لذلك وجدنا رسول الله - ﷺ - يبشر المؤمنين،
فعن خباب، قال: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ،
فَقُلْنَا: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا اللَّهُ، أَوْلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ فَقَالَ: قَدْ كَانَ الرَّجُلُ فِيمَا كَانَ قَبْلَكُمْ
يُؤْخَذُ، فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُحَيَّ بِالْمُنْشَارِ فَيُوَضَّعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُجْعَلُ بِنَصْفِينِ، فَمَا
يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ عَظْمِهِ مِنْ لَحْمٍ وَعَصَبٍ فَمَا يَصُدُّهُ
ذَلِكَ، وَاللَّهُ لَيَتَمَّنَ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ
إِلَّا اللَّهُ وَالذَّبَابَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ .^{٧٣}

- والداعية لا بد أن يوقن بنصر الله له إن اتبع الحق وأخذ بالأسباب، فالله - تعالى -
يقول: {ولَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ
أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} (٤٧) سورة الروم .

ولقد أرسلنا، يا محمد، قبلك رسلا إلى أقوامهم بالدلائل الواضحات على أنهم رسول الله،
 وأنهم مرسلون إليهم لدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فكذبوا الأقوام رسلاها،
فانتقموا من الكافرين الذين احترعوا السينات، ونجينا الذين آمنوا بالله، واستجابوا لدعوة
رسله وقد أوجبنا على أنفسنا نصر المؤمنين، وكذلك فعل، فلا تبليس يا محمد لما تراه من
تكذيب قومك لك، ومن إيزائهم إياك، فستنصرك عليهم .^{٧٤}

^{٧٢} - صحيح مسلم - المكتبة - (٦٥٥١) و صحيح ابن حبان - (١٦ / ١٠٧) (٧١٥٤)

الحاف : المغلق - الخشف : حركة المشي وصوته

^{٧٣} - مستند أحمد (علم الكتب) - (٧٢ / ٧) (٢١٠٧٣) - ٢١٣٨٨ - صحيح

^{٧٤} - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (١ / ٣٣٣٧)

وبسْحَانَ الَّذِي أَوْجَبَ عَلَى نَفْسِهِ نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ وَجَعَلَهُ لَهُمْ حَقًا، فَضْلًا وَكَرْمًا. وَأَكْدَهُ لَهُمْ فِي هَذِهِ الصِّيَغَةِ الْجَازِمَةِ الَّتِي لَا تَحْتَمِلُ شَكًا وَلَا رِيبًا. وَكَيْفَ وَالْقَائِلُ هُوَ اللَّهُ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ الْجَبَارُ الْمُتَكَبِّرُ، الْقَاهِرُ فَوْقَ عَبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ. يَقُولُهَا سَبَحَانَهُ مَعْبُرَةً عَنْ إِرَادَتِهِ الَّتِي لَا تَرْدُ، وَسَنَتِهِ الَّتِي لَا تَتَخَلُّفُ، وَنَامَوْسَهُ الَّذِي يَحْكُمُ الْوَجْدَوْدَ.

وَقَدْ يَبْطِئُ هَذَا النَّصْرُ أَحِيَّانَا - فِي تَقْدِيرِ الْبَشَرِ - لَأَنَّهُمْ يَحْسِبُونَ الْأَمْوَارَ بِغَيْرِ حِسَابِ اللَّهِ، وَيَقْدِرُونَ الْأَحْوَالَ لَا كَمَا يَقْدِرُهَا اللَّهُ وَاللَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ. يَصْدِقُ وَعْدَهُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَرِيدُهُ وَيَعْلَمُهُ، وَفَقَدْ مُشَيَّتَهُ وَسَنَتَهُ. وَقَدْ تَكَشَّفَ حِكْمَةُ تَوْقِيَتِهِ وَتَقْدِيرِهِ لِلْبَشَرِ وَقَدْ لَا تَكَشَّفُ. وَلَكِنْ إِرَادَتِهِ هِيَ الْخَيْرُ وَتَوْقِيَتِهِ هُوَ الصَّحِيحُ.

وَوَعْدُهُ الْقَاطِعُ وَاقِعٌ عَنْ يَقِينٍ، يَرْتَقِبُهُ الصَّابِرُونَ وَاثْقَيْنَ مُطْمَئِنِيْنَ ^{٧٥}.

وَقَالَ - عَزْ وَجَلَ - : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَصْرُّفَ اللَّهِ يَنْصُرُكُمْ وَيُبَيِّنُ أَقْدَامَكُمْ} (٧)

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَعَمِلُوا بِشَرِيعَتِهِ، إِنْ تَنْصُرُوا دِينَ اللَّهِ بِالْجَهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَالْحُكْمُ بِكِتَابِهِ، وَامْتِشَالُ أَوْامِرِهِ، وَاجْتِنَابُ نُواهِيهِ، يَنْصُرَكُمُ اللَّهُ عَلَى أَعْدَائِكُمْ، وَيُبَيِّنُ أَقْدَامَكُمْ عِنْدَ الْقَتَالِ.

وَقَالَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - : {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُولُونَ أَلْأَسْهَادُ} (٥١) سُورَةُ غَافِرٍ

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى، إِنَّهُ سَيَجْعَلُ رَسُلَهُ هُمُ الْغَالِبُونَ لِأَعْدَائِهِمْ وَمَعَانِدِهِمْ، وَإِنَّهُ سَيَنْصُرُ مَعْهُمُ الْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ يَكُونُ بِالْطَّرِيقِ التَّالِيَّةِ:

- إِمَّا بِجَعْلِهِمْ غَالِبِينَ عَلَى مَنْ كَذَبُوهُمْ، كَمَا فَعَلَ بَدَاؤِدُ وَسَلِيمَانُ وَمُحَمَّدٌ، عَلَيْهِمُ السَّلَامُ .
- وَإِمَّا بِالانتِقامِ مِنْ عَادِهِمْ وَآذَاهُمْ، وَإِهْلَاكِهِمْ إِيَّاهُمْ، وَإِنْجَاهِهِ الرَّسُلُ وَالْمُؤْمِنِينَ، كَمَا فَعَلَ بَنُوحُ وَهُودُ وَصَالِحُ وَمُوسَى وَلُوطَ .

^{٧٥} - فِي ظَلَالِ الْقُرْآنِ — مُوافِقًا لِلِّمْطَبُوعِ - (٥ / ٢٧٧٤)

- وإنما بالانتقام من آذى الرسل بعد وفاة الأنبياء والرسل، بتسليط بعض خلق الله على المكذبين المجرمين ليتقموا منهم، كما فعل مع زكريا ويحيى، عليهما السلام .

وكما أن الله تعالى ينصر رسله والمؤمنين بدعوهم في الحياة الدنيا، كذلك ينصرهم يوم القيمة، وهو اليوم الذي يقوم فيه الأشهاد من الملائكة والأنبياء والمؤمنين، بالشهادة على الأمم المكذبة بأن الرسل قد أبلغوهم رسالات رهم ^{٧٦} .

- ولنا في قصص الأنبياء عبرة: كيف أن الله - تعالى - ينصر دعوته ولو بعد حين فنجد سيدنا نوحًا - عليه السلام - قد مكث في قومه يدعوهم "ألف سنة إلا خمسين عاماً" .. "ليلاً ونهاراً" ، ومعه الأمل بنصر الله - تعالى - ، وفي النهاية ما آمن معه إلا قليل .

- والنصر الذي يؤتيه الله عباده المؤمنين ^{تَعَدَّدُ} أشكاله وصوره، فقد يمكن الله - تعالى - للمؤمنين، وقد يصيب أعداءهم بالأمراض التي لم تكن من قبل، وقد .. ، إلا أن المطلوب من المؤمنين أن يأخذوا بالأسباب .

- ثم إن الأمل لا بد معه من العمل الوعي المخلص المستمر، وإن طالت الطريق، فلا يشكون تأخر الشمرات ولا ييأس من إيمان الناس، ويضرب الله - تعالى - لنا مثلاً سيدنا يونس - عليه السلام - حين خادر قومه غاضباً لأنهم كذبوه ... {فَالْتَّقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ} (١٤٢) {سورة الصافات}

فابتلعته الحوت، وهو مستحق للملامة على ما فعل من خروجه من بين أظهر قومه بغير إذن ربه، وتخليه عن دعوهم إلى الله، والدعوة تستدعي الصبر والثبات.

{وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُعَاضِبًا فَظَنَّ أَنَّ لَنْ تَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنَّ لَهُ إِلَهٌ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} (٨٧) سورة الأنبياء

يدرك الله تعالى قصة يونس عليه السلام (وهو ذو النون أي صاحب الحوت)، وكان الله قد بعثه نبيا إلى أهل نينوى فدعاهم إلى عبادة الله وحده فأبوا، وتمادوا في كفرهم، فخرج يونس من بينهم مغاضبا لهم، وأنذرهم بأن العذاب واقع بهم بعد ثلاثة أيام، فلما تحققا

^{٧٦} - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (٤٠٦٣ / ١)

من ذلك، وعلموا أن النبي لا يكذب، خرجوا من البلد بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم، ثم تضرعوا إلى الله تعالى، وجأروا إليه بالدعاء، فرفع الله عنهم العذاب، وصرفه عنهم، كما جاء في آية أخرى .

أما يونس فإنه ترك قومه مغاضبا لهم، وذهب فركب في سفينة فاضطررت وحاف من فيها من غرقها، فاقتربوا على رجل يلقونه من بينهم في الماء يتخففون منه، فووقيع القرعة على يونس، فأبوا أن يلقوه، ثم أعادوا القرعة فووقيع عليه، فأبوا، ثم أعادوا للمرة الثالثة فووقيع عليه، فتجدد يونس من ثيابه، وألقى بنفسه في الماء، فالتقمه الحوت، ولذلك سمي بصاحب الحوت (ذو النون) .

وكان يونس يظن أن الله لن يضيق عليه في بطن الحوت، (أو أنه تعالى لن يقدر عليه أن يكون في بطن الحوت) فكان في بطن الحوت في ظلمة، وفي أعماق البحر في ظلمة، وفي ظلام الليل في ظلمة، ولذلك قال تعالى: { فنادى في الظلمات } ودعا ربه قائلا: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ^{٧٧} .

{ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَّبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمٍ يُعْشُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَبْتَنَاهُ عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيرِدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (١٤٨) } [الصافات: ١٤٣ - ١٤٨]

ولو لم يكن من الذاكرين رهم كثيرا، والمبشرين بمحمه. للبث ميتا في بطن الحوت إلى يوم القيمة، يوم البعث والنشور، ولكن طعاما يتغذى به الحوت. فأمر الله تعالى الحوت بأن يلقيه في مكان حال لا شجر فيه ولا نبات، وهو عليل الجسم، سقيم النفس .

فأنبت الله بجانبه شجرة يقطن تظلله بأوراقها، وتقيه لفح الشمس، ويأكل ثمارها .

ثم إنه بعد أن شفي، ورضي عليه ربه، بعثه الله تعالى رسولا إلى قومه مرة أخرى، وكان عددهم كثيرا قد يتجاوز مائة ألف، فاستقامت حالم معه، لأنهم بعد خروجه عنهم، خافوا عذاب الله، وما أنذرهم به يونس، فخرجوا خارج البلد بأموالهم وأبنائهم ومواشيهم،

^{٧٧} - أيسير التفاسير لأسعد حومد - (٢٤٨٦ / ١)

وَجَأْرُوا إِلَى اللَّهِ بِالدُّعَاءِ، وَأَعْلَنُوا التُّوبَةَ لِرَبِّهِمْ، فَأَنْجَاهُمْ رَبُّهُمْ مِنَ الْهَلاَكِ، وَلَا عَادَ إِلَيْهِمْ يُونُسَ التَّفَوَّا حَوْلَهُ، فَأَمْنَوَا بِاللَّهِ، وَمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ نَبِيُّهُمْ يُونُسَ، فَمَتَعْهُمُ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، حَتَّى حَانَتْ آجَاهُمْ، فَهَلَكُوا فِيمَنْ هَلَكَ .

- ولا بد للداعية أنْ يعلم أنَّ يَلِاسَ لِيُسَ لِيُسَ من صفات المؤمن أبداً، فَاللَّهُ - تَعَالَى - يَقُولُ: {يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَأْسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَلِاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} (٨٧) سورة يُوسُفَ .

- والداعية واثقٌ بِأَنَّ اللَّهَ مَعَهُ (إِنْ كَانَ هُوَ مَعَ اللَّهِ)، وَلَنَا فِي رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - قَدْوَةٌ حِينَ كَانَ فِي غَارٍ ثُوَرَ أَثْنَاءَ الْهِجْرَةِ، {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذَا أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَّ أَثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْرِنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِحَنْوَدٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلْمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلْمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (٤٠) سورة التُّوبَةَ ...

وَلَنَا فِي سَيِّدِنَا مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَذَلِكَ أَسْوَةٌ حِينَ تَبَعَهُ فَرَعُونَ وَجَنَودُهُ فَظَنَّ الْبَعْضُ أَنَّ سَيِّدِنَا مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - خَائِفٌ مِنْ فَرَعُونَ فَقَالَ: {قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيِّدِيْنِ} (٦٢) سورة الشُّعْرَاءِ .

- وَإِنَّ الْأَمْلَ لَا بَدْ مَعَهُ مِنَ الْعَمَلِ، فَلَا يَكْفِي أَنْ نَحْلُمْ وَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ مَجْمَعُنَا إِلَى الْإِسْلَامِ، بَلْ لَا بَدْ مَعَ هَذَا الْأَمْلِ مِنَ الْأَحْذِ بِالْأَسْبَابِ، وَكَمَا قَالَ الشِّيْخُ الْعَالَمُ مُحَمَّدُ الْغَرَالِيَ - رَحْمَهُ اللَّهُ - تَعَالَى - : "فَإِنَّ الدُّعَاءَ الْيَوْمَ هُمْ طَلَائِعُ النُّورِ فِي أُمَّةٍ طَالَ عَلَيْهَا الْلَّيْلُ، وَبَوَادِرُ الْيَقَظَةِ فِي أُمَّةٍ تَأْخُرُهَا النُّوْمُ، وَأَمَلُ الْعَالَمِ فِي عَصْرٍ أَجْدَبَتْ فِيهِ الْأَدْنِيَّا مِنْ رَسُولِ الرَّحْمَةِ وَالْيَقِينِ وَامْتَلَأَتْ بِزَرَانِيَّةِ الْأَثَرَةِ وَالْإِلَاحَادِ" ^{٧٨} .

٩- الوعي والفقه :

فَلَا شَكَّ أَنَّ حَرْكَةَ الدَّاعِيَةِ حَرْكَةٌ وَاسِعَةٌ، وَانْتَشَارَهُ كَبِيرٌ، وَاتِّصالَاتُهُ كَثِيرَةٌ، وَهُوَ يَلْتَقِي بِأَنْوَاعِ كَثِيرَةٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ الْبَشَرِ، كُلُّهُ مِنْ مِزاجِهِ وَ ثَقَافَتِهِ وَعِلْمِهِ، فَلَا بَدْ أَنْ يَعْرِفَ الدَّاعِيَةِ

^{٧٨} - مَعَ اللَّهِ دراساتٌ فِي الدُّعَوَةِ وَالدُّعَاءِ - (١ / ٦)

الكثير من الثقافات والعلوم أو على الأقل يطلع على بعضها ... وإن وجد الداعية وقتاً واستطاعه فعلية أن يلتحق بعدد من الدورات المفيدة كاستخدام الكمبيوتر (الحاسوب)، وفن الكلام، واتقان اللغات المختلفة إذا كان بحاجة إليها وإلا فلا، فعن ثابت بن عبيدة، قال: قال زيد بن ثابت: قال لي رسول الله ﷺ: تحسن السريانية؟ إنها تأتيني كتب، قال: قلت: لا. قال: فتعلمها فتعلمتها في سبعة عشر يوماً^{٧٩}.

والوعي يجعل الداعية مخططاً في دعوته يعرف أهدافه ويبحث عن الوسائل المناسبة لتحقيق هذه الأهداف، فالدعوة ليست حركة عشوائية.

١٠ - حسن الخلق :

وهذه الصفة لا بد أن تكون في كل مسلم، والكلام في هذا الموضوع مبسوط في كتب الأخلاق بتوسيع .



^{٧٩} - مسند أحمد (عام الكتب) - (٧ / ٢٣٤) (٢١٥٨٧) (٢١٩٢٠) - صحيح

المبحث السابع

موقف الداعي من المجتمع

الداعي يحترم مجتمعه ويحب الخير له، ويتعامل معه بالحكمة والموهبة الحسنة، ولكن لذلك حدود يجب ألا يخرج عنها الداعية وإلا وقع في المحظوظ. فالداعي لا يجاري القوم في مطالبهم ولا عاداهم ولا تقاليدهم التي تتصادم مع قواعد الشريعة وأحكامها وآدابها، ولكنه يسعى بكل الوسائل الحكيمية إلى تغييرها إن استطاع !



المبحث الثامن

القواعد والأصول المرتبطة بالدعوة وفنونها

ومن المداخل الضرورية أن يتعرف الداعية على بعض القواعد والأصول المرتبطة بالدعوة وفنونها، ومن ذلك :

- مقاصد الشريعة:

حيث انه من أول مقاصد الشريعة صيانة وحفظ الأركان الخمسة الضرورية للحياة وهي: الدين، النفس، العقل، النسل والمال، ثم ضمان ما سوى هذه الأركان من الأمور التي تحتاج إليها الحياة الصالحة .

ولقد قسم علماء الفقه الإسلامي الأعمال والتصرفات التي تعد من المصالح بالنظر الشرعي وبحسب دلائل النصوص الشرعية وأحكامها إلى ثلاثة أقسام :

١- الضروريات:

وهي الأعمال والتصرفات التي يتوقف عليها حفظ الأركان الخمسة السابقة، وهي أمور لا بد منها للحياة، فإذا فقد بعضها أهارت الحياة الإنسانية أو احتلت .

٢- الحاجيات :

وهي الأعمال والتصرفات التي لا يتوقف عليها حفظ الأركان الخمسة، ولكنها تتطلبها الحاجة لأجل التوسعة ورفع الحرج.

٣- التحسينيات أو التكميليات :

وهي التي لا تخرج الحياة بتركها ولكن مراعاتها من مكارم الأخلاق أو من محاسن العادات .

وعلى هذا فإن الأحكام التي شرعت لحفظ الأركان الضرورية هي أهم الأحكام وتليها الأحكام المشروعة لضمان الحاجيات ثم الأحكام المشروعة للتحسين والتكميل . (مثال: كشف العورة لأجل تشخيص داء أو لعملية ضرورية) .

(وقال العلماء: كل أمر فيه جهتا نفع وضرر، فإن كانت جهة النفع في الشيء هي الغالبة فهي مصلحة بالمعنى العرفي وإن اشتملت على ضرر مغلوب، وإن كانت جهة الضرر هي الغالبة فهي مفسدة بالمعنى العرفي وإن اشتملت على نفع مغلوب كما أخبر الله - تعالى - في القرآن الكريم عن الخمر والميسير: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنِفِّقُونَ قُلِ الْعَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} (٢١٩) سورة البقرة.

- العلم بقييم الأحكام والأعمال: فلكل عمل وحكم قيمة معينة لا يقل عنها ولا يزيد، فهناك المستحب، والمسنون، والواجب، والفرض، وحتى للفرض نوعان: فرض عين وفرض كفاية، وفرض العين المتعلق بالمجموع والأمة مقدم على فرض العين المتعلق بالفرد، وسيأتي الكلام عن هذا الموضوع بإذن الله - تعالى - عند الحديث عن فقه الأولويات .

والمنهيات كذلك لها مراتب منها المكروه التتربي والمكروه التحريري، وهناك الحرام بنوعيه: الكبائر والصغراء، فالصغراء تکفرها الصلاة والصيام والصدقة وغير ذلك، وأما الكبائر فلا تکفرها إلا التوبة النصوح.

ومما وقع فيه الخلل والاضطراب :

أ- اشتغال كثير من الناس بتغيير المکروهات أو الشبهات أكثر مما اشتغلوا بتغيير المحرمات المنتشرة أو الواجبات المضيعة

ب- انصراف الكثرين إلى مقاومة الصغار مع إغفال الكبائر والموبقات !

- العلم بمراتب الأحكام الشرعية، وأنها ليست في درجة واحدة من حيث ثبوتها. فهناك الأحكام الظنية التي هي مجال الاجتهاد، وتقبل تعدد الأفهام والتفسيرات، سواءً كانت أحكاماً فيما لا نص فيه، أو فيما فيه نص ظني الشبوت أو ظني الدلالة أو ظنيهما معاً، للأحكام الفقهية مثلاً حيث يكفي فيها الظن بخلاف الأحكام التي تتعلق بالعقيدة حيث لا يعني فيها إلا القطع واليقين. والاختلاف في الأحكام الفرعية العملية الظنية لا ضرر فيه ولا خطر، إذا كان مبنياً على اجتهاد شرعي صحيح وهو رحمة بالأمة ومرونة في الشريعة

وَسَعَةٌ فِي الْفَقْهِ، وَقَدْ اخْتَلَفَ فِيهَا أَصْحَابُ الرَّسُولِ - ﷺ - وَمَنْ تَبَعَهُمْ بِإِحْسَانٍ فَمَا ضَرَّهُمْ ذَلِكُ شَيْئًا .

فَعَنِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ ، قَالَ: " كَانَ اخْتِلَافُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِمَّا نَفَعَ اللَّهُ بِهِ ، فَمَا عَمِلْتَ مِنْهُ مِنْ عَمَلٍ لَمْ يَدْخُلْ نَفْسَكَ مِنْهُ شَيْءٌ " . ^{٨٠}

وَعَنْ قَتَادَةَ ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزَ ، كَانَ يَقُولُ : " مَا سَرَّنِي لَوْ أَنَّ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ لَمْ يَخْتَلِفُوا ، لَأَنَّهُمْ لَوْ لَمْ يَخْتَلِفُوا لَمْ تَكُنْ رُخْصَةً " . ٨١

فلا يجوز أن توضع الأحكام كلها في درجة واحدة فيسارع البعض دون علم إلى إلصاق الكفر بكل من عارض حكماً دون تمييز بين الأصول والفرع، ولا تفريق بين الثابت بالنص والثابت بالاحتياط وبين القطعي والظني في النصوص وبين الضروري وغير الضروري في الدين .

- اختلاف مراتب الناس: فهناك في المسلمين من هو مبتدئ وهناك من هو متقدم، وهناك الضعيف وهناك القوي ..، ومن غير المسلمين من هو غير عالم بحقيقة الإسلام ولو علم لآمن، وهناك من عنده صورة مشوهة عن الدين، وهناك ..وهناك .

شروط التصديق للمنكر :

- ١- لا بد أن يكون المنكر منكراً، أي ما كان محظوظاً الوقوع في الشرع .

٢- أن يكون المنكر ظاهراً بغير تجسس، فكل من ستر معصيته في داره وأغلق بابه لا يجوز الدخول عليه بغير إذن لتعرف المعصية، ولا يتتجسس عليه، وقد نهى الله - تعالى - عن التجسس فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظُّنُونِ إِنَّ بَعْضَ الظُّنُونِ إِلَّا مُّنَجِّذٌ لَّهُمْ وَلَا يَعْتَبُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُّهُبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يُاْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيِّتًا فَكَرِهُتُمُوهُ وَأَنْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَابُ رَّحِيمٌ} (١٢) سورة الحجرات .

٣- أن يكون منكراً معلوماً بغير اجتهاد، فكل ما هو محل الاجتهاد فلا نكران فيه، فلا بد أن يكون المنكر متفقاً عليه .

^{٨٠} - الفقيه والمتفق عليه للخطيب البغدادي (٧٣٦) صحيح

^{٨١} - الفقيه والمتفق للخطيب البغدادي (٧٣٨) صحيح

- إنكار المنكر أربع درجات :

فأنـت حينـما تـفـكـر في التـصـدـي لـلـمـنـكـر وـإـنـكـارـه تـحـدـث إـحـدـى الـاحـتـمـالـات التـالـيـة :

١- أن يـزـوـلـ المـنـكـر وـيـخـلـفـه ضـدـه .

٢- أن يـقـلـ وـإـنـ لمـ يـزـلـ بـجـمـلـتـه (كـلـه) .

٣- أن يـخـلـفـه ماـ هوـمـثـلـه .

٤- أن يـخـلـفـه ماـ هوـشـرـه .

فالدرجـاتـ الأولىـ والـثـانـيـةـ مـشـرـوـعـتـانـ،ـ وـالـثـالـثـةـ مـوـضـعـ اـجـتـهـادـ:ـ إـمـاـ أـنـ تـرـكـهـ،ـ وـالـرـابـعـةـ مـحـرـمـةـ أـيـ:ـ إـنـكـ إـنـ فـكـرـتـ فيـ إـزـالـةـ المـنـكـرـ فيـ هـذـهـ الـحـالـةـ تـكـوـنـ آـثـمـاـ.ـ وـهـذـاـ يـتـمـاشـيـ معـ قـاعـدـةـ فـقـهـيـةـ وـهـيـ:ـ السـكـوتـ عنـ مـنـكـرـ ماـ مـخـافـةـ مـنـكـرـ أـكـبـرـ مـنـهـ اـرـتـكـابـاـ لـأـحـفـ الضـرـرـيـنـ وـأـهـوـنـ الـشـرـينـ (أـمـثـلـةـ:ـ تـكـسـيـرـ الـأـصـنـامـ،ـ إـقـامـةـ الـحـدـودـ فيـ الـحـرـوبـ) .

- لا بدـ منـ مـعـرـفـةـ الـعـدـيدـ مـنـ الـقـوـاعـدـ الـفـقـهـيـةـ:ـ وـمـنـهـ :

- لا يـجـوزـ إـلـيـتـيـانـ بـفـعـلـ يـكـونـ وـسـيـلـةـ إـلـىـ حـرـامـ وـإـنـ كـانـ هـذـاـ فـعـلـ جـائـزـاـ (أـمـثـلـةـ:ـ قـتـلـ المـنـافـقـيـنـ،ـ سـبـ وـشـتـمـ آـلـهـةـ الـكـافـرـيـنـ،ـ قـالـ اللهـ -ـ تـعـالـىـ -ـ:ـ {وـلـاـ تـسـبـوـاـ الـلـهـ عـدـوـاـ بـعـيـرـ عـلـمـ كـذـلـكـ زـيـتاـ لـكـلـ أـمـةـ عـمـلـهـمـ ثـمـ إـلـىـ رـبـهـمـ مـرـجـعـهـمـ فـيـنـبـئـهـمـ بـمـاـ كـانـوـاـ يـعـمـلـوـنـ} (١٠٨) سـوـرـةـ الـأـنـعـامـ

وـلـاـ تـسـبـوـاـ -ـأـيـهـاـ الـمـسـلـمـوـنـ -ـالـأـوـثـانـ الـيـتـيـ يـعـبـدـهـاـ الـمـشـرـكـوـنـ -ـسـدـاـ لـلـذـرـيـعـةـ -ـ حـتـىـ لـاـ يـتـسـبـبـ ذـلـكـ فـيـ سـبـهـمـ اللـهـ جـهـلـاـ وـاعـتـدـاءـ:ـ بـعـيـرـ عـلـمـ.ـ وـكـمـ حـسـنـاـ لـهـؤـلـاءـ عـلـمـهـمـ السـيـئـ عـقـوـبـةـ لـهـمـ عـلـىـ سـوـءـ اـخـتـيـارـهـمـ،ـ حـسـنـاـ لـكـلـ أـمـةـ أـعـمـالـهـ،ـ ثـمـ إـلـىـ رـبـهـمـ مـعـادـهـمـ جـيـعـاـ فـيـخـبـرـهـمـ بـأـعـمـالـهـمـ الـيـتـيـ كـانـوـاـ يـعـمـلـوـنـاـ فـيـ الدـنـيـاـ،ـ ثـمـ يـجـازـيـهـمـ بـهـاـ .

- يـجـوزـ تـقـدـيمـ الـمـصـلـحـةـ الـرـاجـحـةـ عـلـىـ الـمـفـسـدـةـ الـخـفـيـفـةـ .

- الـفـتـوـىـ تـقـدـرـ زـمـانـاـ وـمـكـانـاـ وـشـخـصـاـ .

ولـوـأـخـذـ الـدـاعـيـةـ بـحـكـمـ مـنـ الـأـحـكـامـ الـمـخـلـفـ فـيـهـاـ وـاـخـتـارـ رـأـيـاـ يـجـذـبـ بـهـ الـآـخـرـيـنـ إـلـىـ الـإـسـلـامـ تـيـسـيـرـاـ لـهـمـ مـاـ دـامـ هـذـاـ حـكـمـ لـاـ يـتـعـارـضـ مـعـ شـرـيـعـتـاـ وـلـاـ يـعـطـلـهـاـ فـهـذـاـ مـنـ فـقـهـ الدـعـوـةـ،ـ وـكـمـ مـنـ أـمـورـ فـقـهـيـةـ لـاـ بـدـ لـلـدـاعـيـ مـنـ فـهـمـهـاـ وـالـعـمـلـ بـهـاـ !

- إن فقه الداعية للدعوة فهمًا دقيقاً يكُنّه من الحركة بمرونة أكبر ضمن حدود الدين، ويعكّنه من الانخراط في مجتمعه لا الانزعال عنه، ويجعل الداعية قريباً من الناس ومشاكلهم يحلها لهم ولا ينتقدها من بعيد .

- هناك قواعد فقهية أخرى كثيرة لا بد من مراعاتها ومنها :

١- لا ضرر ولا ضرار :

أ- الضرر يدفع بقدر الإمكان. ب- الضرر يزال. ج- الضرر لا يزال بمثله .

د- الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف. هـ- نختار أهون الشررين

٢- يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام .

٣- الضرورات تبيح المحظورات .

٤- ما أبیح للضرورة يقدر بقدرها .

٥- المشقة تجلب التيسير .

وقواعد أخرى كثيرة لا بد من فهمها قبل الأمر والنهي .



المبحث التاسع

قواعد أساسية في الدعوة إلى الله - تعالى -

- ١) القدوة قبل الدعوة ٢) التأليف قبل التعريف .
- ٣) التعريف قبل التكليف. ٤) التدرج في التكاليف .
- ٥) التيسير لا التعسir. ٦) الأصول قبل الفروع .
- ٧) الترغيب قبل الترهيب. ٨) التفهم لا التلقين .
- ٩) التربية لا التعرية. ١٠) تلميذ إمام لا تلميذ كتاب .
- ١) القدوة قبل الدعوة .

- الله - تعالى - حين يريد إقامة حجته على خلقه يخلق لهم منهم رجلاً يكون قدوة لهم، ولنا في سيدنا محمد - ﷺ - أوضح مثال :

- سيدنا محمد - ﷺ - هو القدوة لجميع النواحي الإنسانية في المجتمع، فهو الأسوة لكل داعٍ وكل قائد وكل صديق وكل زوج وكل مربٌ وكل سياسي وكل رئيس وكل عابد. - إن الإسلام يعرض هذه القدوة ليس للإعجاب السالب في عالم الخيال، بل يعرضها للناس ليتحققوا في ذات أنفسهم، كلٌّ بقدر ما يستطيع، لأن الإسلام يرى أن القدوة أعظم وسائل التربية .

- الطفل مثلاً يقتدي بأبويه، فلذا لا بد من إظهار القدوة الحسنة له حتى يقلدها . - إظهار القدوة يجب على الإنسان أن يبدأ بنفسه أولاً، فيريها على تقوى الله - تعالى ، والصدق والوفاء بالعهد وأداء الأمانة، وترك الخيانة، و... وكل الصفات الحميدة التي يأمرنا الله - تعالى - بها .

- انتشر الإسلام في بلاد كثيرة عن طريق القدوة، فمثلاً بلاد الملايو انتشر الإسلام فيها عن طريق التجار المسلمين، فرأى الناس في أهله طيب الأخلاق وصلاحها، فآمنوا !

- كثير من الناس من يستطيع الكلام والوعظ ولكن القليل هم الذين يستطيعون العمل، والناس عندما ترى الداعية قائلاً عاملاً فإنهم يصدقونه أما عندما يرون قوله في وادٍ فعله في وادٍ آخر فإنهم لا يسمعون، ويبتعدون .

- لذلك وبِخَ اللَّهِ - تعالى - أولئك الذين يعظون الناس ولا يتعظون فقال: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْهَاكُونَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا يَعْقِلُونَ} (٤٤) سورة البقرة. ما أبشع حالكم وحال علمائكم حين تأمرن الناس بعمل الخيرات، وتتركون أنفسكم، فلا تأمرنها بالخير العظيم، وهو الإسلام، وأنتم تقرعون التوراة، التي فيها صفات محمد ﷺ، ووجوب الإيمان به!! أفلًا تستعملون عقولكم استعمالاً صحيحاً؟

- قال أحد الصالحين: "إن رجل القول غير رجل العمل، ورجل العمل غير رجل الجهاد، ورجل الجهاد فقط غير رجل الجهاد المتاج الحكيم الذي يؤدي إلى أعظم الربح بأقل التضحيات، إن كثيرين يستطيعون أن يقولوا، ولكن القليل من هذا الكثير يثبتون عند العمل، وكثير من هذا القليل يستطيعون أن يعملا، ولكن قليل منهم يستطيعون حمل الأعباء" .^{٨٢}

- قال الشاعر :

يا أيها الرجل المعلم غيره
هلاً لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى كيما يصح به وأنت سقيم !
ابداً بنفسك فانهها عن غيها
فإذا انتهيت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل إن وعظت وينفع التعليم

- إن القول دون عمل سبب في مقت الله - تعالى - للإنسان، قال الله - تعالى - في سورة الصاف: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} (٢) كُبُرَ مَقْتَنَا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) [الصف: ٢، ٣] .

ينكر الله تعالى على من يعد وعدا، أو يقول قوله لا يفي به، فيقول تعالى: لأي شيء تقولون لودتنا أن نفعل كذا وكذا من أفعال الخير، حتى إذا طلب منكم فعل ذلك كرهتم ذلك ولم تفعلوه؟..

وأكيد الله تعالى إنكاره هذا على هؤلاء القائلين ما لا يفعلون، فقال لهم: إنه يكره كرها شديداً أن تقولوا شيئاً لا تفعلونه لأن الوفاء بالعهد والوعد ينمّي الثقة بين أفراد الجماعة، كما أن فشو الخلل بالوعد يضعفها ^{٨٣}.

وعن أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، قَالَ: قَالُوا لَهُ: أَلَا تَدْخُلُ عَلَى هَذَا الرَّجُلِ فَتَكَلَّمُهُ؟ قَالَ: فَقَالَ: أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي لَا أَكَلُمُهُ إِلَّا أُسْمِعُكُمْ؟ وَاللَّهُ لَقَدْ كَلَمْتُهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَنِي، مَا دُونَ أَنْ أَفْتَحَ أَمْرًا لَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ أَنَا أَوْلَ مَنْ فَتَحَهُ، وَلَا أَقُولُ لِرَجُلٍ، أَنْ يَكُونَ عَلَيَّ أَمْرِيًّا: إِنَّهُ خَيْرُ النَّاسِ، بَعْدَ مَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ فَيَدُورُ بِهَا فِي النَّارِ كَمَا يَدُورُ الْحَمَارُ بِالرَّحَى، قَالَ: فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ إِلَيْهِ فَيَقُولُونَ: يَا فَلَانُ، أَمَا كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ؟ قَالَ: فَقُولُ: بَلَى، قَدْ كُنْتُ أَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتَيْهِ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتَيْهِ. ^{٨٤}

وفي الآية الكريمة قال الله - تعالى -: {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحَمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} (٥) سورة الجمعة.

شَبَهُ اليهود الذين كُلُّفُوا العمل بالتوراة ثم لم يعملا بها، كشبَهُ الحمار الذي يحمل كتبًا لا يدرِي ما فيها، قبحَ مثلُ القوم الذين كذَّبُوا بآياتِ اللهِ، ولم ينتفعوا بها، والله لا يوفقُ القوم الظالمين الذين يتتجاوزون حدوده، ويخرجون عن طاعته.

- وعن عبد الله بن صالح، سمعتُ ابنَ السَّمَّاكَ، وَكَتَبَ، إِلَى أَخِّهِ لَهُ: "أَمَا بَعْدُ أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّذِي هُوَ نَجِيْكَ فِي سَرِيرَتَكَ، وَرَقِيْكَ فِي عَلَانِيْتَكَ، فَاجْعَلِ اللَّهُ فِي بَالِكَ عَلَى حَالِكَ فِي لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ وَحِبِّ اللَّهِ بِقَدْرِ قُرْبِهِ مِنْكَ وَقُدْرَتِهِ عَلَيْكَ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ بِعَيْنِهِ

^{٨٣} - أيسير التفاسير لأسعد حومد - (١ / ٥٠٤٤)

^{٨٤} - مسند أحمد (علم الكتب) - (٧ / ٢٩٢) (٢١٨٠٠) - صحيح البخاري - المكتبة - (٣٢٦٧)

لِيْسَ تَخْرُجٌ مِنْ سُلْطَانِهِ إِلَى سُلْطَانِ غَيْرِهِ ، وَلَا مِنْ مُلْكِهِ إِلَى مُلْكِ غَيْرِهِ فَلْيَعْظُمْ مِنْهُ حَدَرُكَ وَلَيَكُثُرْ مِنْهُ وَجَلُكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الذَّنْبَ مِنَ الْعَاقِلِ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ مِنَ الْأَحْمَقِ ، وَالذَّنْبَ مِنَ الْعَالَمِ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ مِنَ الْجَاهِلِ وَالذَّنْبَ مِنَ الْغَنِيِّ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ مِنَ الْفَقِيرِ ، وَقَدْ أَصْبَحْنَا أَذْلَاءَ رُغْمَاءَ وَالذَّلِيلُ لَا يَنَامُ فِي الْبَحْرِ وَقَدْ كَانَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: حَتَّى مَتَى تَصْفُونَ الطَّرِيقَ لِلَّذِاكَرِينَ وَأَتُنْتُمْ مُقِيمُونَ فِي مَحْلِهِ الْمُنْجَرِينَ تَضَعُونَ الْبُعْوَضَ مِنْ شَرَابِكُمْ وَتَشْتَرِطُونَ الْجَمَالَ بِأَجْمَالِهَا وَقَالَ: إِنَّ الرِّزْقَ إِذَا نُقْبَ لَمْ يَصْلُحْ أَنْ يَكُونَ فِيهِ الْعَسْلُ وَإِنَّ قَلْوَبَكُمْ قَدْ نُقْبِتَ فَلَا تَصْلُحُ فِيهَا الْحُكْمَةُ ، أَيْ أَحَبِّ كَمْ مِنْ مُذَكَّرٍ بِاللَّهِ نَاسٌ لِلَّهِ وَكَمْ مِنْ مُخَوَّفٍ بِاللَّهِ جَرِيءٌ عَلَى اللَّهِ وَكَمْ مِنْ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ فَارٌّ مِنَ اللَّهِ ، وَكَمْ مِنْ قَارِئٍ لِكِتَابِ اللَّهِ يَسْسَخُ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالسَّلَامَ " ^{٨٥} .

- إنه من السهل إلقاء محاضرة ووضع بأحسن الكلمات وأقواها، ولكن هذا كله يبقى كلاماً إن لم يتحول إلى حركة وحياة .

٢) التأليف قبل التعريف .

- إن الإسلام رسالة رحمة فمن حملها وآمن بها لا بد أن يكون رحيمًا بالناس جيًعاً لأنَّه يقتدي بالرسول - ﷺ - حيث قال الله - تعالى - له: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} (١٠٧) سورة الأنبياء .

إن المنهج الذي جاء مع محمد - ﷺ - منهج يسعد البشرية كلها ويعودها إلى الكمال المقدر لها في هذه الحياة.

ولقد جاءت هذه الرسالة للبشرية حينما بلغت سن الرشد العقلي: جاءت كتاباً مفتوحة للعقل في مقبل الأجيال، شاملاً لأصول الحياة البشرية التي لا تتبدل، مستعداً لتلبية الحاجات المتتجدة التي يعلمها خالق البشر، وهو أعلم من خلق، وهو اللطيف الخبير. ولقد وضع هذا الكتاب أصول المنهج الدائم لحياة إنسانية متتجدة. وترك للبشرية أن تستنبط الأحكام الجزئية التي تحتاج إليها ارتباطات حيالها النامية المتتجدة، واستنباط

^{٨٥} - حِلْيَةُ الْأَوَّلِيَاءِ (١٢١٧٧)

وسائل تنفيذها كذلك بحسب ظروف الحياة وملابسها، دون اصطدام بأصول المنهج الدائم.

وكفل للعقل البشري حرية العمل، بكفالة حقه في التفكير، وبكفالة مجتمع يسمح لهذا العقل بالتفكير.

ثم ترك له الحرية في دائرة الأصول المنهجية التي وضعها لحياة البشر، فيما تنموا وترقى وتصل إلى الكمال المقدر لحياة الناس في هذه الأرض.

ولقد دلت تجارب البشرية حتى اللحظة على أن ذلك المنهج كان وما يزال سابقاً لخطوات البشرية في عمومه، قابلاً لأن تنموا الحياة في ظلاله بكل ارتباطها نمواً مطرداً. وهو يقودها دائماً، ولا يختلف عنها، ولا يقعد بها، ولا يشدها إلى الخلف، لأنه سابق دائمًا على خطواتها متسع دائمًا لكامل خطواتها.

وهو في تلبيته لرغبة البشرية في النمو والتقدم لا يكتب طاقاتها في صورة من صور الكبت الفردي أو الجماعي، ولا يحرمها الاستمتاع بشرفات جهدها وطبيات الحياة التي تتحققها. وقيمة هذا المنهج أنه متوازن متناسق. لا يعذب الجسد ليسمو بالروح، ولا يهمل الروح ليستمتع بالجسد.

ولا يقييد طاقات الفرد ورغائبه الفطرية السليمة ليحقق مصلحة الجماعة أو الدولة. ولا يطلق للفرد نزواته وشهواته الطاغية المنحرفة لتهذيب حياة الجماعة، أو تسخرها لإمتاع فرد أو أفراد.

وكلة التكاليف التي يضعها ذلك المنهج على كاهل الإنسان ملحوظ فيها أنها في حدود طاقته، ولمصلحةه وقد زود بالاستعدادات والمقدرات التي تعينه على أداء تلك التكاليف، وتجعلها محببة لديه - مهما لقي من أجلها الآلام أحياناً - لأنها تلبي رغبة من رغائبه، أو تصرف طاقة من طاقاته.

ولقد كانت رسالة محمد - ﷺ - رحمة لقومه ورحمة للبشرية كلها من بعده ومبادئ التي جاء بها كانت غريبة في أول الأمر على ضمير البشرية، وبعد ما كان بينها وبين واقع الحياة

الواقعية والروحية من مسافة. ولكن البشرية أخذت من يومها تقرب شيئاً فشيئاً من آفاق هذه المبادئ. فتزول غرابتها في حسها، وتتبناها وتنفذها ولو تحت عنوانات أخرى.

لقد جاء الإسلام لينادي بإنسانية واحدة تذوب فيها الفوارق الجنسية والجغرافية. لتلتقي في عقيدة واحدة ونظام اجتماعي واحد.. وكان هذا غريباً على ضمير البشرية وتفكيرها وواقعها يومذاك. والأشراف يعدون أنفسهم من طينة غير طينة العبيد.. ولكنها هي ذي البشرية في خلال نيف وثلاثة عشر قرناً تحاول أن تتفوّح خطى الإسلام، فتتعثر في الطريق، لأنها لا تهتدي بنور الإسلام الكامل. ولكنها تصل إلى شيء من ذلك المنهج - ولو في الدعاوى والأقوال - وإن كانت ما تزال أمم في أوروبا وأمريكا تتمسك بالعنصرية البغيضة التي حاربها الإسلام منذ نيف وثلاث مائة وألف عام.

ولقد جاء الإسلام ليساوي بين جميع الناس أمام القضاء والقانون. في الوقت الذي كانت البشرية تفرق الناس طبقات، وتجعل لكل طبقة قانوناً. بل تجعل إرادة السيد هي القانون في عهدي الرق والإقطاع ..

فكان غريباً على ضمير البشرية يومذاك أن ينادي ذلك المنهج السابق المتقدم ببدأ المساواة المطلقة أمام القضاء ..

ولكنها هي ذي شيء فشيئاً فشيئاً تحاول أن تصل - ولو نظرياً - إلى شيء مما طبقة الإسلام عملياً منذ نيف وثلاث مائة وألف عام.

وغير هذا وذلك كثير يشهد بأن الرسالة الحمدية كانت رحمة للبشرية وأن محمداً - ﷺ - إنما أرسل رحمة للعالمين. من آمن به ومن لم يؤمن به على السواء. فالبشرية كلها قد تأثرت بالمنهج الذي جاء به طائعة أو كارهة، شاعرة أو غير شاعرة وما تزال ظلال هذه الرحمة وارفة، لمن يريد أن يستظل بها، ويستروح فيها نسائم السماء الرحمة، في هجير الأرض المحرق وبخاصة في هذه الأيام.

وإن البشرية اليوم لفي أشد الحاجة إلى حس هذه الرحمة ونداها. وهي قلقة حائرة، شاردة في متأهات المادية، وجحيم الحروب، وجفاف الأرواح والقلوب ^{٨٦} ..

- النفوس جُبِلتْ على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها، والداعي الحكيم هو الذي يوفقه الله - تعالى - إلى أفعال القلوب فيفتحها ويعامل معها برفق مقدماً لها كل مشاعر الحب، حينئذٍ تلين القلوب القاسية .

- يقول الإمام الغزالي - رحمه الله - : " لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلا رفيق فيما يأمر به، رفيق فيما ينهى عنه، حليم فيما يأمر به، حليم فيما ينهى عنه، فقيه فيما يأمر به، فقيه فيما ينهى عنه " ^{٨٧} .

وذكر أن رجلاً دخل على المأمون الخليفة العباسى يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر، فأغلهظ له القول وقسما في التعبير، ولم يُرِعِ أن لكل مقام مقالاً يناسبه، وكان المأمون ذا فقه فقال له: يا هذا، ارفق، فإن الله بعث من هو خير منك إلى من هو شرّ مني، وأمره بالرفق: بعث موسى وهارون وهم خير منك إلى فرعون وهو شرّ مني، وأوصاهما بقوله: {إذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى} (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْنَا لَعْلَهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} (٤٤) سورة طه، وهذا حاج المأمون ذلك الرجل فلم يجد جواباً ^{٨٨} .

- الكلمة الطيبة في نظر الإسلام كائن حيٌّ له تأثيره الطيب على الناس كل الناس، لذلك أخبر الرسول - ﷺ - أن الكلمة الطيبة صدقة، وليس المهم توصيل الحقيقة إلى الناس فقط، ولكن الأهم الأسلوب والطريقة التي تصل بها، فإذا كان الرسول - ﷺ - يقول: " زَيَّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ " ^{٨٩} .. لكي يتسوق السامع وينجذب إليه فيؤثر فيه، فكيف كلام البشر وكلام الداعية؟ ألا يحتاج إلى تزيين؟؟

^{٨٦} - في ظلال القرآن — موافقاً للمطبوع - (٤ / ٢٤٠١)

^{٨٧} - إحياء علوم الدين - (٢ / ١٦٩) والبرهان المoid - (١ / ١٠٥) والمدخل لابن الحاج - (١ / ٣٠٠)

^{٨٨} -

<http://services.islamweb.net/media/index.php?page=article&lang=A&id=13308>

^{٨٩} - صحيح ابن حبان - (٣ / ٢٦) (٧٥٠) صحيح

- وعن عائشة، قالت: استأذن رهط من المشركين على النبي ﷺ فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم قال: "وعليكم"، فقالت عائشة: بل عليكم السام، واللعنة، فقال رسول الله ﷺ: "مه يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله"، فقالت: أما سمعت ما قالوا؟ إنما قالوا: السام عليك، قال: "قد قلت: وعليكم" ^{٩٠}.

- والكلام الذين ليس مداهنة ولا نفاقاً، بل هو مراعاة النفيات كما تراعى المصالح والمقداد. وعن عروة بن الزبير أن عائشة - ^{٩١} - أخبرته قالت استأذن رجلاً على رسول الله - ^{٩٢} - فقال «أذنوا له بنس، أخو العشيرة أو ابن العشيرة». فلما دخل لأن له الكلام قلت يا رسول الله قلت الذي قلت، ثم أنت له الكلام قال «أي عائشة، إن شر الناس من ترك الناس - أو ودعه الناس - أبقاء فحشه» ^{٩٣}.

- وما أجمل قول أحد الصالحين إذ يقول ناصحاً الدعاة: "كونوا كالشجر: يرمي بالحجر فيلقي بالثمر، يرمونكم بالتهكم والسخرية والاستهزاء والتنكيل والإخراج، وأنت ترميهم بالرفق واللين والصبر على الإيذاء، لأن الله يحب الرفق في الأمر كله" ^{٩٤}.

- وللأسف نجد في زماننا هذا بعض الشباب الذين يكون قبل التزامه عطوفاً على أهله، بشوشاً في وجوه الناس، يحب الخير للناس ويرحمهم، فإذا التزم بالإسلام فإنه يفهمه خطأً فيعبس في وجوه الناس ويقوس في وجوههم، وهذا كله جهل عظيم بحقيقة الإسلام.

ولكي نؤلف القلوب بتوثيق الله فإننا يجب أن نراعي أموراً وأسباباً لا بد منها، منها:

١- شعور المدعوناك تدعوه إلى مبدأ وعقيدة لا إلى نفع شخصي. - أي: شعور من تدعوهـمـ بأنـكـ لاـ تـرـيـدـ مـنـهـمـ جـزـاءـ وـلـاـ شـكـرـاـ وـلـاـ مـالـاـ،ـ وـإـنـماـ تـرـيـدـ لـهـمـ الخـيـرـ،ـ وـلـنـاـ فـيـ رـسـلـ اللهـ - عـلـيـهـمـ السـلـامـ - قـدـوةـ،ـ حـيـثـ أـنـ كـلـ نـبـيـ كـانـ يـأـتـيـ إـلـىـ قـوـمـهـ كـانـ يـقـولـ لـهـمـ:ـ {ـوـمـاـ أـسـأـلـكـمـ عـلـيـهـ مـنـ أـجـرـ إـنـ أـجـرـيـ إـلـاـ عـلـىـ رـبـ الـعـالـمـينـ}ـ (١٠٩)ـ سـوـرـةـ الشـعـرـاءـ.

^{٩٠} - صحيح البخاري- المكتـر - (٦٩٢٧) وصحيح مسلم- المكتـر - (٥٧٨٤) وشعب الإيمـان - (١١) /

(٣٦٥)(٨٦٧٨)

^{٩١} - صحيح البخاري- المكتـر - (٦٠٥٤)

^{٩٢} - ٣٦٣&SecID=٤٨١٨٧http://www.ikhwanonline.com/Article.asp?ArtID=

- لذلك كانت بلقيس ملكة سباً ذكية حينما أرسلت إلى سليمان - عليه السلام - هدية (وفي الحقيقة هي رشوة) لتخبره هل يريد الدعوة أم يريد المال والجاه { قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْ رَحْتَ شَهَدُونَ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ فَانظُرْنِي مَاذَا تَأْمُرُنِي (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرِيَةً أَفْسَدُوْهَا وَجَعَلُوا أَعْزَّةَ أَهْلِهَا أَذْلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظَرَهُ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتَمْدُونَ بِمَا فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَتَبَيَّهُمْ بِعِنْوَدٍ لَا قَبْلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِّنْهَا أَذْلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) } [النمل: ٣٢ - ٣٧].

٢- شعور المدعوأنك حريص عليه تحب له الخير . - وذلك بسبب الشفقة التي لا بد منها في قلب الداعية على الناس وحب الخير لهم، يشفق عليهم من الحيرة دون دين الله، ويشفق عليهم من الشقاء الذي سيصيبهم إن هم أعرضوا عنه، ويشفق عليهم من عذاب الله وينجح لهم السعادة ودخول الجنة مع الداخلين .

- لذلك وجدنا كل رسول ونبي يأتي إلى قومه يقول لهم: {إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } (١٣٥) سورة الشعراء. وكذلك كل داعية، ولنا في قصة مؤمن يس موعظة ودليل على حرص الداعية على قومه في حياته وبعد موته: { وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمَ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبَعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهَمَّدُونَ (٢١) وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَتَّخَذُ مِنْ دُونِهِ الْهَمَةَ إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُعْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقَذُونَ (٢٣) إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونَ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ (٢٧) } [يس: ٢٠ - ٢٧]^{٩٣}.

وكذلك نجد الحرص عند مؤمن آل فرعون في كلامه ودعوته { وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلٍ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ

^{٩٣} - راجع كتابي ((قصة أصحاب القرية)) دروس وعبر

يَكُ كَادِبًا فَعَلَيْهِ كَدِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبِّكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعْدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ
 مُسْرِفٌ كَدَابٌ (٢٨) يَا قَوْمَ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَاسِ
 اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فَرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيْكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) وَقَالَ
 الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمٍ نُوحٍ وَعَادٍ
 وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ
 التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ ثُوَلُونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ
 (٣٢) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلٍ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زَلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا
 هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضْلِلُ اللَّهُ مِنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (٣٤)
 الَّذِينَ يُحَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِعَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبَرَ مَقْنُتاً عَنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا
 كَذَلِكَ يَطْبِعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَارٍ (٣٥) وَقَالَ فَرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنَ لَيْ صَرْحًا
 لَعَلِيَ أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطْلَعَ إِلَيْهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظْنُهُ كَادِبًا
 وَكَذَلِكَ زُبِّيْنَ لِفَرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدُّهُ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فَرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابِ (٣٧)
 وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمَ أَتَبْعُونَ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمَ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
 مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ
 صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُثْنَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بَعْيَرِ حَسَابٍ
 (٤٠) وَيَا قَوْمَ مَا لَيْ أَدْعُوكُمْ إِلَى التَّحَاجَةِ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ
 وَأَشْرُكَ بِهِ مَا لَيْسَ لَيْ بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَرِيزِ الْغَفَارِ (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونِي
 إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ
 النَّارِ (٤٣) فَسَتَدْكُرُونَ مَا أَفْوَلُ لَكُمْ وَأَفْوَضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعَبَادِ (٤٤)
 فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّنَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِالْفَرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا
 غُدُوًا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخُلُوا آلَ فَرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦) } [غافر: ٢٨ - ٤٦].

- ولا بد للداعية من أن يقتدي برسالنا محمد - ﷺ - الذي كانت نفسه تحزن وتکاد تتقطع حسرة على عدم إيمان قومه، قال تعالى: {فَلَعْلَكَ بَاخْعُ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثَ أَسْفًا} (٦) سورة الكهف

وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: مثلكم كمثل رجل استوقد ناراً بليل، فاقبَلَ إِلَيْهَا هَذِهِ الْفَرَاشُ وَالدَّوَابُ الَّتِي تَعْشَى النَّارَ، فَجَعَلَ يَذْبَهَا وَتَعْلِيهِ إِلَّا تَقْحُمَ فِي النَّارِ، وَأَنَا آخِذُ بِحُجَّرِكُمْ أَدْعُوكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ، وَتَعْلِيُونِي إِلَّا تَقْحُمَ فِي النَّارِ.^{٩٤}

٣- عدم تعنيف المدعو ولو بالكلمة مع الرفق به .

- القرآن الكريم لم يذكر الشدة إلا في موضعين :

١- في قتال الكفار.

٢- في تنفيذ العقوبات الشرعية .

أما في قتال الكفار فلا بد من استخدام الآداب الإسلامية، حيث إن الإسلام يختلف عن جميع الأنظمة الأرضية، فعن سليمان بن بريدة، عن أبيه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش، أو سرية، أو صاحب في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: "اغرُوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغُروا ولَا تُلُوا، ولَا تغدرُوا، ولَا تُمثِلُوا، ولَا تقتلوا ولِيَدِها، وإذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى ثلاث خصال - أَوْ حلال - فايتهم مَا أَجَابُوكَ فاقبِلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ، فاقبِلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحْوُلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبُوا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَاعِرَابَ الْمُسْلِمِينَ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْعِنَمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُحَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فاقبِلْ مِنْهُمْ،

^{٩٤} - مسنن أحمد (علم الكتب) - (٣ / ٨١٨) (١٠٩٦٣) (١٠٩٧٦) - وصحيح مسلم - المكتبة - (٦٠٩٨)

الجناذب : جمع جنذب وهو نوع من الجراد يغزو ويطير

الحجز : جمع حجزة وهي معقد الإزار والسرابيل

وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبْوَا فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذَمَّةَ اللَّهِ، وَذَمَّةَ نَبِيِّهِ، فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذَمَّةَ اللَّهِ، وَلَا ذَمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنْ اجْعَلْ لَهُمْ ذَمَّتَكَ وَذَمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذَمَّتَكُمْ وَذَمَّمَ أَصْحَابَكُمْ أَهْوَانٌ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذَمَّةَ اللَّهِ وَذَمَّةَ رَسُولِهِ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، فَلَا تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ أَمْ لَا " ٩٥ .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَقَفَ عَلَى حَمْزَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ حِينَ اسْتُشْهِدَ، فَنَظَرَ إِلَى شَيْءٍ لَمْ يَنْظُرْ إِلَى شَيْءٍ فَقَطُّ كَانَ أَوْجَعَ لِقَلْبِهِ مِنْهُ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ قَدْ مُثُلَّ بِهِ، فَقَالَ: " رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ، فَإِنَّكَ كُنْتُ مَا عَلِمْتُكَ إِلَّا فَعَالًا لِلْخَيْرَاتِ وَصُولًا لِلرَّحْمَمِ، وَلَوْلَا حُزْنُ مَنْ بَعْدَكَ لَسَرَّنِي أَنْ أَدْعَكَ حَتَّى تُحْسِرَ مِنْ أَفْوَاهِ شَتَّى، أَمَا وَاللَّهِ عَلَى ذَلِكَ لَأَمْثِلَنَّ بِسَبْعِينَ مِنْهُمْ مَكَانِكَ " . قَالَ: فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ وَاقِفٌ بِخَوَاتِيمِ سُورَةِ التَّحْلِيلِ الْآيَةِ: { وَإِنْ عَاقِبْتُمْ فَعَاقُبُوا بِمِثْلِ مَا عَوْقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَرَّمْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ } [التحليل: ١٢٦]، فَصَبَرَ النَّبِيُّ ﷺ، وَكَفَرَ عَنْ يَمِينِهِ، وَأَمْسَكَ عَمَّا أَرَادَ ٩٦ .

وَأَمَّا فِي تَنْفِيدِ الْحَدُودِ فَلَهَا آدَابُهَا وَشُرُوطُهَا، فَعِنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ، قَالَ: شَتَّانٌ حَفْظُهُمْ أَعْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا فَتَّلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفَرَتَهُ، وَلْيُرِخَ ذَبِيْحَتَهُ ٩٧ .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَجَاءَنِهُ امْرَأَةٌ مِنْ غَامِدٍ فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، إِنِّي قَدْ زَيَّتُ، وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ تُطَهِّرَنِي. فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ: ارْجِعِي. فَلَمَّا أَنْ كَانَ مِنَ الْعَدِ اتَّهَمَهُ أَيْضًا فَاعْتَرَفَتْ عِنْدَهُ بِالرِّزْنَا فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي قَدْ زَيَّتُ، وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ تُطَهِّرَنِي. فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ: ارْجِعِي. فَلَمَّا أَنْ كَانَ مِنَ الْعَدِ اتَّهَمَهُ أَيْضًا فَاعْتَرَفَتْ

٩٥ - صحيح مسلم - المكتبة - (٤٦١٩))

تُخْفِرُ : تُنقض العهد - تُغَلِّ : تسرق من الغنيمة قبل أن تُنقض

٩٦ - شعب الإيمان - (١٢ / ١٨٥) (٩٢٥٣)) ضعيف

٩٧ - صحيح مسلم - المكتبة - (٥١٦٧) (٥١٦٧) وصحيح ابن حبان - (١٣ / ١٩٩) (٥٨٨٣)

عَنْهُ بِالْزِّنَى فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، طَهَّرْنِي فَلَعِلَّكَ أَنْ تَرْدُدِنِي كَمَا رَدَدْتَ مَاعِزَ بْنَ مَالِكٍ فَوَاللَّهِ إِنِّي لَحُبْلِي. فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ: أَرْجِعِي حَتَّى تَلْدِي. فَلَمَّا وَلَدَتْ جَاءَتْ بِالصَّبِّيِّ تَحْمِلُهُ فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، هَذَا قَدْ وَلَدْتُ. قَالَ: فَادْهِبِي فَأَرْضِعِيهِ حَتَّى تَفْطَمِيهِ. فَلَمَّا فَطَمَتْهُ جَاءَتْ بِالصَّبِّيِّ فِي يَدِهِ كِسْرَةُ حُبْزٍ قَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، هَذَا قَدْ فَطَمَتْهُ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِالصَّبِّيِّ فَدَفَعَهُ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَمَرَ بَهَا فَحُفِرَ لَهَا حُفْرَةٌ فَجَعَلَتْ فِيهَا إِلَى صَدْرِهَا، ثُمَّ أَمَرَ النَّاسَ أَنْ يَرْجُمُوهَا، فَأَقْبَلَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِحَجَرٍ فَرَمَ رَأْسَهَا، فَنَضَحَ الدَّمُ عَلَى وَجْهَةِ خَالِدٍ فَسَبَبَهَا، فَسَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ سَبَبَهَا إِيَّاهَا فَقَالَ: مَهْلًا يَا خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ لَا تَسْبِبَهَا فَوَاللَّهِ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَعْفَرَ لَهُ فَأَمَرَ بَهَا فَصَلَّى عَلَيْهَا وَدَفَنَتْ^{٩٨٥}.

وَزَادَ الرَّسُولُ ﷺ موطنا ثالثاً، وَهُوَ الرَّدُّ عَلَى الْمَعَانِدِينَ وَالْمُسْتَهْزِئِينَ، فَعَنْ أَبْنَ عَبَّاسٍ، أَنَّ الْعَاصِي بْنَ وَائِلٍ أَخْدَعَ عَظِيمًا مِنَ الْبَطْحَاءِ فَفَتَّهُ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَيُّحْيِي اللَّهُ تَعَالَى هَذَا بَعْدَ مَا أَرَى؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَعَمْ، يُمِيتُكَ اللَّهُ ثُمَّ يُحْيِيَكَ، ثُمَّ يُدْخِلُكَ جَهَنَّمَ"، قَالَ: وَنَزَّلْتِ الْآيَاتِ مِنْ آخَرِ^{٩٩٦} " يَسْ ".

هل كان تكسير النبي إبراهيم عليه السلام للأصنام خطأً!!؟؟

وقد زعم قوم من فقهاء المزينة بحجة – فقه الدعوة – أن العنف في الدعوة لا يأتي بغير أبداً، بل وصلت بهم القحة إلى أن يتكلموا على قصة النبي إبراهيم عليه السلام في كسر الأصنام، قال تعالى: { وَلَقَدْ أَتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالَمِينَ } (٥١) إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ } (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ } (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَتُّهُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } (٥٤) قَالُوا أَجْهَنْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ الْلَّاعِبِينَ } (٥٥) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنْ

^{٩٨٨} - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٧ / ٦١٧) (٢٢٩٤٩) - ٢٣٣٣٧ - صحيح مسلم - المكتبة - (٤٥٢٨)

المكس : الضريبة والعشور التي تأخذ على خلاف حكم الشرع

^{٩٩٩} - معجم أسامي شوخ أبي بكر الإماماعيلي - (٣٦٨) وتفسير ابن أبي حاتم - (١٢ / ٧٨) وتفسير ابن كثير - دار طيبة - (٦ / ٥٩٣) والأحاديث المختارة للضياء - (٤ / ٣١٨) حسن

الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَالَّهُ لَأَكِيدَنَ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ ثُوَّلُوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلُهُمْ حُذَّادًا إِلَّا
كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِالْهَتَّنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩)
قَالُوا سَمِعْنَا فَتَّى يَدْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأَثْوَاهُ بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَنَّتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَتَّنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا
فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطَقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَيْهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤)
ثُمَّ نُكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطَقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَقَعْبَدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أَفْ لَكُمْ وَلَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
(٦٧) قَالُوا حَرَّقُوهُ وَأَنْصِرُوا الْهَتَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعْلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا
عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠) وَنَحْيَنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ
الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًا جَعَلْنَا صَالِحِينَ
(٧٢) { [الأَنْبِيَاءَ: ٥١ - ٧٢]

وزعموا أنه عليها الملاحظات التالية :

- ١- تكسير الأصنام شبيه بالعمل الفردي كلاما لا يبطل الفساد، ولا يستأصل عبادة الأصنام، لأن سبيل استئصالها هو بث العقيدة الصالحة في القلوب بالوسائل الحالية من الاستفراز .
- ٢- إن القوم ربما يصنعون أصناماً غير التي كسرت، وقد تكون أجمل من القديمة، فتكسير القديمة لم يُشر .
- ٣- إن القوم غضبوا، وعاجلوا الفتى إبراهيم -عليه السلام- بإلقائه في النار ليتخلصوا منه، لو لا أن الله - تعالى - تداركه في آخر لحظة ونجاه من عذابهم، وجعلها بردًا وسلامًا^{١٠٠}.
قلت: هذا تكذيب للقرآن الكريم، فقد ذكرها الله تعالى في معرض مدح النبي إبراهيم عليه السلام، وليس في معرض الذم، فحوّلها فقهاء المزية إلى ذمٍّ والعياذ بالله تعالى .
ولا يوجد أحد من المفسرين السابقين قال ذلك أو أشار إليه ...

^{١٠٠} - مذكرة في فقه الدعوة - (١٦ / ١)

وهم يقيسون المسالة بهذا الفهم الأخرق ماذا استفاد من تحطيم الأصنام ؟

ونسوا أن الأصل في تغيير المنكر أن يكون باليد، ثم باللسان، ثم بالقلب، عند العجز، فعن أبي سعيد، قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: مَنْ رَأَى مُنْكِرًا فَلْيُعِيرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُعِيرْهُ بِيَدِهِ فَلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ بِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَافُ الإِيمَانِ^{١٠١}.

وفي التفسير المنير: " كان لإبراهيم موقف حريء رائع من الأصنام وعبدتها، فقال لأبيه آزر وقومه أي النمرود ومن اتبעה: ما هذه التماثيل التي أنتم مقيمون على عبادتها ؟ . فأجابوه بأنهم يعبدونها تقليدا للأسلاف، فيرد عليهم بأنهم وآباءهم في حسران مبين عبادتها إذ هي حمادات لا تنفع ولا تضر ولا تعلم.

وكانوا يصدقوا قوله، فسألوه: هل جئتنا بحق فيما تقول أم أنت لاعب مازح ؟ فكان إبراهيم صارماً مجدًا في إظهار الحق الذي هو التوحيد قولاً وفعلاً، أما القول فقال: بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ أَيْ خَلْقَهُنَّ وَأَبْدَعُهُنَّ. وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ أَيْ إِنِّي شَاهِدٌ عَلَى أَنَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالشَّاهِدُ بَيْنَ الْحُكْمِ، وَأَنَا أَبْيَانٌ بِالدَّلِيلِ مَا أَقُولُ.

وأما الفعل: فإنه كسر الأصنام وكان عددها سبعين، فعل واثق بالله تعالى، موطن نفسه على تحمل المكروه في سبيل رفع لواء الدين الحق، وإعلاء راية التوحيد لله. وترك كبير الأصنام وعظيم الآلة في الخلق، فإنه لم يكسره.

قال السدي ومحاده: ترك الصنم الأكبر، وعلق الفأس الذي كسر به الأصنام في عنقه ليحتاج به عليهم.

وهذا هو معنى قوله: لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ أَيْ إِلَى الصنم الأكبر يرجعون في تكسيرها، كما يرجع إلى العالم أو الزعيم في حل المشكلات، فيقولون له: ما لهؤلاء مكسورة، ومالك صحيح، والفأس على عاتقك ؟ . وحيثند يتبين لهم أنه عاجز لا ينفع ولا يضر، ويظهر لهم أنهم في عبادته على جهل عظيم.

^{١٠١} - صحيح مسلم - المكتتر - (١٨٦) و صحيح ابن حبان - (١) / (٥٤٢) (٣٠٧)

وذكر القرطبي والرازي وجها آخر في تفسير ذلك: وهو لعلهم إلى إبراهيم ودينه يرجعون إذا قامت الحجة عليهم، أو يرجعون إلى توحيد الله عند تحقّقهم عجز آهتهم". ١٠٢ .

وعن عروة بن الزبير قال: "لما حضر الموسّم حجّ نفر من الأنصار من بنى مالك بن النّجار منهم معاذ بن عفراة وأسعد بن زراراة ومن بنى زريق رافع بن مالك وذكوان بن عبد قيس ومن بنى غنم بن عوف عبادة بن الصامت وأبو عبد الرحمن بن ثعلبة ومن بنى عبد الأشهل أبو الهيثم بن التيهان ومن بنى عمرو بن عوف عويم بن ساعدة فاتاهم رسول الله ﷺ فأخبرهم خبره والذي اصطفاه الله عز وجل له من بيته وكرامته وقرأ عليهم القرآن فلما سمعوا قوله أيقنوا واطمأنوا إلى دعوته وعرفوا ما كانوا يسمعون من أهل الكتاب من ذكرهم إياه بصفته وما يدعوههم إليه فصدقوا وآمنوا به وكأنوا من أسباب الخير قالوا له: قد علمت الذي بين الأوس والخزرج من الدماء ونحن ثم نحب ما أن شدّ به أمرك وتحنّ لله ولكل مجتهدون وإننا نشير عليك بما نرى فامكث على اسم الله حتى ترجع إلى قومنا فنخبرهم بشانك وندعوههم إلى الله ورسوله، فلعل الله أن يصلاح بيننا وبجمع أمرنا، فإننا اليوم متباudenon متاباغضون، فإن تقدم علينا ولم تصطلاح لم يكن لنا جماعة عليك، ولكن نواعدك الموسم من العام المُقبل، فرضي رسول الله ﷺ الذي قالوا، فرجعوا إلى قومهم فدعوههم سراً، وأخبروهم برسول الله ﷺ والذي بعثه الله به ودعاهم إليه بالقرآن، حتى قل دار من دورهم إلا أسلم فيها ناس لا محاله، ثم بعثوا إلى رسول الله ﷺ أن أبعث إلينا رجلا من قبلك فيدع الناس بكتاب الله؛ فإنّه أدنى أن يتبع، فبعث إليهم رسول الله ﷺ مصعب بن عمر أخنا بنى عبد الدار فنزل في بنى غنم على أسعد بن زراراة فجعل يدع الناس سراً فيفسّر الإسلام ويكثر أهله وهم في ذلك مستخفون بدعائهم ثم إن أسعد بن زراراة أقبل هو ومصعب بن عمر حتى أتيا بـ مرق أو قريبا منها فجلسا هناك وبعثا إلى رهط من أهل الأرض فاتوهم مستخفين فيينا مصعب بن عمر يحدّثهم ويقص عليهم أخبار بهم سعد بن معاذ فاتاهم في لامته معه الرّمح حتى

١٠٣ - التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج - (١٧ / ٧٤) وانظر في ظلال القرآن — موافقاً للمطبوع - (٤)

وَقَفَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: عَلَامَ تَأْتِينَا فِي دُورِنَا بِهَذَا الْوَحِيدِ الْفَرِيدِ الْطَّرِيقِ الْغَرِيبِ يُسَفِّهُ ضُعْفَاءَنَا بِالْبَاطِلِ، وَيَدْعُو كُمْ إِلَيْهِ، وَلَا أَرَأْكُمْ بَعْدَهَا بَشَيْءٍ مِّنْ جِوَارِنَا، فَرَجَعُوا ثُمَّ إِنَّهُمْ عَادُوا الثَّانِيَةَ لِبِئْرِ مَرَقِّ أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا فَأَخْبَرَهُمْ سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ فَتَوَاعَدُهُمْ تَوَاعِدًا دُونَ الْوَعِيدِ الْأَوَّلِ، فَلَمَّا رَأَى أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ مِنْهُ لَيْنَا قَالَ: يَا ابْنَ خَالَةَ، أَسْمَعْ مِنْ قَوْلِهِ، فَإِنْ سَمِعْتَ مُنْكِرًا فَارْدُدْهُ بِأَهْدَى مِنْهُ، وَإِنْ سَمِعْتَ حَقًا فَأَجْبِهِ إِلَيْهِ، فَقَالَ: مَاذَا يَقُولُ؟ فَقَرَأَ عَلَيْهِ مُصْبَعُ بْنُ عُمَيْرٍ: حِمْ وَالْكِتَابُ الْمُبِينُ إِنَّا جَعَلْنَا قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ فَقَالَ سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ: مَا أَسْمَعُ إِلَّا مَا أَعْرَفُ، فَرَجَعَ قَدْ هَدَاهُ اللَّهُ تَعَالَى وَلَمْ يُظْهِرْ لَهُمُ الْإِسْلَامَ حَتَّى رَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ فَدَعَا بَنِي عَبْدَ الْأَشْهَلِ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَظْهَرَ إِسْلَامَهُ وَقَالَ: مَنْ شَكَّ فِيهِ مِنْ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ أَوْ أُنْثَى أَوْ ذَكَرٍ فَلِيَأْتِنَا بِأَهْدَى مِنْهُ تَأْخُذْ بِهِ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ جَاءَ أَمْرٌ تُحْزَنُ فِيهِ الرِّفَاعُ، فَأَسْلَمَتْ بَنُو عَبْدَ الْأَشْهَلَ عِنْدَ إِسْلَامِ سَعْدٍ بْنِ مَعَاذٍ وَدَعَاهُ إِلَّا مَنْ لَمْ يُدْكُرْ، فَكَانَتْ أَوَّلَ دُورَ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ أَسْلَمَتْ بِأَسْرِهِمْ، ثُمَّ إِنَّ بَنِي النَّجَارِ أَخْرَجُوا مُصْبَعَ بْنَ عُمَيْرٍ وَأَشْتَدُوا عَلَى أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ فَأَتَتَقَلَّ مُصْبَعُ بْنِ عُمَيْرٍ إِلَى سَعْدٍ بْنِ مَعَاذٍ فَلَمْ يَزَلْ عَنْهُ يَدْعُو وَيَهْدِي اللَّهَ عَلَى يَدِيهِ حَتَّى قَلَّ دَارٌ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إِلَى أَسْلَمَ فِيهَا نَاسٌ لَا مَحَالَةَ، وَأَسْلَمَ أَشْرَافَهُمْ وَأَسْلَمَ عَمْرُو بْنَ الْحَمْوَحَ وَكَسْرَتْ أَصْنَافَهُمْ، وَكَانَتِ الْمُسْلِمُونَ أَعْزَزَ أَهْلَهَا وَصَلْحَ أَمْرُهُمْ، وَرَجَعَ مُصْبَعُ بْنِ عُمَيْرٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ يُدْعَى الْمُقْرِئُ، ثُمَّ حَجَّ الْعَامَ الْمُقْبِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْهُمْ أَرْبَعُونَ رَجُلًا مِنْ ذُوِي أَسْنَانِهِمْ وَأَشْرَافِهِمْ وَنَلَاثُونَ شَابًا، وَأَصْغَرُهُمْ عُقْبَةُ بْنُ عَمْرُو وَأَبُو مَسْعُودٍ وَجَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَمَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَلَمَّا حَدَّهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالَّذِي خَصَّهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالْكَرَامَةِ وَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَإِلَى أَنْ يُبَايِعُوهُ وَيَمْنَعُوهُ مِمَّا يَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ أَجَابُوا وَصَدَّقُوا وَقَالُوا: اشْتَرِطْ لِرَبِّكَ وَلِنَفْسِكَ مَا شَتَّتَ، قَالَ: "أَشْتَرِطْ لِرَبِّي أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْبُدُوهُ، وَأَشْتَرِطْ لِنَفْسِي أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ" فَلَمَّا طَابَتْ أَنْفُسُهُمْ بِذَلِكَ الشَّرْطِ اشْتَرَطَ لَهُ الْعَبَّاسُ وَأَخْذَ عَلَيْهِمُ الْمَوَاثِيقَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَظَمَ الْذِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ بَايَعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْعَقْبَةِ أَبُو الْهَيْثَمِ بْنُ التَّيْهَانِ وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ النَّاسِ حِبَالًا،

وَالْجِبَالُ الْحَلْفُ وَالْمَوَاثِيقُ، فَعَلَّمَا نَقْطَعُهَا ثُمَّ تَرْجِعُ إِلَى قَوْمِكَ وَقَدْ قَطَعْنَا الْجِبَالَ وَحَارَبَنَا النَّاسَ فِيكَ، فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ قَوْلِهِ وَقَالَ: "الدَّمُ الدَّمُ، وَالْهَدْمُ وَالْهَدْمُ" فَلَمَّا رَضِيَ أَبُو الْهَيْثَمَ بِمَا رَجَعَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ قَوْلِهِ أَقْبَلَ عَلَى قَوْمِهِ فَقَالَ: يَا قَوْمُ، هَذَا رَسُولُ اللَّهِ حَقًا، أَشْهَدُ بِاللَّهِ إِنَّهُ لصَادِقٌ، وَإِنَّهُ الْيَوْمَ فِي حَرَمِ اللَّهِ وَأَمْنِهِ بَيْنَ ظَهَرِيْ قَوْمِهِ رَسُولُ اللَّهِ حَقًا، فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِنْ تُخْرِجُوهُ تَرْمِكُمُ الْعَرَبُ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، فَإِنْ كَانَتْ طَابَتْ أَنْفُسَكُمْ بِالْقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَذَهَابِ الْأَمْوَالِ وَالْأُولَادِ فَادْعُوهُ إِلَى أَرْضِكُمْ، فَإِنَّهُ رَسُولَ اللَّهِ حَقًا، وَإِنْ خَفْتُمْ خَذْلَانَهُ فَمِنَ الْأَنَّ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: قَبْلًا عَنِ اللَّهِ وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ، فَخَلَّ بَيْنَنَا يَا أَبَا الْهَيْثَمِ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ فَلَنْبَاعِهِ فَقَالَ أَبُو الْهَيْثَمِ: فَكَانَا أَوَّلُ مَنْ يُبَايِعُ، ثُمَّ تَبَاعُوا كُلُّهُمْ، وَصَاحَ الشَّيْطَانُ مِنْ رَأْسِ الْجَبَلِ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ هَذِهِ بَنُو الْأَوْسِ وَالْغَزَرِجَ تَحَالَّفُ عَلَى قِتَالِكُمْ، فَغَزَّوْهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ وَرَأْعَهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لَا يَرْعُكُمْ هَذَا الصَّوْتُ، فَإِنَّمَا هُوَ عَدُوُ اللَّهِ إِبْلِيسُ، لَيْسَ يَسْمَعُهُ أَحَدٌ مِمَّنْ تَخَافُونَ" وَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَصَرَّخَ بِالشَّيْطَانِ فَقَالَ: "يَا ابْنَ أَزَبَّ، أَهَذَا عَيْلُكَ؟ سَافَرْغُ لَكَ" وَبَلَغَ قُرَيْشًا الْحَدِيثُ فَأَقْبَلُوا حَتَّى إِنَّهُمْ لَيَتَوَطَّئُونَ عَلَى رَحْلِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَا يُبَصِّرُونَهُمْ فَرَجَعُتْ قُرَيْشٌ وَقَالَ الْعَبَاسُ بْنُ عُبَادَةَ بْنِ نَضْلَةَ أَخُو بَنِي سَالِمٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ شَفَتَ وَالَّذِي أَكْرَمَكَ مِنْنَا عَلَى أَهْلِ مِنِي بِأَسْيَافِنَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَمْ أُوْمَرْ بِذَلِكَ وَكَانَ هُؤُلَاءِ الْقَرْفُ الْقَفُوا عَلَى مَرْضَاةِ اللَّهِ وَأَوْفُوا بِالشَّرْطِ مِنْ أَنفُسِهِمْ بِنَصْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ صَدَرُوا رَابِحِينَ رَاشِدِينَ إِلَى بِلَادِهِمْ وَجَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلِلْمُؤْمِنِينَ مَلْحًا وَأَنْصَارًا وَدَارَ هِجْرَةً حَدَّثَنَا حَبِيبُ بْنُ الْحَسَنِ قَالَ: ثنا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى الْمَرْوَزِيُّ قَالَ: ثنا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ أَيُوبَ قَالَ: ثنا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ قَالَ: ثنا سَلَمَةُ بْنُ الْفَضْلِ وَثنا مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ الْحَسَنِ قَالَ: ثنا مُحَمَّدُ بْنُ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي شَيْبَةَ قَالَ: ثنا مُنْحَاجُ بْنُ حَارِثَ قَالَ: ثنا إِبْرَاهِيمُ بْنُ يُوسُفَ ثنا زِيَادُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ قَالَ: لَمَّا قَدِمَ الْأَنْصَارُ الْمَدِينَةَ بَعْدَمَا بَأْيَعُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ظَهَرَ الْإِسْلَامُ بِهَا وَفِي قُومِهِمْ بَقَائِيَا عَلَى دِينِهِمْ مِنْ أَهْلِ الشَّرْكِ مِنْهُمْ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ وَكَانَ ابْنُهُ مُعاذٌ قَدْ شَهَدَ الْعَقَبَةَ وَبَأْيَعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِهَا وَكَانَ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحَ سَيِّدًا مِنْ سَادَاتِ بَنِي سَلَمَةَ وَشَرِيفًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ وَكَانَ

قد اتَّخَذَ فِي دَارِهِ صَنَمًا مِنْ خَشَبٍ يُقَالُ لَهُ مَنَاهُ كَمَا كَانَتِ الْأَشْرَافُ يَصْنَعُونَ يَتَّخِذُهُ إِلَهًا وَيُطَهِّرُهُ فَلَمَّا أَسْلَمَ فَتْيَانُ بَنِي سَلَمَةَ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ وَابْنَهُ مُعَاذَ بْنُ عَمْرُو فِي فَتْيَانِ مِنْهُمْ مِنْ أَسْلَمَ وَشَهَدَ الْعَقْبَةَ كَأُولَوْ يَدْخُلُونَ عَلَى صَنَمِ عَمْرُو ذَلِكَ فَيَحْمِلُونَهُ فَيَطْرَحُونَهُ فِي بَعْضِ حُفَرِ بَنِي سَلَمَةَ وَفِيهَا عَدْرَةُ النَّاسِ مُنْكَسًا عَلَى رَأْسِهِ فَإِذَا أَصْبَحَ عَمْرُو قَالَ: وَيْلَكُمْ مَنْ عَدَا عَلَى إِلَهَنَا فِي هَذِهِ الْلَّيْلَةِ؟ قَالَ: ثُمَّ يَعْدُو يَلْتَمِسُهُ حَتَّى إِذَا وَجَدَهُ غَسَلَهُ وَطَهَرَهُ وَطَبَيَّهُ ثُمَّ قَالَ: وَإِيمُ اللَّهِ لَوْ أَنِّي أَعْلَمُ مَنْ صَنَعَ بِكَ هَذَا لَأُخْرِيَنَهُ فَإِذَا أَمْسَى عَمْرُو وَنَامَ عَدَوَا عَلَيْهِ فَفَعَلُوا بِهِ مِثْلَ ذَلِكَ فَلَمَّا أَكْتُنُرُوا عَلَيْهِ اسْتَخْرَجَهُ مِنْ حَيْثُ الْقَوْهُ يَوْمًا فَعَسَلَهُ وَطَهَرَهُ وَطَبَيَّهُ ثُمَّ جَاءَ بِسَيِّفِهِ فَعَلَقَهُ عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ مَنْ يَفْعَلُ بِكَ مَا نَرَى فَإِنْ كَانَ فِي كَ خَيْرٍ فَامْتَنِعْ بِهَذَا السَّيِّفِ مَعَكَ فَلَمَّا أَمْسَى وَنَامَ عَدَوَا عَلَيْهِ فَأَخْلَنُوهُ وَالسَّيِّفُ فِي عُنْقِهِ ثُمَّ أَخْدُوْا كَلْبًا مِنْتَانِي فَقَرَنُوهُ مَعَهُ بِحَبْلٍ ثُمَّ الْقَوْهُ فِي بَعْرِ مِنْ آبَارِ بَنِي سَلَمَةَ فِيهَا عَدْرَةَ مِنْ عَدَرِ النَّاسِ وَغَدَا عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ فَلَمْ يَجِدْهُ فِي مَكَانِهِ الَّذِي كَانَ فِيهِ فَخَرَجَ فِي طَلَبِهِ حَتَّى وَجَدَهُ فِي تُلْكَ الْبَيْرِ مَقْرُونًا بِكَلْبٍ مِيَّتٍ فَلَمَّا رَأَهُ وَأَبْصَرَ شَانَهُ وَكَلْمَهُ مِنْ أَسْلَمَ مِنْ قَوْمِهِ أَسْلَمَ يَرْحَمُهُ اللَّهُ وَحَسْنَ إِسْلَامُهُ وَزَادَ مِنْجَابٌ عَنْ زِيَادٍ فِي حَدِيثِهِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ قَالَ: وَحَدَّثَنِي إِسْحَاقُ بْنُ يَسَارٍ عَنْ رَجُلٍ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ قَالَ: لَمَّا أَسْلَمَ فَتْيَانُ بَنِي سَلَمَةَ أَسْلَمَتْ امْرَأَةً عَمْرُو بْنِ الْجَمُوحِ وَوَلَدُهُ قَالَ لِأَمْرَأَتِهِ: لَا تَدْعِي أَحَدًا مِنْ عِيَالِكِ فِي أَهْلِكِ حَتَّى تَنْتُرِ مَا يَصْنَعُ هُؤُلَاءِ قَالَتْ: أَفْعُلُ وَلَكِنْ هَلْ لَكَ أَنْ تَسْمَعَ مِنْ أَبْنَكَ فُلَانَ مَا رَوَى عَنْهُ؟ قَالَ: فَلَعْلَهُ صَبَّأَ قَالَتْ: لَا وَلَكِنْ كَانَ مَعَ الْقَوْمِ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَقَالَ: أَخْبِرْنِي مَا سَمِعْتَ مِنْ كَلَامِ هَذَا الرَّجُلِ فَقَرَأَ عَلَيْهِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: الصَّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ فَقَالَ: مَا أَحْسَنَ هَذَا وَأَجْمَلَهُ وَكُلُّ كَلَامِهِ مِثْلُ هَذَا؟ فَقَالَ: يَا أَبْتَاهُ وَأَحْسَنُ مِنْ هَذَا قَالَ: فَهَلْ لَكَ أَنْ تُبَيِّعَهُ؟ قَدْ صَنَعَ ذَلِكَ عَامَةُ قَوْمِكَ؟ قَالَ: لَسْتُ فَاعِلًا حَتَّى أُؤَامِرَ مَنَاهَ فَأَنْظُرْ مَا يَقُولُ قَالَ: وَكَانُوا إِذَا أَرَادُوا كَلَامَ مَنَاهَ جَاءُتْ عَجُوزٌ فَقَامَتْ خَلْفَهُ فَأَجَابَتْ عَنْهُ قَالَ: فَأَتَاهُ وَغَيْبَتِ الْعَجُوزُ وَأَقَامَ عِنْدَهُ فَتَشَكَّرَ لَهُ وَقَالَ: يَا مَنَاهَ تَشْعُرُ أَنَّهُ قَدْ سِيلَ بِكَ وَأَنْتَ غَافِلٌ؟ جَاءَ رَجُلٌ يَنْهَا عَنْ عِبَادَتِكَ وَيَأْمُرُنَا بِتَعْطِيلِكَ فَكَرِهْتُ أَنْ أُبَيِّعَهُ حَتَّى أُؤَامِرَكَ، وَخَاطَبَهُ طَوِيلًا فَلَمْ يَرُدْ عَلَيْهِ، فَقَالَ: أَطْنَثَكَ قَدْ غَضِبْتَ وَلَمْ أَصْنَعْ بَعْدُ شَيْئًا، فَقَامَ إِلَيْهِ

فَكَسَرَهُ. وَزَادَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَلَمَةَ فِي حَدِيثِهِ عَنْ مُحَمَّدٍ بْنِ إِسْحَاقَ: قَالَ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ حِينَ أَسْلَمَ وَعَرَفَ مِنَ اللَّهِ مَا عَرَفَ وَهُوَ يَذْكُرُ صَنَمَهُ وَمَا أَبْصَرَ مِنْ أَمْرِهِ وَيَشْكُرُ اللَّهَ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِمَّا كَانَ فِيهِ مِنَ الْعَمَى وَالضَّلَالَةِ:

أَتُوْبُ إِلَى اللَّهِ مِمَّا مَضَى وَأَسْتَنْقِذُ اللَّهَ مِنْ نَارِهِ
وَأَشْتِي عَلَيْهِ بِعَمَائِهِ إِلَهُ الْحَرَامِ وَأَسْتَأْرِهِ
فَسُبْحَانَهُ عَدَدُ الْخَاطِئِينَ وَقَطْرُ السَّمَاءِ وَمَدْرَارِهِ
هَدَانِي وَقَدْ كُنْتُ فِي ظُلْمَةٍ حَلِيفَ مَنَاهُ وَأَحْجَارِهِ
وَأَنْقَذَنِي بَعْدَ شَيْبِ الْقَدَالِ مِنْ شَيْنِ ذَاكَ وَمِنْ عَارِهِ
فَقَدْ كَدْتُ أَهْلِكَ فِي ظُلْمَةٍ تَدَارَكَ ذَاكَ بِمَقْدَارِهِ
فَحَمْدًا وَشُكْرًا لَهُ مَا بَقِيَ إِلَهُ الْأَنَامِ وَجَبَارُهِ
أُرِيدُ بِذَلِكَ إِذَا قُتْلُهُ مُجَاورَةَ اللَّهِ فِي دَارِهِ

وَقَالَ أَيْضًا يَدُمُ صَنَمُهُ:

تَالَّهُ لَوْ كُنْتَ إِلَهًا لَمْ تَكُنْ أَنْتَ وَكَلْبٌ وَسُطْرٌ بِرٌّ فِي قَرَنْ
أُفْ لِمَصْرَعَكَ إِلَهًا مُسْتَدَنٌ الْأَنَ فَتَشْتَانُكَ عَنْ سُوَءِ الْعَبْنِ
هُوَ الَّذِي أَنْقَذَنِي مِنْ قَبْلٍ أَنْ أَكُونَ فِي ظُلْمَةٍ قَبْرٌ مُرْتَهَنٌ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ ذِي الْمَنِ الْوَاهِبِ الرَّزَاقِ دِيَانِ الدِّينِ ١٠٣

– ولا بد أن نميز بين البر واللودة، فالبر مطلوب مع الناس غير المقاتلين، قال تعالى : { لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبْرُوْهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوْلُوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } (٩) } [المتحنة: ٨، ٩]

١٠٣ - سيرة ابن هشام - (١ / ٤٥٢) وَذَلِيلُ النُّبُوَّةِ لِأَبِي تُعْيِمِ الْأَصْبَهَانِيِّ (٢٢٢) حسن مرسل

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَنْهَاكُمْ عَنِ الْإِحْسَانِ إِلَى الْكُفَّارِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ، وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ، وَلَمْ يُعَاوِنُوكُمْ فِي إِخْرَاجِكُمْ مِّنْهَا، وَلَا يَمْنَعُوكُمْ مِّنْ إِكْرَامِهِمْ، وَمَنْحِهِمْ صِلَاتِكُمْ، لَأَنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَهْلَ الْبَرِّ وَالْتَّوَاصُلِ .

إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ مُوَالَةُ الْكُفَّارِ الَّذِينَ نَاصَبُوكُمُ الْعِدَاءَ فِي الدِّينِ فَقَاتَلُوكُمْ، وَأَخْرَجُوكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ وَدِيَارِكُمْ، وَأَعْنَوْكُمْ عَلَى إِخْرَاجِكُمْ، فَهُؤُلَاءِ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنْ مُوَالَاتِهِمْ، وَعَنْ اَنْخَادِهِمْ أَنْصَارًا، وَيَأْمُرُوكُمْ بِمُعَاوَاتِهِمْ .

وَيَقِّدُ اللَّهُ تَعَالَى الْوَعِيدَ عَلَى مُوَالَاتِهِمْ فَيُبَيِّنُ: أَنَّ الَّذِينَ يَتَوَلَُّونَ هُؤُلَاءِ الْكُفَّارَ الْمُؤْذِنِينَ هُمُ الظَّالِمُونَ لِأَنَّهُمْ خَالُفُوا أَمْرَ اللَّهِ فَوَالَّوْا أَعْدَاءَهُ وَأَعْدَاءَهُمْ .^{١٠٤}

والبر هو الإحسان إلى الناس وهو حركة خارجية وليس قلبية، فنبتسم في قلوب الناس كلهم. وأما المودة فهي حركة قلبية تتصل بالإيمان والعقيدة، فيحب المسلم الله ويعغض الله .

٤- أَنْ تُدْنِيَ الْمَدْعُوْ مِنْكَ وَتُلَاطِفَهُ وَتَهْشِّيْ فِي وَجْهِهِ وَلَا تَتَّبِعَ عُورَاتِهِ .

- ونتعلم هذا من ذلك الحديث الذي جاء فيه جبريل - عليه السلام - إلى الرسول - ﷺ - على صورة رجل سأله عن الإيمان والإسلام ومسائل أخرى، فكان الرسول يجيبه بكل لطف مع الإدناه .

- والابتسامة لا شك أن لها أثراً عظيماً في تأليف القلوب، فعن أبي ذرٍ، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تَبَسَّمُكَ فِي وَجْهِهِ أَحْيِكَ صَدَقَةً^{١٠٥} .

- فعن معاوية بْنِ الْحَكَمِ السَّلْمِيِّ، قال: بَيْنَا أَنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّلَاةِ، إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِّنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَحَدَّقَنِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَأَنْكُلَ أُمَّاهُ، مَا لَكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ قَالَ: فَضَرَبَ الْقَوْمُ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَادِهِمْ، قَالَ: فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُسَكِّنُونِي سَكَتُ، فَلَمَّا انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ صَلَاتِهِ دَعَانِي، فَبَأْبِي هُوَ وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ، وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيماً مِّنْهُ، وَاللَّهِ مَا ضَرَبَنِي، وَلَا كَهَرَنِي، وَلَا سَبَّنِي،

^{١٠٤} - أيسير التفاسير لأسعد حومد - (٥٠٣٦ / ١)

^{١٠٥} - صحيح ابن حبان - (٤٧٤ / ٢٢١) صحيح

ولَكِنْ قَالَ ﷺ: إِنَّ صَلَاتِنَا هَذِهِ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالْتَّكْبِيرُ وَتَلَوُّهُ الْقُرْآنُ^{١٠٦}.

وهكذا يعلمونا رسول الله - ﷺ - التلطف حتى في علاج الأخطاء!^{١٠٧}

- وللأسف نجد البعض من الناس يرمون الناس بالكفر والفسق والإلحاد والكلمات الخشنة التي لا دليل عليها فتكون سبباً في صدّ الناس عن دين الله، فعن أبي الطفيلي عاصم بن وائلة: أَنَّ رَجُلًا مَرَّ عَلَى قَوْمٍ فَسَلَمَ عَلَيْهِمْ، فَرَدُوا عَلَيْهِ السَّلَامَ، فَلَمَّا جَاءَوْهُمْ قَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْعِضُ هَذَا فِي اللَّهِ، فَقَالَ أَهْلُ الْمَجْلِسِ: بِئْسَ وَاللَّهِ مَا قُلْتَ، أَمَّا وَاللَّهِ كَنْبَشَنَّهُ، قُمْ يَا فُلَانُ، رَجُلًا مِنْهُمْ، فَأَخْبِرْهُ، قَالَ: فَأَدْرَكَهُ رَسُولُهُمْ، فَأَخْبَرَهُ بِمَا قَالَ، فَأَنْصَرَ فَالرَّجُلُ حَتَّى أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَرَرْتُ بِمَجْلِسٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِيهِمْ فُلَانٌ، فَسَلَمَتُ عَلَيْهِمْ فَرَدُوا السَّلَامَ، فَلَمَّا جَاءَوْهُمْ أَدْرَكَنِي رَجُلٌ مِنْهُمْ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ فُلَانًا قَالَ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْعِضُ هَذَا الرَّجُلَ فِي اللَّهِ، فَادْعُهُ فَسَلَّمَهُ عَلَامٌ يُغْضِنِي؟ فَدَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلَهُ عَمَّا أَخْبَرَهُ الرَّجُلُ، فَاعْتَرَفَ بِذَلِكَ وَقَالَ: قَدْ قُلْتُ لَهُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَلِمَ تُبْغِضُهُ؟ قَالَ: أَنَا حَارِهُ وَأَنَا بِهِ حَابِرٌ، وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُهُ يُصَلِّي صَلَةً قَطُّ إِلَّا هَذِهِ الصَّلَاةُ الْمَكْتُوبَةُ الَّتِي يُصَلِّيَهَا الْبُرُّ وَالْفَاجِرُ، قَالَ الرَّجُلُ: سَلْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: هَلْ رَأَيْتَ قَطُّ أَخْرَجْتَهَا عَنْ وَقْتِهَا، أَوْ أَسَأْتُ الْوُضُوءَ لَهَا، أَوْ أَسَأْتُ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ فِيهَا؟ فَسَأَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: لَا، ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُهُ يَصُومُ قَطُّ إِلَّا هَذَا الشَّهْرُ الَّذِي يَصُومُهُ الْبُرُّ وَالْفَاجِرُ؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ رَأَيْتَ قَطُّ أَفْطَرْتُ فِيهِ، أَوْ اتَّنَقَصْتُ مِنْ حَقَّهُ شَيْئًا؟ فَسَأَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: لَا، ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُهُ يُعْطِي سَائِلًا قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُهُ يُنْفِقُ مِنْ مَا لَهُ شَيْئًا فِي شَيْءٍ مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِخَيْرٍ، إِلَّا هَذِهِ الصَّدَقَةُ الَّتِي يُؤَدِّيَهَا الْبُرُّ وَالْفَاجِرُ، قَالَ: فَسَلَّهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ كَتَمْتُ مِنَ الزَّكَاةِ شَيْئًا قَطُّ، أَوْ مَا كَسْتُ فِيهَا

^{١٠٦} - صحيح مسلم - المكتن - (١٢٢٧) وصحيح ابن حبان - (٦ / ٢٢٤٧)

كهري : الكهر: الزبر والنهر، كهره يkehrه: إذا زبره ونهره.

^{١٠٧} - انظر كتاب ((منهاج الرسول ﷺ في تصحيح الأخطاء))

طَالِبَهَا ؟ قَالَ: فَسَأَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: لَا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قُمْ إِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ خَيْرٌ مِنْكَ .^{١٠٨}

- وللأسف كذلك نجد أن بعض الناس وهم يدعون الناس للخير يسمح لنفسه أن يتألم على الله فيحكم بحرمان إنسان من مغفرة ربه، وفي الحديث الذي رواه الإمام مسلم عن جنْدُب، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدَّثَ، "أَنَّ رَجُلًا قَالَ: وَاللَّهِ لَا يَعْفُرُ اللَّهُ لِفُلَانَ، وَقَالَ اللَّهُ: "مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنِّي لَا أَغْفِرُ لِفُلَانٍ فَإِنِّي غَفَرْتُ لِفُلَانٍ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ أَوْ كَمَا قَالَ " .^{١٠٩} وكذلك لا يجوز تعير إنسان بذنب فعله، ففي الحديث الذي رواه الترمذى عن معاذ بن جبل، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ عَيَّرَ أَخَاهُ بِذَنْبٍ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يَعْمَلَ" .^{١١٠} وعن وائلة بْنِ الْأَسْقَعِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا تُظْهِرِ الشَّمَائِةَ بِأَخِيكَ فَيَرْحَمَهُ اللَّهُ وَيَسْتَلِيكَ" .^{١١١}

- والداعية مطلوب منه ستر معاichi الناس لا فضحها، ولا يجوز التجسس على الناس لتبني معاichiهم .

- وعن الشعبي قال: جاء رجلاً إلى عمر بن الخطاب، فقال: يا أمير المؤمنين، إني وأدْتُ أبنة لي في الجاهلية فأدركتها قبل أن تموت فاستخر جهتها، ثم إنها أدركت الإنسانة معنا فحسن إسلامها، وإنها أصابت حدًا من حدود الإسلام، فلم تفجأها إلى وقد أخذت السكين تذبح نفسها، فاستغذنها، وقد خرجت نفسها فداوتها حتى برأ كل منها، فاقتلت إقبلاً حسناً، وإنها خطبتك إلى فاذكر ما كان منها، فقال عمر: "هاه، لئن فعلت لاعاقبتك عقوبة"، قال أبو فروة: "يسمع بها أهل الوباء، وأهل الودم"، قال إسماعيل، يتَحَدَّثُ بها أهل الأمصار، أنكِحْها نكاح العقيقة المسلمة" .^{١١٢}

^{١٠٨} - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٧ / ٨٥٦) (٢٢٨٠٣) (٢٤٢١٣) - صحيح مرسلي

^{١٠٩} - صحيح مسلم - المكتبة (٦٨٤٧)

^{١١٠} - سنن الترمذى - المكتبة (٢٦٩٣) وشعب الإيمان - (٩ / ٦٨) (٦٢٧١) حسن لغيرة

^{١١١} - شعب الإيمان - (٩ / ١٢٠) (٦٣٥٥) حسن

^{١١٢} - مُصَنَّفُ عَبْدِ الرَّزَّاقِ الصَّنَاعِيِّ (١٠٣٧٧) صحيح مرسلي

- وعن عبد الله بن الزبير، قال: لما كان يوم فتح مكة هرب عكرمة بن أبي جهل، وكانت امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هشام امرأه عاقلة أسلمت، ثم سالت رسول الله ﷺ الأمان لزوجها، فأمرها بردده، فخرجت في طلبه وقالت له: جئتك من عند أوصلي الناس، وأبر الناس، وخَيَر الناس، وقد استأمنت لك فامن، فرجع معها، فلما دنا من مكة، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: يأتكم عكرمة بن أبي جهل مؤمناً مهاجراً، فلا تسبوا أباهم، فإن سب الميت يؤذي الحي، ولا يبلغ الميت، فلما بلغ باب رسول الله ﷺ استبشر وَوَتَبَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ قَائِمًا عَلَى رَجْلِهِ فَرَحًا بِقُدُومِهِ ^{١١٣}.

- وعن يزيد بن الأصم: أن رجلاً كان ذا بأسٍ وكان يُوفد على عمر لباسه، وكان من أهل الشام، وأن عمر فقدمه فسأل عنه فقيل له: تتابع في هذا الشراب، فدعاه كاتبه فقال: أكتب: من عمر بن الخطاب إلى فلان، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو غافر الذنب، وقابل التوب، شديد العقاب، ذي الطول، لا إله إلا هو إليه المصير، ثم دعا وأمن من عنده، ودعوا له أن يُقتل الله بقلبه، وأن يتوب عليه، فلما أتت الصحيفة الرجل جعل يقرأها ويقول: غافر الذنب، قد وعدني الله أن يغفر لي، وقابل التوب شديد العقاب قد حذرني الله عقابه، ذي الطول والطول الخير الكبير، لا إله إلا هو إليه المصير، فلم يزل يرددتها على نفسه، ثم بكى، ثم نزاع فاحسن النزاع، فلما بلغ عمر أمره قال: هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أحالكم زلة فسددهوه، ووقفوه، وادعوا الله أن يتوب عليه، ولَا تَكُونُوا عَوْنَى لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِ ^{١١٤}.

٥- أن تُعطيه وجهك حين التحدث إليه، ولا تُقاطعه ولا تستهزي بقوله .

الوَادِ: عادة جاهلية ، كان إذا ولد لأحد هم في الجاهلية بنت دفتها في التراب وهي حيّة. - الحَدَّ والحدُود : محارم الله وعقوبته المحددة التي قرّتها بالذنوب- الشفرة : السكين العريضة - برأ أو برئ : شفي من المرض - الشأن : الأمر والخطب والحال - المصر : البلد أو القرية

^{١١٣} - المستدرك للحاكم (٥٠٥٥) وسنده واه

^{١١٤} - حلية الأولياء (٤٩٨٩) فيه انقطاع

- لا شك أن أدب الداعي يجذب المستمع إليه، وخاصة إذا أقبل بمحديه على من يدعوه بالنظر إليه والاهتمام به حتى يشعره بأنه يهتم به ويستريح للقاءه ويُقوّي آصرة المحبة والثقة بينه وبينه، ولنا في رسول الله - ﷺ - الأسوة الحسنة حينما نجده يتكلم بتؤدة وتمهل حتى يفهم السامع ما يقول، ويُصغي للمتكلّم كل الإصغاء حتى ولو كان كافراً، فعنْ مُحَمَّدَ بْنَ كَعْبٍ، قَالَ: حُدِّثْتُ أَنَّ عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ - وَكَانَ سَيِّدًا حَلِيمًا - قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ وَهُوَ جَالِسٌ فِي نَادِي قُرَيْشٍ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ وَحْدَهُ فِي الْمَسْجِدِ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَلَا أَقُومُ إِلَى هَذَا فَأَكَلُّهُ فَأَعْرِضُ عَلَيْهِ أَمْوَالَهُ أَعْلَمُ أَنْ يَقْبَلَ مِنْهَا بَعْضًا وَيَكْفُّ عَنَّا؟ قَالُوا: بَلَى يَا أَبَا الْوَلِيدِ، فَقَامَ عُتْبَةُ حَتَّى جَالَسَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ الْحَدِيثَ فِيمَا قَالَ لَهُ عُتْبَةُ وَفِيمَا عَرَضَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَالِ وَالْمُلْكِ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَلَمَّا فَرَغَ عُتْبَةُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَفَرَغْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَاسْمَعْ مِنِّي، قَالَ: أَفْعُلُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حِمَ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْأَنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ" فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْرُئُهَا عَلَيْهِ فَلَمَّا سَمِعَهَا عُتْبَةُ أَصْنَتَ لَهَا وَأَلْقَى بِيَدِيهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ مُعْتَدِلًا عَلَيْهِمَا يَسْمَعُ مِنْهُ حَتَّى اتَّهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى السَّجْدَةِ فَسَجَدَ فِيهَا ثُمَّ قَالَ: سَمِعْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟" قَالَ: سَمِعْتُ، قَالَ: فَأَنْتَ وَدَاكَ، فَقَامَ عُتْبَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: نَحْلَفُ بِاللَّهِ لَقَدْ جَاءَكُمْ أَبُو الْوَلِيدِ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ، فَلَمَّا جَالَسَ إِلَيْهِمْ قَالُوا مَا وَرَأَيْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟ قَالَ: وَرَأَيْتِ أَنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلًا مَا سَمِعْتُ مِثْلَهُ قَطُّ وَاللَّهِ مَا هُوَ بِالشِّعْرِ وَلَا السَّحْرِ وَلَا الْكَهَانَةِ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَطْعِنُونِي وَاجْعَلُوهَا بِي خَلُوا بَيْنَ هَذَا الرَّجُلِ وَبَيْنَ مَا هُوَ فِيهِ فَوَاللَّهِ لِيَكُونَنَّ لَقُولَهُ الَّذِي سَمِعْتُ نَبَأً" .^{١١٥}

وعنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ: أَنَّ قُرَيْشًا اجْتَمَعَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ لَهُمْ: دَعُونِي حَتَّى أَقُومَ إِلَيْهِ أَكَلْمَهُ فَإِنِّي عَسَى أَنْ أَكُونَ أَرْفَقَ بِهِ مِنْكُمْ فَقَامَ عُتْبَةُ حَتَّى جَالَسَ إِلَيْهِ فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي أَرَاكَ أُوْسَطَنَا بَيْنَا وَأَضَنَنَا مَكَانًا وَقَدْ أَدْخَلْتَ عَلَى قَوْمِكَ مَا لَمْ يُدْخِلْ رَجُلٌ عَلَى قَوْمِهِ مِثْلُهُ فَإِنْ كُنْتَ تَطْلُبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ مَا

١١٥ - الْاعْتِقَادُ لِلْبَيْقَيِّ (٢٥٢) صَحِيفَ مَرْسَلٍ

فَذَلِكَ لَكَ عَلَى قَوْمَكَ أَنْ يُجْمَعَ لَكَ حَتَّى تَكُونَ أَكْثَرَنَا مَالًا وَإِنْ كُنْتَ تَطْلُبُ شَرَفًا فَنَحْنُ نُشَرِّفُكَ حَتَّى لَا يَكُونَ أَحَدٌ مِنْ قَوْمَكَ أَشْرَفَ مِنْكَ وَلَا تَنْفَعُ أَمْرًا دُونَكَ وَإِنْ كَانَ هَذَا عَنْ مُلْمِ يُصِيبُكَ فَلَا تَقْدِرُ عَلَى النُّزُوعِ مِنْهُ بَدَلْنَا لَكَ حَزَائِنَا حَتَّى تُعْذَرَ فِي طَلَبِ الطَّبِّ لِذَلِكَ مِنْكَ وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ مُلْكًا مَلَكُنَاكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَفَرَغْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟ قَالَ: نَعَمْ فَقَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِمَ السَّجْدَةَ حَتَّى مَرَّ بِالسَّجْدَةِ فَسَجَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعَتْبَةُ مُلْقِ يَدِهِ خَلْفَ ظَهِيرَهِ حَتَّى فَرَغَ مِنْ قِرَاءَتِهِ ثُمَّ قَامَ عَتْبَةُ مَا يَدْرِي مَا يَرْجِعُ بِهِ إِلَى نَادِي قَوْمِهِ فَلَمَّا رَأَوْهُ مُقْبِلًا قَالُوا: لَقَدْ رَجَعَ إِلَيْكُمْ بِوَجْهٍ غَيْرِ مَا قَامَ مِنْ عِنْدِكُمْ فَجَلَسَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ قَدْ كَلَمْتُهُ بِالَّذِي أَمْرَتُمُونِي بِهِ حَتَّى إِذَا فَرَغْتُ كَلَمْنِي بِكَلَامِ لَهُ وَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ أَذْنَايَ مُثْلَهُ قَطُّ وَمَا دَرَيْتُ مَا أَقُولُ لَهُ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ فَأَطْبِعُونِي الْيَوْمَ وَأَعْصُونِي فِيمَا بَعْدِهِ وَأَثْرُكُوا الرَّجُلَ وَأَعْتَرُلُوهُ فَوَاللَّهِ مَا هُوَ بِتَارِكِ مَا هُوَ عَلَيْهِ وَخَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَائِرِ الْعَرَبِ إِنْ يَظْهِرُ عَلَيْهِمْ يَكُنْ شَرْفُهُ شَرْفَكُمْ وَعَزْهُ عِزْكُمْ وَإِنْ يَظْهِرُوا عَلَيْهِ تَكُونُوا قَدْ كُفِيْتُمُوهُ بِعَيْرِكُمْ قَالُوا: صَبَّاتٌ يَا أَبَا الْوَلِيدِ^{١١٦}.

- إن أدب الحوار هو من آداب الإسلام، ولا بد لكل مسلم من إتقان هذا الأدب، فكيف

بالداعية الذي يتعامل مع أصناف مختلفة من الناس؟^{١١٧}

٦- أَنْ تُحَاوِرْهُ دُونَ تَعَالٍ (تَكْبِيرٍ) عَلَيْهِ، وَأَنْ تُنْزِلَهُ مَنْزِلَتُهُ .

- كان رسول الله - ﷺ - ينزل الناس منازلهم، فكان يوقر الكبير ويعطف على الصغير، ويكرم من له سبق في الإسلام، فعن ميمون بن أبي شبيب أن عائشة عليهما السلام مر بها سائل فاعطته كسرة ومر بها رجل عليه ثياب وهيئة فأقعدته فأكل فقيل لها في ذلك فقلت قال رسول الله - ﷺ - «أَنْزِلُوا النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ»^{١١٨}.

١١٦ - دَلَائِلُ النُّبُوَّةِ لِأَبِي ثَعِيمِ الْأَصْبَهَانِيِّ (١٨٠) حسن

أرفق : من الرفق وهو ضد العنف - الشرف : القدر والقيمة والرفعة - صبا الرجل وصبا : ترك دين قومه ودان بأخر

١١٧ - انظر كتابي المذهب في الآداب الإسلامية - أدب الحوار

١١٨ - سنن أبي داود - المكتر - (٤٨٤) حسن لغفiro

قال أبو داود ميمون بن أبي شبيب لم يذرك عائشة . وقال الشيخ ابن الصلاح وفيما قاله أبو داود نظر فإنه كوفي متقدم قد أدرك المغيرة ابن شعبة ومات المغيرة قبل عائشة وعند مسلم التعاشر مع إمكان التلاقي كاف في ثبوت الإدراك فلو

وعن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله - ﷺ - : "ما أكرم شاب شيخاً لسنِه إلَى قَيَضَ اللَّهُ لَهُ عَنْ سَنَهُ مَنْ يُكْرِمُهُ عَنْ سَنَهُ".^{١١٩}

- وعن مقاتل بن حيان، قال: "أَنْزَلْتُ هَذِهِ الْآيَةَ يَوْمَ جُمُعَةَ، وَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ فِي الصُّفَّةِ وَفِي الْمَكَانِ ضِيقٌ، وَكَانَ يُكْرِمُ أَهْلَ بَدْرٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فَجَاءَ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ وَقَدْ سُبِّقُوا إِلَى الْمَجْلِسِ، فَقَامُوا حِيَالَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَّ كَاهُهُ، فَرَدَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ سَلَّمُوا عَلَى الْقَوْمِ بَعْدَ ذَلِكَ فَرَدُوا عَلَيْهِمْ، فَقَامُوا عَلَى أَرْجُلِهِمْ يَتَسَبَّطُونَ أَنْ يُوْسَعَ لَهُمْ، فَعَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ مَا يَحْمِلُهُمْ عَلَى الْقِيَامِ، فَلَمْ يُفْسِحْ لَهُمْ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ بَدْرٍ: قُمْ يَا فَلَانُ، وَأَنْتَ يَا فَلَانُ، فَلَمْ يَزَلْ يُقِيمُهُمْ بَعْدَ النَّفَرِ الَّذِينَ هُمْ قِيَامٌ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى مَنْ أَقِيمَ مِنْ مَجْلِسِهِ، فَنَزَّلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ".^{١٢٠}

- وعندما كان يأتي مندوب عن قوم أورئيس لهم كان الرسول - ﷺ - يقوم إليه ويرحب به ويجلسه عن يمينه ويسأله عن أحواله .

٧- أن تُسرِّ إليه بالموعظة ولا تُكاشفه بين الناس .

- كان الرسول - ﷺ - إذا فعل أحد الناس خطأ يقول: ما بال أقوام فعلوا كذا وكذا، وذلك للستر وعدم الفضيحة بين الناس وهذا هو أدب الداعية الحقيقي .

عن أنس بن مالك، أن نفرا من أصحاب النبي ﷺ سألا أزواجا النبي ﷺ عن عمله في السر، فقال بعضهم: لا أتزوج، وقال بعضهم: لا أكل اللحم، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فحمد الله وأتني عليه، ثم قال: ما بال أقوام قالوا كذا وكذا، لكنني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني .^{١٢١}

ورد عن ميمون أنه قال لم ألق عائشة استقام لأبي داود الجزم بعدم إدراكه وهيئات ذلك انتهى قال النووي وحدث عائشة هذا قد رواه البزار في مسنده وقال هذا الحديث لا يعلم عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه وقد روى عن عائشة من

غير هذا الوجه موقعا انتهى عون المعبود ١٣٢/١٣

^{١١٩} - شعب الإيمان - (١٣ / ٣٦٢) (١٠٤٨٥) ضعيف

^{١٢٠} - تفسير ابن أبي حاتم - (١٢ / ٢٩٥) وتفسير ابن كثير - دار طيبة - (٤٥ / ٨)

^{١٢١} - صحيح ابن حبان - (١ / ١٩١) (١٤) صحيح

وعن أنس، أن النبي ﷺ قال: ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم، فاشتد قوله في ذلك حتى قال: ليتهن عن ذلك، أو لتخطفن أبصارهم .^{١٢٥}

وعن عروة بن الربير، قال: سمعت أبا حميد الساعدي يقول: استعمل رسول الله ﷺ ابن اللطيبة على الصدقة، فلما جاء حاسبه النبي ﷺ، فقال: هذا لكم وهذه هدية أهديتها إلى، فقال النبي ﷺ: ألا جلست في بيت أبيك وأملأ حتى تأتيك هديتك، فلما صلّى رسول الله ﷺ الظهر قام فخطب، فحمد الله وأتني عليه، ثم قال: أما بعد، ما بال أقوام نولهم أموراً ممّا ولانا الله وستعملهم على أمور ممّا ولاني الله، ثم ياتي أحدهم فيقول: هذا لكم وهذه هدية إلى، ألا جلس في بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته، والذى نفس محمد بيده، لا يأخذ أحد منكم شيئاً بغير حقه إلا جاء يوم القيمة يحمله على عاتقه، فلما أعرفن رجلاً يحمل على عنقه يوم القيمة بغير الله رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر، ثم بسط يده حتى رأيت بياض إبطيه بصر عيني وسمع أذني، ثم قال: ألا هل بلعت ثلاثاً - الشهيد على ذلك زيد بن ثابت الأنباري يحكي منكبه .^{١٢٦}

- وعن ابن عمر قال: كنت مع عمر بن الخطاب في حج أو عمرة فإذا نحن براكب فقال عمر ﷺ أرى هذا يطلبنا قال فجاء الرجل فبكى قال: ما شألك إن كنت غارماً أعناك وإن كنت خائفاً أمتك إلا أن تكون قتلت نفساً فقتل بها وإن كنت كرهت حوار قوم حونناك عنهم؟ قال إن شربت الخمر وأنا أحد بنى تم وإن أبا موسى جلدني وحلقني وسدد وجهي وطاف بي في الناس وقال: لا تجالسوه ولا توأكلوه فحدثت نفسى بإحدى ثلاث إما أن أخذ سيفاً فاضرب به أبا موسى وإما أن أتاك فتحولنى إلى الشام فإنهم لا يعرفونى وإنما أن الحق بالعدو وأكل معهم وأشرب، قال فبكى عمر ^{١٢٧} وقال ما يسرنى أنك فعلت وإن عمر كذا وكذا وإنى كنت لأشرب الناس لها في الجاهلية وإنها ليست كالرنا وكتب إلى أبي موسى سلام عليك أمما بعد فإن فلان بن فلان التميمي أخبرنى بكذا وكذا و أيام الله لمن عدلت لأسودن وجهك ولا طوفن بك في

^{١٢٢} - صحيح ابن حبان - (٦١ / ٢٢٨٤) صحيح

^{١٢٣} - صحيح ابن حبان - (٤٥١٥ / ٣٧٣) صحيح

النَّاسِ إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَعْلَمَ حَقًّا مَا أَقُولُ لَكَ فَعُدْ فَأَمْرُ النَّاسَ أَنْ يُحَالِسُوهُ وَيُؤَاكِلُوهُ وَإِنْ تَابَ فَاقْبِلُوا شَهَادَتَهُ وَحَمَلَهُ وَأَعْطَاهُ مائِتَى دَرْهَمٍ .^{١٢٤}

وَعَنْ عَلِيٍّ، قَالَ: وَقَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعِرْفَةَ، فَقَالَ: هَذَا الْمَوْقِفُ وَعَرَفَهُ كُلُّهَا مَوْقِفٌ ثُمَّ أَرْدَفَ أَسَامَةَ، فَجَعَلَ يُعْنِقُ عَلَى نَاقِهِ، وَالنَّاسُ يَضْرِبُونَ إِلَيْهِ يَمِينًا وَشَمَالًا لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِمْ، وَيَقُولُ: السَّكِينَةُ أَيُّهَا النَّاسُ، وَدَفَعَ حِينَ غَابَتِ الشَّمْسُ فَأَتَى جَمْعًا فَصَلَّى بِهَا الصَّالَاتِينَ، يَعْنِي الْمَعْرِبَ وَالْعَشَاءَ، ثُمَّ بَاتَ بِهَا فَلَمَّا أَصْبَحَ وَقَفَ عَلَى قُرْحَ، فَقَالَ: هَذَا قُرْحُ وَهُوَ الْمَوْقِفُ، وَجَمْعٌ كُلُّهَا مَوْقِفٌ قَالَ: ثُمَّ سَارَ، فَلَمَّا أَتَى مُحَسِّرًا قَرَعَهَا، فَجَبَتْ حَتَّى جَازَ الْوَادِي ثُمَّ حَبَسَهَا، وَأَرْدَفَ الْفَضْلَ ثُمَّ سَارَ حَتَّى أَتَى الْجَمْرَةَ فَرَمَاهَا، ثُمَّ أَتَى الْمَنْحَرَ، فَقَالَ: هَذَا الْمَنْحَرُ وَمَنِي كُلُّهَا مَنْحَرٌ ثُمَّ أَتَهُ امْرَأَةٌ شَابَةٌ مِنْ حَشْعَمَ فَقَالَتْ: إِنَّ أَبِي شَيْخٍ قَدْ أَفْنَدَ، وَقَدْ ادْرَكَتْهُ فَرِيضةُ اللَّهِ فِي الْحَجَّ. فَهَلْ يُحْزِنُ أَنْ أَحْجَجَ عَنْهُ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَأَدَّى عَنِ ابْنِكَ. قَالَ: وَلَوَى عُنْقَ الْفَضْلِ، فَقَالَ لَهُ الْعَبَاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا لَكَ لَوْيَتَ عُنْقَ ابْنِ عَمِّكَ؟ قَالَ: رَأَيْتُ شَابًا وَشَابَةً فَخَفِضْتُ الشَّيْطَانَ عَلَيْهِمَا قَالَ: وَأَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ: أَفَضْتُ قَبْلَ أَنْ أَحْلَقَ، قَالَ: فَاحْلُقْ أَوْ قَصْرٌ وَلَا حَرَجَ، قَالَ: وَأَتَى زَمْرَ فَقَالَ: يَا بْنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ سَقَايَتُكُمْ، لَوْلَا أَنْ يَعْلِمُكُمُ النَّاسُ عَلَيْهَا لَتَرَعْتُ^{١٢٥}.

٨- إِعْطَاوَهُ بَعْضُ الْمَهَادِيَا وَالْعَطَايَا تَالِيْفًا لِقَلْبِهِ .

فَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَاتَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مُحَارِبٌ خَصَّفَةَ بَنْخُلْ، فَرَأَوْا مِنَ الْمُسْلِمِينَ غَرَّةً، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْهُمْ، يُقَالُ لَهُ: عَوْفُ بْنُ الْحَارِثٍ - أَوْ عُورَثُ بْنُ الْحَارِثٍ - حَتَّى قَامَ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِالسَّيْفِ، فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: اللَّهُ، قَالَ: فَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ، فَأَخْدَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السَّيْفَ، فَقَالَ لَهُ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي، قَالَ: كُنَّ خَيْرًا مِنِّي، قَالَ: تَشَهَّدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنْ أَعْاهِدُكَ عَلَى أَنْ لَا أَفَاتَلَكَ وَلَا أَكُونَ مَعَ قَوْمٍ يُقَاتِلُونَكَ، قَالَ: فَخَلَى سَبِيلُهُ، فَجَاءَ إِلَيْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ خَيْرِ النَّاسِ، فَلَمَّا كَانَ عِنْدَ الظَّهَرِ أَوِ الْعَصْرِ أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِصَلَاةِ الْخَوْفِ قَالَ: فَكَانَ

^{١٢٤} - السنن الكبرى للبيهقي - المكتبة - (١٠ / ٢١٤٦٦) صحيح

^{١٢٥} - مسند أحمد (علم الكتب) - (١ / ٤٣١) حسن

النَّاسُ طَائِفَتَيْنِ: طَائِفَةٌ بِإِزَاءِ الْعَدُوِّ، وَطَائِفَةٌ يُصْلُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَصَلَّى بِالطَّائِفَةِ الَّذِينَ مَعَهُ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ اتَّصَرَّفُوا، فَكَانُوا مَكَانَ أُولَئِكَ، وَجَاءَ أُولَئِكَ فَصَلَّوْا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، رَكْعَتَيْنِ، فَكَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَرْبَعُ رَكَعَاتٍ وَلِلْقَوْمِ رَكْعَاتٌ^{١٢٦}.
- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "تَهَادُوا تَحَابُوا"^{١٢٧}.
وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: تَهَادُوا، فَإِنَّ الْهَدِيَّةَ تُذَهِّبُ وَغَرَ الصَّدْرِ^{١٢٨}.
أَيِ الْحَقْدِ" .

وَعَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْبِلُ الْهَدِيَّةَ، وَيُشَبِّهُ عَلَيْهَا^{١٢٩}.
وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ أَهْدَى إِلَيَّ كَرَاعٌ لَقَبِيلَتُ وَلَوْ دُعِيتُ عَلَيْهِ لَأَجَبَتُ»^{١٣٠}.

- وقد كان - عليه الصلاة والسلام - يعطي حتى من يتعامل معه بغلظة تلييناً لقلبه، فقد روى الشیخان وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِي غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَحَجَدَهُ مِنْ خَلْفِهِ جَبْدَةً حَتَّى رَأَيْتُ صَفَحةَ عُنْقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَتَرَتْ بِهِ حَاشِيَةُ الْبُرْدِ مِنْ شَدَّةِ جَبْدَتِهِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَعْطِنِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَّفَتَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَضَحَكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءِ^{١٣١}.
وَعَنْ أَنَسٍ قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِي غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، وَأَعْرَابِيٌّ يَسْأَلُهُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ، حَتَّى اتَّشَهَى إِلَى بَعْضِ حُجَرِهِ فَحَدَّبَهُ جَدْبَةً، حَتَّى اسْتَقَ

^{١٢٦} - صحيح ابن حبان - (٧ / ٢٨٨٣) صحيح

^{١٢٧} - شعب الإيمان - (١١ / ٣٠٢) صحيح

^{١٢٨} - مسند أحمد (علم الكتب) - (٢ / ٤٦٤) (٩٢٥٠) - ٩٢٣٩ حسن لغيره

^{١٢٩} - مسند أحمد (علم الكتب) - (٨ / ١٤٢) (٢٤٥٩١) - ٢٥٠٩٨ صحيح البخاري - المكر - (٢٥٨٥)

^{١٣٠} - سنن الترمذى - المكر - (١٣٨٨) قال أبو عيسى حديث أنس حديث حسن صحيح.

الكراع : مستدق الساق من الغنم والبقر العاري من اللحم

^{١٣١} - صحيح البخاري - المكر - (٣١٤٩) صحيح مسلم - المكر - (٢٤٧٦)

الْبَرْدُ، وَحَتَّى تَعَيَّبَتْ حَاشِيَتُهُ فِي عَنْقِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -، وَكَانَ مِنْ تَعْبِيرِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -، أَنَّهُ أَمَرَ لَهُ بِشَيْءٍ فَأَعْطَيْهِ. ^{١٣٢}

- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ أَعْرَابِيًّا، جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ - ﷺ - يَسْتَعِينُهُ فِي شَيْءٍ، فَأَعْطَاهُ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ: أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ؟ فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: لَا، وَلَا أَجْحِلْتَ قَالَ: فَعَصَبَ الْمُسْلِمُونَ، وَقَامُوا إِلَيْهِ، فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ أَنْ كُفُوا. قَالَ عَكْرَمَةُ: قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: ثُمَّ قَامَ النَّبِيُّ - ﷺ - فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى الْأَعْرَابِيِّ، فَدَعَاهُ إِلَى الْبَيْتِ، فَقَالَ: إِنَّكَ جَهْنَمَنَا فَسَأْلُنَا، فَأَعْطَيْنَاكَ فَقُلْتَ: مَا قُلْتَهُ، فَرَأَدَهُ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ: أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ؟ قَالَ الْأَعْرَابِيُّ: نَعَمْ، فَجَزَّاكَ اللَّهُ مِنْ أَهْلٍ وَعَشِيرَةٍ حَيْرًا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ - ﷺ -: إِنَّكَ كُنْتَ جَهْنَمَنَا فَسَأْلُنَا، فَأَعْطَيْنَاكَ، وَقُلْتَ مَا قُلْتَ، وَفِي أَنْفُسِ أَصْحَابِيِّ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّ أَحْبَبْتَ فَقُلْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مَا قُلْتَ بَيْنَ يَدَيِّيَّ، حَتَّى تُذَهِّبَ مِنْ صُدُورِهِمْ مَا فِيهَا عَلَيْكَ. قَالَ: نَعَمْ. قَالَ عَكْرَمَةُ: قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَلَمَّا كَانَ الْعَدُّ أَوْ الْعَشِيرَةُ، جَاءَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: إِنَّ صَاحِبَكُمْ هَذَا كَانَ جَاءَ فَسَأْلُنَا، فَأَعْطَيْنَاهُ، وَقَالَ مَا قَالَ، وَإِنَّا دَعَوْنَا إِلَى الْبَيْتِ فَأَعْطَيْنَاهُ فَرَعَمَ أَنَّهُ قَدْ رَضِيَ، أَكَذَّلَكَ؟ قَالَ الْأَعْرَابِيُّ: نَعَمْ، فَجَزَّاكَ اللَّهُ مِنْ أَهْلٍ وَعَشِيرَةٍ حَيْرًا. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَقَالَ النَّبِيُّ - ﷺ -: أَلَا إِنَّ مَثِيلِي وَمَثَلَ هَذَا الْأَعْرَابِيِّ كَمَثَلِ رَجُلٍ كَانَتْ لَهُ نَاقَةٌ فَشَرَدَتْ عَلَيْهِ، فَاتَّبَعَهَا النَّاسُ، فَلَمْ يَنِدُوهَا إِلَّا نُفُورًا، فَنَادَاهُمْ صَاحِبُ النَّاقَةِ: خَلُوا بَيْنِي وَبَيْنِ نَاقِتِي، فَأَنَا أَرْفَقُ بَهَا وَأَعْلَمُ، فَتَوَجَّهَ لَهَا صَاحِبُ النَّاقَةِ بَيْنَ يَدِيهِمَا وَأَحَدَ لَهَا مِنْ قُمَامِ الْأَرْضِ، فَرَدَّهَا هَوْنًا هَوْنًا حَتَّى جَاءَتْ وَاسْتَنَاخَتْ وَشَدَّ عَلَيْهَا، وَإِنِّي لَوْ تَرَكْتُكُمْ حَيْثُ قَالَ الرَّجُلُ مَا قَالَ، فَقَاتَلُتُهُ، دَخَلَ التَّارَ ^{١٣٣}.

٩- أَنْ تَسْتَشِيرَ هِمَتَهُ بِمَا يَفْتَحُ قَلْبُهُ لِلْحَقِّ مَعَ مُدَارَاهِ سَفَهِهِ إِنْ كَانَ سَفِيهًّا.

- ومن ذلك النداءات التي تستشير الهمم وتستجيش العواطف وتدفع العقل للتفكير والقلب للتقبيل والجوارح للعمل، فمثلاً نداء إبراهيم - عليه السلام - لأبيه فلم يقل له يا كافر أو يا مشرك كما يقول بعض الشباب اليوم، ولكنه يقول: {إِذْ قَالَ لَأَبِيهِ يَا أَبَتِ لَمْ تَعْبُدُ مَا لَ

^{١٣٢} - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٤) / (٥٤٢) (١٣١٩٤) (١٣٢٢٦) - صحيح

^{١٣٣} - أَخْلَاقُ النَّبِيِّ لِأَبِي الشَّيْخِ الْأَصْبَهَانِيِّ (١٧٠) فيه ضعف

يَسْمَعُ وَلَا يُيْصِرُ وَلَا يُعْنِي عَنْكَ شَيْئاً} (٤٢) سورة مريم، ولقمان - عليه السلام - يخاطب ابنه بقوله: {وَإِذْ قَالَ لُقْمَانَ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعْظُمُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} (١٣) سورة لقمان، وكل نبي ورسول كان ينادي قومه بقوله: " يا قوم " قال تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} (٥٩) سورة الأعراف.

- وعن المُسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ، وَمَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ، قَالَا: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ يُرِيدُ زِيَارَةَ الْبَيْتِ، لَا يُرِيدُ قِتَالًا، وَسَاقَ مَعَهُ الْهَذِيَّ سَبْعِينَ بَدَنَةً، وَكَانَ النَّاسُ سَبْعَ مِائَةً رَجُلٍ، فَكَانَتْ كُلُّ بَدَنَةٍ عَنْ عَشَرَةَ، قَالَ: وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ بِعْسَفَانَ لَقِيَهُ بِشْرُ بْنُ سُفْيَانَ الْكَعْبِيَّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذِهِ قُرْيَشٌ قَدْ سَمِعْتُ بِمَسِيرِكَ، فَخَرَجَتْ مَعَهَا الْعُوذُ الْمَطَافِيلُ، قَدْ لَبِسُوا جُلُودَ النُّمُورِ، يُعَاهِدُونَ اللَّهَ أَنْ لَا تَدْخُلُهَا عَلَيْهِمْ عَنْهَا أَبَدًا، وَهَذَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فِي خَيْلِهِمْ قَدْمُوا إِلَى كُرَاعِ الْعَنَمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا وَيْحَ قُرْيَشٍ، لَقَدْ أَكْلَتُهُمُ الْحَرْبُ، مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلَوْا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ النَّاسِ، فَإِنْ أَصَابُونِي كَانَ الَّذِي أَرَادُوا، وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللَّهُ عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامَ وَهُمْ وَافِرُونَ، وَإِنْ لَمْ يَفْعُلُوا، قَاتَلُوا وَبِهِمْ قُوَّةٌ، فَمَاذَا تَظْنُنُ قُرْيَشٌ، وَاللَّهُ إِنِّي لَا أَرَأُ أَجَاهِدُهُمْ عَلَى الَّذِي بَعَثَنِي اللَّهُ لَهُ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ لَهُ، أَوْ تَنْفِرَهُ هَذِهِ السَّالِفَةُ، ثُمَّ أَمَرَ النَّاسَ، فَسَلَكُوا ذَاتَ الْيَمِينِ بَيْنَ ظَهَرِي الْحَمْضِ عَلَى طَرِيقٍ تُخْرِجُهُ عَلَى ثَبَيَّ الْمَرَارِ وَالْحُدَيْبِيَّةِ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ، قَالَ: فَسَلَكَ بِالْجَيْشِ تِلْكَ الْطَّرِيقَ، فَلَمَّا رَأَتْ خَيْلُ قُرْيَشٍ فَتَرَةَ الْجَيْشِ قَدْ خَالَفُوا عَنْ طَرِيقِهِمْ، نَكَصُوا رَاجِعِينَ إِلَى قُرْيَشٍ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِذَا سَلَكَ ثَبَيَّ الْمَرَارِ بَرَكَتْ نَاقَهُ، فَقَالَ النَّاسُ: خَالَتْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا خَالَتْ، وَمَا هُوَ لَهَا بِخَلْقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفَيْلِ عَنْ مَكَّةَ، وَاللَّهُ لَا تَدْعُونِي قُرْيَشُ الْيَوْمِ إِلَى خُطْبَةِ يَسْأَلُونِي فِيهَا صَلَةَ الرَّحْمِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَاهَا ثُمَّ قَالَ لِلنَّاسِ: اتَّنْزِلُوا فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا بِالوَادِي مِنْ مَاءٍ يَنْزِلُ عَلَيْهِ النَّاسُ. فَأَخْرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَهْمًا مِنْ كَنَاتَهُ، فَأَعْطَاهُ رَحْلًا مِنْ أَصْحَابِهِ، فَنَزَلَ فِي قَلِيلٍ مِنْ تِلْكَ الْقُلُبِ، فَعَرَزَهُ فِيهِ، فَجَاهَشَ الْمَاءُ بِالرَّوَاءِ حَتَّى ضَرَبَ النَّاسُ عَنْهُ بِعَطَنِ، فَلَمَّا اطْمَأَنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ فِي رِجَالٍ مِنْ خُزَاعَةَ، فَقَالَ لَهُمْ

كَوْلِهِ لِبْشِيرِ بْنِ سُفِيَّانَ، فَرَجَعُوا إِلَى قُرَيْشٍ فَقَالُوا: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّكُمْ تَعْجَلُونَ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَإِنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَأْتِ لِقَتَالٍ إِنَّمَا جَاءَ زَائِرًا لِهَذَا الْبَيْتِ، مُعَظَّمًا لِحَقِّهِ فَأَتَهُمُوهُمْ. قَالَ مُحَمَّدٌ، يَعْنِي ابْنَ إِسْحَاقَ: قَالَ الرُّهْرَيْ: وَكَانَتْ خُرَاعَةُ فِي غَيْةِ رَسُولِ اللَّهِ مُسْلِمًا وَمُؤْمِنًا كُهَا، لَا يُخْفِونَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ شَيْئًا كَانَ بِمَكَّةَ، قَالُوا: وَإِنْ كَانَ إِنَّمَا جَاءَ لِذَلِكَ، فَلَا وَاللَّهِ لَا يَدْخُلُهَا أَبَدًا عَنْوَةً، وَلَا تَسْهَدُتْ بِذَلِكَ الْعَرَبُ. ثُمَّ بَعَثُوا إِلَيْهِ مَكْرَزَ بْنَ حَفْصٍ بْنِ الْأَخْيَفِ، أَحَدَ بَنِي عَامِرٍ بْنِ لُؤَيٍّ، فَلَمَّا رَأَاهُ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ: هَذَا رَجُلٌ غَادِرٌ. فَلَمَّا اتَّهَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ كَلْمَهُ رَسُولُ اللَّهِ بَنَحْوِ مَا كَلَمَ بِهِ أَصْحَابَهُ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى قُرَيْشٍ، فَأَخْبَرَهُمْ بِمَا قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ: فَبَعَثُوا إِلَيْهِ الْحَلْسَ بْنَ عَلْقَمَةَ الْكَنَانِيَّ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ سَيِّدُ الْأَحَابِشِ، فَلَمَّا رَأَاهُ رَسُولُ اللَّهِ قَالَ: هَذَا مِنْ قَوْمٍ يَتَّالِهُونَ، فَبَعَثُوا الْهَدْيَ فِي وَجْهِهِ. فَبَعَثُوا الْهَدْيَ، فَلَمَّا رَأَى الْهَدْيَ يَسِيلُ عَلَيْهِ مِنْ عَرْضِ الْوَادِي فِي قَلَائِدِهِ، قَدْ أَكَلَ أَوْتَارَهُ مِنْ طُولِ الْحَبْسِ عَنْ مَحْلِهِ، رَجَعَ، وَلَمْ يَصِلْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِعْظَامًا لِمَا رَأَى، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، قَدْ رَأَيْتُ مَا لَا يَحْلُ صَدَهُ: الْهَدْيَ فِي قَلَائِدِهِ قَدْ أَكَلَ أَوْتَارَهُ مِنْ طُولِ الْحَبْسِ عَنْ مَحْلِهِ. فَقَالُوا: احْلِسْ، إِنَّمَا أَنْتَ أَعْرَابِيٌّ لَا عِلْمَ لَكَ، فَبَعَثُوا إِلَيْهِ عُرْوَةَ بْنَ مَسْعُودَ الثَّقْفِيَّ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ مَا يَلْقَى مِنْكُمْ، مَنْ تَبْعَثُونَ إِلَى مُحَمَّدٍ إِذَا جَاءَكُمْ، مِنَ التَّعْنِيفِ وَسُوءِ الْلَّفْظِ، وَقَدْ عَرَفْتُمْ أَنَّكُمْ وَاللَّهُ وَأَنِّي وَلَدُ، وَقَدْ سَمِعْتُ بِالَّذِي تَابَكُمْ، فَجَمَعْتُ مِنْ أَطَاعَنِي مِنْ قَوْمِي، ثُمَّ جَهْتُ حَتَّى آسَيْتُكُمْ بِنَفْسِي. قَالُوا: صَدَقْتَ، مَا أَنْتَ عِنْدَنَا بِمُتَّهِمٍ. فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى رَسُولَ اللَّهِ، فَجَلَسَ بَيْنَ يَدِيهِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، حَمَعْتَ أَوْبَاشَ النَّاسِ، ثُمَّ جَهْتَ بِهِمْ لِبَيْضَتَكَ لِتَفْضُّلَهَا، إِنَّهَا قُرَيْشٌ قَدْ خَرَجَتْ مَعَهَا الْعُوذُ الْمَطَافِيلُ، قَدْ لَبِسُوا جُلُودَ النُّمُورِ، يُعَاهِدُونَ اللَّهَ أَنْ لَا تَدْخُلُهَا عَلَيْهِمْ عَنْوَةً أَبَدًا، وَأَيْمُ اللَّهِ، لَكَأَنِّي بِهُؤُلَاءِ قَدْ انْكَشَفُوا عَنْكَ غَدًا.

قَالَ: وَأَبُو بَكْرِ الصَّدِيقِ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ قَاعِدٌ، فَقَالَ: أَمْصُصْ بَطْرَ السَّلَاتِ، أَنْخُنْ نَنْكَشِفُ عَنْهُ؟ قَالَ: مَنْ هَذَا يَا مُحَمَّدُ؟ قَالَ: هَذَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ قَالَ: وَاللَّهِ لَوْلَا يَدْ كَانَتْ لَكَ عِنْدِي، لَكَافَأْتَكَ بِهَا، وَلَكِنَّ هَذِهِ بِهَا. ثُمَّ شَنَاوَ لِحِيَةَ رَسُولِ اللَّهِ وَالْمُغَيْرَةَ بْنُ شُعْبَةَ وَاقِفٌ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ فِي الْحَدِيدِ، قَالَ: يَقْرَعُ يَدَهُ، ثُمَّ قَالَ: أَمْسِكْ

يَدْكَ عَنْ لَحْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ قَبْلَ وَاللَّهِ لَا تَصِلُ إِلَيْكَ. قَالَ: وَيَحْكَ، مَا أَفْظَكَ وَأَعْلَظَكَ. قَالَ: فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ قَبْلَهُ قَالَ: مَنْ هَذَا يَا مُحَمَّدُ؟ قَالَ: هَذَا ابْنُ أَخِيكَ الْمُغِيرَةَ بْنُ شَعْبَةَ قَالَ: أَغْدَرُ، هَلْ غَسَلْتَ سَوَّاتِكَ إِلَّا بِالْأَمْسِ؟ قَالَ: فَكَلَمَهُ رَسُولُ اللَّهِ قَبْلَهُ بِمِثْلِ مَا كَلَمَ بِهِ أَصْحَابَهُ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ يُرِيدُ حَرَبًا، قَالَ: فَقَامَ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ قَبْلَهُ وَقَدْ رَأَى مَا يَصْنَعُ بِهِ أَصْحَابُهُ، لَا يَتَوَضَّأُ وُضُوئًا إِلَّا ابْتَدَرَوْهُ، وَلَا يَسْقُطُ بُسَاقًا إِلَّا ابْتَدَرَوْهُ، وَلَا يَسْقُطُ مِنْ شَعَرِهِ شَيْءٌ إِلَّا أَخْدُنُوهُ، فَرَجَعَ إِلَى قُرَيْشٍ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنِّي حَتَّىٰ كَسَرَيَ فِي مُلْكِكَ، وَجَحْنَتُ قَيْصَرَ وَالْمَجَاشِيَّ فِي مُلْكِهِمَا، وَاللَّهُ مَا رَأَيْتُ مَلَكًا قَطُّ مِثْلُ مُحَمَّدٍ فِي أَصْحَابِهِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ قَوْمًا لَا يُسْلِمُونَهُ لِشَيْءٍ أَبْدًا، فَرُوَا رَأْيَكُمْ. قَالَ: وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ قَبْلَهُ قَبْلَ ذَلِكَ بَعْثَةَ حِرَاشَ بْنَ أُمِيَّةَ الْخُزَاعِيِّ إِلَى مَكَّةَ، وَحَمَلَهُ عَلَى جَمَلٍ لَهُ يُقَالُ لَهُ: الشَّعَبُ، فَلَمَّا دَخَلَ مَكَّةَ عَقَرَتْ بِهِ قُرَيْشٌ، وَأَرَادُوا قَتْلَ حِرَاشَ، فَمَنَعُوهُمُ الْأَحَابِشُ حَتَّىٰ أَتَى رَسُولُ اللَّهِ قَبْلَهُ، فَدَعَا عُمَرَ لِيَبْعَثَهُ إِلَى مَكَّةَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَخَافُ قُرَيْشًا عَلَى نَفْسِي، وَلَيَسَّ بِهَا مِنْ بَنِي عَدِيٍّ أَحَدٌ يَمْعِنِي، وَقَدْ عَرَفَتْ قُرَيْشٌ عَدَاوَتِي إِيَّاهَا، وَغَلَظَتِي عَلَيْهَا، وَلَكِنْ أَدْلُكَ عَلَى رَجُلٍ هُوَ أَعْزَزُ مِنِي عُثْمَانَ بْنِ عَفَانَ، قَالَ: فَدَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ قَبْلَهُ، فَبَعَثَهُ إِلَى قُرَيْشٍ يُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ لِحَرْبٍ، وَأَنَّهُ جَاءَ زَائِرًا لِهَذَا الْبَيْتِ، مُعَظَّمًا لِحُرْمَتِهِ، فَخَرَجَ عُثْمَانُ حَتَّىٰ أَتَى مَكَّةَ، وَلَقِيَهُ أَبَانُ بْنُ سَعِيدٍ بْنِ الْعَاصِ، فَنَزَلَ عَنْ دَابِّهِ وَحَمَلَهُ بَيْنَ يَدِيهِ، وَرَدَفَ خَلْفَهُ، وَأَجَارَهُ حَتَّىٰ بَلَغَ رِسَالَةَ رَسُولِ اللَّهِ قَبْلَهُ، فَانْطَلَقَ عُثْمَانُ حَتَّىٰ أَتَى أَبَا سُفْيَانَ وَعُظَمَاءَ قُرَيْشٍ، فَبَلَغُهُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ قَبْلَهُ مَا أَرْسَلَهُ بِهِ، فَقَالُوا لِعُثْمَانَ: إِنْ شِئْتَ أَنْ تَطُوفَ بِالْبَيْتِ، فَطُفْ بِهِ فَقَالَ: مَا كُنْتُ لَأَفْعَلَ حَتَّىٰ يَطُوفَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ قَبْلَهُ. قَالَ: فَاحْتَسَسَهُ قُرَيْشٌ عِنْدَهَا، فَبَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ قَبْلَهُ وَالْمُسْلِمِينَ أَنَّ عُثْمَانَ قَدْ قُتِلَ. قَالَ مُحَمَّدٌ: فَحَدَّثَنِي الزُّهْرِيُّ: أَنَّ قُرَيْشًا بَعُثُوا سُهْلَ بْنَ عَمْرُو، أَحَدَ بَنِي عَامِرٍ بْنِ لُؤْيٍّ، فَقَالُوا: أَئْتَ مُحَمَّدًا فَصَالَحَهُ، وَلَا يَكُونُ فِي صَلْحَهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ عَنَّا عَامَةً هَذَا، فَوَاللَّهِ لَا تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَّهُ دَخَلَهَا عَلَيْنَا عَنْوَةً أَبْدًا، فَأَتَاهُ سُهْلٌ بْنُ عَمْرُو، فَلَمَّا رَأَهُ النَّبِيُّ قَبْلَهُ قَالَ: قَدْ أَرَادَ الْقَوْمُ الصُّلْحَ حِينَ بَعُثُوا هَذَا الرَّجُلَ، فَلَمَّا اتَّهَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ قَبْلَهُ تَكَلَّمَا، وَأَطَالَا الْكَلَامَ، وَتَرَاجَعَا حَتَّىٰ جَرَى بَيْنَهُمَا الصُّلْحُ، فَلَمَّا اتَّهَى الْأَمْرُ وَلَمْ يَقِنْ إِلَّا

الْكِتَابُ وَثَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابَ، فَأَتَى أَبَا بَكْرٍ، فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ، أَوْلَيْسَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ أَوْلَسْنَا بِالْمُسْلِمِينَ؟ أَوْلَيْسُوا بِالْمُشْرِكِينَ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: فَعَلَامَ نُعْطِي الْذِلَّةَ فِي دِينِنَا. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا عُمَرُ الزَّمْغَرَةُ حَيْثُ كَانَ، فَإِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ عُمَرُ: وَأَنَا أَشْهَدُ، ثُمَّ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْلَسْنَا بِالْمُسْلِمِينَ؟ أَوْلَيْسُوا بِالْمُشْرِكِينَ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: فَعَلَامَ نُعْطِي الْذِلَّةَ فِي دِينِنَا؟ فَقَالَ: أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، لَنْ أُخَالِفَ أَمْرَهُ، وَلَنْ يُضِيقَنِي ثُمَّ قَالَ عُمَرُ: مَا زِلْتُ أَصُومُ وَأَصَدِّقُ وَأُصْلِي وَأَعْتَقُ مِنَ الَّذِي صَنَعْتُ مَخَافَةً كَلَامِي الَّذِي تَكَلَّمْتُ بِهِ يَوْمَنِ حَتَّى رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ خَيْرًا، قَالَ: وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اكْتُبْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَقَالَ سُهْلُ بْنُ عَمْرُو: لَا أَعْرِفُ هَذَا، وَلَكِنْ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ سُهْلُ بْنُ عَمْرُو فَقَالَ سُهْلُ بْنُ عَمْرُو: لَوْ شَهِدْتُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ لَمْ أَقْاتِلْكَ، وَلَكِنْ اكْتُبْ: هَذَا مَا اصْطَلَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَسُهْلُ بْنُ عَمْرُو عَلَى وَضْعِ الْحَرْبِ عَشْرَ سِنِينَ، يَأْمُنُ فِيهَا النَّاسُ، وَيَكْفُفُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ، عَلَى أَنَّهُ مَنْ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ رَدَدٍ عَلَيْهِمْ، وَمَنْ أَتَى قُرْيَشًا مِمَّنْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَرُدُّهُ عَلَيْهِ، وَإِنَّ بَيْنَنَا عَيْنَةً مَكْفُوفَةً، وَإِنَّهُ لَا إِسْلَالَ وَلَا إِغْلَالَ، وَكَانَ فِي شَرْطِهِمْ حِينَ كَتَبُوا الْكِتَابَ أَنَّهُ مَنْ أَحَبَ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ وَعَهْدِهِ دَخَلَ فِيهِ، وَمَنْ أَحَبَ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ قُرْيَشٍ وَعَهْدِهِمْ دَخَلَ فِيهِ، فَتَوَاثَبَتْ حُزَاجَةٌ فَقَالُوا: نَحْنُ مَعَ عَقْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَهْدِهِ، وَتَوَاثَبَتْ بَنُو بَكْرٍ، فَقَالُوا: نَحْنُ فِي عَقْدِ قُرْيَشٍ وَعَهْدِهِمْ، وَأَنَّكَ تَرْجِعُ عَنَّا عَامَنَا هَذَا، فَلَا تَدْخُلْ عَلَيْنَا مَكَّةَ، وَأَنَّهُ إِذَا كَانَ عَامُ قَابِلٍ، خَرَجْنَا عَنْكَ، فَتَدْخُلْهَا بِاصْحَابِكَ، وَأَقْمَتْ فِيهِمْ ثَلَاثَةَ مَعَكَ سِلَاحَ الرَّاكِبِ لَا تَدْخُلْهَا بَعْيَرِ السُّيُوفِ فِي الْقُرْبِ. فَبَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ إِذْ جَاءَهُ أَبُو جَنْدَلَ بْنُ سُهْلٍ بْنُ عَمْرُو فِي الْحَدِيدَ قَدْ انْفَلَتْ إِلَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: وَقَدْ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَرَجُوا وَهُمْ لَا يَشْكُونَ فِي الْفُتْحِ لِرُؤْيَا رَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا رَأَوْا مَا رَأَوْا مِنَ الصُّلُحِ وَالرُّجُوعِ، وَمَا تَحْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيْهِ، دَخَلَ النَّاسَ مِنْ ذَلِكَ أَمْرٍ عَظِيمٍ حَتَّى كَادُوا أَنْ يَهْلِكُوا، فَلَمَّا رَأَى سُهْلُ بْنَ أَبِي جَنْدَلٍ

قَامَ إِلَيْهِ، فَضَرَبَ وَجْهَهُ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، قَدْ لُحِّتِ الْقَضِيَّةُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكَ هَذَا. قَالَ: صَدَقْتَ. قَامَ إِلَيْهِ، فَأَخْدَى بَنْتَبِيهِ، قَالَ: وَصَرَخَ أَبُو جَنْدَلَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا مَعَاشِ الرَّسُولِ الْمُسْلِمِينَ، أَتَرُدُّونِي إِلَى أَهْلِ الشَّرِّكِ، فَيَفْتَنُونِي فِي دِينِي. قَالَ: فَرَادَ النَّاسُ شَرًّا إِلَى مَا بِهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا أَبَا جَنْدَلَ اصْبِرْ وَاحْتَسِبْ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَحًا وَمَخْرَحًا، إِنَّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ صُلْحًا، فَأَعْطَيْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَأَعْطَوْنَا عَلَيْهِ عَهْدًا، وَإِنَّا لَنْ نَعْدِرَ بِهِمْ. قَالَ: فَوَبَّ إِلَيْهِ عُمُرُ بْنُ الْخَطَّابَ مَعَ أَبِي جَنْدَلَ، فَجَعَلَ يَمْشِي إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَقُولُ: اصْبِرْ أَبَا جَنْدَلَ، فَإِنَّمَا هُمُ الْمُشْرِكُونَ، وَإِنَّمَا دَمُ أَحَدِهِمْ دَمُ كَلْبٍ. قَالَ: وَيُدِينِي قَائِمَ السَّيْفِ مِنْهُ. قَالَ: يَقُولُ: رَجُوتُ أَنْ يَأْخُذَ السَّيْفَ، فَيَضْرِبَ بِهِ أَبَاهُ. قَالَ: فَضَنَّ الرَّجُلُ بِأَبِيهِ، وَنَفَدَتِ الْقَضِيَّةُ، فَلَمَّا فَرَغَا مِنِ الْكِتَابِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصْلِي فِي الْحَرَامِ وَهُوَ مُضْطَرِبٌ فِي الْحَلِّ. قَالَ: فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، انْحِرُوا وَاحْلُقُوا قَالَ: فَمَا قَامَ أَحَدٌ، قَالَ: ثُمَّ عَادَ بِمِثْلِهِ، فَمَا قَامَ رَجُلٌ، حَتَّى عَادَ بِمِثْلِهِ، فَمَا قَامَ رَجُلٌ، فَرَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَدَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ، فَقَالَ: يَا أُمَّ سَلَمَةَ، مَا شَأْنُ النَّاسِ؟ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ دَخَلَهُمْ مَا قَدْ رَأَيْتَ، فَلَا تُكَلِّمَنَّ مِنْهُمْ إِنْسَانًا، وَأَعْمَدْ إِلَى هَذِيَّكَ حَيْثُ كَانَ فَأَنْهَرْهُ وَأَحْلَقْهُ، فَلَوْ قَدْ فَعَلْتَ ذَلِكَ فَعَلَ النَّاسُ ذَلِكَ. فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا يُكَلِّمُ أَحَدًا حَتَّى أَتَى هَذِيَّهُ فَنَحَرَهُ، ثُمَّ جَلَسَ، فَحَلَقَ، فَقَامَ النَّاسُ يَنْحَرُونَ وَيَحْلُقُونَ. قَالَ: حَتَّى إِذَا كَانَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ فِي وَسْطِ الظَّرِيقِ، فَنَرَأَتْ سُورَةَ الْفَتْحِ .^{١٣٤}

- وإذا كان المدعوس فيهاً أو صدر منه تصرف سفيه فلا بد من علاجه بالحكمة، فهذا زين العابدين بن علي بن الحسن - رضي الله عنهم - خرج إلى المسجد يوماً فسأله رجل، فقصدته غلمانه ليضربوه ويؤذوه، فنهاهم زين العابدين، وقال لهم: كفوا أيديكم عنه، ثم التفت إلى ذلك الرجل وقال: يا هذا أنا أكثر مما تقول، وما لا تعرفه مني أكثر مما عرفته، فإن كان لك حاجة في ذكره ذكرته لك. فخجل الرجل واستحيا، فخلع زين العابدين

^{١٣٤} - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٤١٤ / ٦) - ١٩١١٧ (١٨٩١٠) - صحيح

قميصه، وأمر له بآلف درهم، فمضى الرجل وهو يقول: أشهد أن هذا الشاب ولد رسول

الله - ﷺ - ١٣٥ .

- ولكن استشارة الهمم لا تعني المدح الكاذب أو المبالغ فيه والذي قد يؤدي إلى إعجاب المدعو بنفسه وبعده عن الله، لذا فلا بد من الاعتدال الذي هو أساس الحكم .

١٠ - أن تتجه معه الخلافات الفقهية وترك المراء المذموم .

- فإن الخوض في الخلافات قد يؤدي إلى مجادلات لا تزيد القلوب إلا قسوة، فينفر المدعو من الداعية وطريقة عرضه .

فكل الإمام على خير، والتعصب لمذهب ليس من الدين في شيء، "ويجب على المسلمين بعد موالاة الله ورسوله موالاة المؤمنين كما نطق به القرآن قال تعالى: {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الَّذِينَ يُقْبِلُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ} (٥٥) سورة المائدة، خصوصاً العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، فعن كثير بن قيس قال كنت جالساً مع أبي الدرداء في مسجد دمشق فجاءه رجل فقال يا أبي الدرداء إني جئت من مدينة الرسول - ﷺ - لحديث بلغني أنك تحدن عن رسول الله - ﷺ - ما جئت لحاجة قال فإني سمعت رسول الله - ﷺ - يقول «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة وإن الملائكة لتضع أحجتها رضا طالب العلم وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ورثوا العلم فمن أحدهم أحده بحظ وافر» .^{١٣٦}

وهم الذين جعلهم الله بمثابة النجوم يهتدى بهم في ظلمات البر والبحر، وقد أحجموا المسلمين على هدايتهم ودرأيتهم، إذ كل أمّة قبل مبعث محمد - ﷺ - فعلماؤها شاروها إلى المسلمين فإن علماءهم خيارهم؛ فإنهم خلفاء الرسول - ﷺ - في أمته،

^{١٣٥} - تربية الأولاد في الإسلام للنابسي - (١٥ / ١٦)

٢٦٥ <http://montada.rasoulallah.net/index.php?showtopic=>

^{١٣٦} - أخرجه أبو داود في سننه برقم (٣٦٤٣) وهو حديث صحيح.

والمحيون لما مات من سنته بهم قام الكتاب وبه قاموا وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: قال رسول الله - ﷺ : "يحمل هذا العلم من كل خلف عدوه، ينفون عنه تحريف العالين، واتصال المبطلين، وتأويل الحاهلين" ^{١٣٧} .

وليعلم الله ليس أحد من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولا عاما يتعمد مخالفه رسول الله - ﷺ - في شيء من سنته؛ فدائماً متفقون اتفاقاً يقينياً على وجوب اتباع الرسول - ﷺ - لقوله تعالى: {وما أتاكم الرسول فخذلوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب} ^{١٣٨} (٧) سورة الحشر، ولقوله تعالى: {وما كان المؤمن ولما مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخير من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبينا} ^{١٣٩} (٣٦) سورة الأحزاب، وعلى أن كل أحد من الناس يُؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله - ﷺ -، ولكن إذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه فلابد له من عذر في ترمه ^{١٤٠} .



^{١٣٧} - أخرج الطحاوي في مشكل الآثار برقم (٣٢٦٩) وهو حسن لغيره

^{١٣٨} - انظر : مجموع الفتاوى - (ج ٢ / ص ٢٢٧) و (ج ٣ / ص ٣٤٧) و (ج ١٣ / ص ٢٥٩) و (ج ٢٠ / ص ٢٠٩) و (ج ٢١١ / ص ٢٠) و (ج ٢٢ / ص ٢٣٢) و (ج ٢٧ / ص ٢٤١) و (ج ٣٣ / ص ٢٨) و (ج ١ / ص ٢١٠) و (ج ٤ / ص ٣٠٠) و (ج ٧ / ص ٢١١) و فتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (ج ٤ / ص ٩٦٧) و (ج ٤ / ص ٩٩٦٧) و (ج ٦ / ص ٤٩) و (ج ٩ / ص ٤٦٦٩) و (ج ٩ / ص ٤٤٦) و (ج ١٠ / ص ١٠٥١) ومن أصول الفقه على منهج أهل الحديث - الرقمية - (ج ١ / ص ١٧٥)

المبحث العاشر

التعريف قبل التكليف

- مرحلة التعريف من أهم المراحل وأخطرها، لأنه إذا أحسن الداعي تقديم الدعوة والتعريف بها تفتحت كثير من قلوب الناس لها.

- الداعي لا يستطيع أن يلزم الناس بما يحمل، إنما يقنعهم بما يقول، والإقناع يحتاج إلى حسن العرض وبساطة القول وتوضيح الفهم، وتعريف بالدعوة قبل أن يكلفهم بأي شيء أو يُحَمِّلُهم أية مسؤولية.

- قال الله - تعالى - : {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنَبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَّلِبَكُمْ وَمَتَّوَكِّلُكُمْ} (١٩) سورة محمد.

نلاحظ في الآية أن التكليف قد سبقه التعريف بالله أولا ثم العمل تكليفاً، وهل يستغفر الله مستغفر إلا إذا عرف الله؟ . والقرآن الكريم نزل في بداية الأمر ليعرف الناس بأمور أربعة قبل أن يكلفهم بأي أمر، وهي :

١- عرّفهم بربهم ليعبدوه .

٢- عرّفهم بأنفسهم ليصروا حقيقة وجودهم .

٣- عرّفهم بالكون ليسخروه ويعمروه .

٤- عرّفهم بالمصير الذي يتذمرون في أخراهم .

- إن الإنسان المدعو إذا عرف من هو الله - تعالى - فإنه سيوخر أمره، حتى في دقائق الأمور. عن ثابت بن قيس بن شماس قال: لَمَّا نَزَّلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: لَمَّا نَزَّلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ {لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ، فَوْقَ صَوْتِ صَوْتِ النَّبِيِّ} [الحجرات: ٢] قَعَدَ ثَابِتُ فِي الطَّرِيقِ يَيْكِي، فَمَرَّ بِهِ عَاصِمُ بْنُ عَدَى، فَقَالَ: مَا يُيْكِيَكَ يَا ثَابِتُ؟ قَالَ: أَنَا رَفِيعُ الصَّوْتِ، وَأَنَا أَخَافُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْآيَةُ نَزَّلَتْ فِيَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : "يَا بُنَيَّ، أَمَا تَرْضَى أَنْ تَعِيشَ حَمِيدًا، وَتُقْتَلَ شَهِيدًا، وَتَدْخُلَ الْجَنَّةَ؟" قَالَ: رَضِيَتُ بِعِشْرَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، لَا أَرْفَعُ صَوْتِي أَبْدًا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - . فَنَرَأَتْ: {إِنَّ الَّذِينَ يَعْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ

أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ فُلُوْبَهُمْ لِتَنْتَقُوَ لَهُمْ مَعْفَرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ} (٣) سورة
الحجرات. رواه الطبراني^{١٣٩}.

- إذا مرض إنسان وذهب إلى الطبيب الذي يعرف مهارته، فإن قال له الطبيب افعل كذا أو كذا، أولاً بد من قطع يدك أو رجلك، فإن المريض سيافق، لأنّه عرف الطبيب ومهارته، فكيف إذا عرف المدعو عظمة الله - تعالى - وكماله وقوته وحكمته؟!

- التعريف بالدعوة والصبر عليها في غاية الأهمية ليصبح عندنا الفرد الذي يسارع إلى أوامر الله - تعالى - دون كسل أو ملل، ولنا في قصص الأنبياء والرسل - عليهم السلام - أوضح العبر. فسيدنا إبراهيم - عليه السلام - أمره الله - تعالى - أن يسكن ذريته بساد غير ذي زرع عند البيت الحرام، وسيدنا إسماعيل - عليه السلام - حين رأى أبوه في المنام أنه يذبحه قال: {يَا أَبَتِ افْعُلْ مَا تُؤْمِنُ سَتَجْدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} (١٠٢) سورة الصافات، وأم موسى - عليهما السلام - ألقت طفلها في اليم حين حافت عليه طاعةً لأمر الله - تعالى - وما ترددت.

- إن التعريف الحق يؤدي إلى الطاعة، أي أن الطاعة ثمرة المعرفة، فها هن الصحابيات يسارعن إلى أمر الله في اللباس بعد أن عرفن الله، فعن صفيحة بنت شيبة، قالت: يَئِمَّا تَحْنُ عَنْدَ عَائِشَةَ قَالَتْ: وَذَكَرَتْ نِسَاءَ قُرَيْشٍ وَفَضْلَهُنَّ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: إِنَّ لِنِسَاءِ قُرَيْشٍ لِفَضْلٍ، وَإِنَّمَا وَاللَّهُ مَا رَأَيْتُ أَفْضَلَ مِنْ نِسَاءِ الْأَنْصَارِ أَشَدَّ تَصْدِيقًا بِكِتَابِ اللَّهِ، وَلَا إِيمَانًا بِالْتَّنْزِيلِ لَقَدْ أُنْزِلَتْ سُورَةُ الْثُورِ: "وَلَيَضْرِبَنَّ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ" انْقَلَبَ رِجَالُهُنَّ إِلَيْهِنَّ يَتَلَوَنَ عَلَيْهِنَّ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِنَّ فِيهَا، وَيَتَلَوُ الرَّجُلُ عَلَى امْرَأَهُ وَابْنَهِ وَأَخْتِهِ، وَعَلَى كُلِّ ذِي قَرَابَتِهِ، مَا مِنْهُنَّ امْرَأٌ إِلَّا قَامَتِ إِلَى مِرْطَهَا الْمُرَحَّلِ فَاعْتَجَرَتْ بِهِ تَصْدِيقًا وَإِيمَانًا بِمَا أُنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابِهِ، فَأَصْبَحْنَ يُصَلِّينَ وَرَاءَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الصُّبَحَ مُعْتَجِرَاتٍ كَانَ عَلَى رُؤُوسِهِنَّ الْغُرْبَانَ" ^{١٤٠}.

^{١٣٩} - المعجم الكبير للطبراني - (٢ / ٧٣)(١٣٠١) فيه انقطاع

^{١٤٠} - تفسير ابن أبي حاتم - (١٠٧ / ١٠٧)(١٥٢٣٣) صحيح

وَهَا هُم الصَّحَابَة يَسَارُونَ إِلَى إِرَاقَةِ الْخَمْرِ بَعْدَ أَنْ أَمْرَهُمُ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - فَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْحَطَابِ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ، قَالَ: اللَّهُمَّ بَيْنَ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيْانًا شَافِيًّا، فَنَزَّلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: {يَسْأَلُوكُنَّكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِلَّمْ كَبِيرٌ}، قَالَ: فَدُعِيَ عُمَرُ فَقَرِئَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَيْنَ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيْانًا شَفَاءً، فَنَزَّلَتِ الْآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ النِّسَاءِ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَتَنْمِ سُكَارَى} فَكَانَ مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ - إِذَا أَقَامَ الصَّلَاةَ نَادَى: أَنْ لَا يَقْرَبُنَّ الصَّلَاةَ سُكَارَى فَدُعِيَ عُمَرُ فَقَرِئَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَيْنَ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيْانًا شَفَاءً، فَنَزَّلَتِ الْآيَةُ الَّتِي فِي الْمَائِدَةِ فَدُعِيَ عُمَرُ فَقَرِئَتْ عَلَيْهِ، فَلَمَّا بَلَغَ {فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ} قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ أَنْتُهُمْ نَاهِيُّنَا ١٤١. وَعَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - بَيْنَمَا هُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ إِذْ خَلَعَ عَلَيْهِ فَوَضَعَهُمَا عَنْ يَسَارِهِ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ أَصْحَابُهُ خَلَعُوا نَعَالَهُمْ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ: «مَا لَكُمْ خَلَعْتُمْ نَعَالَكُمْ؟» قَالُوا: رَأَيْنَاكَ خَلَعْتَ فَخَلَعْنَا. قَالَ: «إِنَّ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَخْبَرَنِي أَنَّ بِهِمَا قَدْرًا - فَقَالَ - إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَلَيَنْظُرْ إِلَى نَعْلِيهِ، فَإِنْ كَانَ فِيهِمَا أَذْى أَوْ قَالَ قَدْرًا فَلْيُمْطِهِ وَلْيُصَلِّ فِيهِمَا» ١٤٢.

وَمُوَاقِفُ الصَّحَابَةِ كَثِيرَة، فَعَنْ طَارِقِ بْنِ شَهَابٍ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: لَقَدْ شَهَدْتُ مِنَ الْمِقْدَادِ مَشْهَدًا لَأَنْ أَكُونَ أَنَا صَاحِبُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ، قَالَ: أَتَى النَّبِيُّ - وَكَانَ رَجُلًا فَارِسًا، قَالَ: فَقَالَ: أَبْشِرْ يَا نَبِيُّ اللَّهِ، وَاللَّهُ لَا تَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى - {إِذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ}، وَلَكِنْ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَنَكُونَنَّ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَعَنْ يَمِينِكَ، وَعَنْ شِمَالِكَ، وَمِنْ خَلْفِكَ حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ ١٤٣.

وَعَنْ أَبْنِ إِسْحَاقَ، قَالَ: حَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ رُومَانَ، عَنْ عُرُوَةَ بْنِ الزُّبِيرِ، وَحَدَّثَنِي الرُّهْرِيُّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ حَبَّانَ، وَعَاصِمٌ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَغَيْرُهُمْ

١٤١ - مسند أحمد (علم الكتب) - (١ / ١٨٩)(٣٧٨) صحيح

١٤٢ - السنن الكبرى للبيهقي - المكتن - (٢ / ٤٣١)(٤٤٢٢) صحيح

١٤٣ - مسند أحمد (علم الكتب) - (٢ / ١٩٤)(٤٣٧٦) صحيح

منْ عُلَمَائِنَا، فَبَعْضُهُمْ قَدْ حَدَّثَ بِمَا لَمْ يُحَدِّثْ بِهِ بَعْضٌ، وَقَدْ اجْتَمَعَ حَدِيثُهُمْ فِيمَا ذَكَرْتُ لَكَ مِنْ يَوْمِ بَدْرٍ، قَالُوا: سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَبِي سُفِيَّانَ بْنَ حَرْبٍ فِي أَرْبَعِينَ رَاكِبًا مِنْ قُرَيْشٍ تُجَارًا قَافِلِينَ مِنَ الشَّامَ فِيهِمْ: مَخْرَمَةُ بْنُ نَوْفَلٍ وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ، فَنَدَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ وَقَالَ لَهُمْ: "هَذَا أَبُو سُفِيَّانَ قَافِلًا بِتِجَارَةِ قُرَيْشٍ، فَاخْرُجُوا لَهَا لَعَلَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنَفِّلُكُمُوهَا" ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ، فَخَفَّ مَعَهُ رَجَالٌ وَأَبْطَأَ آخْرُونَ، وَذَلِكَ إِنَّمَا كَانَتْ نَدْبَةً لِمَا يُصِيبُونَهُ لَا يَظْنُونَ أَنْ يَلْقَوْا حَرَبًا، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي ثَلَاثِمَائَةِ رَاكِبٍ وَتَيْفٍ، وَأَكْثَرُ أَصْحَابِهِ مُشَاهَةً، مَعَهُمْ ثَمَائُونَ بَعِيرًا وَفَرَسٌ، وَيَزْعُمُ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّهُ لِلْمُقْدَادِ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَلَيِّ وَمَرْثَدِ بْنِ أَبِي مَرْثَدٍ الْغَنَوِيِّ بَعِيرٌ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ نَقْبِ بَنِي دِينَارٍ مِنَ الْحَرَّةِ عَلَى الْعَقِيقِ، فَذَكَرَ طُرُقَهُ حَتَّى إِذَا كَانَ بِعْرُقِ الظَّبَّيْةِ لَقِيَ رَجُلًا مِنَ الْأَعْرَابِ، فَسَأَلَوْهُ عَنِ النَّاسِ، فَلَمْ يَجِدُوا عَنْهُ خَبَرًا، وَكَانَ أَبُو سُفِيَّانَ حِينَ دَنَّا مِنَ الْحِجَارِ يَتَحَسَّسُ الْأَخْبَارَ، وَيَسْأَلُ عَنْهَا حَتَّى أَصَابَهُ خَبَرًا مِنْ بَعْضِ الرُّكْبَانِ، فَاسْتَأْجَرَ ضَمْضَمَ بْنَ عَمْرِو الْغَفَارِيَّ، فَبَعَثَهُ إِلَى قُرَيْشٍ يَسْتَنْفِرُهُمْ إِلَى أَمْوَالِهِمْ، وَيُخْبِرُهُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ عَرَضَ لَهَا فِي أَصْحَابِهِ، فَخَرَجَ ضَمْضَمٌ سَرِيعًا حَتَّى قَدَمَ عَلَى قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ وَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، الْلَّطِيمَةَ قَدْ عَرَضَ لَهَا مُحَمَّدٌ فِي أَصْحَابِهِ - وَاللَّطِيمَةُ هِيَ التِّجَارَةُ - الْعَوْثَ الْعَوْثُ، وَمَا أَظُنُّ أَنْ تُدْرِكُوهَا. فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: أَيْطُنُ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ أَنَّهَا كَائِنَةُ كَعِيرِ ابْنِ الْحَضْرَمِيِّ، فَخَرَجُوا عَلَى الصَّعْبِ وَالذَّلِولِ وَلَمْ يَتَخَلَّفُ مِنْ أَشْرَافِهَا أَحَدٌ، إِلَّا أَنَّ أَبَا لَهَبَ قَدْ تَخَلَّفَ وَبَعَثَ مَكَائِنَهُ الْعَاصَ بْنَ هِشَامَ بْنَ الْمُغَيْرَةِ، فَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ وَهُمْ تَسْعَمَائَةُ وَخَمْسُونَ مُقَاتِلًا، وَمَعَهُمْ مَائِتَانِ فَرَسٍ يَقُودُونَهَا، وَخَرَجُوا مَعَهُمْ بِالْقِيَانِ يَضْرِبُونَ بِالدُّفُّ، وَيَتَعَيَّنُ بِهِجَاءِ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ ذَكَرَ أَسْمَاءَ الْمُطْعَمِينَ مِنْهُمْ، وَذَكَرَ رُجُوعَ طَالِبٍ بْنِ أَبِي طَالِبٍ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالْجُحْفَةِ رَأَى جُهَيْمُ بْنُ الصَّلْتَ رُؤْيَا فَبَلَغَتْ أَبَا حَمْلَ، فَقَالَ: وَهَذَا نَبِيٌّ آخَرُ مِنْ نَبِيٍّ عَبْدُ الْمُطَلَّبِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ رَأَى أَنَّ رَاكِبًا أَقْبَلَ عَلَى قُرَيْشٍ مَعَهُ بَعِيرٌ لَهُ حَتَّى وَقَفَ عَلَى الْعَسْكَرِ فَقَالَ: قُتِلَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ وَفُلَانٌ، يُعَدِّ رَجَالًا مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ مَمَّنْ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ، ثُمَّ طَعَنَ فِي لَبَّةِ بَعِيرِهِ ثُمَّ أَرْسَلَهُ فِي الْعَسْكَرِ، فَلَمْ يَقِنْ خَيْرٌ مِنْ أَخْبَيْهِ قُرَيْشٌ إِلَّا أَصَابَهُ دَمُهُ، وَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى

وَجَهِهِ ذَلِكَ، فَذَكَرَ مَسِيرَهُ حَتَّىٰ إِذَا كَانَ قَرِيبًا مِنَ الصَّفَرَاءِ بَعَثَ بَسِيسَ بْنَ عَمْرِ وَعَدِيَّ بْنَ أَبِي الرَّغْبَاءِ الْجُهَنَّمِيِّينَ يَأْتِمْسَانَ الْخَبَرَ عَنْ أَبِي سُفْيَانَ، فَأَنْطَلَقَا حَتَّىٰ وَرَدَا بَدْرًا، فَأَنْخَاهَا بَعِيرِيهِمَا إِلَى تَلٍّ مِنَ الْبَطْحَاءِ وَاسْتَقِيَا فِي شَنَّ لَهُمَا مِنَ الْمَاءِ، فَسَمِعَا جَارِيَتِينَ تَقُولُ إِحْدَاهُمَا لِصَاحِبَتِهَا: إِنَّمَا تَأْتِي الْعِبَرُ غَدًا، فَلَخَّصَ بَيْنَهُمَا مَجْدِيُّ بْنُ عَمْرِ وَقَالَ: صَدَقْتُ، وَسَمِعَ ذَلِكَ بَسِيسُ وَعَدِيُّ، فَجَلَسَا عَلَى بَعِيرِيهِمَا حَتَّىٰ أَتَيَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَاهُ الْخَبَرَ، وَأَقْبَلَ أَبُو سُفْيَانَ حِينَ وَلَيْا وَقَدْ حَذَرَ، فَتَقَدَّمَ أَمَامَ عِيرِهِ فَقَالَ لِمَجْدِيُّ بْنِ عَمْرِ وَهَلْ أَحْسَسْتَ عَلَى هَذَا الْمَاءِ مِنْ أَحَدٍ تُنْكِرُهُ؟ فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ، إِلَّا أَنِّي قَدْ رَأَيْتُ رَاكِبِينَ أَنْخَاهَا إِلَى هَذَا التَلِّ فَاسْتَقِيَا فِي شَنَّ لَهُمَا ثُمَّ انْطَلَقَا، فَجَاءَ أَبُو سُفْيَانَ مَنَّا خَ بَعِيرِيهِمَا فَأَخَذَ مِنْ أَبْعَارِهِمَا وَقَتَهُ فَإِذَا فِيهِ النَّوْيِّ، فَقَالَ: هَذِهِ وَاللَّهِ عَلَائِفُ يَشْرِبُ، ثُمَّ رَجَعَ سَرِيعًا فَضَرَبَ وَجْهَ عِيرِهِ فَانْطَلَقَ بِهَا مُسَاحَلًا، حَتَّىٰ إِذَا رَأَى أَنْ قَدْ أَحْرَزَ عِيرَهُ بَعَثَ إِلَى قُرَيْشٍ أَنَّ اللَّهَ قَدْ تَحَجَّى عِيرَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَرِجَالَكُمْ فَارْجَعُوهَا، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: وَاللَّهِ لَا تَرْجِعُ حَتَّىٰ تَأْتِيَ بَدْرًا - وَكَانَتْ بَدْرُ سُوقًا مِنْ أَسْوَاقِ الْعَرَبِ - فَنَقَمَ بِهَا ثَلَاثًا، فَنَطَعَمَ بِهَا الطَّعَامَ، وَنَنْحَرَ بِهَا الْجُزْرَ، وَنَسْقَيَ بِهَا الْخَمْرَ، وَتَعْرَفَ عَلَيْنَا الْقِيَانُ، وَتَسْمَعَ بَنَا الْعَرَبُ وَبِمَسِيرَنَا، فَلَا يَزَالُونَ يَهَأُونَا بَعْدَهَا أَبَدًا. قَالَ الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيقٍ: يَا مَعْشَرَ بَنِي زُهْرَةَ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ تَحَجَّى أَمْوَالَكُمْ، وَنَجَّى صَاحِبِكُمْ، فَارْجَعُوهُ فَرَجَعَتْ زُهْرَةٌ فَلَمْ يَشْهُدُوهَا، وَلَا بَنِي عَدِيٌّ بْنِ كَعْبٍ، وَأَرْتَحَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَكَرَ مَسِيرَهُ حَتَّىٰ إِذَا كَانَ بَعْضِ وَادِي ذَفَارٍ نَزَلَ وَأَتَاهُ الْخَبَرُ عَنْ قُرَيْشٍ بِمَسِيرِهِمْ لِيَمْنَعُوا عِيرَهُمْ، فَاسْتَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَهْلَ فَاحْسَنَ، ثُمَّ قَامَ عُمَرُ فَقَالَ فَاحْسَنَ، ثُمَّ قَامَ الْمُقْدَادُ بْنُ عَمْرِ وَفَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، امْضِ لِمَا أُمْرَتَ بِهِ، فَتَحْنُ مَعَكَ، وَاللَّهُ لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالْتَ بُنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ وَلَكِنْ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتَلَا إِنَّا مَعْكُمَا مُقَاتِلُونَ. فَوَاللَّذِي بَعْثَكَ بِالْحَقِّ لَوْ سِرْتَ بِنَا إِلَى بَرْكَ الْغَمَادِ لِجَالَدْنَا مَعَكَ مِنْ دُونِهِ حَتَّىٰ تَبْلُغَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْرًا وَدَعَا لَهُ بِهِ، ثُمَّ قَالَ: "أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ" وَإِنَّمَا يُرِيدُ الْأَنْصَارَ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ عَدُُ النَّاسِ، وَكَانُوا حِينَ بَايِعُوهُ بِالْعَقْبَةِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا بُرَآءُ مِنْ ذِمَامِكَ حَتَّىٰ تَصِلَ إِلَى دَارِنَا، فَإِذَا وَصَلَتْ إِلَيْنَا فَأَنْتَ فِي ذِمَمِنَا، نَمْنَعُكَ مِمَّا نَمْنَعُ

مِنْهُ أَنْفُسَنَا وَأَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَخَوَّفُ أَنْ لَا تَكُونَ الْأَنْصَارُ ثَرَى أَنَّ عَلَيْهَا نُصْرَتُهُ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَسِيرَ بِهِمْ إِلَى عَدُوٍّ بِعِيرِ بَلَادِهِمْ، فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ: وَاللَّهِ لَكَائِنَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ثُرِيدُنَا. قَالَ: "أَجَلْ" ، قَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ: فَقَدْ آمَنَّا بِكَ وَصَدَقْنَاكَ، وَشَهَدْنَا أَنَّ مَا جَهْتَ بِهِ حَقٌّ، وَأَعْطَيْنَاكَ عَلَى ذَلِكَ عَهْدَنَا وَمَوْا ثِيقَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالظَّاعَةِ، فَامْضِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَا أَرْدَتَ فَنَحْنُ مَعَكَ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوْ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ لِخُضْنَاهُ مَعَكَ، مَا تَخَلَّفَ مِنَّا وَاحِدٌ، وَمَا تَكْرَهُ أَنْ تَقْرَئَ عَدُوَّنَا غَدًا، إِنَّا لَصَبْرٌ عِنْدَ الْحَرْبِ، صُدُقٌ عِنْدَ الْلِقَاءِ، وَلَعَلَّ اللَّهُ يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقْرَئُ بِهِ عَيْنُكَ، فَسَرِّ بِنَا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ. فَسُرِّ بِذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "سِرُّوْا وَأَبْشِرُوْا، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّافِقَتَيْنِ، وَاللَّهُ لَكَائِنٌ أَنْظُرُ الْأَنَّ مَصَارِعَ الْقَوْمِ" . قَالَ: وَمَضَتْ قُرِيشٌ حَتَّى نَزَلُوا بِالْعُدُوَّةِ الْقُصُوْمِيَّ مِنَ الْوَادِيِّ، وَالْقُلُّبُ بَيْدِرٌ فِي الْعُدُوَّةِ الدُّنْيَا مِنْ بَطْنِ التَّلِّ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَأَرْسَلَ اللَّهُ السَّمَاءَ، وَكَانَ الْوَادِي دَهْسًا، فَأَصَابَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ مِنْهَا مَا لَبَدَ لَهُمُ الْأَرْضَ وَلَمْ يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْمَسِيرِ، وَأَصَابَ قُرِيشًا مِنْهَا مَا لَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يَرْتَحِلُوا مَعَهُ، فَسَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُبَادِرُهُمْ إِلَى الْمَاءِ حَتَّى نَزَلَ بَيْدِرًا فَسَبَقَ قُرِيشًا إِلَيْهِ، فَلَمَّا جَاءَ أَدْنَى مَاءَ مِنْ بَيْدِرٍ نَزَلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ الْحُبَّابُ بْنُ الْمُنْذِرِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْزَلٌ أَنْزَلَكَهُ اللَّهُ لَيْسَ لَنَا أَنْ تَتَعَدَّهُ وَلَا تُنَقَّصُ عَنْهُ، أَمْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "بَلْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ" ، فَقَالَ الْحُبَّابُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذَا لَيْسَ بِمَنْزِلٍ، وَلَكِنَّ انْهَضْ حَتَّى تَجْعَلَ الْقُلُّبَ كُلُّهَا مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِكَ، ثُمَّ غَوْرٌ كُلُّ قَلِيبٍ بِهَا إِلَّا قَلِيبًا وَاحِدًا، ثُمَّ احْفَرْ عَلَيْهِ حَوْضًا، فَنَقَاتِلُ الْقَوْمَ فَنَشْرَبُ وَلَا يَشْرُبُونَ، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، فَقَالَ: "قَدْ أَشَرْتَ بِالرَّأْيِ" ، فَفَعَلَ ذَلِكَ، فَعُورَتِ الْقُلُّبُ، وَبَنَى حَوْضًا عَلَى الْقَلِيبِ الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ فَمُلِئَ مَاءً، ثُمَّ قَذَفُوا فِيهِ الْأَنْيَةَ وَأَفْبَلْتُ قُرِيشًا حِينَ أَصْبَحَتْ يَقْدُمُهَا عَتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ عَلَى جَمَلٍ لَهُ

أَحْمَرَ، فَلَمَّا رَأَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَنْخَطُونَ مِنَ الْكَثِيبِ قَالَ: "اللَّهُمَّ هَذِهِ قُرْيَشٌ قَدْ أَقْبَلَتْ بِخُلَائِهَا وَفَخْرِهَا تُحَادُّكَ وَتُكَذِّبُ رَسُولَكَ، اللَّهُمَّ فَأَحْنِهِمُ الْعَدَاءَ" ^{١٤٤} .
وهذا كله من ثمرات التعريف والمعرفة .

- ونرى في القرآن الكريم أن الله - تعالى - قبل أن يكلف العباد بصلوة أو صيام أو أي أمر فإنه يناديهم أولاً بنداء محب إلى قلوبهم وهو: " يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا " ثم بعدها: افعلوا كذا أولاً تفعلوا. {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِنُو بِالصَّبَرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } (١٥٢) سورة البقرة .

أي: يا من عرفتم ربكم وآمنتم به، أطیعوا أمره فهو الذي يأمر وينهى. وها هو سيدنا يوسف - عليه السلام - قبل أن يفسر المنام للرجلين اللذين دخلوا السجن معه، يدعوهم إلى الإيمان: {يَا صَاحِبَيِ السَّجْنِ أَرْبَابُ مُتَفَرِّقَوْنَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } (٣٩) سورة يوسف .

- وماذا بعد التعريف؟ بعد التعريف لا بد من فتح أعين الناس إلى الحق، فالدعوة لا بد لها من ثلاثة مراحل :

- ١- مرحلة التعريف والتبيه بالفكرة .
- ٢- مرحلة التكوين وتحصي الدعاة وتربيتهم .
- ٣- مرحلة التنفيذ والعمل والدعوة الوعية .

لذلك لا نستعجل قطف الشمرة قبل أوانها ونضجها، ولا بد لنا من قوة نفسية تتمثل في إرادة قوية لا يتطرق إليها ضعف، ووفاء ثابت لا يتلوّن، وتصحية عزيزة لا يحول دونها طمع ولا بخل، ومعرفة بالمبداً وإيمان به وتقدير له يعصم من الخطأ فيه والانحراف عنه والمساومة عليه والخدية بغيره. وهكذا تأخذ مرحلة التعريف حقها، وحيثند ما أيسر التكاليف على الناس !!



^{١٤٤} - دَلَائِلُ النُّبُوَّةِ لِلْبَيْهَقِيِّ (٨٧٤) صحيح مرسى

المبحث الحادي عشر

الدرج في التكاليف

إن من أشق الأشياء العملية التربوية، وذلك لأنها تعامل مع نفوس لا يحكمها قانون محمد يسير عليه الإنسان، فكل نفس لها تشكيلها الخاص، ومن ثم الوسيلة الخاصة لمعالجتها، ولذلك وجدنا رسول الله - ﷺ - يعطي كل إنسان ووجهه على حسب قدرته وميله . - ولو تأملنا في الرسالات لوجدناها نزلت متدرجة فترتلت التوراة مثلاً على موسى - عليه السلام -، وعندما صعدت الإنسانية في مدارج نضجها الفكري جاء القرآن الكريم في أسلوب أعمق وأرحب: { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } (٨٩) سورة النحل .

والقرآن نفسه نزل متدرجاً كما قال الله - تعالى -: { وَقُرْآنًا فَرَقْنَا لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَتْرِيالًا } (١٠٦) سورة الإسراء .

لقد جاء هذا القرآن ليربى أمة، ويقيم لها نظاماً، فتحمله هذه الأمة إلى مشارق الأرض وغاربها، وتعلم به البشرية هذا النظام وفق المنهج الكامل المتكامل. ومن ثم فقد جاء هذا القرآن مفرقاً وفق الحاجات الواقعية لتلك الأمة، ووفق الملابسات التي صاحبت فترة التربية الأولى. والتربية تتم في الزمن الطويل، وبالتجربة العملية في الزمن الطويل. جاء ليكون منهاجاً عملياً يتحقق جزءاً في مرحلة الإعداد، لا فقهاً نظرياً ولا فكرة تجريدية تعرض للقراءة والاستمتاع الذهني! وتلك حكمة نزوله متفرقاً، لا كتاباً كاملاً منذ اللحظة الأولى.

ولقد تلقاء الجيل الأول من المسلمين على هذا المعنى. تلقوه توجيهها يطبق في واقع الحياة كلما جاءهم منه أمر أو نهي، وكلما تلقوه منه أدباً أو فريضة. ولم يأخذوه متعة عقلية أو نفسية كما كانوا يأخذون الشعر والأدب ولا تسلية وتلهية كما كانوا يأخذون القصص والأساطير فتكيفوا به في حياتهم اليومية. تكيفوا به في مشاعرهم وضمائرهم، وفي سلوكهم

ونشاطهم. وفي بيوقهم ومعاشرهم. فكان منهج حيائهم الذي طرحوه كل ما عداه مما ورثوه،
وما عرفوه، وما ما رسوه قبل أن يأتيهم هذا القرآن.

قال ابن مسعود - رضي الله عنه - كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى
يعرف معانيهن والعمل بهن.

ولقد أنزل الله هذا القرآن قائما على الحق: «وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ» فنزل ليقر الحق في الأرض
ويثبته: «وَبِالْحَقِّ نَزَلَ» .. فالحق مادته والحق غايته. ومن الحق قوامه، وبالحق اهتمامه
.. الحق الأصيل الثابت في ناموس الوجود، والذي خلق الله السماوات والأرض قائمين به،
متلسا بهما، والقرآن مرتبط بناموس الوجود كله، يشير إليه ويدل عليه وهو طرف
منه. فالحق سداه وحتمته، والحق مادته وغايتها. والرسول مبشر ومنذر بهذا الحق الذي جاء

به .^{١٤٥}

- وعن عطاء، قال: أَخْبَرَنِي يُوسُفُ بْنُ مَاهَكَ، قَالَ: إِنِّي عِنْدَ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ
اللهُ عَنْهَا، إِذْ جَاءَهَا أَعْرَابِيُّ، فَقَالَ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، فَأَرِنِي مُصْحَّفَكَ قَالَتْ: "لَمَّا؟"
قَالَ: لَعَلَّى أَوْلَفُ الْقُرْآنَ عَلَيْهِ، وَإِنَّا نَقْرَأُهُ غَيْرَ مُؤْلَفٍ، وَقَالَتْ: " وَمَا يَضُرُّكَ أَيَّهَا قَرَأْتَ قَبْلُ
؟ إِنَّمَا أَنْزَلَ أَوْلَ مَا أَنْزَلَ مِنْهُ سُورَةً مِنَ الْمُفْصَّلِ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ
إِلَى الْإِسْلَامِ نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ وَلَوْ نَزَلَ أَوْلُ شَيْءًا: لَا تَشْرِبُوا الْخَمْرَ لَقَالُوا لَا نَدْعُهَا
أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ: لَا تَرْتَبُوا لَقَالُوا لَا نَدْعُ الرِّنَّا، لَقَدْ نَزَلَ بِمَكَّةَ - وَإِنِّي لَجَارِيَةُ الْأَعْبُ - عَلَى
مُحَمَّدٍ ﷺ { وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمْرٌ } [القمر: ٤٦] وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَأَنَا
عِنْدَهُ " قَالَ: " فَأَخْرَجَتْ لَهُ الْمُصْحَّفَ فَأَمْلَأْتُ عَلَيْهِ آيَ السُّورَ " حَرَجَهُ الْبُخَارِيُّ .^{١٤٦}

إذن لا بد من تغيير النفوس شيئاً فشيئاً، وإعدادها لتقبل أوضاع جديدة ونهاية النفوس
لتقبل الحق .

^{١٤٥} - في ظلال القرآن — موافقاً للمطبوع - (٤ / ٢٢٥٣)

^{١٤٦} - صحيح البخاري- المكتبة - (٤٩٩٣) وشعب الإيمان - (٤ / ٢١٠٨)

- ولا بد أثناء التعامل مع الناس ودعوهم من أن نبدأ معهم فهمًا وقولًا من حيث عقوتهم وفهمهم هم أنفسهم لا فهم الداعية نفسه، ولذا قال العلماء: لا بد من مخاطبة الناس على قدر عقوتهم. قال عليٌّ حَدَّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذِّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ^{١٤٧} .. وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودَ قَالَ مَا أَنْتَ بِمُحَمَّدٍ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً^{١٤٨} ..

وقد روي عن أحد العلماء أنه سئل عن مسألة فتأخر في الإجابة عليها، فقيل له: لم تأخرت؟ فهذه المسألة لا تحتاج إلى كل هذا التفكير، فأجاب السائل: أريد أن أجيبك جواباً يكون أسرع إلى فهمك.

- وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - لِمُعَاذَ بْنِ جَبَلٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنَ «إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَإِذَا حَتَّمُهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهُدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ طَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيَلَةً، فَإِنْ هُمْ طَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْكُمْ صَدَقَةً، تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَاهُمْ، فَتَرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ طَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَأَيُّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْتَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ». رواه البخاري^{١٤٩}.

- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وِعَاءَيْنِ، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَبَثَثْتُهُ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَلَوْ بَثَثْتُهُ قُطِعَ هَذَا الْبَلْعُومُ^{١٥٠}.

والوعاء الذي لم يbethه أبو هريرة - رضي الله عنه - ليس من الأحكام بل هو من الأحاديث التي فيها أسماء أمراء السوء وأحوالهم وزمانهم، وذلك رفقاً بالناس من الفتن ومن نفسه من القتل.

^{١٤٧} - صحيح البخاري- المكتـ (١٢٧)

^{١٤٨} - صحيح مسلم- المكتـ (١٤)

^{١٤٩} - صحيح البخاري- المكتـ (٤٣٤٧) - الكرائم : جمع كريمة وهي خيار المال وأفضلـه

^{١٥٠} - صحيح البخاري- المكتـ (١٢٠)

- وهذا رسول الله - ﷺ - يعلمنا فقه الدعوة حينما يأتيه رجل فيسأله أي الإسلام أفضل
؟ ويكون الجواب مختلف :

فَعَنْ أَبِي الْخَيْرِ، أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرُو، يَقُولُ: إِنَّ رَجُلًا، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ
الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ؟ قَالَ: مَنْ سَلَمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ .^{١٥١}

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرُو، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: نُطْعِمُ
الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ، وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ .^{١٥٢}

وَعَنْ جَابِرٍ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: أَنْ يَسْلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ
لِسَانِكَ وَيَدِكَ، أَوْ قَالَ مَنْ سَلَمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَيُّ
الشُّهَدَاءِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: أَنْ يُعْقِرَ جَوَادُكَ وَيُهْرَاقَ دَمُكَ قَالَ: فَأَيُّ الصَّلَاةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:
طُولُ الْقُنُوتِ .^{١٥٣}

وكذلك فقد سئل عن العمل الذي يدخل الجنة، فكان الجواب مختلفاً، فعن أبي أيوب،
قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، دُلُّنِي عَلَى عَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ، قَالَ: "تَعْبُدُ اللَّهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ
شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصِلُ الرَّحْمَ" .^{١٥٤}

وَعَنْ كُدَيْرِ الضَّبَّيِّ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، دُلُّنِي عَلَى عَمَلٍ
يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ، قَالَ: تَقُولُ الْعَدْلَ، وَتُعْطِي الْفَضْلَ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنَّ لَمْ أَسْتَطِعْ،
قَالَ: فَهَلْ لَكَ مِنْ إِبْلٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَاعْهَدْ إِلَى بَعِيرٍ مِنْ إِبْلِكَ وَسِقَاءً، فَانْظُرْ إِلَى أَهْلِ
بَيْتِ لَا يَشْرِبُونَ الْمَاءَ إِلَّا غَبَّاً، فَإِنَّهُ لَا يَعْطِبُ بَعِيرُكَ، وَلَا يَنْخَرِقُ سِقَاؤُكَ حَتَّى تَجِبَ لَكَ
الْجَنَّةَ .^{١٥٥}

^{١٥١} - صحيح ابن حبان - ط الرسالة - (٢ / ٤٠٠) (١٢٥) صحيح

^{١٥٢} - صحيح البخاري - المكتز - (١٢) وصحيح ابن حبان - ط الرسالة - (٢ / ٥٠٥) (٢٥٨)

^{١٥٣} - مسند الطیلسی - (٣ / ٣٢٩) (١٨٨٦) صحيح

^{١٥٤} - شعب الإيمان - (١٠ / ٣٢٦) (٧٥٦٨) صحيح

^{١٥٥} - صحيح ابن خزيمة - (٣ / ٤٤٦) صحيح

وعن أبي اليسير، أن رجلاً قال: يا رسول الله دلني على عملٍ يدخلني الجنة، قال: أمسكْ هذَا، وأشار إلى لسانه، فاعادها عليه، فقال: تكثُرْ أثْمَكَ، هل يُكْبِرُ النَّاسُ عَلَى مَا خَرِّبُوهُ فِي الدَّارِ إِلَّا حَصَائِدُ الْسَّتَّةِ^{١٥٦}.

وعن عبد الله البشكري، قال: دخلت مسجد الكوفة أول ما بني مسجدها، وهو في أصحاب التمر يومئذ، وحذره من سهلة، فإذا رجل يحدث الناس، قال: بلغني حجّة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حجّة الوداع، فاستبعت راحلة من إبلي، ثم خرجت حتى حلست له في طريق عرفة، أو وقفت له في طريق عرفة، قال: فإذا ركب عرفت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيهم بالصفة، فقال رجل أمامة: خل لي عن طريق الركاب، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَيَحْمِلُهُ فَأَرْبَبُ مَا لَهُ فَدَنَوْتُ مِنْهُ حَتَّى اخْتَلَفَتْ رَأْسُ النَّاقَيْنِ، قال: قُلْتُ: يا رسول الله، دلني على عملٍ يدخلني الجنة، وينجيني من النار، قال: بخ بخ، لئن كنْتَ قَصَرْتَ فِي الْحُطْبَةِ، لَقَدْ أَبْلَغْتَ فِي الْمَسْأَلَةِ افْقَهَ إِذَا، تَعْبُدُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْدِي الرَّكَابَ، وَتَحْجُجُ الْبَيْتَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، خل طريق الركاب^{١٥٧}.

وعن أبي بزرة الأسلمي، قال: قُلْتُ: يا رسول الله، دلني على عملٍ يدخلني الجنة، أو أنتفع به؟ قال: اغزل الأذى عن طريق المسلمين^{١٥٨}.

وعن أبي الدرداء، أَنَّهُ قال: يا رسول الله دلني على عملٍ يدخلني الجنة، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا تَعْضَبْ، ولَكَ الْجَنَّةُ^{١٥٩}.

وعن معاذ بن جبل، قال: بينما نحن مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ غزا تبوكاً، فأدلج ليلةً وأدلجنا معه، ثم صلى الصبح وصلينا معه، ثم اغترد وغدونا معه، فسار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وترفقت الركاب، والإبل تأكل على أفوتها، وعلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رداءً نحرانيًّا قد أخذ طرفه فألبسه بوجهه وملكت فلمحات عيني حلقة ناقة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو نائم، وأنا أحسب أَنَّهُ ينزل

^{١٥٦} - كشف الأستار عن زوائد البزار - (٤ / ٢١٩) (٣٥٧٢) صحيح لغيره

^{١٥٧} - مسند أحمد (علم الكتب) - (٥ / ٤٥٣) (١٥٨٨٣) (١٥٩٧٨) صحيح

^{١٥٨} - مسند أحمد (علم الكتب) - (٦ / ٦٦٧) (١٩٧٩١) (٢٠٠٣٠) - حسن

^{١٥٩} - مسند الشاميين - (٣٦ / ١) (٢١) صحيح

عَلَيْهِ، فَبَيْنَا أَنَا كَذَلِكَ تَنَادَلْتُ نَاقَتِي رِمْثَةَ رَنَّةَ ؛ فَاجْتَذَبَهَا فَأَسْدَثَهَا ؛ فَالْتَّوَى فَرَسَنَهَا، فَفَرَّعَتْ نَاقَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِقَرْعَهَا، فَاسْتِيَقَطَ، فَقَالَ: مُعَاذُ قُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: ادْنُ فَدَنَوْتُ، قَالَ لِي ذَلِكَ ثَلَاثَةً، فَدَنَوْتُ حَتَّى تَحَاكَتِ الرَّاحِلَتَانِ، قَالَ مُعَاذُ: وَفِي نَفْسِي كَلْمَةٌ قَدْ أَحْرَثَتِي وَأَمْرَضَتِي، وَلَمْ أَسْمَعْ أَحَدًا يَسْأَلُ عَنْهَا النَّبِيَّ ﷺ، وَلَمْ أَسْأَلْ عَنْهَا قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْ كَلْمَةِ أَحْرَثَتِي وَأَمْرَضَتِي لِمَ أَسْأَلُكَ عَنْهَا قَطُّ، وَلَمْ أَسْمَعْ أَحَدًا يَسْأَلُكَ عَنْهَا ؟ قَالَ: سَلْ يَا مُعَاذُ قُلْتُ: حَدَّثَنِي عَنْ عَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ لَا أَسْأَلُكَ عَنْ غَيْرِهِ، فَقَالَ: بَخْ بَخْ، لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيُسِيرٌ عَلَى مِنْ يَسِّرَهُ اللَّهُ ؛ تَشَهَّدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَتُقَيِّمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤَدِّي الزَّكَةَ، وَتَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ ثُمَّ أَقْبَلْتُ عَلَيْهِ أَسْأَلُهُ، فَقُلْتُ: أَيُّ الْأَعْمَالْ أَفْضَلُ، الصَّلَاةُ بَعْدَ الصَّلَاةِ الْمَفْرُوضَةِ ؟ قَالَ: لَا، وَنَعَمْ مَا هِيَ ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذُ، أَلَا مَا هِيَ قُلْتُ: فَالصَّيَامُ بَعْدَ الصَّيَامِ الْمَفْرُوضِ ؟ قَالَ: لَا، وَنَعَمْ مَا هِيَ ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذُ، أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ هَذَا الْأَمْرِ وَقَوْمِهِ وَذُرُوَّهُ سَنَامَهِ ؟ فَقُلْتُ: بَلَى، قَالَ: رَأْسُ هَذَا الْأَمْرِ شَهَادَةُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَقَوْمُهُ إِقَامَةُ الصَّلَاةِ وَإِيَّاتِيَ الزَّكَةِ، وَذُرُوَّهُ سَنَامَهُ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بَيْدَهُ مَا تَعَبَّرَتْ قَدَمًا عَبْدٌ وَلَا وَجْهٌ فِي عَمَلٍ أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ الْمَفْرُوضَةِ مِنْ جِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، أَلَا أُخْبِرُكَ يَا مُعَاذُ بِأَمْلَكَ بِالنَّاسِ مِنْ ذَلِكَ ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، فَوَضَعَ إِصْبَعَهُ عَلَى لِسَانِهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْ كَلِمَاتُنَا يُكْتَبُ عَلَيْنَا ؟ فَضَرَبَ مَنْكِبِي الْأَيْسَرَ بَيْدَهِ الْيُمْنَى حَتَّى أَوْجَعَنِي ثُمَّ قَالَ: ثَكَلْتُكَ أُمْكَ يَا مُعَاذُ وَهَلْ يَكُبُ النَّاسُ فِي النَّارِ عَلَى مَنَاحِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ الْسِّنَتِهِمْ ؟ أَوْ مَا تَقُولُ الْأَلْسِنَةُ .

- إن بعض الناس وللأسف يريدون للمرضى أن يشربوا الدواء دفعه واحدة لا كما حده الطبيب تدريجاً، ولو فعل المرضى ذلك هلكوا ولكن الحكمة تقتضي التدرج في الدواء حتى يكون الشفاء بإذن الله، وهكذا الدعوة، فلو أن إنساناً كان من المبتدئين في قراءة القرآن

مثلاً وتعتَّع فيه فلا تشعره ب مجرم ارتكبه ولا تشقّ عليه بتصحِّح كل كلمة، بل قل له ما جاء عن عائشة، قالت: قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ مَاهِرٌ بِهِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكَرِيمِ الْبَرَّةِ، وَالَّذِي يَقْرُؤُهُ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌ لَهُ أَجْرٌ ١٦١ .

أجر قراءته وأجر تعنته، فتأخذ بيده قليلاً قليلاً نحو إتقان القراءة وهكذا فقس!

- وقد رأينا الرسول - ﷺ - قد ترك بعض الاختيار مخافة أن يقع الناس في أشد منه، فعن سالم بن عبد الله، أن عبد الله بن محمد بن أبي بكر الصديق رض، أخبار عبد الله بن عمر، عن عائشة زوج النبي ص، أن رسول الله ص قال: ألم تراني أقومك حين بنا الكعبة، اقتصرتُوا على قواعد إبراهيم، قالت: فقلت: يا رسول الله أفلأ تردها على قواعد إبراهيم، قال: لو لا حدثان قومك بالكفر، قال: فقال عبد الله بن عمر: لئن كانت عائشة سمعت هذا من رسول الله ص، ما أرى رسول الله ص ترك استسلام الركنين اللذين يليان الحجر إلا أن البيت لم يتم على قواعد إبراهيم. ١٦٢ .

- وكذا وجدنا الرسول - ﷺ - يخص قوماً دون قوم ببعض الحديث خوفاً لا يفهموا، فعن قتادة، حدثنا أنسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ، وَمُعاذُ بْنُ جَبَلَ رَدِيفُهُ عَلَى الرَّاحِلِ، فَقَالَ: "يَا مُعاذٌ" . قَالَ: لَكِنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ . قَالَ: "مَا مِنْ عَبْدٍ يَشْهُدُ أَنَّ لَهُ إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا حَرَمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ" . قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا أُخْبِرُ بِهَا النَّاسَ فَيَسْتَبِشُرُوا؟ قَالَ: "إِذَا يَتَكَلُّو" . قَالَ: وَأَخْبِرْ بِهَا مُعاذٌ عِنْدَ مَوْتِهِ ثَانِيًا" . رواه البخاري . ١٦٣ .

- ولكن ! هذا التدرج لا ينبغي أن يترك للصدفة، بل ينبغي أن يتنظم في خطة مدرورة بالنسبة للدعوة الفردية من الداعي أو في خطة مدرورة على مستوى المجتمع وذلك من أجل الوصول إلى الخير والهدى والحق .



١٦١ - مسند أحمد (علم الكتب) - (٨ / ٥٠) (٢٤٢١١) - ٢٤٧١٥ - صحيح مسلم - المكتبة - (١٨٩٨) .

١٦٢ - صحيح البخاري - المكتبة - (١٥٨٣) - صحيح مسلم - المكتبة - (٣٣٠٦) - صحيح ابن حبان - ط الرسالة -

(٣٨١٥) (١٢٣ / ٩)

١٦٣ - صحيح البخاري - المكتبة - (١٢٨) .

المبحث الثاني عشر

— ومن ذلك: التيسير في الكلام وفي اللغة التي يتكلم بها الداعية مع الناس، فيخاطبهم باللغة التي يفهمونها وبالأسلوب السهل الذي يجذبهم ويضرب لهم الأمثلة، ولا يتفاصل بينهم، فعن حابر أنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَحْلِسًا عَلَيْهِمْ، فَعَنْ حَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَحْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا وَإِنَّ أَعْضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَحْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الشَّرَّاثُرُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَهِّمُونَ». قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ عَلِمْنَا الشَّرَّاثُرُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ فَمَا الْمُتَفَهِّمُونَ قَالَ «الْمُتَكَبِّرُونَ». رواه الترمذى . ١٦٤

ومن ذلك: ما نراه في القرآن الكريم من تيسير في عرض العقيدة {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ} (٢٢) سورة الأنبياء
لو كان في السموات والأرض آلهة غير الله سبحانه وتعالى تدبر شؤونهما، لاختلط
نظامهما، فتتره الله رب العرش، وتقدس عما يصفه الجاحدون الكافرون، من الكذب
والافتراء وكل نقص.

{ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوَلَّدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ (٤) } سورة الإخلاص

قل -أيها الرسول-: هو الله المفرد بالألوهية والربوبية والأسماء والصفات، لا يشاركه أحد فيها. الله وحده المقصود في قضاء الحوائج والرغائب. ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة. ولم يكن له مماثلا ولا مشابهاً أحد من خلقه، لا في أسمائه ولا في صفاته، ولا في أفعاله، تبارك وتعالى وتقديس.

١٦٤ - سنن الترمذى - المكتن - (٢١٥٠) هذا حديث حسن غريب

الشّرّار : كثيّر الأكل والكلام في تخليله وترديده - المتشدق : المتّوسّع في الكلام من غير احتياط وقبيل المستهزئ بالناس -
المتّفهّقون : جمّع متّفهّق وهو المتّوسّع في الكلام المتنطّع

- ومن ذلك: تيسير العبادات في كثير من أحكامها، فعن أنسٍ عن النبي - ﷺ - قال «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا» ^{١٦٥}.

- ومن ذلك: اختيار الوقت المناسب للدعوة والوعظ لكي تجد الأذن الصاغية، فعن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ يتخولنا بالموهبة مخافة السامة علينا ^{١٦٦}. وقال الحسن: حدثنا الناس ما أقبلوا عليهكم بوجوههم، فإذا التقتو فاعلموا أن لهم حاجات ^{١٦٧}.

وقال الأعمش: سمعت أبا وائلا شقيق بن سلمة يقول: كنا جلوسا نتظر عبد الله بن مسعود فاتانا يزيد بن معاوية النخعي فقال: ما لكم؟ قلنا: نتظر عبد الله بن مسعود فقال: أين ترونوه؟ قلنا: في الدار، قال: أفل أذهب فآخر جه إليكم؟ فذهب فلم يلبث أن خرج عبد الله حتى قام علينا ومه يزيد بن معاوية فقال عبد الله إني لأخبر بمحاسكم فيما يمتنعكم أن تخرج إليكم إلا كراهة أن أملكم، وإن رسول الله ﷺ "كان يتخولنا بالموهبة في الأيام كراهة السامة علينا" ^{١٦٨}.

- ومن ذلك: نهي الرسول - ﷺ - عن التشديد، فعن ابن عباس ^{رض} قال: بينما النبي - ﷺ - يخطب إذا هو برجل قائم في الشمس فسأل عنه فقالوا هذا أبو إسرائيل تذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم ولا يفطر. فقال: «مُرْهُ فليتكلم وليس تستظل وليقعد وليتهم صومه». رواه البخاري ^{١٦٩}.

وكذلك الأمر حينما رأى رسول الله - ﷺ - امرأة تتكلف في عبادتها لربها نهاها عن ذلك، فعن عائشة - رضي الله عنها - أن النبي - ﷺ - دخل عليها وعندها امرأة قال: من هذه؟ قالت: فلانة (وفي رواية: لا تنم وتصلي)، قال: "مه، عليكم بما تطيقون، فوالله لا يبل

^{١٦٥} - صحيح البخاري- المكتـ (٦٩)

^{١٦٦} - مصنف ابن أبي شيبة - (١٣ / ٤٩٥) (٤٩٥ / ٢٧٠٤٦) صحيح

^{١٦٧} - مصنف ابن أبي شيبة - (١٣ / ٤٩٥) (٤٩٥ / ٢٧٠٤٥) صحيح

^{١٦٨} - مسند الحميد (١٠٦) صحيح

^{١٦٩} - صحيح البخاري- المكتـ (٦٧٠٤) والسنـ الكـ لـ لـ يـ هـ يـ - المكتـ (١٠ / ٧٥) (٧٥ / ٢٠٥٨٦)

الله حتى تملوا". فعن عائشة أن النبي - ﷺ - دخل عليهما وعندما امرأة قال «من هذه». قال فلانة تذكر من صلاتها. قال «مه، عليهكم بما تطقوون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا». وكان أحبا الدين إليه ما دام عليه صاحبه رواه البخاري^{١٧٠}.
وعن أنس بن مالك - ﷺ - قال دخل النبي - ﷺ - فإذا حبل ممدوذ بين الساريتين فقال «ما هذا الحبل». قالوا هذا حبل لرتبة فإذا فترت تعقلت. فقال النبي - ﷺ - لا، حلوه، ليصل أحذكم نشاطه، فإذا فتر فليقعد» رواه البخاري^{١٧١}.

- ومن ذلك: أنه يجوز النهي عن المستحبات إذا خشي أن يفضي ذلك إلى السامة والملل وتضييع حقوق، فعن عون بن أبي حميدة عن أبيه قال آخي النبي - ﷺ - بين سليمان وأبي الدرداء، فزار سليمان أبي الدرداء فرأى أم الدرداء متبدلة فقال لها ما شأتك قالت أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا. فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاما فقال كُلْ فإني صائم. قال ما أنا باكل حتى تأكل. فاكمل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقضم فقال نم. ثم ذهب يقضم فقال نم. فلما كان آخر الليل قال سليمان قم الآن. قال فصلّيا فقال له سليمان إن ربك عليك حقا، ولنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا، فاعط كُلْ ذي حق حقه. فأتى النبي - ﷺ - فذكر ذلك له. فقال النبي - ﷺ - «صدق سليمان»^{١٧٢}.

- ومن ذلك: التيسير في معالجة الأخطاء، فعن عمّه أنس بن مالك، قال: كان رسول الله - ﷺ - قاعداً في المسجد، إذ دخل أعرابي، فقعد يبول، فقال أصحاب رسول الله - ﷺ -: مه، فقال النبي - ﷺ -: لا ترموه، ثم دعاه، فقال: إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من القدر والخلاء، وكما قال رسول الله - ﷺ -: إنما هي لقراءة القرآن أو ذكر الله، ثم دعا بدللو من ماء فصبّه عليه^{١٧٣}. - شن: صبه صبا متقطعا



^{١٧٠} - صحيح البخاري- المكتـ (٤٣)

^{١٧١} - صحيح البخاري- المكتـ (١١٥٠) - فترت : ضعفت وكسلت

^{١٧٢} - صحيح البخاري- المكتـ (٦١٣٩) - المتبدلة : التاركة للزينة والهيبة الحسنة

^{١٧٣} - صحيح مسلم- المكتـ (٦٨٧) وصحيح ابن حبان - ط الرسالة - (٤ / ٢٤٦) (١٤٠١)

البحث الثالث عشر

الأصول قبل الفروع

- فلا بد من دعوة الناس إلى الأصول الكبرى كالعقيدة، فنصححها ونحرك العواطف ونستثير الوجدان، ونذكر الناس فنوقظ الغافل ونذكره .

- لا ندخل مع المدعويين في تفاصيل الأمور ودقائقها، بل نطلب منهم الحد الأدنى وهو: حفظ العقيدة، وأداء الفريضة، واحتساب الكبائر .

- فعن طلحة أَنَّ أَعْرَابِيَاً، جَاءَ إِلَيَّ التَّبِّيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثَائِرَ الرَّأْسِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِمَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ، فَقَالَ: "الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ إِلَّا أَنْ تَطُوَّعَ شَيْئًا" قَالَ: فَأَخْبِرْنِي مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنَ الصِّيَامِ، قَالَ: "صِيَامُ شَهْرِ رَمَضَانَ إِلَّا أَنْ تَطُوَّعَ شَيْئًا" قَالَ: فَأَخْبِرْنِي بِمَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنَ الزَّكَاةِ قَالَ: فَأَخْبِرْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَرَاعِعُ الْإِسْلَامِ فَقَالَ: وَالَّذِي أَكْرَمَكَ بِالْحَقِّ لَا أَتَطُوَّعُ، وَلَا أَنْقُصُ مِمَّا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ شَيْئًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَفْلَحَ، وَأَبِيهِ إِنْ صَدَقَ دَخَلَ الْجَنَّةَ وَأَبِيهِ إِنْ صَدَقَ" ^{١٧٤} .

وعَنْ أَبِي سُهَيْلِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ سَمِعَ طَلْحَةَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ، يَقُولُ: حَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ، ثَائِرَ الرَّأْسِ، يُسْمِعُ دَوِيًّا صَوْتَهُ وَلَا يُفْقَهُ مَا يَقُولُ، حَتَّى دَنَّا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عَنِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُنَّ؟ قَالَ: لَا إِلَّا أَنْ تَطُوَّعَ، قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَصِيَامُ شَهْرِ رَمَضَانَ، قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ؟ قَالَ: لَا إِلَّا أَنْ تَطُوَّعَ، قَالَ: وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الزَّكَاةَ، فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: لَا إِلَّا أَنْ تَطُوَّعَ، قَالَ: فَأَذْبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ: وَاللَّهِ لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُ شَيْئًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ ^{١٧٥} .

^{١٧٤} - شرح مشكل الآثار - ٢ / ٨٢١ (٢٩٢) صحيح

^{١٧٥} - صحيح البخاري- المكتن - ٤٦) و صحيح مسلم- المكتن - (١٠٩) و صحيح ابن حبان - ط الرسالة - (٥) (١٧٢٤) (١١

- وما ينكر على بعض المسلمين أنه يشتعل بكثير من المسائل الجزئية والأمور الفرعية عن القضايا الكبرى التي تتعلق بكينونة الأمة وحياتها ومصيرها، فترى كثيراً منهم يقيم الدنيا ويقعدها من أجل حلق اللحية أو الأخذ منها أو إسبال الشوب أو اقتناء الصور الفوتوغرافية أو غير ذلك، في الوقت الذي ينتشر الفساد ولا يتكلم عنه، ويفسد المفسدون ويغرقون الناس في الكبائر !!!



المبحث الرابع عشر

الترغيب قبل الترهيب أو البشارة قبل النذارة

- الحث على فعل الخير وأداء الطاعات والاستقامة على أمر الله - تعالى - جاء في القرآن الكريم والسنّة الشرفية مفروناً ببشرى كثيرة في الدنيا والآخرة، ولذا وجب على الداعية أن يقدم البشارة قبل النذارة والترغيب قبل الترهيب .

- فالداعي يقدم الترغيب في الإخلاص قبل الترهيب من الرياء، والترغيب في نشر العلم قبل الترهيب من كتمانه، والترغيب في الصلاة قبل الترهيب من تركها وهكذا .

- وجدنا رسول الله - ﷺ - يحب الناس في رحمة الله ويرغبهم في الطاعات، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: "أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا بَابِ أَحَدِكُمْ يَعْتَسِلُ مِنْهُ كُلُّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، مَا تَقُولُونَ يَقْرَئُ مِنْ دَرَنِهِ؟" ، قَالُوا: لَا يُيْقِنِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا، قَالَ "فَذَلِكَ مَثَلُ الصلَواتِ الْخَمْسِ، يَمْحُوا اللَّهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا" رواه البخاري ^{١٧٦} .

- فعلى الداعي أن يفقه حال المدعو حين يدعوه فلا يرهب أحداً قبل أن يرغبه، حتى إن بعض الناس يظن أن ملكه سيزول وحريته ستضيع إن هو التزم بأمر الله، وذلك بسبب العرض الخاطئ لطبيعة الدين والدعوة .

قال تعالى: {وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ تُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمَنَّا يُجْحِي إِلَيْهِ شَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} (٥٧) سورة القصص

إنما النظرة السطحية القرية، والتصور الأرضي المحدود، هو الذي أوحى لقريش وهو الذي يوحى للناس أن اتباع هدى الله يعرضهم للمخافاة، ويفرّي بهم الأعداء، ويفقدّهم العون والصبر، ويعود عليهم بالفقر والبوار: «وَقَالُوا: إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ تُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا» ..فهم لا ينكرون أنه الهدى، ولكنهم يخافون أن يتخطّفهم الناس. وهم ينسون الله،

^{١٧٦} - صحيح البخاري- المكتبة - (٥٢٨) وشعب الإيمان - (٤) / (٣٠١) (٢٥٥٢)

وينسون أنه وحده الحافظ، وأنه وحده الحامي وأن قوى الأرض كلها لا تملك أن تتخطفهم وهم في حمى الله وأن قوى الأرض كلها لا تملك أن تنصرهم إذا حذلهم الله. ذلك أن الإيمان لم يخالط قلوبهم، ولو خالطها لتبدل نظرتهم للقوى، ولاختلف تقديرهم للأمور، ولعلموا أن الأمان لا يكون إلا في حوار الله، وأن الخوف لا يكون إلا في البعد عن هداه.

وأن هذا المدى موصول بالقوة موصول بالعزّة وأن هذا ليس وهمًا وليس قوله يقال لطمانة القلوب إنما هو حقيقة عميقة منشؤها أن اتباع هدى الله معناه الاصطلاح مع ناموس الكون وقواه، والاستعانة بها وتسخيرها في الحياة. فالله خالق هذا الكون ومديره وفق الناموس الذي ارتضاه له، والذى يتبع هدى الله يستمد مما في هذا الكون من قوى غير محدودة، ويأوي إلى ركن شديد، في واقع الحياة. إن هدى الله منهج حياة صحيحة. حياة واقعة في هذه الأرض. وحين يتحقق هذا المنهج تكون له السيادة الأرضية إلى جانب السعادة الأخروية. وميزته أنه لا انفصال فيه بين طريق الدنيا وطريق الآخرة ولا يقتضي إلغاء هذه الحياة الدنيا أو تعطيلها ليتحقق أهداف الحياة الآخرة. إنما هو يربطهما معاً برباط واحد: صلاح القلب وصلاح المجتمع وصلاح الحياة في هذه الأرض. ومن ثم يكون الطريق إلى الآخرة. فالدنيا مزرعة الآخرة، وعمارة جنة هذه الأرض وسيادتها وسيلة إلى عمارة جنة الآخرة والخلود فيها. بشرط اتباع هدى الله.

والتوجه إليه بالعمل والتطبع إلى رضاه. وما حدث قط في تاريخ البشرية أن استقامت جماعة على هدى الله إلا منحها القوة والمنعة والسيادة في نهاية المطاف بعد إعدادها لحمل هذه الأمانة. أمانة الخلافة في الأرض وتصريف الحياة.

وإن الكثيرين ليشفقون من اتباع شريعة الله والسير على هداه. يشفقون من عداوة أعداء الله ومكرهم، ويشفقون من تأب الخصوم عليهم، ويشفقون من المضائق الاقتصادية وغير الاقتصادية! وإن هي إلا أوهام كأوهام قريش يوم قالت لرسول الله - ﷺ -: «إن تتبع المدى معك تتخطف من أرضنا». فلما اتبعت هدى الله سيطرت على مشارق الأرض ومغاربها في ربع قرن أو أقل من الزمان.

وقد رد الله عليهم في وقتها بما يكذب هذا العذر المohoم. فمن الذي وهبهم الأمان؟ ومن الذي جعل لهم البيت الحرام؟ ومن الذي جعل القلوب تهوى إليهم تحمل من ثرات الأرض جمِيعاً؟ تجتمع في الحرام من كل أرض، وقد تفرق في مواطنها ومواسيمها الكثيرة: «أَوَلَمْ يُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِنًا يُجْنِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا؟» .. فما بالهم يخالفون أن يتخطفهم الناس لو اتبعوا هدى الله، والله هو الذي مكن لهم هذا الحرام الآمن منذ أيام أبيهم إبراهيم؟ أَفَمِنْ أَمْنِهِمْ وَهُمْ عَصَاهُ، يَدُعُ النَّاسَ يَتَخَطَّفُوهُمْ وَهُمْ تَقَاهُ؟! «وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» ..

لا يعلمون أين يكون الآمن وأين تكون المخافة. ولا يعلمون أن مرد الأمر كله لله ¹⁷⁷.
وعَنْ أَبِي عَبْيَدَةَ بْنِ حُذَيْفَةَ ؛ أَنَّ رَجُلًا، قَالَ: قُلْتُ: أَسْأَلُ عَنْ حَدِيثِ عَدَيِّ بْنِ حَاتَمٍ وَأَنَا فِي نَاحِيَةِ الْكُوفَةِ، فَأَكُونُ أَنَا الَّذِي أَسْمَعْتُهُ مِنْهُ، فَأَتَيْتُهُ، فَقُلْتُ: أَعْرَفُنِي؟ قَالَ: نَعَمْ، أَنْتَ فُلَانُ بْنُ فُلَانَ، وَسَمَّاهُ بِاسْمِهِ، قُلْتُ: حَدَّنِي، قَالَ: بُعْثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَرِهَتْهُ أَشَدَّ مَا كَرِهْتُ شَيْئًا قَطُّ، فَأَضْلَقْتُهُ حَتَّى أَنْزَلَ أَقْصَى أَهْلِ الْعَرَبِ مِمَّا يَلِي الرُّومُ، فَكَرِهْتُ مَكَانِي أَشَدَّ مِمَّا كَرِهْتُ مَكَانِي الْأَوَّلَ، فَقُلْتُ: لَا تَيَّنَ هَذَا الرَّجُلُ، إِنْ كَانَ كَادِبًا لَا يَضُرُّنِي، وَإِنْ كَانَ صَادِقًا لَا يَخْفَى عَلَيَّ.

فَقَدِمْتُ الْمَدِينَةَ، فَاسْتَشْرَفَنِي النَّاسُ، وَقَالُوا: جَاءَ عَدَيِّ بْنُ حَاتَمٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا عَدَيِّ بْنُ حَاتَمٍ، أَسْلِمْ تَسْلِمْ، قُلْتُ: إِنِّي مِنْ أَهْلِ دِينِ، قَالَ: أَنَا أَعْلَمُ بِدِينِكَ مِنْكَ، قَالَ: قُلْتُ: أَنْتَ أَعْلَمُ بِدِينِي مِنِّي؟ قَالَ: نَعَمْ، أَنَا أَعْلَمُ بِدِينِكَ مِنْكَ، قُلْتُ: أَنْتَ أَعْلَمُ بِدِينِي مِنِّي؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: أَلَسْتَ رَكُوسِيَا؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: أَوْلَسْتَ تَرَأْسُ قَوْمَكَ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: أَوْلَسْتَ تَأْخُذُ الْمِرْبَاعَ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: ذَلِكَ لَا يَحِلُّ لَكَ فِي دِينِكَ، قَالَ: فَتَوَاضَعْتُ مِنْ نَفْسِي.

قَالَ: يَا عَدَيِّ بْنَ حَاتَمٍ، أَسْلِمْ تَسْلِمْ، فَإِنِّي مَا أَظُنُّ، أَوْ أَحْسَبُ أَنَّهُ يَمْنَعُكَ مِنْ أَنْ تَسْلِمَ إِلَّا خَصَاصَةً مَنْ تَرَى حَوْلِي، وَأَنَّكَ تَرَى النَّاسَ عَلَيْنَا إِلَيْهَا وَاحِدَةً، وَيَدَا وَاحِدَةً، فَهَلْ أَتَيْتَ

الْحِيَرَةَ؟ قُلْتُ: لَا، وَقَدْ عَلِمْتُ مَكَانَهَا، قَالَ: يُوشِكُ الظَّعِينَةُ أَنْ تَرْتَحِلَ مِنَ الْحِيَرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْبَيْتِ بِغَيْرِ حِوَارٍ، وَلَتُفْتَحَنَ عَلَيْكُمْ كُنُوزُ كِسْرَى بْنِ هُرْمَزَ، قَالَهَا ثَلَاثَةٌ، يُوشِكُ أَنْ يَهُمَ الرَّجُلُ مَنْ يَقْبِلُ صَدَقَتَهُ.

فَلَقَدْ رَأَيْتُ الظَّعِينَةَ تَخْرُجُ مِنَ الْحِيَرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْبَيْتِ بِغَيْرِ حِوَارٍ، وَلَقَدْ كُنْتُ فِي أَوَّلِ خَيْلٍ أَغَارَتْ عَلَى الْمَدَائِنِ، وَلَتَحِينُ النَّالِثَةَ، إِنَّهُ لِقَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَهُ لِي ^{١٧٨}.

- وإن نتيجة تقديم الترهيب على الترغيب نتيجة مُبَعَّدةٌ عن دين الله، فعن أبي سعيد الخدري: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَدُلِّلَ عَلَى رَاهِبٍ، فَأَتَاهُ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةً؟ قَالَ: لَا فَقَتَلَهُ وَكَمَلَ بِهِ مَا تَرَأَّسَ، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَدُلِّلَ عَلَى رَجُلٍ، فَقَالَ: أَنَّهُ قَتَلَ مِئَةً، فَهَلْ لَهُ تَوْبَةً؟ قَالَ: نَعَمْ، مَنْ يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ أَئْتَ أَرْضَ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّهَا نَاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَأَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تَرْجِعُ إِلَى أَرْضِكَ، فَإِنَّهَا أَرْضٌ سُوءٌ، فَأَنْطَلَقَ حَتَّى إِذَا اتَّصَافَ الطَّرِيقَ، أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ، وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَنَا تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَاهُ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمٍ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قَيْسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ: أَيُّهُمَا كَانَ أَفْرَبَ، فَهَيِّلَهُ، فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ بَهَا مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ ^{١٧٩}.

- نحن بهذا الكلام لا نهون من أمر الترهيب - فقد جاء في القرآن الكريم -، ولكن لا نحب للداعية أن يُفْرِطَ فيه، وعلى الداعية أن يختار الترغيب أو الترهيب كما يراه مناسباً لحال المدعو ^{١٨٠}.

^{١٧٨} - مصنف ابن أبي شيبة - (٢٠ / ٢٦٧) (٣٧٧٦١) صحيح

^{١٧٩} - صحيح البخاري- المكر - (٣٤٧٠) وصحيح مسلم- المكر - (٧١٨٤) وصحيح ابن حبان - ط الرسالة -

(٢ / ٣٧٦) (٦١١)

^{١٨٠} - انظر كتاب الترغيب بالجنة والترهيب من النار ، وكتابي الخلاصة في فضائل الأعمال

وَكَثِيرًا مَا كَانَ الْقَرْآنُ الْكَرِيمُ يَقْرَنُ بَيْنَهُمَا، قَالَ تَعَالَى: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أَكُلُّهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عَقْبَى الَّذِينَ آتَقْوَا وَعَقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ} (٣٥) سُورَةُ الرَّعْدِ

وَقَالَ تَعَالَى: {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكَنَا أَشْيَاكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِّرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الرُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطْرٌ (٥٣) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَتَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْدَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (٥٥)} [القمر: ٤٧ - ٥٣]

وَقَالَ تَعَالَى: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمْ أَفْرَعُوا كِتَابِيَّةً (١٩) إِنِّي ظَنَّتُ أَنِّي مُلَاقٌ حَسَابِيَّةً (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَّةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالَيَّةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَّةٌ (٢٣) كُلُّوا وَأَشْرَبُوا هَنِيَّا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَّةِ (٢٤) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشَمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيَّةً (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حَسَابِيَّةً (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَّةَ (٢٧) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَّةً (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةً (٢٩) خُدُودُهُ فَعُلُوُهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُوُهُ (٣١) ثُمَّ فِي سَلِسَلَةٍ ذَرَعُهَا سَبْعُونَ ذَرَاعًا فَاسْكُوُهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِنِينَ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْحَاطِطُونَ (٣٧)} [الحاقة: ١٩ - ٣٧]



المبحث الخامس عشر

التفهيم لا التلقين

- إن العودة للإسلام لا بد لها من الدعاة الأذكياء الأتقياء، الذين فهموا الإسلام على حقيقته النازلة من رب العالمين، ثم يقدمونه للناس ليوقد لهم من الغيوبية التي يعيشون فيها، ويزيلون جهل أبنائه، ويسخرون ما التتصق بفهمهم من خرافات ويفنون من طريقهم الحواجز التي شعّبت أهلها وقسّمتهم طوائف، يفهمون الإسلام لا على أنه نصوص تقرأ وتحفظ فحسب بل وروح تبعث الحياة ونور يُمشى به في الناس .
- إن الإسلام ليس نصوصاً تلقن كما يفعل بعض الشباب الذين يتصدرون للدعوة، فيلقنونه للناس دون فهم ولا مراعاة للأحوال والظروف .
- إن القرآن الكريم يعلمنا ضرورة الفهم، كما جاء ذلك في قصة داود وسليمان - عليهما السلام - .

قال تعالى : { وَدَاؤُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنْمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَمَّا هُنَّا سُلَيْمَانَ وَكُلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاؤُودَ الْجِبَالَ يُسَيِّحُنَّ وَالْطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) } [الأنباء: ٧٨، ٧٩]

واذكر - أيها الرسول - نبي الله داود وابنه سليمان، إذ يحكمان في قضية عرضاً لها خصمان، عدَت غنم أحدهما على زرع الآخر، وانتشرت فيه ليلاً فأتلفت الزرع، فحكم داود بأن تكون الغنم لصاحب الزرع ملِكًا بما أتلفته، فقيمتهم سواء، وكُنَّا لحكمهم شاهدين لم يغبْ عنا.

فَفَهَمَّا سليمان مراعاة مصلحة الطرفين مع العدل، فحكم على صاحب الغنم بإصلاح الزرع التالف في فترة يستفيد فيها صاحب الزرع بمنافع الغنم من لبن وصوف ونحوهما، ثم تعود الغنم إلى صاحبها والزرع إلى صاحبه؛ لمساواة قيمة ما تلف من الزرع لمنفعة الغنم، وكلا من داود وسليمان أعطيتهما حُكْمًا وعِلْمًا، ومننَا على داود بتطويع الجبال تسبيح معه إذا سَيَّح، وكذلک الطير تسبيح، وكنا فاعلين ذلك.

- ولو تأملنا سيرة الصحابة - رضوان الله عليهم - لرأينا أنهم كانوا يمتازون بـ :

١- جودة الحفظ .٢- عمق الفهم .٣- دقة الاستنباط .

وخير مثال على ذلك عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، فعن عمر بن الخطاب، قال: لما نزل تحرير الخمر، قال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت هذه الآية التي في سورة البقرة: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ}، قال: فَدُعِيَ عُمَرُ فَقَرِئَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَ: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شفاءً، فنزلت الآية التي في سورة النساء: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى} فَكَانَ مُنَادِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَقَامَ الصَّلَاةَ نَادَى: أَنْ لَا يَقْرُبَنَّ الصَّلَاةَ سَكْرَانُ فَدُعِيَ عُمَرُ فَقَرِئَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَيْنَ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيْنَا شَفَاءً، فَنَزَّلَتِ الْآيَةُ الَّتِي فِي الْمَائِدَةِ، فَدُعِيَ عُمَرُ فَقَرِئَتْ عَلَيْهِ، فَلَمَّا بَلَغَ {فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ} قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ اتَّهَيْنَا اتَّهَيْنَا^{١٨١} .

وعن ابن عمر "لما توفي عبد الله بن أبي جاء ابنه إلى النبي ﷺ، فقال: اعطني قميصك حتى أكفنه فيه وصل عليه واستغفر له، فاعطاه قميصه، ثم قال: آذني به حتى أصلّي عليه، فاذنه فلما أرد أن يصلّي عليه جذبه عمر، وقال: أليس الله قد نهاك ألا تصلّي على المُنافقين؟ قال: "أنا بين خيرتين" استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرّة فلن يغفر الله لهم" فصلّى عليه، فنزلت "ولَا تصلّى على أحدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبْدًا وَلَا تَقُومُ عَلَى قَبْرِهِ" فترك الصلاة عليهم^{١٨٢} .

وغير ذلك من الأمور، .. وغير عمر من الصحابة .

- ومن الأمثلة على الخطأ في الفهم: طلب بعض المسلمين من الناس الأكل على الأرض بحجة أن ذلك من السنة، وما هو من السنة بل هو عادة، وكذلك أولئك الذين يريدون أن يدخلوا المساجد بأحذيةهم دون خلعها، ولا يفرقون بين حالة المسجد في وقت الرسول - ﷺ - والمساجد الآن ! وأولئك الذين يحرمون جرس الباب والصور الفوتografية وإن كان موضوعها خيراً ! وأولئك الذين يقولون إن صوت المرأة عورة في كل أحواله !

^{١٨١} - مسند أحمد (عالم الكتب) - (١٨٩ / ٣٧٨) صحيح

^{١٨٢} - تفسير ابن أبي حاتم - (٧ / ٣٦٦) صحيح

وهكذا.. فعن أبي عطية، قال: دخلت أنا ومسروق، على عائشة فقلنا: يا أم المؤمنين، رجلان من أصحاب محمد ﷺ، أحدهما "يعجل الإفطار ويتعجل الصلاة"، والآخر يؤخر الإفطار ويؤخر الصلاة، قالت: أيهما الذي يعجل الإفطار ويتعجل الصلاة؟ قال: قلنا عبد الله يعني ابن مسعود قال: "كذلك كان يصنع رسول الله ﷺ". ^{١٨٣}

ومن الأمثلة أيضاً تكفير الناس ومحاربة المجتمع وعدم التمييز بين درجات الفسق والكفر والشرك، وعدم الفهم لبعض الآيات في هذا المجال، ولو أنهم رجعوا إلى أهل الذكر من العلماء لأخبروهم بالحق وبالمعنى الصحيح للآيات.



^{١٨٣} - صحيح مسلم - المكتز - (٢٦١٠)

المبحث السادس عشر

التربية لا التعرية

- وذلك عن طريق الشفقة على العاصي والمخطئ، وعدم التشهير به وعدم التعالي عليه وعدم إحراجه أمام الناس .

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، أَنَّ فَتَّى شَابًا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتُؤَذِّنُ لِي فِي الزَّنَنَ؟ قَالَ: فَصَاحَ الْقَوْمُ بِهِ وَقَالُوا: مَهْ مَهْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَفَرُوْهُ وَادْهُ" فَدَنَا حَتَّى كَانَ قَرِيبًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَتُحِبُّهُ لِأَمْكَنَ؟" فَقَالَ: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فَدَاكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَمْهَاتِهِمْ" قَالَ: "أَفَتُحِبُّهُ لِبَنَتِكَ؟" قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فَدَاكَ، قَالَ: "وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ" قَالَ: "فَتُحِبُّهُ لِأَخْتِكَ؟" قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فَدَاكَ، قَالَ: "وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخْوَاتِهِمْ" - ثُمَّ ذَكَرَ الْحَدِيثَ فِي الْعَمَّةِ وَالْخَالَةِ كَذَلِكَ - قَالَ: فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ لِي، قَالَ: فَوَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَهُ عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: "اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ" قَالَ: فَكَانَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ بَعْدَ ١٨٤ .

وهذا موقف تربوي نتعلم منه الكثير، وليس شرطاً أن نخاطب الناس بما خاطب الرسول -
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - به هذا الصحابي، ولكن المهمأخذ العبرة ومعرفة كيفية التعامل مع الناس وتربيتهم
لا فضحهم وتعريفهم !

- رأيت شاباً يدخل المسجد لأول مرة وهو يلبس الذهب، فهل من الصحيح أن تذهب إليه وتقول له: اتق الله، الذهب حرام !!! فـ وابحث عن الموقف الدعوي المناسب.

- وقد يجتمع في المرء إيمان وعمل صالح من وجه وفسق من وجه آخر، فلا يقتضي وجود الثاني ذهاباً الأول، فعن عمر بن الخطاب أَنَّ رَجُلًا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ اسْمُهُ عَبْدُ اللَّهِ، وَكَانَ يُلْقَبُ حِمَارًا، وَكَانَ يُضْحِكُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

١٨٤ - شعب الإيمان - (٧ / ٢٩٥) (٥٠٣٢) صحيح

فَدْ حَلَدَهُ فِي الشَّرَابِ، فَأَتَى بِهِ يَوْمًا فَأَمَرَ بِهِ فَجُلَدَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ اللَّهُمَّ اعْنُهُ مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَنِي بِهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « لَا تَلْعُنُوهُ، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ أَنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » ^{١٨٥} . وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَى بِرَجُلٍ قَدْ شَرِبَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اضْرِبُوهُ. قَالَ: فَمَنْ أَضَرَّ بِيَهُ، وَمَنْ أَضَرَّ بِيَهُ، وَالضَّارِبُ بِشَوِيهٍ، فَلَمَّا ائْتَرَفَ قَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: أَخْزَاكَ اللَّهُ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا تَقُولُوا هَكَذَا، لَا تُعِينُوا عَلَيْهِ الشَّيْطَانَ، وَلَكُنْ قُولُوا: رَحْمَكَ اللَّهُ. (رواه البخاري) ^{١٨٦} .

وفي رواية قال فيه بعد الضرب ثم قال رسول الله - ﷺ - لأصحابه «بكثوه». فاقبلوا عليه يقولون ما أتيت الله ما خشيت الله وما استحيت من رسول الله - ﷺ - ثم أرسلوه وقال في آخره «ولكن قولوا اللهم اغفر لهم اللهم ارحمه». وبعضهم يريد الكلمة وتحوها . ١٨٧

وَمِنَ الْأَمْثَلَةِ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًاً مَوْقِفُ الرَّسُولِ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- مَعَ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- حِينَ أَكْرَهَ عَلَى سَبِهِ وَالتَّلْفُظِ بِالْكُفَّرِ فَعَنِ أَبِيهِ عُبَيْدَةَ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَمَّارٍ بْنِ يَاسِرٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَخَذَ الْمُشْرِكُونَ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرَ فَلَمْ يَتَرَكُوهُ حَتَّى سَبَ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَذَكَرَ الْأَهْتَمْهُمْ بِخَيْرٍ ثُمَّ تَرَكُوهُ فَلَمَّا أَتَى رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «مَا وَرَاءَكُمْ؟» قَالَ: شَرِّيَا رَسُولَ اللَّهِ مَا تَرَكْتُ حَتَّى نَلْتُ مِنْكَ وَذَكَرْتُ الْأَهْتَمْهُمْ بِخَيْرٍ قَالَ: «كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟» قَالَ: مُطْمِئْنًا بِالْإِيمَانِ قَالَ: «إِنَّ عَادُوا فَعُدُّ» ^{١٨٨}!

وفي قوله ﷺ "كيف تجد قلبك ؟" دلالة على أهمية صيانة الفكر من أن يتطرق إليه شيء من الشبهات التي يشيرها الكفار .

إن هؤلاء المعدبين قد استطاع الكفار أن يشنعوا في أجسادهم وأن يلحوظوا بعضهم إلى قول مala يعتقدون ، ولكنهم لم يستطيعوا أبداً أن يهيمنوا على عقوتهم وأفكارهم .

١٨٥ - صحيح البخاري (٦٧٨٠)

^{١٨٦} -مسند أحمد (علم الكتب) - (٢ / ١٨٥) (٧٩٨٥) - ٧٩٧٣ - صحيح البخاري - المكتـ (٦٧٧٧)

١٨٧ - سنن أبي داود - المكتبة - (٤٤٨٠) صحيح - بكت : وبخ

^{١٨٨} - السنن الكبيرى للبيهقى - المكتز - (٢٠٨) / (١٧٣٥٠) والحلية برقم (٤٤٩) صحيح لغيره

إن الفكر حصن حصين و بهه الله تعالى للإنسان ، فلا يستطيع البشر مهما أتوا من قوة أن يطلغوا على أسراره و خفاياه ، ولا أن يهيموا عليه فيغيروا من معتقده .

إن الطغاة الجبارون يستطيعون أن يفعلوا في أجساد المؤمنين المعدين ما شاؤوا وأن ينتزعوا من بعضهم ما يريدون من اعترافات ، ولكنهم لا يستطيعون أن يتحكموا في أفكارهم ، وهذا من أبرز علامات الفشل والعجز ، لأن تغيير الأفكار هو المقصود الأول من وراء

ذلك التعذيب ^{١٨٩} .

وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَافِعٍ، وَهُوَ كَاتِبُ عَلَيٌّ، قَالَ: سَمِعْتُ عَلَيَا يَقُولُ: بَعْثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالرُّبِّيْرَ، وَطَلْحَةَ، وَالْمَقْدَادَ بْنَ الْأَسْوَدَ، فَقَالَ: اتَّلَقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَارِخٍ، فَإِنَّهَا ظَعِينَةٌ مَعَهَا كِتَابٌ، فَخُذُوهُ مِنْهَا، فَانْطَلَقُنَا تَعَادِي بَنَا خَيْلَنَا، حَتَّى أَتَيْنَا الرَّوْضَةَ، فَإِذَا نَحْنُ بِالظَّعِينَةِ، فَقُلْنَا لَهَا: أَخْرِجِي الْكِتَابَ، فَقَالَتْ: مَا مَعِي مِنْ كِتَابٍ، فَقُلْنَا: اللَّهُ أَتُخْرِجُنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَنْلُقِنَّ الشَّيْابَ، فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِصَاصِهَا، فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِذَا فِيهِ: مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى نَاسٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، يُخْبِرُهُمْ بِعَضُّ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا حَاطِبُ مَا هَذَا؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ إِنِّي كُنْتُ أَمْرًا مُلْصَقًا فِي قُرْبَشَ، وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ، يَحْمُونَ قَرَابَتَهُمْ وَأَهْلِهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ لِي قَرَابَةٌ أَحْمِي بِهَا أَهْلِي، فَأَحْبَبْتُ إِنْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ أَنْ أَتَخَدَ عَنْهُمْ يَدًا يَحْمُونَ قَرَابَتِي وَأَهْلِي، وَاللَّهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا فَعَلْتُ ذَلِكَ ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي، وَلَا رِضَا بِالْكُفْرِ بَعْدِ إِسْلَامِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ هَذَا قَدْ صَدَقْتُمْ، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي أَصْرِبْ عُنْقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّهُ شَهَدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ قَدْ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شَتَّمْ قَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ، وَأَنْزَلَ فِيهِ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلَيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءُكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَأَبْتَغَيْ مَرْضَاتِي سِرُّونَ

إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلُ
١٩٠ .. (١) سورة المتحنة



^{١٩٠} / - صحيح البخاري- المكتز - (٣٠٠٧) وصحيح مسلم- المكتز - (٢١٦٥) وصحيح ابن حبان - (١٤) (٤٢٤) (٦٤٩٩)

البحث السابع عشر

تلميذ إمام (أستاذ ذي تجربة) لا تلميذ كتاب

- من أعظم الأخطاء التي يرتكبها بعض الشباب الداعي إلى الله أنه يتعامل مباشرةً ووجهها لوجه مع نصوص الكتاب والسنة ويكتلم على الكتاب دون الرجوع إلى عالم متخصص أو داعية حصيف يبين له ما لم يعرفه وما أشكّل عليه من فهمٍ وما غاب عنه من فقه، مع أن الله - تعالى - يقول: {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} (٤٣) سورة النحل.

- والصحابة أنفسهم كانوا حريصين على الرجوع إلى الرسول - ﷺ - ليفهموا الفهم السليم، فعن عائشة، قالت: قلت: يا رسول الله، {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتُوا وَقُلُوبُهُمْ وَجْهَةُ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ} (٦٠) سورة المؤمنون، أهُوَ الَّذِي يَزِّنِي، وَيَسْرِقُ، وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ؟ قال: لا، يا بنت أبي بكرٍ أو يا بنت الصديقٍ ولكنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُ، وَيُصَلِّي، وَهُوَ يَخَافُ أَنْ لَا يُتَقَبَّلَ مِنْهُ^{١٩١}.

- وعن عبد الله قال: "لَمَّا نَرَكْتُ هَذِهِ الْآيَةَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُلِسِّنُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟ قَالَ: "إِنَّهُ لَيْسَ الَّذِي تَعْنُونَ أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ يَا بُنْيَيْ لَا تُشْرِكُ بِاللَّهِ إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ" وفي رواية عن الأعمش، بإسناده مثله - فقلوا: "يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنَّا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ قَالَ: "لَيْسَ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ الشَّرْكُ أَلَمْ تَسْمَعُوا قَوْلُ لُقْمَانَ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعْظِمُهُ يَا بُنْيَيْ لَا تُشْرِكُ بِاللَّهِ إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ^{١٩٢} ..

- وهكذا كان حال الصحابة - رضوان الله عليهم -، فكيف بنا اليوم وقد بعثنا عن فهم اللغة وبعدنا عن الالتزام الصحيح والفهم السليم، ألسنا بحاجة إلى الجلوس بين يدي عالم متخصص وذي تجربة ليعلمنا ويفهمنا؟!

^{١٩١} - سنن ابن ماجة - ط-رسالة - (٥ / ٢٨٧) (٤١٩٨) صحيح

^{١٩٢} - مُسْتَخْرَجُ أَبِي عَوَانَةَ (١٦٥ و ١٦٦) صحيح

- وإن من الخطأ أن يقرأ بعض الشباب الحديث فلا يعرف متى قيل هذا الحديث ولا من قيل ولا الحالة التي قيل فيها، وقد يقرؤه مترجماً فتكون الترجمة غير صحيحة أو صحيحة ولكنها دون روح وفهم لجواهر الحديث، وهذا بالطبع له نتائجه الخطيرة على الفرد وعلى المجتمع. وعن جابر قال: خرجنا في سفر فاصاب رجلاً منا حجر فشجه في رأسه ثم احتمل فقال لأصحابه: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ قالوا: ما تجد لك رخصة وانت تقدر على الماء. فاغتسل فمات، فلما قدمنا على النبي - ﷺ - أخبر بذلك قال: «قتلوه قتلهم الله، ألا سألهوا إذ لم يعلموا، فإنما شفاء العي السؤال، إنما كان يكتفي أن يتيمم ويغسل أو يعصب على جرحه خرقة ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده» ^{١٩٣}.

- وإنه مما يدهش ويحزن أن نجد بعض الدعاة يجترئون على الفتوى في أحطر القضايا، وإصدار الأحكام في أهم الأمور دون أن تكون عنده مؤهلات الفتوى، ودون دراية بأحوال المجتمعات وظروفها المختلفة، هذا مع أن الصحابة - رضوان الله عليهم - كانوا يتورّعون من الفتوى عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، قال: "أدركتُ عشرين ومائةً من الأنصارِ منْ أصحابِ رسول الله - ﷺ - يُسأَلُ أحدهُمْ عَنِ الْمَسَأَلَةِ فَيُرْدُهَا إِلَى هَذَا، وَهَذَا إِلَى هَذَا حَتَّى تَرْجِعَ إِلَى الْأَوَّلِ" ^{١٩٤} ..

- إن تربية الناس وتبصيرهم يحتاج إلى فقه دقيق ويستحيل على الداعي أن يحصل الفقه إذا كان تلميذ كتاب، فهو في هذه الحالة يجمع السطور ويحفظ المتن، ولكي يكون ذا فقه فلا بد من فقيه يرشده، وفي المثل: من كان شيخه كتابه كان خطوه أكثر من صوابه .

- إن التلقي عن ذوي الخبرة يعصم من الزلل ويحمي من الأخطاء التي قد تصيب الفرد والمجتمع بسبب عدم الفهم والوعي. فالعلماء وذوو الخبرة مصابيح تنير لمن بعدهم الطريق وتنقل لهم الطريقة الصحيحة في الدعوة، لذا لا بد كذلك من احترامهم أشد الاحترام، فإن الناس دونهم في ضلال وتخبط عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال من فيه إلى في يقول: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس،

^{١٩٣} - السنن الكبرى للبيهقي - المكتبة - (١ / ٢٢٧) (١١١٥) حسن

^{١٩٤} - المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي (٦٥٥) والفقية والمتفقه للخطيب البغدادي - (٦٣٢) صحيح

وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَتَرُكْ عَالَمًا، أَتَخَذَ النَّاسُ رُؤَسَاءَ جُهَّاً،
فَسُلِّمُوا، فَأَفْتَوُا بِعَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا، وَأَصْلَوَا^{١٩٥} ..

قال النووي: هذا الحديث يبين أن المراد بقبض العلم في الأحاديث السابقة المطلقة ليس هو
محوه من صدور حفاظه ولكن معناه أنه يموت حملته ويتخاذ الناس جهالاً يحكمون
بجهالهم فيضلون ويضللون.... وقال أيضا: في هذا الحديث الحث على حفظ العلم وأخذه
عن أهله واعتراف العالم للعالم بالفضيلة^{١٩٦}.



^{١٩٥} - مستند أحمد (عالم الكتب) - (٢ / ٥٩٦) (٦٥١١) وصحيح مسلم - المكتبة - (٦٩٧١)

^{١٩٦} - الإيمان والعمل الصالح سبب النجاح والفلاح - (١ / ٩١)

البحث الثامن عشر

نصائح لا بد من مراعاتها أثناء الدعوة

أولاً: على الداعي أن يتحرى قصده حين دعوة غيره، فيقصد وجه الله - تعالى - فعن علّي بن إشحّاص، قال: سمعت أبي يقول: سمعت أبا يوسف، يقول: "يا قوم، أريدوا بعلمكم الله عز وجل، فإني لم أحجلس مجلساً قط، أتّوي فيه أن أتوّاضع، إلا لم أقم حتى أعلوهم، ولم أحجلس مجلساً قط أتّوي فيه أن أعلوهم، إلا لم أقم حتى أفتضّح" ١٩٧.

ثانياً: أن يتخلق الداعي بالمحاسن والأخلاق الكريمة ويتحلى بالحلم والصبر وطلاقه الوجه والورع والخذر من الحسد والرياء والإعجاب واحتقار الناس وإن كانوا دونه.

ثالثاً: لا يستنكف الداعي من التعلم من هو دونه في سن أو نسب أو شهرة أو دين أو في علم آخر، ولا يستحي من السؤال عمّا لا يعلم، ولا يتعاظم على المتعلمين عن يوئس بن أبي شبيب، قال: سمعت سعيد بن حبّير، يقول: "لَا يَزَالُ الرَّجُلُ عَالَمًا مَا تَعْلَمَ، فَإِذَا تَرَكَ الْعِلْمَ وَظَنَّ أَنَّهُ قَدِ اسْتَغْنَى، وَأَكْتَفَى بِمَا عِنْدَهُ كَانَ أَجْهَلَ مَا يَكُونُ" ١٩٨ ..

رابعاً: على الداعي حين يتعامل مع الناس أن يعرف أن أساس التعامل هو ظاهر السلوك ولا شأن له بالباطن.

خامساً: أن يحترم من له سبق في الدعوة، وأن يتزلم الناس منازلهم.

سادساً: أن يعلم الداعي أن غايته الله - تعالى -، والوصول إلى تحقيق العبودية لله - سبحانه - هو الهدف الأسمى، ولذلك فإن الجماعة وسيلة، والحكومة وسيلة ... وليس غایات، فلا يجوز بحال من الأحوال أن تنقلب الوسائل إلى غایات.

١٩٧ - *الْفَقِيهُ وَالْمُتَّقِّدُ لِلْخَطَّابِ الْبَعْدَادِيِّ* (٦٦٢)

١٩٨ - *الْفَقِيهُ وَالْمُتَّقِّدُ لِلْخَطَّابِ الْبَعْدَادِيِّ* (١٠٥٣)

سابعاً: أن يعي أن وسائل العمل الإسلامي وطرقه وأساليبه ليست ديناً لا يتغير ولا يتبدل، بل يجب أن تتطور طبقاً لظروف المكان والزمان والعصر، فالأهداف الإسلامية من الثواب، والوسائل لتحقيقها من المتغيرات .

ثامناً: لا بد أن يتهم الداعي نفسه بالتقسيب ويسعى نحو الأفضل دائماً، ويقوم مع إخوانه الدعاة بدراسة أسباب التقسيب بحوار مؤدب، ومراعاة الاستفادة من جميع الطاقات والمواهب .

تاسعاً: لا بد للداعي أن يحتسب الدعوة لله - تعالى - فيتتحمل التعب، ويتحمل الإيذاء والاستهزاء، ولا يفكك برد الصاع صاعين، قال تعالى: {وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} (٤٣) سورة الشورى .

عاشرأً: أن يتبع عن مزاحمة الناس في ما هم فيه من مناصب ولا يحترف الإسلام .
حادي عشر: أن يفهم جيداً أن الدعوة ليست حكراً عليه أو على من يعمل معهم، لذا فإنه يحترم الجميع ولا يقلل من شأنهم .

ثاني عشر: أن يتبع عن الخلاف السليبي، وأن يكون شعاره مع الجميع: فلنتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضاً فيما اختلفنا فيه .^{١٩٩}

ثالث عشر: على الداعي أن يفهم المدعوين أن الإسلام متّه لا يُدان، أما المسلمون فهم معرضون للخطأ والإدانة !

رابع عشر: على الداعي أن يبدأ دعوته حيث انتهى فهم المدعو، وليس حيث انتهى فهم الداعي نفسه .

خامس عشر: البدء بأقرب الناس ومن هو لديه استعداد ثم الذي يليه، {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} (٢١٤) سورة الشعراء .

سادس عشر: ألا ينظر إلى العصابة والبغاء نظرة اليائس من إصلاحهم، فيحكم عليهم مسبقاً بعدم الاستجابة، لا، بل عليه أن يتذكر أن الله - تعالى - يقلب القلوب والأبصار .

^{١٩٩} - قالها رشيد رضا رحمة الله في مجلة المنار - (ج ٣٥ / ص ٤٧١)

سابع عشر: ألا يضع شروطاً يجب أن تتوفر في المدعو لكي يدعوه فإذا افتقد شرطاً حكم عليه بعدم الصلاح، ولا يوجهه إلا حسب قدراته، ويستغل إمكاناته - مهما كانت ضئيلة - لصالح الخير .

ثامن عشر: ألا يتعامل مع طبقة من الطبقات ويهمل بقية الطبقات، فالدعوة للناس كافة ولكن كل حسب ظروفه ووضعه .

تاسع عشر: ألا يستهين بدعاوة الصبي والصغير، فأطفال اليوم هم رجال الغد بإذن الله . العشرون: ألا تحمل دعوة النساء، فعن عائشة، قالت: سُلْ رَسُولُ اللَّهِ عَنِ الرَّجُلِ يَجِدُ الْبَلَلَ وَلَا يَذْكُرُ احْتَلَامًا قَالَ: يَعْتَسِلُ، وَعَنِ الرَّجُلِ يَرَى أَنَّهُ قَدْ احْتَلَمَ، وَلَا يَرَى بَلَالًا، قَالَ: لَا غُسْلَ عَلَيْهِ فَقَالَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ: هَلْ عَلَى الْمَرْأَةِ تَرَى ذَلِكَ شَيْءٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنَّمَا النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ . ٢٠٠

الواحد والعشرون: ألا تستهين بالكلمة الطيبة، فهي مفتاح للقلوب مهما كانت قاسية !

الثاني والعشرون: ألا تسفه أعمال الآخرين، بل تظهر جانب الإحسان فيها .

الثالث والعشرون: التدرج مع المدعو حتى وإن تطلب ذلك وقتاً طويلاً .

الرابع والعشرون: ألا تسخر من العصاة من أصحاب المراكز العالية أو ترميهم بفسق، وأنزل الناس منازلهم، فإن القلوب جبت على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها .

الخامس والعشرون: كن داعياً لا قاضياً، فلا تحكم على الناس بكفر أوردةً ولتكن مهمتك التذكرة {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصِيَطِرٍ} (٢٢) سورة الغاشية ول يكن حكمك على الظاهر، وليس على الباطن، فمن أعلن الكفر أو أتى بناقض معلوم من الدين بالضرورة فهو كافر، ولا نكفر بتأويل، وتذكر كذلك أن الأعمال بخواتيمها، وأن باب التوبة مفتوح !

فعن معاوية، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنما الأعمال بخواتيمها، كالوعاء إذا طاب أعلاه طاب أسفله، وإذا خبأ أعلاه خبأ أسفله .^{٢٠١}

السادس والعشرون: ألا يتعلّق المدعاو بشخصك، بل بالفكرة التي تدعوه إليها !

قال تعالى: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبَتْ عَلَيَّ أَعْقَابُكُمْ وَمَنْ يَنْقِلِبْ عَلَيَّ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَحْزِنِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} (٤٤) سورة آل عمران

فعن يزيد بن أبيوس، قال ذهب أبا وصاحب لي إلى عائشة فاستأذنا عليها، فلقت لنا وسادة، وحدّثت إليها الحجاب، فقال صاحب يا أم المؤمنين ما تقولين في العراق؟ قالت: وما العراق، وضررت منكب صاحب، قالت: مه آذيت أخاك؟ ثم قالت: ما العراق؟ المحيض، قلوا: ما قال الله؟ المحيض، ثم قالت: كان رسول الله ﷺ يتوشّحني، وينال من رأسي، وينبئ وينه ثوب، وأنا حائض، ثم قالت: كان رسول الله ﷺ إذا مر بيأبي مما يلقي الكلمة يتفعّل الله عز وجل بها، فمر ذات يوم فلم يقل شيئا، ثم مر أيضًا فلم يقل شيئا، مررتين، أو ثلاثة، قلت: يا حاربة ضعي لي وسادة على الباب، وعصبت رأسي فمر بي، فقال: يا عائشة ما شئت؟ فقلت: أشتكي رأسي فقال: أبا وارأساه، فذهب فلم يلبث إلا يسيرا حتى جيء به محمولاً في كساء، فدخل على، وبعث إلى النساء، فقال: إني قد اشتكيت، وإنني لا أستطيع أن أدور بينكين، فائذن لي فلاكن عند عائشة فكنت أوضعي، ولم أكن أوضعي أحداً قبله، فيبينما رأسه ذات يوم على منكبتي إذ مال رأسه نحو رأسي، فظنت أنه يريد من رأسي حاجة، فخرجت من فيه نطفة باردة، فوّقعت على ثغرة نحري، فاقشعر لها جلدي، فظنت أنه غشي عليه فسحّنته ثواباً، فجاء عمر والمغيرة بن شعبة فاستأذنا، فادت لهما، وحدّثت إلى الحجاب، فنظر عمر إليه، فقال: وأغشياه ما أشدّ غشي رسول الله ﷺ ثم قاما، فلما دنوا من الباب قال المغيرة: يا عمر مات رسول الله ﷺ، قال: كذبت بل أنت رجل تحوسك فتنة إن رسول الله ﷺ لا

يَمُوتُ حَتَّى يُفْنِيَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُنَافِقِينَ، ثُمَّ جَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَرَفَعَتُ الْحِجَابَ فَنَظَرَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، ماتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ أَتَاهُ مِنْ قَبْلِ رَأْسِهِ فَحَدَرَ فَاهُ، وَقَبَلَ جَبَهَتَهُ، ثُمَّ قَالَ: وَأَتَيَاهُ ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ ثُمَّ حَدَرَ فَاهُ وَقَبَلَ جَبَهَتَهُ، ثُمَّ قَالَ: وَاصْفِيَاهُ ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَحَدَرَ فَاهُ وَقَبَلَ، وَقَالَ: وَأَخْلِيَاهُ ماتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَخَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ وَعُمَرُ يَخْطُبُ النَّاسَ وَيَتَكَلُّمُ، وَيَقُولُ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَا يَمُوتُ حَتَّى يُفْنِيَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُنَافِقِينَ، فَتَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَحَمَدَ اللَّهَ، وَأَتَنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ} حَتَّى فَرَغَ مِنَ الْآيَةِ {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَقَ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ، أَفَإِنْ مَاتَ، أَوْ قُتِلَ، اتَّقْبِلُتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ} حَتَّى فَرَغَ مِنَ الْآيَةِ، فَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّداً، فَإِنَّ مُحَمَّداً قَدْ مَاتَ، فَقَالَ عُمَرُ: أَوَإِنَّهَا لَفِي كِتَابِ اللَّهِ مَا شَرَعْتُ أَنَّهَا فِي كِتَابِ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ عُمَرُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَذَا أَبُو بَكْرٍ وَهُوَ ذُو شَيْءَةِ الْمُسْلِمِينَ فَبَايِعُوهُ فَبَايِعُوهُ ٢٠٢.

السابع والعشرون: كرر الدعوة مرات ومرات ولا تتعب ولا تيأس، فأنت لا تعرف متى تفتح القلوب، وتذكر قصة إسلام عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عن عبد العزير بن عبد الله بن عامر بن ربيعة، عن أمّه أمّ عبد الله بنت أبي حمزة قالت: والله، إلهي لنرتاح إلى أرض الحبشة وقد ذهب عامر في بعض حاجتنا، إذ أقبل عمر حتى وقف على وهو على شركه، قالت: وكنا نلقى منه البلاء أذى لنا وشرأ علينا، فقالت: فقال: إله لانطلاق يا أم عبد الله، قالت: قلت: نعم، والله لنخرجن في أرض الله، آذينونا وقهرونونا، حتى يجعل الله لنا مخرجا، قالت: فقال: صحبكم الله، ورأيت له رقة لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنني فيما أراني خروجنا، قالت: فجاء عامر من حاجتنا تلك فقلت له: يَا أبا عبد الله، لو رأيت عمر آنفًا ورقته وحزنه علينا، قال: أطمعت في إسلامه؟ قالت: قلت: نعم، قال: لا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب، قالت: يأساً لما كان يرى من غلطته وقسوته عن الإسلام.

وَكَانَ إِسْلَامُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِيمَا بَلَغَنِي أَنَّ أُخْتَهُ فَاطِمَةَ بْنَتَ الْخَطَّابِ، وَكَانَتْ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَمْرُو بْنِ نُفَيْلٍ، كَانَتْ قَدْ أَسْلَمَتْ وَأَسْلَمَ زَوْجُهَا سَعِيدُ بْنَ زَيْدٍ مَعَهَا، وَهُمْ يَسْتَخْفُونَ بِإِسْلَامِهِمْ مِنْ عُمَرَ، وَكَانَ تُعَيْمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التَّنَحَّامُ رَجُلًا مِنْ قَوْمِهِ مِنْ بَنِي عَدَيٍّ بْنِ كَعْبٍ قَدْ أَسْلَمَ، وَكَانَ أَيْضًا يَسْتَخْفِي بِإِسْلَامِهِ فَرَقًا مِنْ قَوْمِهِ، وَكَانَ خَبَابُ بْنُ الْأَرَاتِ يَخْتَلِفُ إِلَى فَاطِمَةَ بْنَتَ الْخَطَّابِ يُقْرِئُهَا الْقُرْآنَ، فَخَرَجَ عُمَرُ يَوْمًا مُتَوَشِّحًا سَيِّفَهُ يُرِيدُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ وَرَهْطًا مِنْ أَصْحَابِهِ، فَذَكَرَ لَهُ أَنَّهُمْ قَدْ اجْتَمَعُوا فِي بَيْتِ الصَّفَا وَهُمْ قَرِيبٌ مِنْ أَرْبَعِينَ مِنْ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ، وَمَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَلِّبِ، وَعَلَيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَأَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ بْنُ أَبِي قُحَافَةَ، فِي رِجَالٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَمَّنْ كَانَ أَفَاقَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ بِمَكَّةَ، وَلَمْ يَخْرُجْ فِيمَنْ خَرَجَ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ، فَلَقِيَهُ عُيَيْمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ فَقَالَ لَهُ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ مُحَمَّدًا، هَذَا الصَّابِيءُ الَّذِي قَدْ فَرَقَ أَمْرَ قُرِيشٍ، وَسَفَهَ أَحْلَامَهَا، وَعَابَ دِينَهَا، وَسَبَّ الْهَتَّهَا، فَأَقْتَلُهُ، فَقَالَ لَهُ نَعِيمٌ: وَاللَّهِ، لَقَدْ غَرَّتْكَ نَفْسُكَ مِنْ نَفْسِكَ يَا عُمَرُ، أَتَرَى بَنِي عَبْدِ مَنَافَ تَارِكِيَّكَ تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ وَقَدْ قَتَلْتَ مُحَمَّدًا؟ أَفَلَا تَرْجِعُ إِلَى أَهْلِ بَيْتِكَ فَتَقِيمَ أَمْرَهُمْ؟ قَالَ: وَأَيُّ أَهْلِ بَيْتِي؟ قَالَ: خَتْنَكَ وَابْنُ عَمَّكَ سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ، وَأَخْتَكَ فَاطِمَةَ بْنَتَ الْخَطَّابِ، فَقَدْ أَسْلَمَهَا وَكَابَاهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ عَلَى دِينِهِ، فَعَلَيْكَ بِهِمَا، فَرَجَعَ عُمَرُ عَامِدًا لِخَتْنَتِهِ وَأَخْتِهِ، وَعِنْدَهُمَا خَبَابُ بْنُ الْأَرَاتِ مَعَهُ صَحِيفَةٍ فِيهَا طَهَ يُقْرِئُهُمَا إِيَاهَا، فَلَمَّا سَمِعُوا حَسَنَ عُمَرَ تَعَيَّبَ خَبَابُ بْنُ الْأَرَاتِ فِي مَخْدِعِ لِعُمَرَ أَوْ فِي بَعْضِ الْبَيْتِ، وَأَخَذَتْ فَاطِمَةَ بْنَتَ الْخَطَّابِ الصَّحِيفَةَ فَجَعَلَتْهَا تَحْتَ فَخَذِهَا، وَقَدْ سَمِعَ عُمَرُ حِينَ دَنَا مِنَ الْبَيْتِ قِرَاءَتِهِ عَلَيْهِمَا، فَلَمَّا دَخَلَ قَالَ: مَا هَذِهِ الْهَيَّمَةُ الَّتِي سَمِعْتُهَا؟ قَالَا: مَا سَمِعْتَ شَيْئًا، قَالَ: بَلَى وَاللَّهِ لَقَدْ أُخْبِرْتُ عَمَّا تَابَعْتُمَا مُحَمَّدًا عَلَى دِينِهِ، وَبَطَشَ بِخَتْنَتِهِ سَعِيدَ بْنَ زَيْدٍ، وَقَامَتْ إِلَيْهِ فَاطِمَةُ أُخْتِهِ لَتَكْفُهُ عَنْ زَوْجِهَا، فَضَرَبَهَا فَشَجَّهَهَا، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ قَالَتْ لَهُ أُخْتُهُ وَخَتْنُهُ: نَعَمْ، قَدْ أَسْلَمْنَا وَآمَنَّا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَاصْنَعْ مَا بَدَا لَكَ وَلَمَّا رَأَى عُمَرُ مَا بَأْخَتِهِ مِنَ الدَّمِ نَدَمَ عَلَى مَا صَنَعَ فَارْعَوَى وَقَالَ لِأُخْتِهِ: أَعْطِنِي هَذِهِ الصَّحِيفَةَ الَّتِي سَمِعْتُكُمْ تُقْرَآنَ آنِفًا أَنْظُرْ مَا هَذَا الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ؟ وَكَانَ عُمَرُ كَاتِبًا، فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ قَالَتْ لَهُ أُخْتُهُ: إِنَّا نَخْشَأُ عَلَيْهَا، قَالَ: لَا تَخَافِي، وَحَلَفَ لَهَا

بِالْهَتِّهِ لَيُرِدُّهَا إِلَيْهَا إِذَا قَرَأَهَا، فَلَمَّا قَالَ لَهَا ذَلِكَ طَمَعَتْ فِي إِسْلَامِهِ، فَقَالَتْ لَهُ: يَا أَخِي، إِنَّكَ نَجَّسْ عَلَى شِرْكَكَ، وَإِنَّهُ لَا يَمْسُسْهَا إِلَّا الطَّاهِرُ، فَقَامَ عُمَرُ فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ أَعْطَهُ الصَّحِيفَةَ، وَفِيهَا طَهَ، فَقَرَأَهَا، فَلَمَّا قَرَأَ صَدِرَّا مِنْهَا قَالَ: مَا أَحْسَنَ هَذَا الْكَلَامُ وَأَكْرَمَهُ فَلَمَّا سَمِعَ خَبَابُ ذَلِكَ خَرَجَ إِلَيْهِ فَقَالَ لَهُ: يَا عُمَرُ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ اللَّهُ قَدْ حَصَّكَ بِدَعْوَةِ نَبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنِّي سَمِعْتُهُ وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ أَيْدِي إِلَيْسَلَامَ بِأَيِّ الْحَكْمِ بْنِ هِشَامٍ أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَابِ، فَاللَّهُ اللَّهُ يَا عُمَرُ، فَقَالَ لَهُ عِنْدَ ذَلِكَ: فَادْلُلْنِي عَلَيْهِ يَا خَبَابُ حَتَّى آتِيَهُ فَأُسْلِمَ، فَقَالَ لَهُ خَبَابُ: هُوَ فِي بَيْتٍ عِنْدَ الصَّفَا، مَعَهُ فَتَةٌ، يَعْنِي مِنْ أَصْحَابِهِ، فَأَخْذَ عُمَرُ سَيِّفَهُ فَتَوَشَّحَهُ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ فَضَرَبَ عَلَيْهِمُ الْبَابَ، فَرَأَاهُ مُتَوَشِّحًا السَّيْفَ، فَرَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ فَرِغُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَابِ مُتَوَشِّحًا السَّيْفَ، فَقَالَ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ: فَائِذْنَ لَهُ، فَإِنْ كَانَ يُرِيدُ خَيْرًا بَذَلِنَا لَهُ، وَإِنْ كَانَ يُرِيدُ شَرًا فَتَلْنَاهُ بِسَيِّفِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ائْذَنْ لَهُ، فَأَذَنَ لَهُ الرَّجُلُ وَنَهَضَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى لَقِيَهُ فِي الْحُجْرَةِ، فَأَخْذَ بِحُجْزَتِهِ أَوْ بِجُمْعِ رِدَائِهِ، ثُمَّ حَبَدَهُ حَبَدَةً شَدِيدَةً وَقَالَ: مَا حَاءَ بِكَ يَا ابْنَ الْخَطَابِ؟ وَاللَّهِ مَا أَرَى أَنْ تَنْتَهِيَ حَتَّى يُنْزِلَ اللَّهُ بِكَ قَارِعَةً، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَتُّكَ أَوْمَنْ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَبِمَا جَهْتَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، قَالَ: فَكَبَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَكْبِيرًا عَرَفَ أَهْلُ الْبَيْتِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ عُمَرَ قَدْ أَسْلَمَ، فَنَفَرَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مَكَانِهِمْ ذَلِكَ وَقَدْ عَزُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ حِينَ أَسْلَمُوا مَعَ إِسْلَامِ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَعَرَفُوا أَنَّهُمَا سَيْمَنْعَانِ رَسُولَ اللَّهِ، وَيَنْتَصِفُونَ بِهِمَا مِنْ عَدُوِّهِمْ .

الثامن والعشرون: ثق في نصر الله لدعوته فهو حافظها {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الْذِكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (٩) سورة الحجر،

وعَنْ خَبَابِ، قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظَلِّ الْكَعْبَةِ، فَقُلْنَا: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُونَا؟ فَقَالَ: قَدْ كَانَ مِنْ قَبْلِكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي

الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا فَيُؤْتَى بِالْمِنْشَارِ فَيُوَضِّعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُجْعَلُ بِنِصْفَيْنِ، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ فِيمَا دُونَ عَظْمَهُ وَلَحْمَهُ، فَمَا يَصْرُفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهُ لَيَتَمَّنَ هَذَا الْأَمْرُ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهُ وَالذِّئْبُ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ^{٢٠٤}.

وَلَا تَخْشَ عَلَيْهَا، بَلْ اخْشَ عَلَى نَفْسِكَ مِنْ أَلَاّ تَلْحُقَ بِرَبِّ أَصْحَابِ الدُّعَوَاتِ. فَالْدُّعَوَةُ إِنْ لَمْ تَكُنْ بِكَ فَبِغَيْرِكَ، وَأَنْتَ إِنْ لَمْ تَكُنْ بِأَصْحَابِ الدُّعَوَاتِ فَلَسْتَ بِغَيْرِهِمْ.



^{٢٠٤} - صحيح البخاري - المكتبة - (٣٦١٢) و صحيح ابن حبان - (١٥ / ٩١) (٦٦٩٨)

البحث التاسع عشر

قواعد في التصورات والأساليب والوسائل

١/ الدعوة إلى الله سبيل النجاة في الدنيا والآخرة :

- قص علينا القرآن الكريم قصة الأنبياء مع أقوامهم مؤكدا دائمًا على نجاة الدعوة وعلى هلاك الظالمين المعرضين: ففي قصة نوح - عليه السلام - مع قومه كانت النهاية: {فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلُكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفًا وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ } (٧٣) سورة يونس وفي قصة صالح - عليه السلام - مع قومه كانت النتيجة: {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمَنْ حِزْبِي يَوْمَئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ } (٦٦) سورة هود.

كل هذه الآيات تؤكد أن النجاة في الدعوة إلى الله، وهذا وعد الله - تعالى - للمؤمنين: {ثُمَّ نُسَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًا عَلَيْنَا نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ } (١٠٣) سورة يونس.

- ليس أمر الدعوة كما يظن بعض الناس أنها تعب وخسارة ونصب وألم، فإنهما وإن كانت لا تخلو من المتاعب والمصاعب لكنها لذيدة الطعم، عزيزة على القلب، ولذلك فإن أصحابها يضخون في سبيلها بالغالي والرخيص، ويستعدّون العذاب، ويجدون الموت حياة من أجلها. وهم أسعد بما من الناس بدوها. أما في العاقبة فهي الفوز وغيرها الفشل، وهي الباقية وغيرها الفاني .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شَرَارِ النَّاسِ^{٢٠٥} .
وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَى أَحَدٍ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا
اللَّهُ^{٢٠٦} .

^{٢٠٥} - صحيح مسلم- المكتبة - (٧٥٩٠) وصحيح ابن حبان - (١٥ / ٢٦٤) (٦٨٥٠)

^{٢٠٦} - صحيح مسلم- المكتبة - (٣٩٣) وصحيح ابن حبان - (١٥ / ٢٦٢) (٦٨٤٨)

وعن يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَيْبٍ، أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنَ بْنَ شَمَاسَةَ حَدَّثَهُ، أَنَّهُ كَانَ عِنْدَ مَسْلِمَةَ بْنِ مَخْلَدَ وَعِنْدَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرُو، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: لَا تَقُولُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شَرَارِ الْخَلْقِ، هُمْ شَرٌّ مِّنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، لَا يَدْعُونَ اللَّهَ بِشَيْءٍ إِلَّا رَدَهُ عَلَيْهِمْ، فَبَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ أَقْبَلُ عَقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ، فَقَالَ لَهُ مَسْلِمَةُ: يَا عَقْبَةُ، أَسْمَعْ مَا يَقُولُ عَبْدُ اللَّهِ، فَقَالَ عَقْبَةُ: هُوَ أَعْلَمُ، وَأَمَّا أَنَا فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: لَا تَرَالُ عَصَابَةً مِّنْ أُمَّتِي، يُقَاتِلُونَ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ قَاهِرِينَ لِعَدُوِّهِمْ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفُهُمْ حَتَّى تَأْتِيهِمُ السَّاعَةُ، وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ رِيحًا، رِيحُهَا رِيحُ الْمُسْكِ، وَمَسُّهَا مَسُّ الْخَرْزِ، فَلَا تَرُكُ نَفْسًا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِّنْ إِيمَانٍ إِلَّا قَبْضَتُهُ، ثُمَّ يَقِنُ شِرَارُ النَّاسِ، فَعَلَيْهِمْ تَقُولُ السَّاعَةُ ^{٢٠٧}.

وهذه الأحاديث تدل على أن قيام الساعة يقترن به ذهاب الدعوة والدعاة، أي أن الله - تعالى - يكرم الإنسانية بالدعوة والدعاة، وأنه ما دام الدعاة وما دامت الدعوة فإن الغاية من الخلق على هذه الأرض باقية، فإذا زال الدعاة والدعوة فقد خسر الإنسان مبرر وجوده على هذه الأرض .

- ليس المقصود بالنجاة نجاة الفرد من الأذى والألم، وإنما المقصود نجاة الجماعة وال فكرة في النهاية، وأما في الآخرة فإن صور النجاة نعيم مقيم، قال تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعْدَتْ لِلْمُتَّقِينَ} (١٣٣) سورة آل عمران وقال تعالى: {مَثُلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنَّهَا مِنْ مَاءِ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنَّهَا مِنْ لَبَنِ لَمْ يَتَعَيَّنْ طَعْمُهُ وَأَنَّهَا مِنْ خَمْرٍ لَذَّةُ الْلَّشَارِيَّنَ وَأَنَّهَا مِنْ عَسَلٍ مُصَفَّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الشَّمَرَاتِ وَمَعْفَرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَطُعَ أَمْعَاءُهُمْ} (١٥) سورة محمد

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ، يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، قَالَ: قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَعْدَدْتُ لِعَبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذْنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، وَمِصْدَاقُ ذَلِكَ

في كتاب الله: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرْةٍ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [السجدة: ٢٠٨].

٢/ لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم :

عن سهيل بن سعد، أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: لَأُعْطِيَنَّ الرَّأْيَةَ غَدًا رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهَ عَلَى يَدِيهِ، قَالَ: فَبَاتَ النَّاسُ لِيَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فَقَالَ: أَيْنَ عَلَيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟ قَالُوا: تَشْتُكِي عَيْنَاهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَأَرْسِلُوا إِلَيْهِ، فَلَمَّا حَاءَ بَصَقَ فِي عَيْنِيهِ وَدَعَاهُ، فَبَرَّا حَتَّى كَانَ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجْهٌ وَأَعْطَاهُ الرَّأْيَةَ، فَقَالَ عَلَيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَأَتَلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلًا؟ قَالَ: أَنْفَذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزَلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَحْبُبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمُرُ النَّعْمِ . ٢٠٩

وذلك لأن هدى الله هو المهدى، وأنه ليس بعد المهدى إلا الضلال، وعندما يوفق الله تعالى - داعية من دعوة الإسلام فيهـىـ له من يقبل دعوته فإن نتائج هذا القبول عظيمة جليلة، نذكر منها :

١- إن في ذلك استنقاداً لهذا المهدى من النار واستبدال مقام خالد في النار بمقام خالد في الجنة، قال تعالى: {لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِرُونَ} (٢٠) سورة الحشر، فالداعية يقدم الجنة هدية للناس من حوله ويدلهم على مقامات السعادة .

٢- إن كل حركة وسكنة يتحرـكـها المـهـدىـ، وكل تسبيحة أو تكـبـيرـةـ يـنـطـقـهاـ وكل رـكـعةـ وسـجـدةـ يـفـعـلـهاـ وكل إـحـسـانـ يـجـرـيـهـ اللهـ عـلـىـ يـدـيـهـ، فـإـنـماـ كـانـ الدـاعـيـ سـبـبـ كـلـ ذـلـكـ

٢٠٨ - صحيح البخاري- المكتـر - (٣٢٤٤) وصحيح مسلم- المكتـر - (٧٣١٠) وصحيح ابن حبان - (٢) (٣٦٩)(٩١)

٢٠٩ - صحيح البخاري- المكتـر - (٣٠٠٩) وصحيح مسلم- المكتـر - (٦٣٧٦) وصحيح ابن حبان - (١٥) (٣٧٧)(٦٩٣٢)

على رسلـكـ : تمـهـلـ وـلـاـ تعـجـلـ النـعـمـ : الإـبـلـ وـالـشـاءـ ، وـقـيلـ الإـبـلـ خـاصـةـ

وطريقه الدال عليه. وإن له مثل أجر فاعله. عن أبي مسعود الأنصاري، قال: أتى النبي ﷺ رجُلٌ، فقال: يا رسول الله، إني أبدع بي، فاحملني، فقال رسول الله ﷺ: ليس عندي فَقَالَ رَجُلٌ: أَنَا أَدْلُهُ عَلَى مَنْ يَحْمِلُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعله^{٢١٠}.

وباب الأجر هذا لا يغلق، وهو ينتمي يوما بعد يوم. وإن جهد أبي بكر الصديق وبلال وعمار، وخدبة وأسماء، وغيرهم وغيرهن - رضي الله عنهم أجمعين - إنما هو أساس في إقبال كل إنسان على الله - تعالى - إلى قيام الساعة. وإن جهد المصطفى - ﷺ - هو مبدأ كل جهد طيب بذله مسلم أو يبذله. ولرسول الله - ﷺ - بعد الله - تعالى - مئنة وأية مئنة في عنق كل مسلم.

ج- إن من يهتدي على يد الداعية يكون عونا للداعية على أداء رسالته، ويضم جهده إلى جهد الداعية. وهكذا فإن الدعوة لا تتكاثر إلا عن طريق الدعوة ولا تتقوى إلا بالعناصر الجديدة الرافدة.

د- إن المداية أسلوب من أساليب النصر المادي ولكنها يتحقق لا في معركة ذات حرج وقرح ولا عن طريق السيف والسهم وإنما عن طريق {إذْ أَذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلُهُمْ بِالْتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} (١٢٥) سورة النحل.

ه- إن من يهديه الله على يديك أيها الداعية إنما هو كلبنة فكّت من بناء الجاهلية ووضعت في بناء الإسلام، وسيكون هذا على حساب الكفر والضلال، وهو خسارة للشيطان وأعوانه، وكسب للرحمٰن وأنصاره.

٣/ الأجر يقع بمجرد الدعوة ولا يتوقف على الاستجابة :

وهذه القاعدة تعامل خطأ شائعا عند كثرين وهو أن الأجر يترتب على النتيجة الدنيوية الظاهرة. هذا نوح - عليه السلام - يدعو قومه ويمكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما

^{٢١٠} - صحيح مسلم - المكتتر - (٥٠٠٧) وصحيح ابن حبان - (٤ / ٥٥٤) (١٦٦٨).

قال أبو حاتم : قوله أبدع بي : يريد قطع بي عن الرُّكُوب ، لأن رواحلي كلت وَعَرَّحت.

ورغم هذا المكث الطويل فإنه لم يؤمن من قومه إلا قليل، وكذلك كان أمر أكثر الأنبياء فإنهم يحشرون يوم القيمة، ومع بعضهم الواحد والاثنان والثلاثة، وبعضهم لا يكون معه أحد من المؤمنين. فقد أخرج الترمذى عن ابن عباس قال لما أسرى بالنبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعل يمر بالنبى وَالنَّبِيَّنَ ومعهم القوم والنبي وَالنَّبِيَّنَ ومعهم الرهط والنبي وَالنَّبِيَّنَ وليس معهم أحد حتى مر سواد عظيم فقلت من هذا قيل موسى وقومه ولكن ارفع رأسك فانظر. قال فإذا سواد عظيم قد سد الأفق من ذا الجانب ومن ذا الجانب فقيل هؤلاء أمتك وسوى هؤلاء من أمتك سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب. فدخل ولم يسألوه ولم يُفسر لهم فقالوا نحن هم. وقال قائلون هم أبناءنا الذين ولدوا على الفطرة والإسلام. فخرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فقال «هم الذين لا يكتون ولا يستردون ولا يتظرون وعلى ربهم يتوكلون». فقام عكاشة بن محسن فقال أنا منهم يا رسول الله قال «نعم». ثم قام آخر فقال أنا منهم فقال «سبرك بها عكاشة» ^{٢١١}.

ولذلك فقد وجَّه الله تعالى - رسوله محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى هذا المعنى عندما أمره بالدعوة والتبلیغ ولم يطالبه بالنتیجة، فقال: {فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ..} (٤٨) سورة الشورى.

{فَإِنْ أَعْرَضُوا} {عما جتنهم به بعد البيان التام} {فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا} تحفظ أعمالهم وتسأل عنها، {إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ} فإذا أديت ما عليك، فقد وجب أحرك على الله، سواء استجابوا أم أعرضوا، وحساهم على الله الذي يحفظ عليهم صغير أعمالهم وكبیرها، وظاهرها وباطنها ^{٢١٢}.

ومن فقه هذه القاعدة فإنه لا يقع تحت الإحباط والضغوط النفسية الناشئة عن إعراض الناس وعدم استجابتهم للداعية. ولقد رفع الله تبارك وتعالى - الحرج عن نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ولم يكلفه إلا بما يستطيع فقال: {أَفَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَأَهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن

^{٢١١} - سنن الترمذى - المكتن - (٢٦٣٤) قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح.

^{٢١٢} - تفسير السعدي - (١ / ٧٦١)

يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذَهَّبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾
سورة فاطر.

و كذلك رفع هذا الحرج عن الدعاة من أمة محمد - ﷺ - إن لم يهتد الناس ويستحيوا لهم بعد استنفاد غاية الجهد معهم ؟ لأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها .

وفي هذه القاعدة علاج لأولئك المتعجلين من الدعاة الذين يتظرون النتائج الدنيوية الظاهرة و يجعلونها شرطا للمواصلة والسير في طريق الدعوة. وهذا التلازم إنما هو سوء فهم من جهة، ومخالفة صريحة لقواعد الدعوة في القرآن والسنّة من جهة أخرى .

ولا يعني هذا أن الداعية غير مطالب ببذل قصارى جهده، واستخدام أحسن ما يستطيع من الأساليب والوسائل، وهذا ما سذكره في قاعدة البلاع التالية .

٤/ على الداعية أن يصل إلى رتبة المبلغ وأن يسعى إلى البلاع :

- ليس أمر الدعوة إلى الله بأقل من أمر الدعوة أو الدعاية إلى سلعة دنيوية. ونحن على يقين من أن صاحب البصاعة يستخدم أقوى الوسائل وأوسعها انتشارا من أجل إيصال الجمورو إلى درجة القناعة ببصاعته، ونراه في سبيل ذلك يستخدم الكلمة والصورة والمدية وغير ذلك من الوسائل .

وقد جعل الله - تعالى - مهمة رسالته وأنبئائه البلاع، ووصف البلاع بأنه المبين فقال: ﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمُّمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (١٨) سورة العنكبوت

- ولا معدرة للداعية إذا قصر في البلاع ولقد نبه الله - تبارك وتعالى - نبيه محمد - ﷺ - إلى مثل هذا قائلا: " {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلَغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} " (٦٧) سورة المائدة.

يا أيها الرسول بلغ وحي الله الذي أنزل إليك من ربك، وإن قصرت في البلاع فكتّمت منه شيئاً، فإنك لم تبلغ رسالة ربك، وقد بلغ ﷺ رسالة ربها كاملا، فمن زعم أنه كتم شيئاً مما أنزل عليه، فقد أعظم على الله ورسوله الفريدة. والله تعالى حافظك وناصرك على

أعدائك، فليس عليك إلا البلاغ. إن الله لا يوفق للرشد من حاد عن سبيل الحق، وحمد ما جئت به من عند الله.

وليس المقصود بالبلاغ مجرد الإخبار أو الإعلان، إنما المراد أن تصل رسالته للناس.

- ومن مقتضيات البلاغ أن يعي الداعية ما يبلغه، لأنه لا تبلغه بلاوعي، ومن مقتضيات البلاغ البلاغة والبلاغة في تفسير قوله - تعالى - : {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعَظِّمُهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا} (٦٣) سورة النساء، أن يكون كلاما حسنا حسن الألفاظ حسن المعاني مشتملا على الترغيب والثواب والعقاب. ولن يستبلاغة في صعوبة الألفاظ والأساليب، والبحث عن وحشى الكلام وغريبه.

- ولقد جاء القرآن بتأكيد الفصاحة وسلامة النطق عندما قال الله - تعالى - على لسان موسى - عليه السلام - : {وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي} (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي } (٢٨) سورة طه

فقد علم موسى - عليه السلام - أن سلامة النطق وفصاحته من أسباب البلاغ وإقامة الحجة .

ويستفاد من هذه القاعدة أن على الداعية أن يُعَوِّد نفسه على النطق الصحيح وإذا كانت في لسانه عقدة فليستعن بمن يفصح عنه، ويساعده في مهمته، وذلك كي يصل بدعوته إلى درجة البلاغ والبيان .

- وما يساعد الداعية على البيان والبلاغ وجود إخوانه معه إلى جانبه، فإن وجودهم يشد من عضده ويلقي في روعه الطمأنينة من جهة، ومن جهة أخرى فإن وقع ذلك على المدعوين كبير. إذ عندما يرى المدعوون أن الداعية ليس وحيدا وأن معه أنصارا وأعوانا فإنهم يلاحظون أثر الدعوة في الناس، ويحملهم هذا على إمعان الفكر في هذه الدعوة .

- ولكي يصل الداعية إلى درجة البلاغ فعليه أن يستعمل الوسائل الكاشفة عن مراده والمقربة لدعوته، وهذا ما يعرف بوسائل الإيضاح، والوسائل المعينة. وعلى الداعية أن

يُخاطب الناس بالصورة والفيلم والخريطة والرسم البياني والمقطع التوضيحي والرحلة المادفة والقصة والمثل والقصيدة ومخالقات الله - تعالى - وعجب صنعه .

- وللوصول إلى رتبة البلاع فإنه لابد من تقليل الأساليب وتنوعها فما لا يصل بالجهر قد يصل بالسر، وما لا يصل في الليل قد يصل في النهار، وما لا يستقر في القلوب مع انشغالها قد يستقر فيها عند فراغها، وما لا يؤثر في الصحيح قد يؤثر في المريض. وفي سورة نوح تطبيق كامل لهذا المبدأ ولهذه القاعدة .

- وللوصول إلى رتبة البلاع فإن على الداعية أن يخاطب المدعوين باللين لا بالغلظة والشدة. واللين تلطف بالمدعو ورفق به وتخير لأحب الأسماء إليه وأقرب الأساليب إلى قلبه. وليس اللين في التساهل في أحكام الشرع ولا في محاارة أهل الباطل على باطلهم ولا في السكوت على المنكرات، فإن المؤمن على كل حال لا يخشى إلا الله ولا يرجو إلا ثوابه. {الَّذِينَ يُلْعِنُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهُ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا} (٣٩) سورة الأحزاب

والدعاة إلى الله يتغدون بإصال الحق والمهدى إلى قلوب الخلق وليسوا في حلبة مصارعة يتغدون الظفر على خصومهم، ويريدون إثبات تفوقهم في الحجة والدليل. وينذهب الرازى إلى أن الدعوة بالحكمة والوعظة الحسنة هي التي تؤدي إلى كسب الأنصار، بينما تبقى المجادلة والتي هي أحسن لإقامة الحجة على الخصوم .

٥/ على الداعية أن يقدم الجهد البشري وهو يطلب المدد الرباني :

شاء الله - تبارك وتعالى - أن تعمر هذه الدعوة بالوسائل البشرية. والداعية الحق هو الذي يستطيع أن يوظف عالم الأسباب من أجل دعوته .
وفي قوله - تعالى - : {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ..} (٢٨٦) سورة البقرة، بيان شاف لهذا المبدأ .

والناس اليوم يفهمون هذه الآية على أن الوسع هو أدنى ما يستطيعه المرء، فإن هذا الوسع متقلب متغير حسب الدوافع. ونحن لا ننسى أن الناس متفاوتون في أصل المقدرة والجهد وأن مساحات نفوسهم متفاوتة كذلك، ولكن المطلوب أن تصل هذه النفوس إلى أكبر

عطاء لها وأن يكون جهدها متزايداً متتصاعداً كل يوم، وإنْ قدراً كبيراً من طاقة العاملين والدعاة محكوم عليها بالهدر والضياع إن لم تستغل في سبيل الحق والدعوة. وإن كثرة العاملين الذين يقدمون بعض ما يستطيعون ويعيرون السير وتزدحم هم الطرق تماماً كالعربات التي تملأ الطريق في الوقت الذي لا تحمل من وسعها سوى الشيء القليل.

الصحابة يلتزمون بمعيار الوعظ :

وعندما نقرأ سير الأولين من الأصحاب - رضوان الله عليهم - نرى أن أكثرهم قد مات خارج بلده. فهذا (أبو أيوب الأنصاري) - رضي الله عنه - يرقد عند أسوار القدسية وهذه (أم حرام بنت ملحان) - رضي الله عنها - ترقد في جزيرة قبرص، وهذا (عقبة بن عامر) - رضي الله عنه - يرقد في مصر، وهذا (بلال) - رضي الله عنه - يرقد في دمشق .

وهذا خير دليل أن الاستطاعة فيها جانب إرادي نفسي يدفع إليها ويعمل على تحقيقها بإذن الله تعالى -، وإذا انعدم هذا الجانب فإن المرء يصاب بالعجز. ومن هنا فإن النبي - ﷺ - علمنا بأن ندعوه الله قائلين: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَضَلَالِ الدِّينِ، وَعَلَيْهِ الرِّجَالُ» ^{٢١٣} ..

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، فاحرص على ما تنتفع به، واستعن بالله ولا تعجز، فإن أصابك شيء فلا تقل: لو أتي فقلت كذا وكذا ولكن: قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن الله تفتح عَمَلَ الشَّيْطَانِ ^{٢١٤} ..

٦/ الداعية مرآة دعوته والمودج المغير عنها: (لا ينفصل الداعي عن دعوته) :

- الاقتران بين الداعية والدعوة قائم في أذهان الناس، والداعية نفسه شهادة للدعوة، وهذه الشهادة قد تحمل الناس على قبول الدعوة، وقد تحملهم على ردها ورفضها. وعندما يكون الداعية بعيداً عن الالتزام بواجبات الإسلام وتكليفه فإنه يكون فتنة للناس يصرفهم

^{٢١٣} - صحيح البخاري- المكتبة - (٦٣٦٩)

^{٢١٤} - صحيح مسلم- المكتبة - (٦٩٤٥) وصحيح ابن حبان - (٢٩ / ١٣) (٥٧٢٢)

بسلاوكه عن دين الله ويقطع الطريق عليهم . وقد كان أصحاب الرسول - ﷺ - نماذج صادقة معبرة عن دعوتهم وإسلامهم . وعندما رأى سكان البلاد المفتوحة صدق هؤلاء الأصحاب وثبّاتهم على عقيدتهم وتمثّلهم لمنهج دينهم أقبلوا على الإسلام .

- والداعية قد يكون معروفاً عند الناس وقد يكون مجهولاً . فإذا شرع في الدعوة وكان معروفاً بالاستقامة والورع فإن كلامه يصل بمحامع القلوب وكانت استقامته وورعه مقدمة القبول والحافز عليه . وإذا كان الداعية فقيراً في التزامه واتباعه فإن كلامه يبرُّ من فوق الرؤوس كالسهم الطائش الذي لا يصيب الهدف .

- وحياة الداعية العامة والخاصة موضع الملاحظة ، وعين الناس عليه كالجهر المكير ، وقبل أن يطالب الناس بترك الغيبة فعليه أن يدفع الغيبة والتهمة عن نفسه وأن يصون حياته الخاصة وال العامة عن كل ما يشينها .

قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتُنَا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) } [الصف: ٢ - ٣]

قال الشاعر :

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُعَلِّمُ غَيْرَهُ... هَلَّا لِنَفْسِكَ كَانَ ذَا التَّعْلِيمِ
تَصِفُ الدَّوَاءَ مِنِ السَّقَمِ لِذِي الضَّيْنِ. كَيْمَا يَصْحَّ بِهِ وَأَنْتَ سَقِيمُ
وَأَرَاكَ ثُلْقِحُ بِالرَّشَادِ عُقُولَنَا... ثُصْحَّا وَأَنْتَ مِنِ الرَّشَادِ عَدِيمُ
فَابدأ بِنَفْسِكَ فَانْهَا عَنْ غَيْهَا... إِنْتَ هُنْهَى حَكِيمٌ
فَهُنَاكَ يَقْبِلُ مَا تَقُولُ وَيَهْتَدِي... بِالْقَوْلِ مِنْكَ وَيَنْفَعُ التَّعْلِيمُ
لَا تَنْهِ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلَه... عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمَ

٧/ خاطبوا الناس على قدر عقوتهم :

الدعوة إلى الله تقوم على الحكمة والوعظة الحسنة ، وظهور الحكمة في معرفة المناسب من الدعوة لكل فئة من الناس . والداعية الحكيم لا يقول كل ما يعرف لكل من يعرف ، وهو يتعامل مع العقول حسب مقدراتها لا حسب مقدراته ، ولا يحملها فوق طاقتها .

والناس أمام هذا الأصل أصناف :

الصنف الأول: العوام غير المتعلمين، والتعامل معهم ودعوهم في غاية الصعوبة. وحالم
كحال المبتديء في تعلم القراءة والكتابة، وكل صعوبة أو تعقيد قد يصرفهم عن الدعوة .
الصنف الثاني: المتعلمون من خريجي الجامعات ومن في مستوىهم في التقدم المعرفي، وهؤلاء
يبحثون عن التحاليل والاستنتاجات والمعنيات ودلائل الإعجاز، وعند مخاطبتهم فإنه لابد
من مراعاة مزاراتهم العلمية .

الصنف الثالث: أصحاب التخصصات العلمية: إذ لكل تخصص مصطلحاته ووسائله، ومن
يعرف على هذا المناخ فإنه أقدر على توجيهه ولفت نظر أصحابه إلى دلائل مما بين
أيديهم. فالداعية بين المحامين يحتاج إلى معرفة شيء عن القوانين والصالح والطالع منها. وأما
بين الأطباء فهو بحاجة إلى معرفة بعض الجوانب التي توقف الطبيب على عظمة الله -
تعالى - وقدرته في خلق الإنسان ووظائف أعضائه .

٨/ الابتلاء سنة الله - تعالى - وهو السبيل إلى تمثيل الدعوة وصياغة النفس وفق

العقيدة :

- كلما كان العمل شاقاً ودقيقاً ومعقداً احتاج المرء إلى بذل جهد أكبر في الإعداد
والتدريب لكي يكون على مستوى ذلك العمل. والعمل لدين الله - تعالى - مستمر
ومتنوع وفسيح. ومهنته لا تقف عند حدود أشكال معينة، بل تتعدى الشكل إلى
المضمون والمحظى. ومسؤولية العامل تزداد يوماً بعد يوم .

قال تعالى: {لَتُبَلَّوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أَوْثَوْا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ
وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذْيَ كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوْ وَتَتَقَوَّ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأَمْوَارِ} (١٨٦)

سورة آل عمران

إنها سنة العقائد والدعوات. لا بد من بلاء، ولا بد من أذى في الأموال والأنفس، ولا بد
من صبر ومقاومة واعتزام .

إنه الطريق إلى الجنة. وقد حفت الجنة بالمكاره. بينما حفت النار بالشهوات.

ثم إنه هو الطريق الذي لا طريق غيره، لإنشاء الجماعة التي تحمل هذه الدعوة، وتنهض بتكاليفها. طريق التربية لهذه الجماعة وإخراج مكوناتها من الخير والقوة والاحتمال. وهو طريق المزاولة العملية للتکاليف والمعرفة الواقعية لحقيقة الناس وحقيقة الحياة.

ذلك ليثبت على هذه الدعوة أصلب أصحابها عودا. فهو لاء هم الذين يصلحون لحملها إذن والصبر عليها.. فهم عليها مؤمنون.

وذلك لكي تعز هذه الدعوة عليهم وتغلو، بقدر ما يصيّهم في سبيلها من عنّت وبلاء، وبقدر ما يضخّمون في سبيلها من عزّيز وغال. فلا يفرطوا فيها بعد ذلك، مهما تكن الأحوال.

وذلك لكي يصلب عود الدعوة والدعاة. فالمقاومة هي التي تستثير القوى الكامنة، وتنميها وتجمعها وتوجهها.

والدعوة الجديدة في حاجة إلى استشارة هذه القوى، لتأصل جذورها وتعمق وتنصل بالترابة الخصبة الغنية في أعماق الفطرة ..

وذلك لكي يعرف أصحاب الدعوة حقيقتهم هم أنفسهم وهم يزاولون الحياة والجهاد مزاولة عملية واقعية. ويعرّفوا حقيقة النفس البشرية وخيالها. وحقيقة الجماعات والمجتمعات. وهم يرون كيف تصرّع مبادئ دعوهم، مع الشهوات في أنفسهم وفي أنفس الناس. ويعرّفون مداخل الشيطان إلى هذه النّفوس، ومزالق الطريق، ومسارب الضلال! ثم لكي يشعر المعارضون لها في النهاية أنه لا بد فيها من خير، ولا بد فيها من سر، يجعل أصحابها يلاقون في سبيلها ما يلاقون وهم صامدون .. فعندئذ قد ينقلب المعارضون لها إليها .. أفواجا .. في نهاية المطاف! إنما سنة الدعوات. وما يصيّر على ما فيها من مشقة ويحافظ في ثنایا الصراع المرير على تقوی اللہ، فلا يشط فيعتدي وهو يرد الاعتداء ولا يیأس من رحمة اللہ ويقطع أمله في نصره وهو يعاني الشدائـد .. ما يصيّر على ذلك كله إلا أولو العزم الأقوياء: «وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ» ..

وهكذا علمت الجماعة المسلمة في المدينة ما يتّظرها من تضحيات وآلام. وما يتّظرها من أذى وبلاء في الأنفس والأموال. من أهل الكتاب من حولها. ومن المشرّكين أعدائهم

..ولكنها سارت في الطريق. لم تتخاذه، ولم تتراءع، ولم تنكس على أعقابها ..لقد كانت تستيقن أن كل نفس ذاتة الموت. وأن توفية الأجور يوم القيمة. وأنه من زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز. وأن الحياة الدنيا ما هي إلا متاع الغرور ..على هذه الأرض الصلبة المكسوفة كانت تقف وفي هذا الطريق القاصد الواصل كانت تخطو ..والأرض الصلبة المكسوفة باقية لأصحاب هذه الدعوة في كل زمان. والطريق القاصد الواصل مفتوح يراه كل إنسان. وأعداء هذه الدعوة هم أعداؤها، تتوالى القرون والأجيال وهم ماضون في الكيد لها من وراء القرون والأجيال ..والقرآن هو القرآن ..

وتحتفل وسائل الابتلاء والفتنة باختلاف الزمان وتحتفل وسائل الدعاية ضد الجماعة المسلمة، ووسائل إيداعها في سمعتها وفي مقوماتها وفي أعراضها وفي أهدافها وأغراضها ..ولكن القاعدة واحدة: «**تُبَلَّوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنِ الَّذِينَ أَوْثَوْا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنِ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذْيَ كَثِيرًا**»! ولقد حفلت السورة بصور من مكاييد أهل الكتاب والشركين وصور من دعائهم للليلة والتشكيك.

أحياناً في أصول الدعوة وحقيقةها، وأحياناً في أصحابها وقادتها. وهذه الصور تتجدد مع الزمان. وتتنوع بابداع وسائل الدعاية الجديدة، وتوجه كلها إلى الإسلام في أصوله الاعتقادية، وإلى الجماعة المسلمة والقيادة الإسلامية. فلا تخرج على هذه القاعدة التي كشف الله عنها للجماعة المسلمة الأولى، وهو يكشف لها عن طبيعة الطريق، وطبيعة الأعداء الراصدين لها في الطريق ..

ويقى هذا التوجيه القرآني رصيداً للجماعة المسلمة كلما همت أن تتحرك بهذه العقيدة، وأن تحاول تحقيق منهج الله في الأرض فتجمعت عليها وسائل الكيد والفتنة، ووسائل الدعاية الحديثة، لتشويه أهدافها، وتزويق أوصالها ..ويقى هذا التوجيه القرآني حاضراً يجلو لأبصارها طبيعة هذه الدعوة، وطبيعة طريقها. وطبيعة أعدائها الراصدين لها في الطريق. ويبيث في قلبها الطمأنينة لكل ما تلقاه من وعد الله ذاك فتعرف حين تتناولها الذئاب بالأذى، وحين تعوي حولها بالدعائية، وحين يصييها الابتلاء والفتنة .. أنها سائرة في الطريق، وأنها ترى معالم الطريق! ومن ثم تستبشر بالابتلاء والأذى والفتنة والادعاء

الباطل عليها وإيمانها ما يكره وما يؤذى .. تستبشر بهذا كله، لأنها تستيقن منه أنها ماضية في الطريق التي وصفها الله لها من قبل. وتستيقن أن الصبر والتفوي هما زاد الطريق. ويطرد عندها الكيد والبلبلة ويصغر عندها الابتلاء والأذى وتمضي في طريقها الموعود، إلى الأمل المنشود .. في صبر وفي تقوى .. وفي عزم أكيد^{٢١٥} ..

ومن خلال الآيات الكريمة والأحاديث النبوية فإننا نتبين وظائف الابتلاء ونتائجها التالية:

أ/ عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: مَثُلُ الْمُؤْمِنِ مَثُلُ الزَّرْعِ لَا تَرَأْلُ الرِّيحَ ثُمَّ يُمْلِهُ، وَلَا يَرَأْلُ الْمُؤْمِنُ يُصِيبُهُ بَلَاءً، وَمَثُلُ الْكَافِرِ كَمَثَلِ شَجَرَةِ الْأَرْزِ لَا تَهْتَرُ حَتَّى تَسْتَحْصِدَ^{٢١٦}.

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - رضي الله عنه - قال: «مَثُلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ خَامَةِ الزَّرْعِ، يَفِي عَوْرَقِهِ مِنْ حَيْثُ أَتَهَا الرِّيحُ تُكْفِهَا، فَإِذَا سَكَنَتْ اعْتَدَلَتْ، وَكَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ يُكَفَّأُ بِالْبَلَاءِ، وَمَثُلُ الْكَافِرِ كَمَثَلِ الْأَرْزَةِ صَمَاءً مُعْتَدَلَةً حَتَّى يَقْصِمَهَا اللَّهُ إِذَا شَاءَ»^{٢١٧}.

خاتمة: الخامات من النبات: الغضة الرطبة اللينة.

تفعيها: أي تميلها كذا وكذا، حتى ترجع من جانب إلى جانب.

كالأرز: بفتح الراء: شجرة الأرز، وهو خشب معروف، وبسكونها: شجرة الصنوبر، والصنوبر: ثرها.

يقصمها: القضم: الكسر، يقال: قصمت الشيء قصماً: كسرته حتى يبين وينفصل.

تستحصد: الاستحصاد: التهيء للحصد، وهو القطع.

صماء: الصماء المكتزة التي لا تخلخل فيها^{٢١٨}.

وهذا الحديث يكشف عن وظيفة الابتلاء البنائية بالنسبة للجماعة المسلمة، فإن تعرض الزرع للحركة الدائمة يكسبه قدرة على الثبات أمام الأعاصير، في حين أن الأرزة التي لا

^{٢١٥} - في ظلال القرآن — موافقاً للمطبوع - (٥٣٩ / ١)

^{٢١٦} - مصنف ابن أبي شيبة - (١١ / ٢٠) (٣٠٩٨١) وصحيحة مسلم - المكتبة - (٧٢٧٠)

^{٢١٧} - صحيح البخاري - المكتبة - (٧٤٦٦)

^{٢١٨} - جامع الأصول في أحاديث الرسول - (١ / ٢٧٢)

تحرّكها الرياح العادمة فإنّها تتحطم وكذلك الدعاة فإن لدّيهم قوّة احتمال على مواجهة الصعاب لكتّة إجراء الابتلاء عليهم .

ب/ الابتلاء يعمل على اصطفاء العناصر القوية الصالحة .

ج/ الابتلاء يكشف عن صدق الصادقين وحقيقة انتسابهم للإيمان .

د/ الابتلاء يربط بين المؤمنين بعضهم ببعض برباط عقلي وعاطفي .

هـ/ الابتلاء يقدم الدليل القوي على جدارة الدعوة .

و/ إذا علم المؤمن أنه سيتّلى فإنه يكون دائماً على حذر وخوف من الله وهذا يدعوه إلى إحسان العمل والحرص على توافر شروط النصر، وبعد عن أسباب الهزيمة من المعصية والعجز والتواكل .

ز/ الابتلاء يحقق الإخلاص في نفس المؤمن ^{٢١٩} .

٩/ مجال الدعوة واسع فليتخيّر الداعية لدعوته :

أ/ فليبدأ بالقريب قبل البعيد، وهؤلاء الأقربون معروفون عند الداعية، ولا يحتاج إلى جمع المعلومات عنهم، وهم يعرفونه ولا داعي لكتّير من المقدمات، وهم يعتبون عليه إذا أهملهم وذهب إلى الأبعدين، وهو يعيش بينهم، فهم العين الساهرة في الخير والشر .

ب/ ولابد بالصغر قبل الكبير ، وذلك لأن الصغير لم يصلب عوده على فكر معين أو سلوك معين والتعامل معه أسهل من التعامل مع الكبير الذي اختار طريقه.ولا يعني هذا إهمال الكبار وإنما يعني الاهتمام أكثر بالصغر، والناشئة هم مستقبل الأمة .

ج/ ولابد بالتواضع قبل المتكبر، لأن التواضع يدل على إمكان قبول الحق، في حين أن التكبر يدل على سفه الحق وغمط الناس .

د/ ولابد بالشفف قبل الأمي .

^{٢١٩} - انظر كتابي ((الخلاصة في فقه الابتلاء))

هـ/ ولبيداً بغير المنتمي قبل المنتمي، لأن غير المنتمي يقع في مركز وسط بين المذاهب والجمعيات، وأما المنتمي فقد انتقل من المركز إلى الطرف الآخر، والجهد المطلوب لنقله إلى مركز التأثير أضعف الجهد المطلوب لغير المنتمي .

و/ ولبيداً بزميله في العمل أو المهنة قبل غيره لأن أفراد كل مهنة بينهم تعاون تلقائي. و مجالات الحديث بينهم مهيبة، و نقاط الاشتراك كثيرة .

ز/ والمفروض أن يراعي التخير وفقاً للمرحلة التي تمر فيها الدعوة، وفي كل مرحلة تراعي مقتضياتها ويكون التخير وفق هذه المقتضيات. وقد نفهم ما جاء عن ابن عمر، أنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: اللَّهُمَّ أَعِزَّ إِسْلَامَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ بِأَبِي حَمْلٍ، أَوْ بِعُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، فَكَانَ أَحَبُّهُمَا إِلَى اللَّهِ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ^{٢٢٠}. على ضوء المرحلة التي كانت تمر فيها الدعوة في مكة. فقد انتشرت الدعوة بين الضعفاء والفقراة ووصلت مرحلة ت يريد أن تعلن فيها عن نفسها، وشخصية كشخصية عمر تناسب المرحلة الجديدة. وهذا ما حدث يوم أن دخل عمر - رضي الله عنه - في دين الله، فعن قيس بن أبي حازم، قال: سمعت عبد الله بن مسعود يقول: ما زلنا أعرةً مُنذَّ أسلم عمر^{٢٢١}.

فقد دخلت الدعوة طوراً جديداً هو طور العلن بعد السرّ... وهكذا فإن توجيه الدعوة إلى بعض مراكز القوة في المجتمع يسهم في الإسراع في عملية التغيير وقد يغير كثيراً في المعادلة لصالح الدعوة .

١٠ / الزمن عنصر فعال من عناصر الدعوة :

أ/ أول ما يجب أن نعلمه أن الواقع الذي نتعامل معه واقع غير إسلامي، وأنه تشكل بفعل عوامل كثيرة، معظمها نشأ بفعل مؤثرات مادية إلحادية أو فاسدة، وقد سيطر هذا الواقع على أفراد المجتمع .

^{٢٢٠} - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٤٤٤ / ٢) (٥٦٩٦) صحيح

^{٢٢١} - صحيح البخاري- المكتـ - (٣٦٨٤) و صحيح ابن حبان - (٣٠٤ / ١٥) (٦٨٨٠)

ب/ إن أية كلمة يقولها الداعية لا تذهب هباء منثورا، وإنما تدخل في مكونات المدعو، ويختزليها عقله وتترافق مع خبراته الحيرة، وقد يظهر أثر كلمة قيلت قبل سنوات بفعل موقف محرك أدى إلى استرجاع تلك الخبرة .

ج/ وإن اختيار زمن الدعوة أمر في غاية الأهمية، وهناك أوقات يخلو المرء فيها مع نفسه، ولا يكون مستعدا فيها لقبول الأفكار. وإن الدعوة تتأثر بالجو العام والظروف الذي يمر فيه الداعية والمدعو، وهذا فإن على الداعية أن يختار أنساب الأوقات التي لا إخراج فيها ولا مشقة .

د/ ولا ينبغي أن يطيل الداعية على المدعو، لأنه قد يضجر ويل .

هـ/ لا بد من الانتباه إلى أن الاستعجال على المدعو قد يؤدي إلى نتيجة سيئة .

و/ وإن إدخال الزمن كعنصر من عناصر الدعوة يخفف من حدة الدعوة، ويقف أمام اليأس الذي يعتري الدعوة أحياناً، ويفتح لهم باب الأمل، وذلك عندما يفهون دور الزمن . وإن الطبيب لا يقول للمريض: خذ العلاج جرعة واحدة، ولكن يقول له: خذه على جرعات وفي خلال مدة معينة من الزمن .

١١/ الدعوة فن وقيادة وهي تقوم على التخطيط والمتابعة :

- يظن كثير من الدعاة أن الدعوة تقوم على قول الكلمة الحية في أي وقت وفي أي مكان، وأنها تسير بطريق عشوائي يستوي فيه الدعوة على اختلاف إمكانياتهم .

- التخطيط الوعي هو الذي ينقل الدعوة إلى الإطار الفني المنتج، والتخطيط هو التصور النظري لسير الدعوة، وكلما طال التخطيط واستوعب عناصره أدى إلى النتيجة المتوقعة بعون الله - تعالى - وبعد الاتكال عليه. إن على الدعاة أن يتوجهوا نحو التخطيط للدعوة، والخطة الوعية رأسها الأهداف، وجسمها الوسائل، والربط بين الأهداف والوسائل عن طريق الأساليب، ومادتها الإمكانيات البشرية والمادية والمعنوية، ووجهها المتابعة والتقييم، وثمراتها ظهور الأهداف على شكل نتائج ملموسة .

- هنالك نوعان من الأهداف :

الأول: الهدف الأكبر، الذي هو الشمرة الرئيسية .

الثاني: الأهداف المرتبطة بأزمنة محدودة أو أمكنة معينة أو أفراد معينين أو تسعى لتحقيق الوسائل وتوفيرها .

وأما الوسائل فمنها المباشر ومنها غير المباشر، ولكل هدف جزئي وسائله الخاصة. والوسائل الخاصة تستخدم بأشكال مختلفة وأساليب عده، والأسلوب الأفضل يعطي من الوسيلة كفاءة أكبر و اختيار الأسلوب المناسب عامل كبير في نجاح العمل .

جمع المعلومات أساس الخطة :

ولما كانت الخطة تصورا عن عمل في مكان خاص و زمان محدود، وأناس محدودين كان لابد من جمع المعلومات عن البيئة سواء كانت اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية أو مناخية أو طبيعية أو فكرية، ولا بد من معرفة مراكز القوة والضعف. ولا بد من التعرف على العوائق والحوافز، وبذلك تكون الدعوة إلى الله على بصيرة: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (١٠٨) سورة يوسف.

الزمن عنصر فعال في الخطة :

والزمن عنصر فعال في الخطة يدل على مدى النجاح أو الفشل، مما يحتاج إلى يوم واحد لا ينبغي أن يصرف فيه شهر، وما يحتاج شهرا من الزمن لا ينبغي الإسراع في إنجازه في يوم أو أسبوع .

والمراجعة والتقييم بعد انتهاء مدة الخطة تساعد على معرفة الممكن من غير الممكن، والسهل من الصعب والمراجعة تقدم هدفا أو تؤخره وتحكم على فعالية الوسائل أو عدم فعاليتها، وتكشف عن جدوى الأساليب أو عدم جدواها .

العين الساهرة (المتابعة) :

المتابعة: عين ساهرة وأذن صاغية ويد مؤيدة، والخطة القوية قد تفشل بلا متابعة والخطة الضعيفة قد تنجح مع المتابعة المستمرة. والداعية الناجح صاحب مبادرة وبديهية حاضرة وقدرة على التصرف في أسوأ الظروف، وقبل أن يفاجأ بالمواقف الصعبة فإنه يفترضها، ويتصورها، ويلتمس لها الحلول، وهكذا فإنه يستعين بال موقف الوهمي الذي افترضه سابقا على الموقف المفاجئ .

١٢ / الدعوة صورة أكيدة من صور الجهاد ومقدمة على القتال :

- لم تعد كلمة الجهاد تعطي المدلولات التي فهمها الصحابة والتابعون، والتي جاء بها القرآن الكريم والسنّة الشريفة، إذ أنها تعني في عرف بعض الدعاة القتال ! وأنه لا جهاد بدون قتال ! ونتيجة لهذا الفهم فقد ظهر في العالم الإسلامي أناس ي يريدون القتال ولو لم

يحن وقته و تستكمل عدته، شعوراً منهم بأن الإثم يطاردهم وهم لا يقاتلون !

إن الجهاد استفراغ الوسع في محاربة الأعداء في الداخل والخارج، وليس المدف منه هو القضاء على العدو، وإنما هو القضاء على أسباب العداوة والخصومة، فالكفر سبب العداوة بين المؤمن والكافر، والنفاق سبب العداوة بين المؤمن والمنافق. ونرى أن الدعوة مقدمة على غيرها، وهي الوسيلة الأولى لكسب الأنصار وتحويل الكفار إلى مؤمنين .

- الدعوة إلى الله بالحكمة والوعظة الحسنة تجذب كل يوم أنصاراً للإسلام. وكلما أقبل فرد على هذه الدعوة سقط مكوّن من مكوّنات الجاهلية، وهكذا فإن الجاهلية في مكة كان لها كل يوم حديث عن تحول رجل أو امرأة من ساحة الشرك إلى ساحة الإيمان، ومن جند الشيطان إلى جند الرحمن .

- إن الغزو والفكري الذي داهم بلاد المسلمين قد استحوذ على جمهورة كبيرة من أبنائهما، وسقط هؤلاء الأبناء صرعي في معركة فكرية كانت في غيبة الدعوة غير متكافئة. وما خسرناه عن طريق الفكر أكثر مما خسرناه عن طريق معارك المواجهة وما نستردّه عن طريق الفكر بعد هذه الصحوة واليقظة أكثر مما نستردّه عن طريق المواجهة .

- إن الفرار من المجتمع أو العزلة عنه أسلوب يدلُّ على ضيق الأفق ويكشف عن جهل بأوليات الدعوة، ويدلُّ أيضاً على اليأس من المجتمع، وعلى فشل الداعية في الإصلاح، وإن أعداء الفكرة الإسلامية يطمعون في إيصال الداعية إلى مثل هذه القناعات، وإن خطر هذه الأفكار أعظم على الدعوة من خطر أعدائها !

والمقصود بالعزلة هنا المادية وترك الدعوة إلى الله تعالى، أما العزلة الشعورية فواجهة على كل مؤمن يعيش في مجتمع لا يتحاكم إلى الإسلام عقيدة وعبادة ومنهج حياة ،

﴿وَأَعْتَرُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيقًا﴾ (٤٨)

سورة مرثيم

وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)﴾

سورة الكافرون

لقد كانت هذه المفاصلة ضرورية لإيضاح معالم الاختلاف الجوهرى الكامل، الذى يستحيل معه اللقاء على شيء في منتصف الطريق. الاختلاف في جوهر الاعتقاد، وأصل التصور، وحقيقة المنهج، وطبيعة الطريق.

إن التوحيد منهج، والشرك منهج آخر .. ولا يلتقيان .. التوحيد منهج يتجه بالإنسان - مع الوجود كله - إلى الله وحده لا شريك له. ويحدد الجهة التي يتلقى منها الإنسان، عقيدته وشريعته، وقيمه وموازينه، وآدابه وأخلاقه، وتصوراته كلها عن الحياة وعن الوجود. هذه الجهة التي يتلقى المؤمن عنها هي الله، الله وحده بلا شريك. ومن ثم تقوم الحياة كلها على هذا الأساس. غير متلبسة بالشرك في أية صورة من صوره الظاهرة والخفية .. وهي تسير .. وهذه المفاصلة بهذا الوضوح ضرورية للداعية. وضرورية للمدعويين ..

إن تصورات الجاهلية تتلبس بتصورات الإيمان، وبخاصة في الجماعات التي عرفت العقيدة من قبل ثم انحرفت عنها. وهذه الجماعات هي أعصى الجماعات على الإيمان في صورته المحردة من العبش والالتواء والانحراف. أعصى من الجماعات التي لا تعرف العقيدة أصلا. ذلك أنها تظن بنفسها المدى في الوقت الذي تتعدد انحرافاتها وتتلوى! واحتلاط عقائدها وأعمالها وخلط الصالح بالفاسد فيها، قد يغري الداعية نفسه بالأمل في اجتذابها إذا أقر الجانب الصالح وحاول تعديل الجانب الفاسد .. وهذا الإغراء في منتهى الخطورة! إن الجاهلية جاهلية، والإسلام إسلام. والفارق بينهما بعيد. والسبيل هو الخروج عن الجاهلية بحملتها إلى الإسلام بحملته. هو الانسلاخ من الجاهلية بكل ما فيها والهجرة إلى الإسلام بكل ما فيه.

وأول خطوة في الطريق هي تميز الداعية وشعوره بالانعزال التام عن الجاهلية: تصورا ومنهجا وعملا. الانعزال الذي لا يسمح بالالتقاء في منتصف الطريق. والانفصال الذي يستحيل معه التعاون إلا إذا انتقل أهل الجاهلية من حاليتهم بكليتها إلى الإسلام. لا ترقع. ولا أنصاف حلول. ولا التقاء في منتصف الطريق .. مهما تزيت الجاهلية بزري الإسلام، أو أدعى هذا العنوان! وتميز هذه الصورة في شعور الداعية هو حجر الأساس. شعوره بأنه شيء آخر غير هؤلاء. لهم دينهم وله دينه، لهم طريقهم وله طريقه. لا يملك أن يسايرهم خطوة واحدة في طريقهم. ووظيفته أن يسيرهم في طريقه هو، بلا مداهنة ولا نزول عن قليل من دينه أو كثير! وإلا فهـي البراءة الكاملة، والماضـلة التامة، والحسـم الـصـريح .. «لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ» ..

ومـا أحـوج الدـاعـين إـلـى إـلـاسـلـام الـيـوـم إـلـى هـذـه الـبرـاءـة وـهـذـه الـماـضـلـة وـهـذـه الـحـسـم .. مـا أحـوجـهم إـلـى الشـعـور بـأـنـهـم يـنـشـئـون إـلـاسـلـام مـنـ جـدـيد فـي بـيـة جـاهـلـية مـنـحـرـفة، وـفـي أـنـاسـ سـبـقـهـمـ أـنـ عـرـفـوا الـعـقـيـدـة، ثـمـ طـالـ عـلـيـهـمـ الـأـمـدـ «فَقَسَّـتْ قُلُوبُهـمْ وَكَثـيرـ مـنـهـمـ فـاـسـقـوـنـ» .. وـأـنـهـ لـيـسـ هـنـاكـ أـنـصـافـ حلـولـ، وـلـاـ التـقـاءـ فـيـ منـصـفـ الـطـرـيقـ، وـلـاـ إـصـلاحـ عـيـوبـ، وـلـاـ تـرـقـعـ منـاهـجـ .. إـنـاـ هـيـ الدـعـوـةـ إـلـى إـلـاسـلـامـ كـالـدـعـوـةـ إـلـيـهـ أـوـلـ مـاـ كـانـ، الدـعـوـةـ بـيـنـ الجـاهـلـيـةـ. وـالـتـمـيـزـ الـكـامـلـ عنـ الجـاهـلـيـةـ .. «لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ» .. وـهـذـاـ هـوـ دـيـنـيـ: التـوـحـيدـ الـخـالـصـ الـذـيـ يـتـلـقـيـ تـصـورـاتـهـ وـقـيـمـهـ، وـعـقـيـدـتـهـ وـشـرـيـعـتـهـ .. كـلـهـاـ مـنـ اللـهـ .. دـوـنـ شـرـيـكـ .. كـلـهـاـ .. فـيـ كـلـ نـوـاـحـيـ الـحـيـاـةـ وـالـسـلـوـكـ.

وـبـغـيرـ هـذـهـ الـمـفـاـصـلـةـ. سـيـبـقـيـ الـغـبـشـ وـتـبـقـيـ الـمـدـاهـنـةـ وـبـيـقـيـ الـلـبـسـ وـبـيـقـيـ التـرـقـعـ .. وـالـدـعـوـةـ إـلـىـ إـلـاسـلـامـ لـاـ تـقـومـ عـلـىـ هـذـهـ الـأـسـسـ الـمـدـخـوـلـةـ الـوـاهـنـةـ الـضـعـيـفـةـ. إـنـاـ لـاـ تـقـومـ إـلـاـ عـلـىـ الـحـسـمـ وـالـصـرـاحـةـ وـالـشـجـاعـةـ وـالـوـضـوـحـ ..

وـهـذـاـ هـوـ طـرـيقـ الدـعـوـةـ الـأـوـلـ: «لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ» .. ٢٢٢

- لا مناص من الدعوة بالحكمة والوعظة الحسنة في حالة اختلاط الصالحين بغيرهم وال المسلمين بغيرهم، وإن استخدام القوة مؤداته خطر على الدعوة والدعوة للأسباب الآتية :

- ستتعرض فئات المجتمع للألوان البطش والإرهاب وسيذهب البريء مع غيره.
- ستغيب الدعوة بالحكمة والوعظة والكلمة، ولن يعود هناك من وسيلة للتفاهم سوى القوة .

- سيترك الدعوة أماكن التأثير في المجتمع إلى المغافر والكهوف والأماكن النائية.

- ستفرد الأفكار المعادية في تربية المجتمع وتوجيهه .

- سيواجه الإسلام بالدعائية المضادة، وأن رجاله لا يفهمون سوى لغة القوة والبطش .

- ستختسر الدعوة من رجالها من يصعب تعويضه وسد العجز الناشئ عن فقده .

- سيقف هذا الأمر مانعا من لحاق كثير من الناس بركب الدعوة؛ لأن الناس يفهمون عندها أن الدعوة ليس لها هدف عميق صبور طموح يعمل – بإذن الله – على إيصال المجتمع إلى قبول الإسلام، وإنما يسود التصور القائل بأن المسلم يريد أن يموت في سبيل الله، وليس لديه خطة واعية ناشطة للوقوف في وجه الفتنة التي ستبقى تلاحق أبناءه وأقرباءه وجيرانه. وعندما لا يضع المسلم في حسابه مقارنة قوته بقوة أعدائه فإنه يحول العمل للإسلام إلى ضرب من الانتهار ويظنه في سبيل الله !!

- لا شك أن الواقع الذي يعيشه المسلمون تأثيراً كبيراً على فكرهم ومارستهم، وأحياناً يصل ضغط هذا الواقع إلى درجة يفقد المسلم معها قدرته على تصور الخط المنهجي، ويتسائل: إلى متى نبقى تحت وطأة المعاناة؟ فيقول: أليس هنالك شيء غير الصبر والمصابرة؟ وعندما يحب المتأمرون على هذا السؤال بطلب المواجهة والانتقام ولو على حساب الدعوة ! والقرآن الكريم يحذرنا من هذا التفكير .

- وقد يبلغ تيار الحماس من الشدة إلى درجة ينساق المربi والموجه والمفكر في هذا التيار، ويفقد هؤلاء قدرتهم على السيطرة والقيادة، وهذه مجازة خطيرة، وكما تكون مجازة أهل المعاصي في معصيتهم فإن مجازة المتعجلين خطيرة، وهكذا يكون التعجل والتنازل عن خط

الدعوة المشرِّكَةُ كَبِيرَةٌ مِّنَ الْكَبَائِرِ، بِالرُّغْمِ مَا قَدْ يُوصَفُ بِهِ الْمَوْجَهُ مِنَ الْعَجَزِ وَالْعَصْفِ. وَإِنَّ
الْمَوْجَهَ الَّذِي آتَاهُ اللَّهُ بِصِّيرَةً وَمَعْرِفَةً مَسْؤُلٌ عَنِ النَّتَائِجِ التَّعْجِلُ أَكْثَرُ مِنَ الْمُتَعَجِّلِينَ .

الحل الصحيح :

– إن ضغط الواقع ينبغي أن لا يسوق إلى الحل الخطأ ومهما طال انتظار الحل الصحيح فإن هذا هو الصواب وطول الزمن لا يفقد الحق أحقيته، وقصر الزمن لا يعطي الخطأ صفة الصواب .

– إن الحل الصحيح يكمن في الدعوة مع المعاناة، والصبر على طول الطريق والتمرُّكُرُزُ في المجتمع والتماس أسباب القوة والبحث عن هذه الأسباب في كل مجتمعات الأرض، وهو جهد لا يعرف الكلل ولا الملل، وعندئذ تقوم القاعدة الصلبة التي يبدأ منها طريق الحل الشامل .

– إن أعداء الإسلام يطمعون في أن تخرب الجماعة المؤمنة عن خططها فتستعجل النصر، وتحاول قطف الثمرة قبل أوتها .. والشواهد كثيرة على عمليات الاستدراج التي تنتهي بالبطش والتنكيل بالعاملين للإسلام، إلى جانب النتائج السلبية التي يتركها التعجل على الجماعة وأنصارها وخططها ومستقبلها !

قلت: وهذا كله إذا كان طريق الدعوة السلمية مفتوحاً، ومتاحاً للدعوة، أما إذا أوصد الطريق، وكمت الأفواه، وفرض الكفر بالقوة، فلا مناص من المواجهة المدروسة الوعية المنضبطة، فعن ابن مسعود: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: مَا كَانَ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانَ لَهُ حَوَارِيُّونَ يُهَدِّلُونَ بِهَدِيهِ، وَيَسْتَنُونَ بِسُنْنَتِهِ، ثُمَّ يَكُونُ مِنْ بَعْدِهِمْ أَقْوَامٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُنْكِرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، لَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ .^{٢٢٣}

وهناك فرق كبير بين مجتمع إسلامي يراد سلخه من الإسلام بكل وسائل البطش المادية والمعنوية، وبين مجتمع غير إسلامي، فلا شك أن هذا الثاني تنطبق عليه الأحكام السابقة

^{٢٢٣} – صحيح مسلم- المكتز - (١٨٨) وصحيح ابن حبان - (١٤) / (٧٣)(٦١٩٣)

بلا ريب، وأما المجتمع الإسلامي، فإن الأمر مختلف فيه تماماً، فمن برفض التحاكم إلى الإسلام عقيدة عبادة وشريعة منهج حياة فهذا ليس مسلماً، ولا يجوز بحال أن يلي أمر المسلمين، ولا يجوز طاعته بحال، فعنْ عبادَةِ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ الصَّامِتِ، سَمِعَهُ مِنْ جَدِّهِ، وَقَالَ سُفِيَّانُ مَرَّةً: عَنْ جَدِّهِ عَبادَةَ وَعَبادَةَ نَقِيبٍ، وَهُوَ مِنَ السَّبْعَةِ: بَأَيْعُنَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَى السَّمْعِ، وَالطَّاغِيَةُ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَالْمَسْطَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَلَا تُنَازِعِ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، وَنَقُولُ بِالْحَقِّ حَيْثُمَا كُنَّا، لَا تَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ. مَا لَمْ تَرَوْا كُفُرًا بَوَاحًا^{٢٢٤}.

قوله: "عندكم من الله فيه برهان" أي نص آية أو خبر صحيح لا يحتمل التأويل، ومقتضاه أنه لا يجوز الخروج عليهم ما دام فعلهم يحتمل التأويل، قال النووي: المراد بالكفر هنا المعصية، ومعنى الحديث لا تنازعوا ولاة الأمور في ولايتهم ولا تعترضوا عليهم إلا أن تروا منهم منكراً محققاً تعلموه من قواعد الإسلام؛ فإذا رأيتم ذلك فأنكروا عليهم وقولوا بالحق حيثما كنتم انتهى. وقال غيره: المراد بالإثم هنا المعصية والكفر، فلا يعترض على السلطان إلا إذا وقع في الكفر الظاهر، والذي يظهر حمل روایة الكفر على ما إذا كانت المنازعة في الولاية فلا ينزعه بما يقدح في الولاية إلا إذا ارتكب الكفر، وحمل روایة المعصية على ما إذا كانت المنازعة فيما عدا الولاية، فإذا لم يقدح في الولاية نزعه في المعصية بأن ينكر عليه برفق ويتوصل إلى تثبيت الحق له بغير عنف، وحمل ذلك إذا كان قادراً والله أعلم. ونقل ابن التين عن الداودي قال: الذي عليه العلماء في أمراء الجور أنه إن قدر على خلعه بغير فتنة ولا ظلم وجب، وإنما فالواجب الصبر. وعن بعضهم لا يجوز عقد الولاية لفاسق ابتداء، فإن أحدث حوراً بعد أن كان عدلاً فاختلفوا في جواز الخروج عليه، والصحيح المنع إلا أن يكفر فيجب الخروج عليه^{٢٢٥}.

١٣ / الدعوة سلعة شريفة لا تباع بالأعراض الدينية :

^{٢٢٤} - صحيح البخاري- المكتبة - (٤٨٧٧) و صحيح مسلم- المكتبة - (٧٠٥٥ و ٧٠٥٦) و مسنون أحمد (علم الكتب)

- (٥٤٠ / ٧) (٢٢٦٧٩) - ٢٣٠٥٥

^{٢٢٥} - فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار الفكر - (٨ / ١٣)

- الداعية يعمل بمقتضى تكليف الله - سبحانه وتعالى -، ويأخذ أجره كاملاً من الله تعالى -. ووظيفة الدعوة ليست من جنس الوظائف الدنيوية فهي أسمى وأشرف، ووظيفة فيها مثل هذا الجهد لا تعادلها الدنيا كلها .

- لقد كان كل نبي من أنبياء الله الكرام يؤكد هذا المبدأ قائلاً: {يَا قَوْمٍ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ} (٥١) سورة هود . والأجر الذي ينبغي أن يتزره عنه الداعية لا يقتصر على المال، وإنما يشمل كل منفعة سببها الدعوة، وينبغي أن لا يتضرر من الناس كلمة الشكر ولا إسداء المعروف، وكل الذي يريده من المعروف أن تصل الدعوة إلى قلوب الخلق.

- والتأكد على عدم طلب الأجر له فوائد وحكم :
أولاً: قد يظن المدعون أن الداعية إنما شرع في الدعوة كي يتوصل بالدعوة إلى الرزق والاكتساب .

ثانياً: تعودت الشعوب أن تتعامل مع المشعوذين والدجالين من الكهنة الذين يتوصلون بالدين إلى الدنيا وملذاتها، فجاء التأكيد على أن هذه الدعوة ندية أصيلة لا ينبعي أهلها عرضاً من أغراض الدنيا يتوصلون إليه بسببها .

ثالثاً: كل عمل مأجور قد يعترضه النقص والخلل، وصاحبـه يـسـيرـ بـه حـسـبـ مـقـدـارـ الأـجـرـ. وـدـيـنـ اللـهـ أـكـرـمـ منـ أـنـ يـرـبـطـ بـمـتـاعـ الدـنـيـاـ وـتـقـلـبـهـ، وـمـنـ هـنـاـ فـالـعـلـمـ لـلـدـعـوـةـ مـرـتـبـطـ بـالـإـلـاـخـاـصـ .

رابعاً: والعمل المأجور يتأثر بمن يدفع الأجر وإرادته تتدخل في العمل، وقد عرفت الدعوات نمطاً من الناس غيرها وبدلوا تحت ضغط الأجر الدنيوي .

خامساً: وإذا عرف الناس أن الداعية لا يلتزم منفعة دنيوية فإنهـمـ يـتـبـنـونـ صـدـقـ الدـاعـيـةـ فيـ دـعـوـتـهـ وـيـنـجـذـبـونـ إـلـىـ الدـعـوـةـ. وـمـنـ لـوـازـمـ غـنـيـ الدـاعـيـةـ عـنـ النـاسـ أـنـ يـكـوـنـ ذـاـ كـسـبـ مـنـ تـجـارـةـ أـوـ زـرـاعـةـ أـوـ عـلـمـ أـوـ حـرـفـةـ .

- وما يجب أن يلتفت إليه أن الوظائف التي يحبس عليها صاحبـهاـ كـالـعـلـمـ وـالـإـمـامـةـ وـالـخـطـابـةـ إنـماـ يـأـخـذـ صـاحـبـهـ أـجـرـ لـكـونـهـ مـشـغـلـاـ بـهـاـ عـنـ الـاحـتـرافـ وـالـاكتـسـابـ وـهـذـاـ

جائز شرعاً، ويدخل في ذلك أيضاً مسؤولية الإمامة العامة وولاية القضاء وكل ما كان من جنس هذه الأعمال وكان الداعية محبوباً عليها.

٤/ التعرف على المدعو عامل أساس في كسبه :

- أول ما ينبغي معرفته أسماء المدعويين وكتابهم وألقابهم، وأن يخاطبهم الداعية بأحب الأسماء إليهم وأن يتتجنب ما يسوؤهم من الألقاب والكنا.

- إن معرفة ما يحبه المدعو وما يكرهه تجعل الداعية فقيها بلغة المدعو الخاصة، فعن أبي هريرة، قال: وَنَدَتْ وُفُودُ إِلَى مُعَاوِيَةَ وَذَلِكَ فِي رَمَضَانَ، فَكَانَ يَصْنَعُ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ الطَّعَامَ، فَكَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ مِمَّا يُكْثِرُ أَنْ يَدْعُونَا إِلَى رَحْلِهِ، فَقُلْتُ: أَلَا أَصْنَعُ طَعَامًا فَأَدْعُوكُمْ إِلَى رَحْلِي؟ فَأَمَرْتُ بِطَعَامٍ يُصْنَعُ، ثُمَّ لَقِيَتْ أَبَا هُرَيْرَةَ مِنَ الْعَشِّ، فَقُلْتُ: الدَّعْوَةُ عِنْدِي الْلَّيْلَةِ، فَقَالَ: سَبَقْتَنِي، قُلْتُ: نَعَمْ، فَدَعَوْتُهُمْ، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَلَا أُعْلَمُكُمْ بِحَدِيثِ مَنْ حَدَّيْتُكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، ثُمَّ ذَكَرَ فَتْحَ مَكَّةَ، فَقَالَ: أَفْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى قَدْمَ مَكَّةَ، فَبَعَثَ الرُّبِّيرَ عَلَى إِحْدَى الْمُحْجَنَّبَيْنِ، وَبَعَثَ خَالِدًا عَلَى الْمُحْجَنَّبَ الْأُخْرَى، وَبَعَثَ أَبَا عَبْيَدَةَ عَلَى الْحُسْرَ، فَأَخْدَنُوا بَطْنَ الْوَادِيِّ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي كَتِيَّةِ فَرَّانِي، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: "لَا يَأْتِينِي إِلَّا أَنْصَارِي" فَقَالَ: "اهْتَفْ لِي بِالْأَنْصَارِ" ، قَالَ: فَأَطَافُوا بِهِ، وَوَبَشَّتْ قُرَيْشٌ أَوْبَاشًا لَهَا، وَأَتَبَاعًا، فَقَالُوا: نُقَدِّمُ هَؤُلَاءِ، فَإِنْ كَانَ لَهُمْ شَيْءٌ كُنَّا مَعَهُمْ، وَإِنْ أَصْبَيْوَا أَعْطَيْنَا الَّذِي سُلِّمْنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "تَرَوْنَ إِلَى أَوْبَاشِ قُرَيْشٍ، وَأَتَبَاعِهِمْ" ، ثُمَّ قَالَ بِيَدِيهِ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى، ثُمَّ قَالَ: "حَتَّى تُوَافُونِي بِالصَّفَا" ، قَالَ: فَانْطَلَقْنَا فَمَا شَاءَ أَحَدٌ مِنَّا أَنْ يَقْتُلَ أَحَدًا إِلَّا قَتَلَهُ، وَمَا أَحَدٌ مِنْهُمْ يُوَجِّهُ إِلَيْنَا شَيْئًا، قَالَ: فَجَاءَ أَبُو سُفَيْفَانَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أُبِحِّتْ خَضْرَاءَ قُرَيْشٍ، لَا قُرَيْشَ بَعْدَ الْيَوْمِ، ثُمَّ قَالَ: "مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفَيْفَانَ فَهُوَ آمِنٌ" ، فَقَالَتْ الْأَنْصَارُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَمَّا الرَّجُلُ فَأَدْرَكَهُ رَغْبَةٌ فِي قَرْيَتِهِ، وَرَأْفَةٌ بِعَشِيرَتِهِ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَجَاءَ الْوَحْيُ وَكَانَ إِذَا جَاءَ الْوَحْيُ لَا يَخْفَى عَلَيْنَا، إِذَا جَاءَ فَلَيْسَ أَحَدٌ يَرْفَعُ طَرْفَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى يَنْقَضِي الْوَحْيُ، فَلَمَّا انْقَضَ الْوَحْيُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ" قَالُوا: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: "قُلُّتُمْ: أَمَّا الرَّجُلُ فَأَدْرَكَهُ رَغْبَةٌ فِي قَرْيَتِهِ؟" قَالُوا: قَدْ

كَانَ ذَاكَ، قَالَ: "كَلَّا، إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، هَاجَرْتُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَيْكُمْ، وَالْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ" ، فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَيْكُونُ وَيَقُولُونَ: وَاللَّهُ، مَا قُلْنَا الَّذِي قُلْنَا إِلَى الصَّنْنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُصَدِّقَانِكُمْ، وَيَعْذِرَانِكُمْ" ، قَالَ: فَأَقْبَلَ النَّاسُ إِلَى دَارِ أَبِي سُفِيَّانَ، وَأَغْلَقَ النَّاسُ أَبْوَابَهُمْ، قَالَ: وَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَقْبَلَ إِلَى الْحَجَرِ، فَاسْتَلَمَهُ ثُمَّ طَافَ بِالْبَيْتِ، قَالَ: فَأَتَى عَلَى صَنَمٍ إِلَى جَنْبِ الْبَيْتِ كَأُلُوَّا يَعْبُدُونَهُ، قَالَ: وَفِي يَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَوْسٌ وَهُوَ آخِذٌ بِسَيِّسَةِ الْقَوْسِ، فَلَمَّا أَتَى عَلَى الصَّنَمِ جَعَلَ يَطْعُنُهُ فِي عَيْنِهِ، وَيَقُولُ: حَاءُ الْحَقُّ وَزَهَقُ الْبَاطِلُ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ طَوَافِهِ أَتَى الصَّفَا، فَعَلَّا عَلَيْهِ حَتَّى نَظَرَ إِلَى الْبَيْتِ، وَرَفَعَ يَدِيهِ فَجَعَلَ يَحْمَدُ اللَّهَ وَيَدْعُو بِمَا شَاءَ أَنْ يَدْعُو .. ٢٢٦ .

وإذا بزعيم مكة الذي خرج للدفاع عن قاعدة الشرك يرجع ليحولها قاعدة للإسلام .

- الداعية الناجح يتعرف على أحوال الناس وأوضاعهم، ولا تغيب عنه كثير من أمورهم الفكرية والاجتماعية والنفسية، ويعرف متى يكون المدعو مشغولاً ومتى يكون حالياً، وهذه المعرفة تأتي من خلال المعايشة والنشاط الاجتماعي، فالداعية لا يضيع أية فرصة يمكنه من خلالها التعرف على المدعوين .

- ومن جوانب المعرفة الضرورية والمفيدة معرفة أوضاع المدعو الاقتصادية، فإن كان فقيراً معوزاً كانت مساعدته من أهم القضايا التي تهم الداعية، وإن كان مريضاً كانت مواساته وإرشاده إلى الطبيب الماهر الخلوق من وظائف الداعية .

- حضور الداعية في المناسبات والأفراح والأتراح والأعياد يفتح له ميادين للدعوة، ويقدم له فرصاً طبيعية للاتصال بالناس وكسب ودّهم. وكم من سؤال عن الولد المريض جعل الوالد يفتح قلبه ويلقي بسمعه ويدعوه ! وكم من همسة تهنته بولد رزقه أو فوز حقيقه كانت سبباً في تحويل اتجاه وتبديل قرار ! ولا يعدم الداعية البصير من وسائل كثيرة تساعدته على كسب القلوب وتكثير الأنصار.

١٥ / المعاصرة ومعرفة البيئة العامة من أسباب نجاح الدعوة :

٢٢٦ - صحيح مسلم - المكتبة - (٤٧٢٢)

- من الضروري أن يتعرف الداعية على البيئة العامة: الاجتماعية والاقتصادية والسكانية والسياسية. والداعية الأوسع اطلاعا هو الأقوى أثراً في الغالب، ولما كان الداعية يقوم بدور قيادي في المجتمع، فإن أفراد هذا المجتمع يتوقعون أن يجدوا عند الداعية ثقافة واسعة، ومهارات متنوعة على المستوى المحلي والعالمي. وما لا شك فيه أن كل بيئه لها مميزاتها ومتطلباتها، فالبيئة الصحراوية غير البيئة القروية، والبيئة القروية غير البيئة الحضرية، والبيئة التجارية غير الصناعية والزراعية .

- الداعية يعيش في عالم تتصارع فيه الأفكار والتيارات والفلسفات، والأفكار فيه سريعة التقلب والتغير والعالم الإسلامي يتلقى عن الغرب والشرق بلا احتراس، وفي نهاية المطاف يجد الداعية نفسه أمام هذه الأفكار. وما كان يمكن تجاهله في عصر صعوبة الحركة والانتقال، أصبح لا يمكن تجاهله في عصر المحميات الفضائية والأقمار الصناعية .

- الداعية يعيش في عصر المخترعات العلمية المتقدمة، ومنها ما يفيده في دعوته ومنها ما يعوق دعوته. والداعية الناجح يكتسب من مخترعات عصره ما ينفعه، ويتقى ما يضره .

- لا يقف الداعية مكتوف اليدين أمام الطبيعة، بل يعتبرها مسخرة من الله - تعالى - لخدمته ولنصرة دعوته، وهذه النصرة لا تأتي إلا بعد معرفة هذه الطبيعة عن كثب من حيث بحارها وأنهارها وسهولها وجبالها، وترابها وصها وحرها وبردها. { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ شَيْءٌ مُسَيْمُونَ (١٠) يُبْتَلِي لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالرِّيَّانَ وَالنَّحِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الشَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَنْفَكِّرُونَ (١١) وَسَحَرَ لَكُمُ الْلَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَحَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لَقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } (١٢) سورة النحل .



المبحث العشرون

الخلاصة في فقه الأولويات

ومن العلوم التي لا بد للداعية من معرفتها والإمام بها: فقه الأولويات^{٢٢٧}

تعريفه :

وضع كل شيء في مرتبته بالعدل من الأحكام والقيم والأعمال، ثم يقدم الأولى فالأولى بناءً على معايير (موازين) شرعية صحيحة يهدي إليها نور الوحي ونور العقل: "نور على نور" ، فلا يقدم غير المهم على المهم، ولا المهم على الأهم ولا المرجوح على الراجح، بل يقدم ما حقه التقديم ويؤخر ما حقه التأخير، ولا يكبر الصغير ولا يصغر الكبير، بل يوضع كل شيء في موضعه بالقسطاس المستقيم بلا طغيان ولا إحسار . فالقيم والأحكام والأعمال والتكاليف متفاوتة في نظر الشرع تفاوتاً بليغاً، وليس كلها في مرتبة واحدة، فمنها الكبير ومنها الصغير، ومنها الأصلي ومنها الفرعية، ومنها الأركان ومنها المكملاً، ومنها ما موضعه في الصلب، وما موضعه في الهامش، وفيها الأعلى والأدنى، والفضل والمفضول .

وقد وردت آيات وأحاديث كثيرة تدل على تفاوت في الدرجات في الأحكام والأمور، منها :

١- قال الله - تعالى - في سورة التوبه: {أَحَعْلَمُ سَقَايَةَ الْحَاجِ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتُوْنَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} (١٩) سورة التوبه.

٢- عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله، وأدنىها إماتة الأذى عن الطريق.^{٢٢٨}

^{٢٢٧} - انظر كتاب فقه الأولويات للدكتور يوسف القرضاوي

^{٢٢٨} - صحيح ابن حبان - (١ / ٤٢٠) (١٩١) صحيح

٣- عن أبي هريرة أنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ «سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ». قَالُوا وَكَيْفَ قَالَ «كَانَ لِرَجُلٍ دِرْهَمًا تَصَدَّقَ بِأَحَدِهِمَا وَأَنْطَلَقَ رَجُلٌ إِلَى عُرْضٍ مَالِهِ فَأَخَذَ مِنْهُ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ فَتَصَدَّقَ بِهَا» ^{٢٢٩} ..

وفي الجانب المقابل وضعت معايير لبيان الأعمال السيئة، كما بيّنت تفاوتها عند الله - تعالى - من كبائر وصغرى، وشبهات ومكروهات، وذكرت أحياناً بعض النسب بين بعضها وبعض، فمثلاً :

١- عن عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة، قال: قال رسول الله - ﷺ : درهم ربا يأكله الرجل وهو يعلم، أشد من ستة وثلاثين زنة ^{٢٣٠} ..

٢- عن عبد العزيز بن مروان، قال: سمعت أبي هريرة، يقول: قال رسول الله - ﷺ : شر ما في الرجل شح هالع، وجبن خالع. ^{٢٣١} ..

٣- عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله - ﷺ : ألا أبغضكم بشراركم؟ فقال: هم الشارون المستشدقون، ألا أبغضكم بخياركم؟ أحسنكم أخلاقاً. ^{٢٣٢} ..

٤- عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله - ﷺ : أسوأ الناس سرقة الذي يسرق صلاته، قال: وكيف يسرق صلاته؟ قال: لا ينم رُكوعها، ولا سجودها ^{٢٣٣} ..

٤- قال الله - تعالى - : {أَمَنْ هُوَ قَاتِنُ آنَاءِ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ} ^(٩) سورة الزمر.

^{٢٢٩} - سنن النسائي - المكتبة - (٢٥٣٩) صحيح

^{٢٣٠} - مسند أحمد (علم الكتب) - (٣٣٤ / ٧) - (٢١٩٥٧) (٢٢٣٠٣) صحيح

^{٢٣١} - صحيح ابن حبان - (٤٢ / ٣٢٥٠) صحيح

شح هالع : الشح: أشد البخل، والهالع: أشد الجزع، والمراد: أن الشح يجزع جرعاً شديداً، ويجزع على درهم يفوته، أو يخرج عن يده ، وهذا من باب قوله : «ليل نائم، ويوم عاصف» أي: ينام فيه، وتعصف فيه الريح، ويتحمل أن يكون قال : «هالع» لمكان «هالع للازدواج» و«الحال» : الذي كأنه خلع فؤاده لشدة خوفه وفرعه.

^{٢٣٢} - مسند أحمد (علم الكتب) - (٣٧٠ / ٣) (٨٨٢٢) (٨٨٠٨) صحيح

^{٢٣٣} - صحيح ابن حبان - (٥ / ٢٠٩) (١٨٨٨) صحيح

٦- قال الله - تعالى - : { وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا التُّورُ (٢٠) وَلَا الظُّلُلُ وَلَا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٢٢) } [فاطر: ١٩ - ٢٢].

ولونظرنا في حال المجتمعات اليوم لوحظنا أن الأولويات غير مرتبة، فنرى - مثلاً - أن الناس يمدحون أهل الرياضة والرقص أكثر من مدحهم أهل العلوم المختلفة . وحتى بعض الملتزمين بالدين لا يلتزمون بهذا النوع من الفقه ... فنرى البعض يهتم ببناء المساجد في أماكن فيها مساجد أصلاً بدل اهتمامه ببناء المؤسسات التعليمية من جامعات ومعاهد وغيرها، ونرى البعض الآخر يهتم بأداء فريضة الحج كل عام بينما باستطاعته حج الفريضة مرة أو اثنين أو ثلاثة ... وإنفاقباقي على المشاريع الخيرية والدعوية والإنسانية !

حتى بعض المسلمين يسيرون بين الناس ويقيمون معارك يومية يحمي وطيسها من أجل مسائل جزئية أو خلافية، مهملين أصول الإسلام الكبيرة، فبعضهم وجدوا أكبر همهم في: الساعة أين تلبس، أفي اليد اليمنى أم في اليسرى؟!!

ولبس الثوب الأبيض بدل (القميص والبنطال (السروال)) : واجب أم سنة؟!!
والأكل على المنضدة والجلوس على الكرسي للطعام واستخدام الملعقة والشوكة: هل يدخل في التشبيه بالكافر أولاً؟!! وغيرها من المسائل التي تأكل الأوقات وتمزق الجماعات وتخلق الخوازمات وتضيع الجهد ... وبعض الفتيان الملتزمين والمعتدلين يعاملون آباءهم بقسوة وأمهاتهم بغلظة وإخواهم وأخواههم بعنف، وحاجتهم أهتم عصاة أو منحرفون عن الدين ! ناسين أن الله - تعالى - أوصى بالوالدين إحساناً، وإن كانا مشركين يجاهدان ولدهما على الشرك، ويحاولان بكل جهدهما فتنته عن إسلامه: قال الله تعالى-: {وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطْعِمُهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَأَتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنْابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَنْبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} (١٥) سورة لقمان.

ومما وقع فيه المسلمون في عصور الانحطاط ولا زال قائماً إلى اليوم :

١- أهملوا - إلى حد كبير - فروض الكفاية المتعلقة بمجموع الأمة: كالتفوق العلمي والصناعي والحضري، الذي يجعل الأمة مالكة لأمر نفسها وسيادتها حقاً وفعلاً، لا دعوى وقولاً، ومثل الاجتهاد في الفقه واستنباط الأحكام، ومثل نشر الدعوة إلى الإسلام ..!

٢- وأهملوا بعض الفرائض العينية أو أعطوها دون قيمتها، مثل فرضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر !

بل تركوا الجهاد في سبيل الله، وهو فرض عين على كل مسلم في حال الاعتداء على المسلمين .

٣- واهتموا ببعض الأركان أكثر من بعض، فاهتموا بالصوم أكثر من الصلاة، فلهذا وُجد من المسلمين والمسلمات من يتکاسل عن الصلاة، ووُجد من ينقضى عمره دون أن ينحني الله راكعاً ساجداً، كما أن أكثر الناس اهتموا بالصلاحة أكثر مما اهتموا بالزكاة، مع أن الله - تعالى - قرن بينهما في كتابه الكريم في (٢٨) موضعأً ! {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الرَّزْكَةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ} (٤٣) سورة البقرة

٤- واهتموا ببعض التوافل أكثر من اهتمامهم بالفرائض والواجبات، كما هو ملاحظ عند كثير من المتدينين الذين أكثروا من الأذكار والتسبيح والأوراد ولم يولوا هذا الاهتمام للكثير من الفرائض وخصوصاً الاجتماعية مثل: بر الوالدين، صلة الأرحام، الإحسان بالجار، الرحمة بالضعفاء، رعاية اليتامي والمساكين ..!

٥- واهتموا بالعبادات الفردية كالصلاحة والذكر أكثر من اهتمامهم بالعبادات الاجتماعية التي يتعدى نفعها، كالفقه والإصلاح بين الناس والجهاد الوعي، والتعاون على البر والتقوى، والتواصي بالصبر والمرحمة، والدعوة إلى العدل والشورى، ورعاية حقوق الإنسان عامة والإنسان الضعيف خاصة !

٦- واهتم كثير من الناس بفروع الأعمال وأهملوا الأصول، مع أن الأقدمين قالوا: من ضيئ الأصول حرم الوصول. كما أغفلوا أصل البناء كله وهو العقيدة والإيمان وإخلاص الدين لله !

٧- وما وقع فيه الخلل والاضطراب: اشتغال كثير من الناس بتغيير المكرهات أو الشبهات، أكثر مما اشتغلوا بتغيير المحرمات المتشرة أو الواجبات المضيعة، ومثل ذلك: الاشتغال بما اختلف في حله وحرمه عما هو مقطوع بتحريمه، وهناك أناس مولعون بهذه الخلافيات مثل مسائل التصوير والغناء والنقاب ونحوها، وكأنما لا هم إلا إدارة المعرك الملتئبة حولها، ومحاولة سوق الناس قسراً إلى رأيهم فيها، في حين هم غافلون عن القضايا المصيرية الكبرى التي تتعلق بوجود الأمة ومصيرها وبقائها على الخريطة !

ارتباط فقه الأولويات بغيره من أنواع الفقه :

يرتبط فقه الأولويات بأنواع أخرى من أنواع الفقه: منها :

١- فقه الموازنات

ومنها :

أ- الموازنات بين المصالح بعضها بعض، فقد رأينا في صلح الحديبية مثلاً أن الرسول - ﷺ - يُعلّب المصالح الجوهرية والأساسية والمستقبلية على المصالح والاعتبارات الشكلية التي يتثبت بها بعض الناس، فقبل من الشروط ما قد يُظَنْ - لأول وهلة - أن فيه إجحافاً بالجماعة المسلمة أو رضا بالدون ورضي - عليه الصلاة والسلام - أن تُحذف البسمة المعهودة من وثيقة الصلح، ويكتب بدلاً: باسمك اللهم، ورضي أن يُحذف وصف الرسالة الملائقة لاسمك الكريم: محمد رسول الله، ويُكتفى باسم محمد بن عبد الله، وذلك ليُكتسب من وراء ذلك الهدنة التي يتفرغ فيها لنشر الدعوة ومخاطبة ملوك العالم، ولا غرو ولا عجب أن سماها القرآن: "فتحاً مبيناً" .. والأمثلة على ذلك كثيرة .

ب- الموازنات بين المفاسد أو المضار بعضها بعض، فالمفاسد أو المضار متفاوتة في أحجامها وفي آثارها وأخطارها وقد وضع الفقهاء جملة قواعد ضابطة لذلك، منها: لا ضرر ولا ضرار، الضرر يزال بقدر الإمكان، الضرر لا يزال بضرر مثله أو أكبر منه، يُرتكب أخف الضررين وأهون الشررين، يُتحمل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى، يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام .

ج- الموازنات بين المصالح والمفاسد عند التعارض. فإذا اجتمع في أمر من الأمور مصلحة ومفاسدة، أو مضره ومنفعة، فلا بد من الموازنة بينهما، والعبارة للأغلب والأكثر، فإن للأكثر حكم الكل. فإذا كانت المفسدة أكثر وأغلب على الأمر من المنفعة أو المصلحة التي فيه، وجب منعه لغلبة مفسدته، ولم تُعتبر المنفعة القليلة الموجودة فيه. وهذا ما ذكره القرآن في قضية الخمر والميسر في إجابتة عن السائلين عنهم: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبِرٌ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَفَكَّرُونَ} (٢١٩) سورة البقرة. وبالعكس: إذا كانت المنفعة هي الأكبر والأغلب، فيجاز الأمر ويسرع، وتمدر المفسدة القليلة الموجودة به. ومن القواعد المهمة هنا: أن درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة، ويكمel هذه قاعدة أخرى، وهي: أن المفسدة الصغيرة تُغْفَرُ من أجل المصلحة الكبيرة، وتعتبر المفسدة العارضة من أجل المصلحة الدائمة، ولا تُترك مصلحة محققة من أجل مفسدة متوجهة.

٢- فقه المقاصد:

أي: مقاصد النصوص الواردة وروحها وجوهرها، فمن المتفق عليه أن أحكام الشريعة في مجموعها معللة، وأن وراء ظواهرها مقاصد هدف الشرع إلى تحقيقها، فإن من أسماء الله - تعالى - "الحكيم" الذي تكرر في القرآن الكريم بضعاً وتسعين مرة، والحكيم لا يشرع شيئاً عبثاً ولا اعتباطاً، كما لا يخلق شيئاً باطلأ - سبحانه - .

وحتى التعبديات الخضة في الشرع لها مقاصدتها، ولهذا علل القرآن العبادات ذاتها، فالصلاحة: {إِنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} (٤٥) سورة العنكبوت، والزكاة: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُظَهِّرُهُمْ وَتُنَزِّكِهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلَيْهِمْ} (١٠٣) سورة التوبة، والصيام: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقَوْنَ} (١٨٣) سورة البقرة، والحج: {وَأَذْنُ فِي النَّاسِ بِالْحَجَّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ} (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ

لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُّوا مِنْهَا
وَأَطْعُمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) } سورة الحج.

ومن حسن الفقه في دين الله أن ندرك مقصود الشرع من التكليف، حتى نعمل على تحقيقه، وحتى لا نشدد على أنفسنا وعلى الناس فيما لا يتصل بمقاصد الشرع وأهدافه. فلا مبرر للتشديد في ضرورة إخراج صدقة الفطر من الأطعمة في كل البيئات في عصرنا، فليست هي مقصودة لذاتها، إنما المقصود إغفاء الفقير في هذا اليوم الأغرى عن السؤال. ولا معنى كذلك للتشديد في رمي الحمار في الحج قبل الزوال حتى وإن ترتب على ذلك شدة الزحام وموت المئات تحت الأقدام كما حدث في مواسم حج ماضية !

فليس في الشرع ما يدل على أن هذا أمر مقصود لذاته، بل المقصود هو ذكر الله - تعالى -، والمطلوب هو التيسير ورفع الحرج .

ومن المهم هنا التفريق بين المقاصد الثابتة للشريعة والوسائل المتغيرة، فنكون في الأولى في صلابة الحديد، وفي الثانية في لبونة الحرير !

٣- فقه النصوص نصوص الشريعة الجزئية :

حيث يربط بينها وبين المقاصد الكلية والقواعد العامة، فتُردد الجزئيات إلى كلياتها والفروع إلى أصولها. ومن الضروري هنا: التمييز بين القطعي والظني من النصوص، وبين الحكم والمتشبه منها، وفهم الظني في ضوء القطعي، والمتشبه في ضوء الحكم. وألزم ما يكون هذا الفقه بالنسبة للسنة النبوية، فهي التي كثيراً ما يقع الخلط في فهمها أكثر من القرآن، نظراً ل تعرضها لتفاصيل، ودخولها في الكثير من الجزئيات والتطبيقات، ولأن فيها ما هو للتشريع وهو الأصل، وما ليس للتشريع كحديث تأيير النحل وما على شاكلته .

قلت: لا يوجد إلا هذا الحديث الفرد فقط والذى يتثبت به دعاه الهمزة والانحصار، والباقي كله تشريع إلا ما ورد تخصيصه به ﷺ، وهذه التفرقة باطلة لا أصل لها، فلو قال النبي ﷺ قوله أو فعل فعلاً وسكت عنه الوحي فهو تشريع بلا ريب، خاضع للأحكام التكليفية الخمسة.

وفي الموسوعة الفقهية: " وهناك فرقه أخرى لا يقل خطرًا عن هذه الفرقه تقول: إننا نقبل السنة كمصدر تشرعي فيما يتصل بالعبادات، أما ما يتصل بأمور الدنيا من تشريعات أو سلوك فليست بحججه علينا، ويعتقدون بشعبه واهية، وهي حادثة تأثير التخل، فعن أنس قال: سمع رسول الله ﷺ أصواتا فقال: ما هذا؟ قالوا: يلقيون التخل، فقال: لو تركوه فلم يلقيوه لصالح فتركوه فلم يلقيوه، فخرج شيشا، فقال النبي ﷺ: ما لكم؟ قالوا: تركوه لما قلت، فقال رسول الله ﷺ: إذا كان شيء من أمر دنياكم فأنتم أعلم به، فإذا كان من أمر دينكم فإليه ".^{٢٣٤}

هذا الخبر إن دل على شيء فإنما يدل على أن الأمور الدنيوية التي لا صلة لها بالتشريع تحليلاً أو تحريراً أو صحة أو فساداً، بل هي من الأمور التجريبية، لا تدخل تحت مهمة الرسول ﷺ كمبلغ عن ربه، بل هذا الحديث يدل على أن مثل هذه الأمور خاصة للتجربة، والرسول ﷺ بهذا كان قدوة عملية لحثنا على أن الأمور الدنيوية البحثة التي لا علاقة لها بالتشريع ينبغي علينا أن نبذل الجهد في معرفة ما هو الأصلح من غيره، وشأنه بين هذه الحادثة وبين أن يرد عن الرسول ﷺ أن هذا حلال أو حرام، أو أن هذا الأمر موجب للعقوبة أو غير موجب، أو أن هذا ال比利 صحيح أو غير صحيح؛ لأن هذه الصور من صلب وظيفة الرسول ﷺ الذي أوجب الله علينا طاعته في كل ما يبلغ عن ربه .^{٢٣٥}

ومنهم من قال هو غير معصوم لكنه لا يقر على الخطأ، ووقع الإجماع على عدم الإقرار بالخطأ مطلقاً^{٢٣٦}، سواء كانت دنوية أو دينية، وما يدل على ذلك آيات عتابه ﷺ،

ما يدل على حصول الاجتهاد منه ﷺ، ووقوع الخطأ، وأنه ﷺ لم يقر عليه.

ومن ذلك أيضاً: حديث عائشة ل، قالت: دخل علي رسول الله ﷺ، وعندى امرأة من اليهود، وهي تقول: هل شعرت أنكم تُفتنون في القبور؟ قالت: فارتاع رسول الله ﷺ، وقال: إنما تُفتنُ يهود". قالت عائشة: فلبتنا ليالي، ثم قال رسول الله ﷺ: "هل

^{٢٣٤} - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٤ / ٣٩٢) (١٢٥٤٤) (١٢٥٧٢) - صحيح

^{٢٣٥} - الموسوعة الفقهية الكويتية - (١ / ٤٥)

^{٢٣٦} - المسودة لآل تيمية (٧٩، ١٩٠) .

شعرت أنه أُوحى إلى أنكم تُفتتون في القبور؟". قالت عائشة: فسمعت رسول الله ﷺ
بعد يستعيد من عذاب القبر.^{٢٣٧}

قال العلماء^{٢٣٨}: "إن النبي ﷺ - نفى فتنة القبر أولاً عن أهل التوحيد، اجتهاداً منه، لما وجد أمارات تدل على أن عذاب القبر خاص بالكافر. ثم أُوحى إليه بأن من أهل التوحيد من يُعذب في قبره، فرجع عن اجتهاده، وأخبر بما نزل عليه به الوحي في ذلك. وفي هذا الحديث إرثام قويٌّ لمن احتجج باجتهاد النبي ﷺ في أمور الدنيا وخطأه فيها، كما في حديث تأثير النحل، على أن السنة في أمور الدنيا ليست وحيًا. فهذا الحديث وقع فيه للنبي ﷺ - اجتهاد في أمر عقدي من أمور الدين، وأخطأ فيه، فهل سيلتزمون بطريقة استدلالهم: أن السنة في أمور العقيدة أو الدين عموماً ليست وحيًا؟! هذا مما يدل على وفاء استدلالهم.

وفي ذلك يقول القاضي عياض (ت ٤٥٤ هـ) في "الشفا بتعريف حقوق المصطفى": "وأماماً أقواله الدينوية: من إخباره عن أحواله وأحوال غيره، وما يفعله أو فعله، فقد قدمنا أن الخلف فيها ممتنع عليه من كل حال وعلى أي وجه: من عمد أو سهو، أو صحة أو مرض، أو رضي أو غضب. وأنه ﷺ - معصوم فيما طرفة العين الخضر مما يدخله الصدق والكذب".^{٢٣٩}

وبذلك نخلص أن اجتهاد النبي ﷺ - في أمور الدنيا والدين لا يُخرج السنة عن أن تكون بوحي؛ لأن اجتهاده ﷺ - في بعض المسائل لا ينفي أنه كان يُوحى إليه بسنن غيرها ابتداءً (وهذا محل إجماع)، وأماماً اجتهاده ﷺ - فهو إما أن يُقرّ عليه من ربّه عز وجل - ، وهو الغالب، بدليل قلة المسائل التي صوّب فيها اجتهاده ﷺ - ، ودليل أنه ﷺ - أولى الخلق بإصابة الحق.

^{٢٣٧} - أخرجه مسلم رقم (٥٨٤)

^{٢٣٨} - وقد شرحه الطحاوي في مشكل الآثار (١٣ - ١٩١)، والقرطبي في المفهم (٢٠٧/٢ - ٢٠٨) والنوعي في النهاج شرح مسلم (٣/٨٧ - ٨٨) وغيرهم: بما دل عليه ظاهر الحديث

^{٢٣٩} - الشفا - مع شرحه للإمام علي القاري - (٤/٤٧١).

فيكون بهذا الإقرار مترّهاً عن الخطأ، وإنما أن يصوّب اجتهاده بقول الوحي عليه بكتابٍ أو سنةٍ ببيان أنه أخطأ وأن الصواب كذا وكذا، وهو بهذا التصويب عُصِم من نقصِ البالغ أو تكذيب الواقع خطابه عليه السلام.

وهذا التقرير البالغ هو الذي يفيدنا التقرير التالي، الذي به تحرّر المسألة، وينحلّ محلّ التراغ، وهو: أنّ السنة وحيٌ: حالاً أو مالاً، أي إنما وحيٌ: ابتداءً، أو انتهاءً (بالإقرار أو التصويب).

وأنت تلحظ في هذين الجوابين أهما يعودان بالاجتهاد النبوى إلى أنه معبرٌ عن مراضي الله تعالى في التشريع: إنما بعصمة النبي عليه السلام عن الخطأ في الاجتهاد، أو بعدم إقراره عليه السلام على الخطأ، فما أقرَّ عليه (وهو الغالب) فهو مقرٌّ عليه من الله تعالى، فالله تعالى راضٍ عنه. وما لم يقرَّ عليه، فقد بلغنا رسول الله عليه السلام فيه عن مراضي الله، فكان اجتهاده عليه السلام - الأول كالمنسوخ ببلاغه الثاني لتصويب الله تعالى الذي جاء كالناسخ له.

ولم يقل أحدٌ من أهل العلم، لا من السلف ولا من الخلف: إن ما لم يقرَّ عليه النبي عليه السلام إلى وفاته مشروعٌ يجوز العمل به، وكيف يقول هذا أحدٌ وهو عليه السلام - لم يقرَّ عليه من ربّه عز وجل. فهذا الصنف من اجتهاداته عليه السلام - خارجٌ محلُّ النقاش أصلاً، ولا ينمازع فيه أحد. وإنما ما سواه: فقد أفادنا الجوابان السابقان أنَّ الاجتهاد النبوى فيه معبرٌ عن مراضي الله عز وجل، في التشريع، وبالتالي فهو وحيٌ، لكنه وحيٌ مالاً.

وبذلك تصحّ تلك الأوامر المطلقةُ والنصوصُ العامةُ التي أضاء بها الكتاب وتلألت بها السنة: الداللةُ الدلالةُ القطعيةُ: على وجوب تصديق خبره عليه السلام -، وطاعةُ أوامره عليه السلام -؛ لأنَّه عليه السلام - (وبعد وفاته) لا يُحتملُ أن يكون في أقواله وأخباره ما لم يقرَّه الله تعالى، وبالتالي: فجميع ما لم يصوّب من أقواله عليه السلام - فكُلُّهُ وحيٌ من الله تعالى، وما صوّب فقد بلغ عليه السلام - عن ربّه عز وجل - ذلك التصويب، وبقي هذا التصويب دليلاً من أدلة نبوّته عليه السلام -؛ لأنَّ مدّعى النبوة كذباً لن يحرص على الدلالة على أنه قد وقع في الخطأ! والأهم في ذلك: أنه بهذا التبليغ للتصويب قد تمَّ البالغُ وحفظَ الدين وعُصِمَت السنةُ من أي سببٍ يدعو إلى التردد في الطاعة أو التصديق.

وبذلك يتضح أنه لا فرق بين ما صدر عن النبي ﷺ - بمحى ابتداءً وما صدر عنه " باجتهاد: في وجوب التصديق لخبره والطاعة لأمره ؛ فكما كان الممحى به إليه ابتداءً لا خلاف في وجوب ذلك فيه ، فكذلك الاجتهاد منه" ؛ لأنه ممحى به إليه انتهاءً بالإقرار. فلا فرق بين سنة النبي " ، فكلها ومحى يوجب التصديق والطاعة ، بدلالة عمومات النصوص السابقة في الكتاب والسنة ، والتي لم تُخصّص سنة من سننه " : لا سنة الوحي ابتداءً ولا سنة الوحي انتهاءً ، ولا سنة الدين ولا سنة الدنيا. فالعمومات تشمل جميع السنة، ولم تخرج منها شيئاً. بل من تلك النصوص ما ورد في وجوب طاعته " في اجتهاده خاصة، ومنها ما ورد في وجوب طاعته في أمور الدنيا على وجه التحديد .

ومن هنا أدخل في الجواب عن الحديث الذي جعله بعضهم متكأً لرد كثير من السنن الثابتة عنه ﷺ -، لا من جهة عدم صحتها عنه ﷺ - عندهم، وإنما من جهة أنها اجتهاد قابل للصواب والخطأ. فهم قد لا يعارضون في الثبوت، بل قد يقررون أن النبي ﷺ - قد قال ذلك الحديث؛ لكنهم يعارضون في وجوب التصديق بما تضمنه ذلك الحديث، وفي العمل بما دل عليه؛ لأنه عندهم ليس من السنة التي هي ومحى.

وهذا الحديث هو عن عائشة وعنه أنسٌ أن النبي ﷺ - مرّ بقومٍ يلقيحون فقال « لو لم تفعلوا لصالح ». قال فخرج شيشاً^{٢٤٠} فمرّ بهم فقال « ما لتخلكم ». قالوا قلت كذا وكم قال « أتّمْ أعلم بامر دُنْيَاكم » ..^{٢٤١}

وفي لفظ آخر لهذا الوجه من أوجه روایات الحديث: عن عائشة أن النبي ﷺ - سمع أصواتاً. فقال « ما هذَا الصوتُ ». ^{٢٤٢}

قالوا النخل يُؤثرونَه فقال « لو لم يفعلوا لصالح ». فلم يُؤثروا عامئذ فصار شيشاً فذكروا للنبي ﷺ - فقال: « إن كان شيئاً من أمر دُنْيَاكم فشأنكم به وإن كان شيئاً من أمور دينكم فإليّ ». ^{٢٤٣}

^{٢٤٠} - الشيش: التمر الذي لم يكتمل نموه ونضجه، حتى ربما لم يأتِ له نوى .

^{٢٤١} - صحيح مسلم (٦٢٧٧)

^{٢٤٢} - سنن ابن ماجه (٢٥٦٥) صحيح

ووجه دلالة هذا الحديث على ما يستدل به القوم المشار إليهم آنفًا: أنه صريح في أن النبي ﷺ - يجتهد في أمور الدنيا، وأنه ﷺ - لذلك قد يخطئ، وبناءً على ذلك وضع قاعدة عامةً لنصوصه المتعلقة بأمور الدنيا، وأعلمنا أن الأمر فيها راجع إلى تحقيق المصلحة التي يعرفها أهل الدنيا، وأنه لا يلزمها اتباع أمره ﷺ، وذلك عندما قال: "أنتم أعلم بأمر دنياكم"، وقال: "إذا كان شيءٌ من أمر دنياكم: فشأنكم، وإذا كان شيءٌ من أمر دينكم: فإليّ".

هذا الحديث هو عمدة فنامٍ كبيرٍ مُنْ رَدُوا عَامَةَ السَّنَةِ أَوْ قَدْرًا مِنْهَا، وجعلوه أصلًا ما أكثر ما يلهجون به في مقالاتهم وبحوثهم، وكأنه أصل الأصول، وأصح منقول!! وأولٌ ما يؤخذ على هؤلاء هو هذا الاعتماد المبالغ فيه وفي دلالته، حيث جعلوا هذا الحديث الوحيد أساسًا ترجع النصوص إليه؛ وكأنه هو المُحْكَمُ الذي تؤول إليه كل نصوص القرآن والسنة التي تقدم قطرةً من بحثها، وغرفةً من نهرها!! وهذا خطأً منهجيًّا، لا من جهة أنه نصٌ واحد مقابل عشرات ... بل مئات النصوص، بل من جهة أنهم لم يُعنوا النظر في ألفاظ الرواية، لينظروا هل هي دالةٌ على ما يريدون، أم لا تدل؟ وهذا الخطأ كان سيكون مقبولًا، لو لم يكن هذا الاستدلال يخالف جميع تلك النصوص.

أما وقد خالفها، فكان هذا يوجب عليهم عميق النظر والدراسة. وقبل الدخول إلى مناقشتهم في انتقائياتهم لأحد ألفاظ الرواية؛ لأنها هي الرواية التي يؤيد لفظها مُرادهم، أوّد مُباحثتهم في أصل استدلالهم باللفظ الذي أوردوه واستدلّوا به: فأقول لهم: ما المراد بأمر الدنيا الذي يجعلونه مما لا يرجع فيه إلى السنة؟ حيث إنه يدخل في أمر الدنيا كلّ ما لا يدخل في أمر العقائد والعبادات المحسنة: كالمعاملات: من بيع وشراء، ونكاح وطلاق، وآداب للحديث واللباس والطعام والشراب وعموم الأخلاق ... وغير ذلك.

فإن قالوا: المقصود جميع ما ذُكر، لدخوله تحت دلالة قوله (أمر الدنيا)، كان هذا القول منهم دليلاً على سقوط فهمهم وبطلانه؛ لأنه خالف قطعيات الكتاب والسنة الدالة على

وجوب طاعة النبي ﷺ - فيما ذُكر من أمور المعاملات والأداب والأخلاق، وخالف أيضاً إجماع العلماء: فهذه كتب الفقه على جميع المذاهب وكتب العلم لدى جميع أهل العلم: حفيلة بنصوص السنة في ذلك، عظيمة العناية بالاهتمام بنورها، مستضيئه بهدايتها. وإن قالوا: بل بعض ذلك دون بعض، كأحاديث الطب.

قلنا: وما دليل هذا التخصيص؟ ثم إن الحديث الذي تتحجّون به ليس في الطب، بل النصّ الذي تعتمدونه ظاهره العموم (أمر الدنيا). فالتحصيص بلا دليل، دليل على بطلان ذلك القيل.

وبذلك نخلص أن هذا الفهم باطلٌ من أساسه؛ فلا عمومٌ مقبول، ولا خصوصٌ بالذي يُساعدُه الدليل؛ بل بطلان طرفيه أوضحٌ منْ أن يحتاج إلى شيءٍ من التطويل. وهذا يكفي لانعقاد القلوب على خلاف هذا الفهم، وعلى أن نعلم علم اليقين أن معارضته النصوص القاطعة في الكتاب والسنة بهذا الفهم السقّيْم لهذا الحديث غير قويم.

فإن قيل: فما الفهم الصحيح لهذا الحديث؟

قيل: هو أن تجمع طرق الحديث، وتنظر في ألفاظه أوّلاً:

فقد روى هذا الحديث موسى بن طلحة عن أبيه قال مررت مع رسول الله ﷺ - بقَوْمٍ على رءوس التّحْلِ فَقَالَ «مَا يَصْنَعُ هَؤُلَاءِ». قَالُوا يُلْقَحُونَهُ يَجْعَلُونَهُ فِي الْأَثَّى فَيَلْقَحُ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ - «مَا أَظُنُّ يُعْنِي ذَلِكَ شَيْئًا». قَالَ فَأَخْبَرُوا بِذَلِكَ فَتَرَكُوهُ فَأُخْبَرَ رَسُولُ الله ﷺ - بِذَلِكَ فَقَالَ «إِنْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ فَلَيَصْنَعُوهُ إِنَّمَا ظَنَّتُ ظَنًّا فَلَا تُؤَاخِذُونِي بِالظَّنِّ وَلَكِنْ إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنِ اللَّهِ شَيْئًا فَخُذُوا بِهِ فَإِنَّمَا لَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ». ٢٤٣

ورواه رافع بن خديج قال قدماً نبي الله ﷺ - المدينة وهم يأبرون التّحْلِ يَقُولُونَ يُلْقَحُونَ التّحْلِ فَقَالَ «مَا تَصْنَعُونَ». قَالُوا كُنَّا نَصْنَعُهُ قَالَ: «لَعَلَّكُمْ لَوْلَمْ تَفْعَلُوا كَانَ خَيْرًا». فَتَرَكُوهُ فَنَفَضَتْ أَوْ فَنَقَصَتْ - قَالَ - فَذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ إِذَا أَمْرَتُكُمْ

بِشَيْءٍ مِّنْ دِينِكُمْ فَخُذُوهُ بِهِ وَإِذَا أَمْرَتُكُمْ بِشَيْءٍ مِّنْ رَأْيِ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ ». قَالَ عَكْرِمَةُ أَوْ تَحْوِيْهَا. قَالَ الْمَعْقُرِيُّ فَنَفَضَتْ. وَلَمْ يَشُكْ ٢٤٤.

وَسِنْفَقَ مَعَ هَذِينَ الْفَظِيْنِ عَدْدَ وَقَاتَ:

أوّلًا: جاء التصريح في كلا اللفظين من النبي ﷺ - أنه لم ينفهم عن تلقيح النخل إلا بناءً على الاجتهاد، ووضّح لهم ﷺ - ابتداءً أنه لا يقول ما يقوله في ذلك اعتماداً على حبر السماء، بل اعتماداً على ظنه واجتهاده. فقد قال في رواية طلحة - رضي الله عنه -: "ما أظن يعني ذلك شيئاً" ، وقال في رواية رافع - رضي الله عنه -: "العلم لو لم تفعلوا كان خيراً" ، ومن المعلوم أنه لو كان ما قاله في شأن تلقيح النخل وحجاً لما قال: "أظن" ولا "العلم" ، فهذا اللفظان قاطعان لمن سمعهما منه ﷺ - أنه لا يُخبر عن وحي السماء، وإنما يُخبر عن اجتهاده.

وهذا التنبية يوجب علينا التفريق بين نصّ نبويٌّ صريح بأنه اجتهادٌ غير مجزوم به، مثل هذا النص، ومن أمثلته أيضاً حديث ثابت بن يزيد الأنصاري - رضي الله عنه -، قال: كنّا مع رسول الله ﷺ - في جيش، فأصبنا ضباباً، فشوّيت منها ضباباً، فأتيتُ بِهِ النبِيَّ ﷺ -، فجعل ينظر إليه وُقْبَلُهُ، وقال: "إِنَّ أُمَّةً مُسْخَتْ، لَا يُذْرِي مَا فَعَلْتْ، وَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعْلَهُ هَذِهِ مِنْهَا" . فما أمر بِأَكْلِهَا، وَلَا نَهَى.

وَحَدِيثَ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ أَعْرَابِيًّا أَتَى رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالَ إِنِّي فِي غَائِطٍ مَضَبَّةٍ وَإِنَّهُ عَامَةٌ طَعَامٌ أَهْلِي - قَالَ - فَلَمْ يُجْبِهُ فَقُلْنَا عَاوِدْهُ. فَعَاوَدْهُ فَلَمْ يُجْبِهُ ثَلَاثَةُ ثُمَّ نَادَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْثَالِثَةِ فَقَالَ «يَا أَعْرَابِيُّ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ أَوْ غَضَبَ عَلَى سَبْطِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَمَسَخَهُمْ دَوَابَّ يَدِيُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا أَدْرِي لَعْلَهُ هَذَا مِنْهَا فَلَسْتُ أَكُلُّهَا وَلَا أَنْهَى عَنْهَا» .

٢٤٤ - صحيح مسلم (٦٢٧٦) - يأبر : يلقيح = نفّضت : أُسقطت ثُرّها

٢٤٥ - أخرجه أبو داود: رقم (٣٧٨٩) والنسائي: رقم (٤٣٢٠ - ٤٣٢٢) وابن ماجه: رقم (٣٢٣٨) بإسناد صحيح.

٢٤٦ - صحيح مسلم (٥١٥٦)

وَحَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - «فُقِدَتْ أُمَّةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا يُدْرِكُ مَا فَعَلَتْ وَلَا أُرَاهَا إِلَّا فَأَرَاهَا إِذَا وُضِعَ لَهَا الْبَانُ الْإِبْلِ لَمْ تَشْرَبْهُ وَإِذَا وُضِعَ لَهَا الْبَانُ الشَّاءُ شَرَبَتْهُ». ^{٢٤٧}

ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - أُوحِيَ إِلَيْهِ بِمَا صَحَّ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: وَذَكَرَتْ عَنْهُ الْقِرَدَةُ قَالَ مَسْعُرٌ وَأَرَاهُ قَالَ وَالْخَنَازِيرُ مِنْ مَسْخٍ فَقَالَ «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْ لِمَسْخٍ سَلَامًا وَلَا عَقِبًا وَقَدْ كَانَتِ الْقِرَدَةُ وَالْخَنَازِيرُ قَبْلَ ذَلِكَ». ^{٢٤٨}

فَبَيْنَ أَنْ مَا قَالَهُ - ﷺ - فِي شَأْنِ الْضَّبَّ وَالْفَأْرَ كَانَ ظَنًّا (كَمَا جَاءَ مَصْرِحًا بِهِ)، ثُمَّ أُوحِيَ إِلَيْهِ - ﷺ - بِأَنَّ الْمُسُوخَ لَا نَسْلَ لَهَا. فَقُطِعَ بِذَلِكَ دُونُ ظَنٍّ أَوْ تَرْدِدٍ. وَنَصٌّ آخَرُ صَدَرَ مِنْهُ - ﷺ - عَلَى وَجْهِ الْقُطْعَ وَعَدْمِ الشَّكِّ، فَهَذَا حُقُّ مَطْلَقًا، إِلَّا أَنْ يُصْرُوَ بِهِ النَّبِيُّ - ﷺ - بِمَا يُوحَى إِلَيْهِ مِنْ قُرْآنٍ أَوْ سُنْنَةً.

ثَانِيًا: أَنَّ الْخَطَأَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ قَدْ وَقَعَ مِنَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ تَرَكُوا تَلْقِيَةَ النَّخْلِ ^{٢٥٠}؛ لِأَنَّهُمْ حَمَلُوا ظَنَّ النَّبِيِّ - ﷺ - عَلَى عَدْمِ احْتِمَالِ الْخَطَأِ، وَكَانَهُ وَحْيٌ، فَقَدَّمُوا ظَنَّهُ - ﷺ - عَلَى مَا عَلِمُوهُ يَقِيْنًا مِنْ ضَرُورَةِ تَلْقِيَةِ النَّخْلِ !!

قَالَ الْمَنَاوِيُّ فِي (فِيَضُ الْقَدِيرِ): «قَوْلُهُ: «إِنَّا أَنَا بَشَرٌ» يَعْنِي: أُخْطِئُ وَأُصِيبُ فِيمَا لَا يَتَعَلَّقُ بِالْدِينِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ مَحْلُ السَّهْوِ وَالنَّسِيَانِ، وَمَرَادُهُ بِالرَّأْيِ: فِي أُمُورِ الدِّينِ، عَلَى مَا عَلَيْهِ جَمْعٌ. لِكُنَّ بَعْضَ الْكَامِلِينَ قَالَ: أَرَادَ بِهِ الظَّنُّ؛ لِأَنَّ مَا صَدَرَ عَنْهُ بِرَأْيِهِ وَاحْتِهَادِهِ وَأَقْرَرَ عَلَيْهِ حُجَّةُ إِلْسَامٍ مَطْلَقًا». ^{٢٥١}

وَهُدَا الَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ هُؤُلَاءِ الْكَامِلُونَ، هُوَ الَّذِي يَدْلِلُ عَلَيْهِ لِفَظُ الْحَدِيثِ وَسِيَاقُهُ، فَاحْرَصَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْكَامِلِينَ !!

^{٢٤٧} - صَحِيحُ مُسْلِمٍ (٧٦٨٨)

^{٢٤٨} - صَحِيحُ مُسْلِمٍ (٦٩٤١)

^{٢٤٩} - وَهُدَا مَا قَرَرَهُ الطَّحاوِيُّ فِي شَرْحِ مَشْكُلِ الْأَثَارِ (٣٢٥/٨، ٣٢٧-٣٢٨، ٣٣٨، ٣٢٧٣-٣٢٨٨).

^{٢٥٠} - هُدَا مَا صَرَحَ بِهِ شِيَخُ إِلْسَامٍ إِنْ تِيمِيَّهُ (مُجْمُوعُ الْفَتاوِيِّ: ١٢/١٨).

^{٢٥١} - فِيَضُ الْقَدِيرِ (٥٦٧/٢).

فإنك إن نظرت في لفظ الحديث بروايته السابقتين، تجد أنه ——— أخبرهم بظنه المصحح بأنه ظن، ثم لما أخذوا بظنه قال لهم: ((إنما ظنت ظناً، فلا توأخذوني بالظن))، أي ما دمت قد صرحت لكم برأي أظن فلا مؤاخذة علي، ثم إنه ——— جعل الذي يُقابل الظن: ما أخبر به عن الله تعالى، فقال: ((ولكن إذا حدثكم عن الله شيئاً فخذوا به)). إذن فليس هناك إلا ظن أو وحي، والظن هو ما صرَّح بكونه ظناً، والوحي ما قطع به وأقرَّ عليه؛ لأنَّه ——— لا يُقرَّ على خطأ.

ويشهد لذلك أيضاً اللفظ الآخر، فإنه ——— قال: ((إنما أنا بشر، فإذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأي، فإنما أنا بشر))، فتبينه أنه قابل بين الدين والرأي (أي: الاجتهاد الظني)، ولم يُقابل بين الدين والدنيا.

والمعنى: أنَّ السنة التي من الدين (أي من الوحي) هي التي لم تكن باجتهاد، وليس هي التي تكون في أمور الدنيا مطلقاً. فسياق الحديث دلَّ الصحابة على الطريقة التي يفرّقون بها بين سنة الدين والرأي (الاجتهاد)، ولم يأت في الحديث ما يفرّقون به بينهما؛ إلا تصرِّيحة بأنه قال ما قال عن ظن واجتهاد. فالحديث جاء للتفريق بين النص الذي يُصرَّح فيه بأنه ظن، والنَّص الآخر القاطع، وقد قال الطحاوي معلقاً على هذا الحديث: "فَأَخْبَرَ رَسُولُ اللهِ ——— فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ مَا قَالَهُ مِنْ جِهَةِ الظَّنِّ ، فَهُوَ فِي كَسَائِرِ النَّاسِ فِي ظُنُونِهِمْ ، وَأَنَّ الَّذِي يَقُولُهُ ، مِمَّا لَا يَكُونُ عَلَى حَلَافَ مَا يَقُولُهُ هُوَ مَا يَقُولُهُ عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ . فَلَمَّا كَانَ نَهْيُهُ عَنِ الْغَيْلَةِ ، لَمَّا كَانَ خَافَ مِنْهَا عَلَى أَوْلَادِ الْحَوَامِلِ ، ثُمَّ أَبَاحَهَا" .^{٢٥٢}

فتتبَّعهُ أنَّ الطحاوي (رحمه الله) جعل القسمة: ظناً ووحيًا، لا دنيا ودين، وهذا هو موطن الشاهد في كلامه، وهو واضح الدلالة لمن تأمله.

أمَّا ما اجتهد فيه النبي ——— وأخبر به جازماً، ثم صوّبه الوحي بعد ذلك؛ فهذا وجْه آخر للتفريق بين سنة الوحي والاجتهاد منه ——— الذي ليس بوحي، لأنَّه يُقال في هذا الوجه:

^{٢٥٢} - شرح معاني الآثار (٣/٤٨) (٤٨٥٤) وانظر أيضاً قوله (٤٥٣٨)

إِنَّ مَا أَقْرَى عَلَيْهِ النَّبِيُّ - ﷺ - فَهُوَ وَحْيٌ، وَمَا صُوَّبَ فَقَدْ عَرَفْنَا بِالصُّوَّبِ أَنَّهُ مَا قَالَهُ قَبْلَهُ لِيُسَمِّيَ وَحْيًا.

وقد سبق أن ما اجتهد فيه النبي - ﷺ - وصَوْبُه له الوحي لا يختصُّ بأمور الدنيا، فقد اجتهد النبي في أمور الدين أيضاً وصَوْبُ الوحي له اجتهاده. فإن كان مجرد تصويب الوحي لاجتهاده - ﷺ - في أمور الدنيا سبباً لاعتقاد أنها ليست وحيّاً، فيلزم أن يكون تصويب الوحي لاجتهاده - ﷺ - في أمور الدين سبباً لاعتقاد أنها ليست وحيّاً أيضاً!! وهذا ما لا ي قوله إلا غلاة أهل الضلال؛ لأنه يخالف قطعيات الكتاب والسنّة وإجماع علماء المسلمين وعواهم.

وبذلك نخلص أن الشرع المحفوظ ونصوصه المصنونة قد جعلا لنا وسائلين للتمييز بين: سنّة الوحي التي لا تحتمل إلا الصدق وتوجب العلم أو العمل، وسنة الاجتهاد التي تحتمل الصواب والخطأ^{٢٥٣}.

وفيها ما هو للتشريع العام وما هو للتشريع الخاص، وقد حرق ذلك المحققون من العلماء.

* أهم الأولويات التي لا بد من مراعاتها *

١- أولوية الـ (كيف) على الـ (كم)، (أولوية الكيفية على الكمية)

فليست العبرة بالكثرة في العدد ولا بالضخامة في الحجم، وإنما المدار على النوعية والكيفية.

ولقد ذم القرآن الأكثريّة إذا كان أصحابها من لا يعقلون أولاً يعلمون أو لا يؤمّنون أولاً يشكرون، كما نطق بذلك آيات وفيّة من كتاب الله - تعالى -: {وَلَئِنْ سَأَلْتُهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} (٦٣) سورة العنكبوت، {وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدُهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} (٦) سورة الروم

^{٢٥٣} - انظر كتابي ((السنة النبوية وأثرها في اختلاف الفقهاء)) - ط١ - (١ / ٨١) المبحث الثالث - هل اجتهد النبي -

- ينافي كون السنّة وحيّاً؟

في حين مدح القرآن القلة المؤمنة العاملة الشاكرة: { اعْمَلُوا آلَ دَاؤُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ } (١٣) سورة سباء.

ويذكر كثير من الناس الحديث النبوي عن أنسٍ، فذكر حديثاً بهذا، ثم قال: وياستاده أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَأْمُرُ بِالْبَاعِثَةِ، وَيَنْهَا عَنِ التَّبَتُّلِ نَهِيًّا شَدِيدًا، وَيَقُولُ: تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ، فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ..^{٢٥٤}

ولكن الرسول الكريم لن ياهي الأمم بالجهلة ولا بالفسقة ولا بالظالمين، إنما ياهي بالطيبين العاملين النافعين !

وعن سالمٍ، عن أبيه، قال: قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّمَا النَّاسُ كَيْلَلِ مِائَةً لَا يَجِدُ الرَّجُلُ فِيهَا رَاحِلَةً^{٢٥٥}، دلالة على ندرة النوع الجيد في الناس، كندرة الراحلة الصالحة للسفر والركوب والحمل في الإبل، حتى إن المائة لا يكاد يوجد فيها واحدة من هذا النوع !

والتفاوت في بني الإنسان أكثر منه في جميع الفصائل والأنواع الأخرى من الحيوان وغيره، حتى جاء في الحديث عن سلمانَ، قال: قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَيْسَ شَيْءٌ خَيْرًا مِنْ أَلْفِ مِثْلِهِ إِلَّا إِنْسَانٌ.^{٢٥٦}

ومن قرأ سيرة الرسول - ﷺ - علم أن عنياته كانت بال النوع لا بالكم، ومن قرأ سير أصحابه وخلفائه رأى ذلك بجلاء ووضوح أيضاً. العناية إذن يجب أن تتجه إلى الكيف والنوع لا مجرد الكم، والمقصود بـ "الكم" هنا: كل ما يعبر عن مقدار الجانب المادي وحده، من كثرة العدد، أو سعة المساحة، أو كبر الحجم، أو ثقل الوزن، أو طول المدة، أو غير ذلك مما يدخل في هذا المجال. وما قلناه في كثرة العدد نقوله في الأمور الأخرى، فالإنسان مثلاً لا يقاس بطول قامته أو قوته عضلاته أو ضخامة جسمه أو جمال صورته، فهذه كلها خارجة عن جوهره وحقيقة إنسانيته .

^{٢٥٤} - كشف الأستار - (٢ / ١٤٨) (١٤٠٠) حسن لغيره

^{٢٥٥} - صحيح مسلم- المكتتر - (٦٦٦٣) و صحيح ابن حبان - (٤٦ / ١٤) (٤٦٧٢)

^{٢٥٦} - الفوائد لتمام ٤١٤ - (٢ / ٢٩) (٩٧٣) حسن

عَنِ الْأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: "لَيَأْتِيَنَّ الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزِنُ جَنَاحَ بَعْوضَةٍ" ثُمَّ قَرَأَ: {فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا} [الكهف: ١٠٥]. متفق عليه^{٢٥٧}.

وعَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودَ، كَانَ يَحْتَرُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَوَاكًا مِنْ أَرَاكَ، وَكَانَ فِي سَاقِيهِ دَقَّة، فَضَحَّكَ الْقَوْمُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَا يُضْحِكُكُمْ مِنْ دَقَّةٍ سَاقِيهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أَحَدٍ^{٢٥٨}.

وليس معنى هذا: أن الإسلام لا يقيم وزناً لصحة الجسم وقوته. كلا، فهو يهتم بذلك غاية الاهتمام، ففي الصحيح عن أبي موسى، قال: دخلت امرأة عثمان بن مطعون على نساء النبي ﷺ فرأينها سيدة الهيئة، فقلن: ما لك، ما في قريش رجل أعنى من بعلك، قالت: ما لنا منه شيء؟ أما نهاره فصائم، وأما ليه ففائم، قال: فدخل النبي ﷺ فذكرن ذلك له، فلقيه النبي ﷺ، فقال: يا عثمان، أما لك في أسوة؟ قال: وما ذاك يا رسول الله، فدأك أبي وأمي؟ قال: أما أنت فتقوم الليل وتصوم النهار، وإن لأهلك عليك حقاً، وإن لحسدك عليك حقاً، صل ونم، وصم وأفطر، قال: فأشتهم المرأة بعد ذلك عطرة كأنها عروس، فقلن لها: مه، قالت: أصابنا ما أصاب الناس^{٢٥٩}.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الْمُضَعِّفِ وَفِي كُلِّ خَيْرٍ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَرٌّ فَلَا تَقْلِ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَّا وَكَذَّا قُلْ قَدَرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ اللَّهُ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفَتَّحْ عَمَلَ الشَّيْطَانِ" رواه مسلم^{٢٦٠}.

ولكنه لا يجعلها معيار الفضل. فالرجال يقاسون بما في رؤوسهم من علم وما في قلوبهم من إيمان وما يشمره الإيمان من عمل، والعمل في نظر الإسلام لا يقاس بحجمه ولا عدده، وإنما

^{٢٥٧} - صحيح البخاري - المكتبة - (٤٧٢٩) و صحيح مسلم - المكتبة - (٧٢٢٢)

^{٢٥٨} - صحيح ابن حبان - (١٥ / ٥٤٦) و صحيح ابن حجر - (٧٠٦٩)

^{٢٥٩} - صحيح ابن حبان - (٢ / ١٩) و صحيح ابن حجر - (٣١٦)

^{٢٦٠} - صحيح مسلم - المكتبة - (٦٩٤٥) و شعب الإيمان - (١١ / ٣٧٢)

يقال بعده إحسانه وإتقانه، وإحسان العمل في الإسلام ليس نافلة، بل هو فريضة كتبها الله - تعالى - على المؤمنين، كما كتب عليهم الصيام وغيره من الفرائض !

وفي العبادات كذلك الكيفية مقدمة على الكمية فيها، ومثال ذلك الصائم لا يحصل على ثواب - إذا آذى الناس - مهما صام من الأيام والشهور، فعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: رَبُّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ، وَرَبُّ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهْرُ. رواه ابن ماجه ^{٢٦١}.

٢- الأولويات في مجال العلم والفكر :

ومنها :

أ- أولوية تقديم العلم على العمل

- قال الله - تعالى - : {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَّقَلَّبَكُمْ وَمَوْاْكِمْ} (١٩) سورة محمد .

فأمر رسوله بالعلم والتوحيد أولاً، ثم ثنى بالاستغفار وهو عمل، والخطاب وإن كان للنبي - ﷺ - فهو متناول لأمته.

وقال الله - تعالى - : {وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابُّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفُ الْوَالَّهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ} (٢٨) سورة فاطر، فالعلم هو الذي يورث الخشية الدافعة إلى العمل .

- عن ابن شهاب، قال: أخبرني حميد بن عبد الرحمن، أَنَّهُ سَمِعَ مُعاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهُ فِي الدِّينِ ^{٢٦٢}. لأنَّه إذا فقه عمل وأحسن ما عمل .

- عن عمر بن عبد العزيز، قال: مَنْ لَمْ يَعْدْ كَلَامُهُ مِنْ عَمَلِهِ كُثُرَتْ خَطَايَاهُ، وَمَنْ عَمِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ مَا يَفْسُدُ أَكْثَرَ مِمَّا يَصْلُحُ ^{٢٦٣} . وهذا واضح في بعض الفتاوا من المسلمين،

^{٢٦١} - سنن ابن ماجة- ط-الرسالة - (٢ / ٥٩١) (١٦٩٠) حسن

^{٢٦٢} - صحيح البخاري- المكتـ - (٧١) وصحيح ابن حبان - (١ / ٢٩١) (٨٩)

^{٢٦٣} - مصنف ابن أبي شيبة - (١٣ / ٤٧٠) (٣٦٢٤٦) صحيح لغيره

الذين لم تكن نقصهم التقوى أو الإخلاص والحماس، وإنما كان نقصهم العلم والفهم
مقاصد الشرع وحقائق الدين .

- العلم شرط لأي عمل، عنْ بُرِيَّةَ الْأَسْلَمِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "الْقُضَاءُ ثَلَاثَةُ
قَاضِيَانِ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ فِي الْجَنَّةِ، قَاضٍ قَضَى بِغَيْرِ الْحَقِّ وَهُوَ يَعْلَمُ فَذَلِكَ فِي النَّارِ،
وَقَاضٍ قَضَى وَهُوَ لَا يَعْلَمُ فَأَهْلَكَ حُكْمَقَ النَّاسِ فَذَلِكَ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ قَضَى بِالْحَقِّ فَذَلِكَ
فِي الْجَنَّةِ" .^{٢٦٤}

- وكذلك في الفتوى، فلا يجوز أن يفتي الناس إلا عالم متمكن في علمه فقيه في دينه،
وللأسف فإننا نرى بعض من هم في بداية علمهم، أو من لم يتمكنوا تمام التمكן في الفقه،
يفتون باستعجال واستعلاء في أعو奇妙 المسائل وأخطر القضايا، ويتطاولون على العلماء
الكبار، بل ينطحون الأئمة العظام والصحابة الأعلام، ويقولون في غرور وانتفاخ: هم
رجال ونحن رجال !!! وهم أنفسهم يفتقرن إلى معرفة قدر أنفسهم، ثم فقه مقاصد
الشرع وفقه حقائق الواقع، ولكن الغرور حجاب كثيف دون ذلك ولا حول ولا قوة إلا
بِاللَّهِ !

ب- أولوية الفهم على مجرد الحفظ .

- الإسلام يريد منا التفقه في الدين، لا مجرد تعلم الدين، والتتفقه شيء أعمق وأخص من
العلم، إنه الفهم والفهم الدقيق، عن أبي هريرة، أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: تَجِدُونَ النَّاسَ
مَعَادِنَ، فَخَيَّارُهُمْ فِي الْحَالَلَيَّةِ خَيَّارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا، وَتَجِدُونَ خَيْرَ النَّاسِ فِي
هَذَا الْأَمْرِ أَكْرَهَهُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَقْعُدُ فِيهِ، وَتَجِدُونَ مِنْ شَرِّ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ، الَّذِي يَأْتِي
هُوُلَاءِ بِوَجْهٍ، وَهُوُلَاءِ بِوَجْهٍ .^{٢٦٥}

- عن أبي موسى عن النبي - ﷺ - قَالَ «مَثُلُّ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ
الْعَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا تَقْيَةٌ قَبْلَتِ الْمَاءَ، فَأَبْتَتِ الْكَلَأُ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ،

^{٢٦٤} - شعب الإيمان - (١٠ / ٣٥) (٧١٢٥) صحيح

^{٢٦٥} - صحيح البخاري- المكتـ - (٣٣٥٣) وصحيح مسلم- المكتـ - (٦٦١٥) وصحيح ابن حبان - (١٣ / ٦٩)

وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيَعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلٌ مَّنْ فَقَهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعْنَى اللَّهَ بِهِ، فَعِلْمٌ وَعَلَمٌ، وَمَثَلٌ مَّنْ لَمْ يَرَفِعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبِلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أَرْسَلْتُ بِهِ ٢٦٦ .

- هذا لا يعني أنه ليس للحفظ قيمة، ولكن المقصود أن الحفظ ليس مقصوداً لذاته وإنما هو وسيلة لغيره. وإننا لنجد مبالغة في تكريم حفاظ القرآن الكريم - على ما في ذلك من فضل - بكثير من الجوائز القيمة، ولكن لم يرصد مثل هذه الجوائز للنابغين في العلوم الشرعية المختلفة، مع أن حاجة الأمة إلى هؤلاء أكثر ونفعهم أعظم وأغزر .

ج- أولوية المقاصد على الظواهر:

- وذلك من خلال الغوص في مقاصد الشريعة، ومعرفة أسرارها وعللها، وربط بعضها ببعض، ورد فروعها إلى أصولها، وجزئياتها إلى كلياتها، وعدم الاكتفاء بالوقوف عند ظواهرها، والجلوس على حرفة نصوصها. وكثيراً ما أدت هذه الحرفة الظاهرية إلى تحجير ما وسَعَ اللَّهُ - تعالى -، وتعسّير ما يسّر الشرع وتحميم ما من شأنه أن يتتطور، وتقيد ما من شأنه أن يتجدد ويتحرر ! .

د- أولوية الاجتهاد على التقليد (في الأمور المستجدة والطارئة).

- وهذا لا يعني نفي تقليد الأئمة - رحمة الله تعالى -، وإنما مراعاة تغير زماننا عن زمانهم و حاجاتنا عن حاجاتهم، و معارفنا عن معارفهم. وهم أنفسهم ربما لو تأخر الزمان حتى رأوا ما رأينا وعاشو ما عشنا - وهم أهل الاجتهاد والنظر - لغيروا كثيراً من فتاواهم واجتهاداتهم، كيف وقد غير أصحابهم من بعدهم كثيراً منها لاختلاف العصر والزمان رغم قرب ما بين أولئك وهؤلاء؟ بل كيف وقد غير الأئمة كثيراً من أقوالهم في حيائهم، تبعاً لتغير اجتهادهم، بتغيير السن أو النصيحة أو الزمان أو المكان؟

٢٦٦ - صحيح البخاري- المكر - (٧٩)

الأجذب : جمع أجذب وأجذب جذب وهي الأرض التي لا تنبت كلاً
القيعان : جمع القاع و معناها هنا الأرض التي لا نبات فيها

هـ- أولوية الدراسة والتخطيط لأمور الدنيا

إذا كنا نقول بضرورة سبق العلم على العمل في أمور الدين، فنحن نؤكّد ضرورة ذلك في شؤون الدنيا أيضًا، فنحن في عصر يؤسس كل شيء على العلم، ولم يعد يقبل الارتجال والغوغائية في أمر من أمور الحياة. فلا بد لأي عمل جاد من الدراسة قبل العزم عليه، ولا بد من الاقتناع بجدواه قبل البدء فيه، ولا بد من التخطيط قبل التنفيذ، ولا بد من الاستعانة بالأرقام والإحصاءات قبل الإقدام على العمل. فالإحصاء والتخطيط والدراسة قبل العمل، كلها من صميم الإسلام، والرسول - ﷺ - كان أول من أمر بعمل إحصائي منظم لمن آمن به بعد هجرته إلى المدينة، ولقد ظهر أثر التخطيط في سيرته في صور ومواقف شتى. فالتحطيط أساس لأي عمل يراد إنجاحه.

و- الأولويات في الآراء الفقهية .

وذلك بمعرفة الآراء التي لا تتحتمل الخلاف قط ولا يقبل فيها رأي آخر ولا مجال فيها لتسامح، والآراء التي تقبل نسبة - ولو ضئيلة - من التسامح، والآراء التي تتسع للكثير من الخلاف والتسامح، وكذلك التفريق بين القطعي والظني من النصوص، فمن النصوص ما هو ظني الثبوت وظني الدلالة معاً، ومنها ما هو ظني الثبوت قطعي الدلالة، ومنها ما هو قطعي الثبوت ظني الدلالة، ومنها ما هو قطعي الثبوت قطعي الدلالة معاً.

وظنية الدلالة تشمل السنة والقرآن جميًعاً، فمعظم النصوص فيها تتحتمل تعدد الأفهام والتفسيرات، لأنَّ ألفاظ اللغة بطبعتها فيها الحقيقة وفيها المجاز والكناية، والخاص والعام، والمطلق والمقييد... وكثيراً ما تخضع الأفهام لعقول الناس وظروفهم واتجاهاتهم النفسية والعقلية .

والقرآن كله قطعي الثبوت من غير شك، ولكن أكثر آياته - في جزئياتها - ظنية الدلالة، ولذا اختلف الفقهاء في الاستنباط منها. ولكن القضايا الكبرى مثل الأولوية والنبوة والجزاء وأصول العبادات وأمهات الأخلاق (فضائل ورذائل)، والأحكام الأساسية للأسرة والميراث، والحدود والقصاص، ونحو ذلك قد بيَّنتها آيات محكمات، تقطع التراغ، وتجتمع الكل على كلمة سواء. وأكَّدت هذه القضايا السنة النبوية قولاً وعملاً

وفعلاً وتقريراً، كما أكدتها الإجماع اليقيني من علماء الأمة، واقترن بها التطبيق العملي من الأمة.

- ومن هنا لا يجوز الخلط - جهلاً أو قصدًا - بين النصوص بعضها وبعض .والذي يرفض أبداً هو رد النصوص القطعية الثبوت والدلالة جمِيعاً، فهذه - وإن كانت قليلة - تعتبر في غاية الأهمية في الدين، لأنها هي التي تحسد الوحدة العقدية والفكرية والشعورية والعلمية للأمة المسلمة وهي التي يحتمكم إليها عند التزاع.ولذلك لا بد أن نحذر من تلك المؤامرة الفكرية التي تعمل على تحويل القطعيات إلى ظنيات، والمحكمات إلى متشابهات، مثل الذين يجادلون في آية تحريم الخمر: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (٩٠) سورة المائدة ويشككون في دلالة كلمة "فاجتنبوا" على تحريم ! ومثل الذين يجادلون في تحريم الربا، ومثل الذين يجادلون في تحريم لحم الخنزير، ومثل الذين يجادلون في ميراث المرأة أو في قوامية الرجل على الأسرة أو في لباس المرأة المسلمة المختشم ...
- القطعيات هي التي يجب أن تكون أساس التفقيه والتثقيف وأساس الدعوة والإعلام وأساس التربية والتعليم وأساس الوجود الإسلامي كله .

٣- الأولويات في مجال الفتوى والدعوة :

أ- أولوية التخفيف والتسهير على التشديد والتعسیر .

- لقد دلت النصوص من الكتاب والسنّة أن التيسير والتخفيف أحب إلى الله - تعالى - وإلى رسوله: قال الله - تعالى -: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٌ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانَ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلِيَصُمُّهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعَدَهُ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلَتُكَمِّلُوا الْعِدَّةَ وَلَتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَأْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (١٨٥) سورة البقرة.وقال - سبحانه -: {يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَفِّظَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا} (٢٨) سورة النساء، وقال - عز وجل -: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهِرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ

أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمْ أَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجْدُوا مَاءَ فَتَيَمِّمُوا صَعِيدًا طَيَّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلَيُتَمِّمَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ شَكُورُونَ {٦} سورة المائدة.
وعَنِ الْأَعْرَابِيِّ، الَّذِي سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ خَيْرَ دِينِكُمْ أَيْسَرُهُ، إِنَّ خَيْرَ دِينِكُمْ أَيْسَرُهُ . ٢٦٧

وعَنْ مَحْجَنِ، قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِي حَتَّى اتَّهَيْنَا إِلَى سُدَّةِ الْمَسْجَدِ فَإِذَا رَجَّلٌ يَرْكَعُ وَيَسْجُدُ وَيَرْكَعُ وَيَسْجُدُ فَقَالَ لِي: مَنْ هَذَا؟ فَقُلْتُ: هَذَا فُلَانٌ فَجَعَلَتُ أُطْرِيَهُ وَأَقُولُ: هَذَا هَذَا فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا تُسْمِعُهُ فَتَهْلِكُهُ ثُمَّ اطْلَقَ بِي حَتَّى بَلَغَ بَابَ حُجْرَةِ ثُمَّ أَرْسَلَ يَدَهُ مِنْ يَدِي فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: خَيْرُ دِينِكُمْ أَيْسَرُهُ قَالَهَا ثَلَاثَةً . ٢٦٨
وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللَّهِ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْمَحَةُ . ٢٦٩
وعَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: مَا خَيْرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرِيْنِ إِلَّا أَحَدَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِذَا كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسَ مِنْهُ، وَمَا اتَّقَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ثَنَّاهُ حُرْمَةُ اللَّهِ، فَيَتَقَمَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . ٢٧٠

- ويتأكد ترجيح الرخصة و اختيار التيسير، إذا ظهرت الحاجة إليها، لضعف أو مرض أو شيخوخة أو لشدة مشقة أو غير ذلك من المرحفات .

- رأينا أنَّ الرَّسُولَ - ﷺ - قد دعا إلى تعجيل الفطور وتأخير السحور، تيسيرًا على الصائم ٢٧١، وعنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبَا مُوسَى، وَمَعَاذَ بْنَ حَبَلٍ إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ لَهُمَا: يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا وَتَطَاوِعَا. قَالَ أَبُو مُوسَى: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا بِأَرْضٍ يُصْنَعُ فِيهَا شَرَابٌ مِّنَ الْعُسَلِ: يُقَالُ لَهُ

٢٦٧ - مسند أحمد (علم الكتب) - (٥ / ٤٦٩) (١٥٩٣٦) - ١٦٠٣٢ - صحيح

٢٦٨ - مسند الطيالسي - (٢ / ٦٢٨) (١٣٩٢) صحيح

٢٦٩ - المعجم الكبير للطبراني - (١٩ / ٣٧٧) (٩١٨) صحيح

٢٧٠ - مسند أحمد (علم الكتب) - (٨ / ٥٢٠) (٢٦٢٦٢) - ٢٦٧٩٢ - وصحیح البخاری - المکتـ - (٣٥٦٠)

وصحیح مسلم - المکتـ - (٦١٩٠))

٢٧١ - الفتاوى الكبرى لابن تيمية - (٣ / ١٣٢)

البِّئْرُ، وَشَرَابٌ مِّنَ الشَّعِيرِ: يُقَالُ لَهُ الْمِزْرُ قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ.
متفق عليه ^{٢٧٢}.

بل رأينا - ﷺ - يشدد النكير على من يشدد على الناس ولا يراعي ظروفهم المختلفة، كما فعل بعض الصحابة الذين كانوا يؤمون الناس ويطلبون في الصلاة طولاً اشتكت منه بعض مأموريهم، فعن حَابِرَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: كَانَ مُعاَذُ بْنُ جَبَلٍ يُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى قَوْمِهِ فَيَؤْمِنُهُمْ، قَالَ: فَأَخَرَ النَّبِيُّ ﷺ الْعِشَاءَ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَصَلَّى مَعَهُ مُعاَذُ بْنُ جَبَلٍ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْنَا فَتَقَدَّمَ لِيَؤْمِنَنَا، فَأَفْتَسَحَ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ رَجُلٌ مِّنَ الْقَوْمِ تَسَحَّى فَصَلَّى وَحْدَهُ، ثُمَّ أَنْصَرَفَ، فَقُلْنَا لَهُ: مَا لَكَ يَا فُلَانُ، أَنَا فَقَتْ؟ قَالَ: مَا نَافَقْتُ، وَلَا تَبَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ فَلَأُخْبِرَنَّهُ، فَأَتَى النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ مُعاَذًا يُصَلِّي مَعَكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ فِيَوْمِنَا، وَإِنَّكَ أَخَرَتَ الْعِشَاءَ الْبَارِحَةَ فَصَلَّى مَعَكَ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْنَا فَتَقَدَّمَ لِيَؤْمِنَنَا، فَأَفْتَسَحَ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ تَسَحَّى فَصَلَّيْتُ وَحْدِي، أَيْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَإِنَّمَا نَحْنُ أَصْحَابُ الْوَاضِعِ، وَإِنَّمَا نَعْمَلُ بِأَيْدِينَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَفَتَأْنُ أَتَتْ يَا مُعاَذُ؟ أَفَتَأْنُ أَتَتْ يَا مُعاَذُ؟ اقْرَأْ بِسُورَةِ كَذَا وَسُورَةِ كَذَا قَالَ عَمْرُو: وَأَمْرَهُ بِسُورَ قَصَارٍ لَا أَحْفَظُهَا، قَالَ سُفِيَّانُ: فَقُلْنَا لِعَمْرِو بْنِ دِينَارٍ: إِنَّ أَبَا الزُّبَيرِ قَالَ لَهُمْ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ: اقْرَأْ بِالسَّمَاءِ وَالْطَّارِقِ، وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ، وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَاللَّلِيلِ إِذَا يَعْشَى، قَالَ عَمْرُو تَحْوِي هَذَا ^{٢٧٣} ..

وعنْ أَنَسٍ قَالَ مَا صَلَّيْتُ خَلْفَ أَحَدٍ أَوْ جَزَ صَلَّةً مِنْ صَلَّةِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فِي تَمَامِ كَائِنَتْ صَلَّةِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - مُتَقَارَبَةً وَكَائِنَتْ صَلَّةُ أَبِي بَكْرٍ مُتَقَارَبَةً فَلَمَّا كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَابَ مَدَّ فِي صَلَّةِ الْفَجْرِ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - إِذَا قَالَ «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمَدَهُ» قَامَ حَتَّى نَقُولَ قَدْ أَوْهَمَ ثُمَّ يَسْجُدُ وَيَقْعُدُ بَيْنَ السَّاجِدَيْنِ حَتَّى نَقُولَ قَدْ أَوْهَمَ ^{٢٧٤} .

^{٢٧٢} - مستند أحمد (علم الكتب) - (٦ / ٦٥٠) (١٩٧٤٢) (١٩٩٨٠) - صحيح البخاري- المكتبة - (٤٣٤٤)

وصحيحة مسلم- المكتبة - (٤٦٢٣)

^{٢٧٣} - صحيح ابن حبان - (٦ / ١٦٠) (٢٤٠٠) صحيح

^{٢٧٤} - صحيح مسلم- المكتبة - (٣ / ٣٠٦) (١٠٨٩)

وعن أبي هريرة أنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ «إِذَا صَلَى أَحَدُكُمْ لِلنَّاسِ فَلَيُخْفِفْ، فَإِنَّ مِنْهُمُ الْضَّعِيفَ وَالسَّقِيمَ وَالْكَبِيرَ، وَإِذَا صَلَى أَحَدُكُمْ لِنَفْسِهِ فَلَيُطَوَّلَ مَا شَاءَ» متفق عليه .^{٢٧٥}

- وكان النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أشد ما يكون إنكاراً للتشديد إذا كون اتجاهها، وتبناه جماعة، ولم يكن مجرد نزعة فردية عارضة، وهذا ما نلاحظه في إنكاره على الثلاثة الذين اتخذوا خطأ في التعبد غير خطه وإن كانوا لا يريدون إلا الخير ومزيد التقرب إلى الله - تعالى - : فعن حميد الطويل أَنَّهُ سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكَ، يَقُولُ: حَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بَيْوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا أَخْبَرُوا كَاتَبُوهَا، فَقَالُوا: وَأَئِنَّ رَجُلًا مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأْخَرَ؟ قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أَصَلَّى اللَّيلَ أَبَدًا، وَقَالَ الْآخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهَرَ وَلَا أُفْطِرُ، وَقَالَ الْآخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ وَلَا أَتَرْوَجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: أَتُنْتُمُ الَّذِي قُلْتُمْ كَذَنَا وَكَذَنَا؟ أَمَّا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَأُكُمْ لِلَّهِ، وَأَنْقَأُكُمْ لَهُ، لَكُمْ أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَرْوَجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنْتِي فَلَيَسْ مِنِّي .^{٢٧٦}

وعن عبد الله قال قال رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ». قالها ثلاثة. رواه مسلم .^{٢٧٧}

ب- الاعتراف بالضرورات الطارئة في حياة الناس سواء أكانت فردية أم جماعية

- وهذا من التيسير المطلوب، فقد جعلت الشريعة لهذه الضرورات أحكامها الخاصة وأباحت بها ما كان محظوراً في حالة الاختيار من الأطعمة والأشربة والملابس والعقود والمعاملات، وأكثر من ذلك أنها نزلت الحاجة في بعض الأحيان - خاصة كانت أو عامة - مترفة الضرورة أيضاً، تيسيراً على الأمة ودفعاً للحرج عنها. والأصل في ذلك ما جاء في القرآن الكريم عقب ذكر الأطعمة المحرمة في أربعة مواضع من القرآن الكريم رفع فيها الإمام عن متناولها مضطراً غير باغ ولا عاد .. {إِنَّمَا حَرَمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَكَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِنْهَا عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}

^{٢٧٥} - صحيح البخاري- المكر - (٢٠٣) وصحيح مسلم- المكر - (١٠٧٦)

^{٢٧٦} - صحيح البخاري- المكر - (٥٠٦٣) وصحيح ابن حبان - (٢٠ / ٣١٧)

^{٢٧٧} - صحيح مسلم- المكر - (٦٩٥٥) - التنطع في الكلام : التعمق فيه والتفاصل.

(١٧٣) سورة البقرة، {إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَتِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فِي إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (١١٥) سورة النحل.

وما جاء في السنة بعد تحريم لبس الحرير على الرجال: أن عبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام شكوا إلى النبي - ﷺ - من حكمة بهما فلما بلبسه تقديرًا لهذه الحاجة، فعن أنسٍ قال: رُحْصَ لِلزُّبَيرِ بْنِ الْعَوَامِ، وَلَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ فِي لُبْسِ الْحَرِيرِ لِحِكَةٍ كَاتَبْ بِهِمَا .^{٢٧٨}

ج- تغيير الفتوى بتغيير الزمان والمكان .

- من التيسير المطلوب ضرورة الاعتراف بالتغيير الذي يطرأ على الناس سواء أكان سببه فساد الزمان كما يعبر الفقهاء، أو تطور المجتمع، أو نزول ضرورات به، ومن ثم أحاز فقهاء الشريعة تغيير الفتوى بتغيير الأزمان والأمكنة والأعراف والأحوال مستدلين في ذلك ب Heidi الصحابة وعمل الخلفاء الراشدين الذين أمرنا النبي - ﷺ - أن نكتدي بسنتهم ونعرض عليها بالنواحذ، قال خالد بن معدان: حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَمْرُو السُّلْمَيُّ، وَحُجْرُ بْنُ حُجْرِ الْكَلَاعِيُّ، قَالَا: أَتَيْنَا الْعَرَبَاضَ بْنَ سَارِيَةَ، وَهُوَ مِنْ نَزَلَ فِيهِ: {وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتُوكُ لِتَحْمِلُهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ} [التوبه:]، فَسَلَّمَتَا وَقَلَّتَا: أَتَيْتَكَ زَائِرَيْنَ وَمُقْتَبِسَيْنِ، فَقَالَ الْعَرَبَاضُ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الصُّبْحَ ذَاتَ يَوْمٍ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيعَةً، ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعَيْنُونُ، وَوَجَلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَانَ هَذِهِ مَوْعِظَةً مُوَدَّعَةً، فَمَاذَا تَعْهَدْ إِلَيْنَا؟ قَالَ: أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعُ وَالطَّاعَةُ، وَإِنْ عَبَدَا حَبَشِيَا مُجَدِّعًا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعْشُ مِنْكُمْ فَسَيَرِي اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُتْنَتِي وَسُنْنَتِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيَّينَ، فَتَمَسَّكُوا بِهَا، وَاعْضُوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فِي إِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدُعَةٍ، وَكُلَّ بِدُعَةٍ ضَلَالَةٌ .^{٢٧٩}

^{٢٧٨} - مسند أحمد (علم الكتب) - (٤ / ٤٦٥) (١٢٨٦٣) - (١٢٨٩٤) - صحيح مسلم - المكتبة - (٥٥٥٢)

^{٢٧٩} - صحيح ابن حبان - (١ / ١٧٨) (٥) صحيح قال أبو حاتم في قوله ﷺ: فَعَلَيْكُمْ بِسُتْنَتِي عِنْدَ ذِكْرِ الْاِخْتِلَافِ الَّذِي يَكُونُ فِي أُمَّتِهِ يَبَانُ وَاضْبُحْ أَنَّ مَنْ وَاضَّبَ عَلَى السُّنْنِ، قَالَ بِهَا، وَلَمْ يُعرِجْ عَلَى غَيْرِهَا مِنَ الْأَرَاءِ مِنَ الْفِرَقِ التَّائِحَةِ فِي الْقِيَامَةِ، جَعَلَنَا اللَّهُ مِنْهُمْ بِمَنْهُ .
٢٣٥

بل هو ما دلت عليه السنة وقبلها القرآن الكريم .

- هذا الأمر يوجب علينا في هذا العصر أن نعيد النظر في أقوال قيلت وآراء اتخذت في أعصار سابقة، ربما كانت ملائمة لتلك الأزمنة وتلك الأوضاع ولكنها لم تعد ملائمة لهذا العصر بما فيه من مستجدات هائلة، لم تكن لتخطر للسابقين على بال، والقول بها اليوم يسيء إلى الإسلام وإلى أمته، ويشوّه وجه دعوته .

قلت: وهي التي كانت تستند إلى المصلحة المرسلة أو الأعراف .

الرد على من يزعم تغيير بعض أحكام الإسلام الثابتة ومنها الجهاد

أما الرعم بأننا أصحبنا في عصر يرفض كثيراً من أحكام الإسلام، كتقسيم العالم إلى دار إسلام ودار حرب، وأن هذا عفا عليه الزمان اليوم لوجود القوانين الدولية، فهذا كفر صريح وخروج عن ملة الإسلام، فهذا التقسيم ليس قائماً على المصلحة ولا على الأعراف ولا طارئاً كما يزعم فقهاء المزمعة، بل هو من صميم رسالة الإسلام، والتي هي من عند الله تعالى، ويأتون بالآيات والأحاديث التي كانت في بداية الإسلام للدلالة على زعمهم، وكأن السابق ينسخ اللاحق بنظر فقهاء المزمعة، قال العلامة ابن القيم رحمه الله: فَصَلَّى فِي تَرْتِيبِ سِيَاقِ هَدِيهِ مَعَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ مِنْ حِينِ بُعْثَةِ إِلَى حِينِ لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ: "أَوْلَ مَا أَوْحَى إِلَيْهِ رَبُّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنْ يَقْرَأَ بِاسْمِ رَبِّهِ الَّذِي خَلَقَ وَذَلِكَ أَوْلَ نُبُوَّتِهِ فَأَمَرَهُ أَنْ يَقْرَأَ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يَأْمُرْهُ إِذْ ذَاكَ بِتَبْلِغَ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ } [الْمُدَّثِّرُ ١ ، ٢] فَنَبَأَهُ بِقَوْلِهِ { اقْرَا } وَأَرْسَلَهُ بِ { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ } ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يُنذِرَ عَشِيرَتَهُ الْأَقْرَبَيْنَ ثُمَّ أَنذَرَ قَوْمَهُ ثُمَّ أَنذَرَ مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْعَرَبِ، ثُمَّ أَنذَرَ الْعَرَبَ قَاطِبَةً ثُمَّ أَنذَرَ الْعَالَمِينَ فَأَقَامَ بِضَعْ عَشْرَةَ سَنَةً بَعْدَ نُبُوَّتِهِ يُنذِرُ بِالدُّعْوَةِ بَغْيَرِ قَتَالٍ وَلَا جِزِيَّةٍ وَيُؤْمِرُ بِالْكَفَّ وَالصَّبَرِ وَالصَّفْحِ. ثُمَّ أَذْنَ لَهُ فِي الْهِجْرَةِ وَأَذْنَ لَهُ فِي الْقِتَالِ ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يُقَاتِلَ مَنْ قَاتَلَهُ وَيَكْفُ عَمَّ اعْتَرَكَهُ وَلَمْ يُقَاتِلْهُ ثُمَّ أَمَرَهُ بِقَتَالِ الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ثُمَّ كَانَ الْكُفَّارُ مَعَهُ بَعْدَ الْأَمْرِ بِالْجَهَادِ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ أَهْلُ صُلْحٍ وَهُدْنَةٍ وَأَهْلُ حَرْبٍ وَأَهْلُ ذَمَّةٍ فَأَمَرَ بِأَنْ يُتَمَّ لِأَهْلِ الْعَهْدِ وَالصَّلْحِ عَهْدَهُمْ وَأَنْ يُوْفَى لَهُمْ بِمَا اسْتَقَامُوا عَلَى الْعَهْدِ فَإِنْ خَافَ مِنْهُمْ حِيَاةً نَبَذَ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ وَلَمْ يُقَاتِلْهُمْ حَتَّى يُعْلَمُهُمْ بِسَنْقُضِ الْعَهْدِ

وَأَمْرَ أَنْ يُقَاتِلَ مَنْ نَقَضَ عَهْدَهُ. وَلَمَّا نَزَلَتْ (سُورَةُ بَرَاءَةَ) نَزَلَتْ بِبَيَانِ حُكْمٍ هَذِهِ الْأَقْسَامِ كُلُّهَا، فَأَمْرَهُ فِيهَا أَنْ "يُقَاتِلَ عَدُوَّهُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ أَوْ يَدْخُلُوا فِي إِسْلَامٍ وَأَمْرَهُ فِيهَا بِجَهَادِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْغِلْظَةِ عَلَيْهِمْ فَجَاهَدَ الْكُفَّارَ بِالسَّيْفِ وَالسَّنَانِ وَالْمُنَافِقِينَ بِالْحُجَّةِ وَالسَّبَانِ .

وَأَمْرَهُ فِيهَا بِالْبَرَاءَةِ مِنْ عَهْوَدِ الْكُفَّارِ وَنَبْذِ عَهْوَدِهِمْ إِلَيْهِمْ وَجَعَلَ أَهْلَ الْعَهْدِ فِي ذَلِكَ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ قِسْمًا أَمْرَهُ بِقَتْلِهِمْ وَهُمُ الَّذِينَ نَقَضُوا عَهْدَهُ وَلَمْ يَسْتَقِيمُوا لَهُ فَحَارَبُهُمْ وَظَهَرَ عَلَيْهِمْ. وَقِسْمًا لَهُمْ عَهْدٌ مُوَقَّتٌ لَمْ يَنْقُضُوهُ وَلَمْ يُظَاهِرُوهُ عَلَيْهِ فَأَمْرَهُ أَنْ يُتَمَّ لَهُمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدْتَهِمْ. وَقِسْمًا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَهْدٌ وَلَمْ يُحَارِبُوهُ أَوْ كَانَ لَهُمْ عَهْدٌ مُطْلَقٌ فَأَمْرَهُ أَنْ يُرْجِحَ لَهُمْ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فَإِذَا أَنْسَلَخَتْ قَاتَلُهُمْ وَهِيَ الْأَشْهُرُ الْأَرْبَعَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ { فَسَيِّحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ } [التوبه ٢] وَهِيَ الْحُرُمُ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ } [التوبه ٥] فَالْحُرُمُ هَا هُنَا: هِيَ أَشْهُرُ التَّسِيرِ أَوْلُهَا يَوْمُ الْأَذَانِ وَهُوَ الْيَوْمُ الْعَاشِرُ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ وَهُوَ يَوْمُ الْحَجَّ الْأَكْبَرِ الَّذِي وَقَعَ فِي التَّأْذِينِ بِذَلِكَ وَآخِرُهَا الْعَاشِرُ مِنْ رَبِيعِ الْآخِرِ وَلَيْسَتْ هِيَ الْأَرْبَعَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ { إِنْ عِدَةُ الشَّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمُ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْهَا أَرْبَعَةُ حُرُمٌ } [التوبه ٣٦] فَإِنْ تُلْكَ وَاحِدَةٌ فَرَدٌ وَتَلَاثَةٌ سَرْدٌ رَجَبٌ وَذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمُ. وَلَمْ يُسَيِّرْ الْمُشْرِكِينَ فِي هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ فَإِنْ هَذَا لَا يُمْكِنُ لَائِهَا غَيْرُ مُتَوَالِيَةٍ وَهُوَ إِنَّمَا أَجْلَلَهُمْ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ثُمَّ أَمْرَهُ بَعْدَ اِنْسَلَاخِهَا أَنْ يُقَاتِلُهُمْ فَقَتَلَ النَّاقِضَ لِعَهْدِهِ وَأَجْلَلَ مَنْ لَا عَهْدَ لَهُ أَوْ لَهُ عَهْدٌ مُطْلَقٌ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَأَمْرَهُ أَنْ يُتَمَّ لِلْمُوْفِي بِعَهْدِهِ إِلَى مُدْتَهِ فَأَسْلَمَ هُؤُلَاءِ كُلُّهُمْ وَلَمْ يُقِيمُوا عَلَى كُفُّرِهِمْ إِلَى مُدْتَهِمْ وَضَرَبَ عَلَى أَهْلِ الدَّمَّةِ الْجِزْيَةَ. فَاسْتَقَرَ أَمْرُ الْكُفَّارِ مَعَهُ بَعْدَ نُزُولِ بَرَاءَةَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامِ مُحَارِبِينَ لَهُ وَأَهْلِ عَهْدٍ وَأَهْلِ ذَمَّةٍ ثُمَّ آتَهُ حَالُ أَهْلِ الْعَهْدِ وَالصَّلْحِ إِلَى إِسْلَامٍ فَصَارُوا مَعَهُ قِسْمَيْنِ مُحَارِبِينَ وَأَهْلِ ذَمَّةٍ وَالْمُحَارِبُونَ لَهُ خَائِفُونَ مِنْهُ فَصَارَ أَهْلُ الْأَرْضِ مَعَهُ ثَلَاثَةَ أَقْسَامَ مُسْلِمٍ مُؤْمِنٍ بِهِ وَمُسَالِمٌ لَهُ آمِنٌ وَخَائِفٌ مُحَارِبٌ. وَأَمَّا سَيِّرَتُهُ فِي الْمُنَافِقِينَ فَإِنَّهُ أَمْرٌ أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُمْ عَلَانِيَتَهُمْ وَيَكْلُ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ وَأَنْ يُحَادِهِمْ بِالْعِلْمِ وَالْحُجَّةِ وَأَمْرٌ أَنْ يُعْرِضَ عَنْهُمْ وَيُعْلَظَ عَلَيْهِمْ وَأَنْ يُلْغَ بِالْقَوْلِ الْبَلِيغِ

إِلَى نُفُوسِهِمْ وَنَهَاهُ أَنْ يُصَلِّي عَلَيْهِمْ وَأَنْ يَقُومَ عَلَى قُبُورِهِمْ وَأَخْبَرَ أَنَّهُ إِنْ اسْتَغْفِرَ لَهُمْ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ فَهَذِهِ سِيرَتُهُ فِي أَعْدَائِهِ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ .

وَأَمَّا سِيرَتُهُ فِي أَوْلَيَائِهِ وَحِزْبِهِ، فَأَمْرَهُ أَنْ يَصِيرَ نَفْسَهُ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبِّهِمْ بِالْغَدَاءِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَالَّا تَعْدُ عَيْنَاهُ عَنْهُمْ وَأَمْرَهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَيَسْتَغْفِرَ لَهُمْ وَيُشَارِرُهُمْ فِي الْأَمْرِ وَأَنْ يُصَلِّي عَلَيْهِمْ وَأَمْرَهُ بِهَجْرِ مَنْ عَصَاهُ وَتَخَلَّفَ عَنْهُ حَتَّى يَتُوبَ وَيُرَاجِعَ طَاعَتُهُ كَمَا هَجَرَ الشَّلَاثَةُ الَّذِينَ حُلُّقُوا وَأَمْرَهُ أَنْ يُقِيمَ الْحُدُودَ عَلَى مَنْ أَتَى مُوجِبَاتِهَا مِنْهُمْ وَأَنْ يَكُونُوا عِنْدَهُ فِي ذَلِكَ سَوَاءٌ شَرِيفُهُمْ وَدَنِيَّتُهُمْ .

وَأَمْرَهُ فِي دَفْعِ عَدُوِّهِ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ بِأَنْ يَدْفَعَ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فِيَقَابِلِ إِسَاءَةِ مِنْ أَسَاءَ إِلَيْهِ بِالْإِحْسَانِ وَجَهْلِهِ بِالْحَلْمِ وَظُلْمِهِ بِالْعَفْوِ وَقَطْعِيَّتِهِ بِالصَّلَةِ وَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ إِنْ فَعَلَ ذَلِكَ عَادَ عَدُوُّهُ كَائِنُهُ وَلِيَ حَمِيمٌ وَأَمْرَهُ فِي دَفْعِهِ عَدُوِّهِ مِنْ شَيَاطِينِ الْجَنِّ بِالاستِعَاَةِ بِاللَّهِ مِنْهُمْ وَجَمِيعَ لَهُ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعٍ مِنْ الْقُرْآنِ فِي (سُورَةُ الْأَعْرَافِ) وَ (الْمُؤْمِنُونَ) فَقَالَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ { خُذِ الْعَفْوَ وَأُمِرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ وَإِمَّا يَنْزَغَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَرْغُ فَاسْتَعِدْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلَيْمٌ } [الْأَعْرَافِ ١٩٩ - ٢٠٠] فَأَمْرَهُ بِاتِّقاءِ شَرِّ الْجَاهِلِينَ بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ وَبِاتِّقاءِ شَرِّ الشَّيْطَانِ بِالاستِعَاَةِ مِنْهُ وَجَمِيعَ لَهُ فِي هَذِهِ الْأِيَّةِ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَالشَّيْسِمِ كُلَّهَا، فَإِنَّ وَلِيَ الْأَمْرِ لَهُ مَعَ الرَّعِيَّةِ ثَلَاثَةَ أَحْوَالٍ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ حَقَّ عَلَيْهِمْ يَلْزَمُهُمُ الْقِيَامُ بِهِ وَأَمْرٌ يَأْمُرُهُمْ بِهِ وَلَا بُدَّ مِنْ تَفْرِيَطٍ وَعُدُوَّانِ يَقْعُ مِنْهُمْ فِي حَقَّهِ فَأَمْرَ بِأَنْ يَأْخُذَ مِنْ الْحَقِّ الَّذِي عَلَيْهِمْ مَا طَوَّعُتْ بِهِ أَنفُسُهُمْ وَسَمَحَتْ بِهِ وَسَهَلَ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يَشُقْ وَهُوَ الْعَفْوُ الَّذِي لَا يَلْحَقُهُمْ بِيَذْلِهِ ضَرَرٌ وَلَا مَسْقَةٌ وَأَمْرَ أَنْ يَأْمُرُهُمْ بِالْعُرْفِ وَهُوَ الْمَعْرُوفُ الَّذِي تَعْرِفُهُ الْعُقُولُ السَّلِيمَةُ وَالْفَطْرُ الْمُسْتَقِيمَةُ وَتُقْرَبُ بِحُسْنِهِ وَنَفْعِهِ وَإِذَا أَمْرَ بِهِ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ أَيْضًا لَا بِالْعُنْفِ وَالْغُلْظَةِ وَأَمْرَهُ أَنْ يُقَابِلَ جَهْلَ الْجَاهِلِينَ مِنْهُمْ بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُ دُونَ أَنْ يُقَابِلَهُ بِمُثْلِهِ فَيَذَلِكَ يَكْنِي شَرَّهُمْ وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنِينَ { قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَّتِي مَا يُوعَدُونَ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَإِنَّا عَلَى أَنْ تُرِيَكَ مَا تَعْدُهُمْ لَقَادِرُونَ اذْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصْفُونَ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ } [الْمُؤْمِنُونَ ٩٣ - ٩٧] وَقَالَ تَعَالَى

فِي سُورَةِ حِمْ فُصِّلَتْ { وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي
بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةُ كَانَهُ وَلَيْ حَمِيمٌ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَى الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَى ذُو حَظَّ
عَظِيمٍ وَإِمَّا يَنْزَغَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نُرْغُ فَاسْتَعِدْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [فُصِّلَتْ
١٣٤] فَهَذِهِ سِيرَتُهُ مَعَ أَهْلِ الْأَرْضِ إِنْسَهُمْ وَجِنَّهُمْ مُؤْمِنُهُمْ وَكَافِرُهُمْ .^{٢٨٠}

لقد فات هؤلاء المحوبيين - عن الحق - أن الكفار هم الكفار، وأنهم يتربصون بنا الدوائر، وأنهم غزوا العالم الإسلامي، وأبادوا الملايين، وصدّروا لنا جميع الأرجيف والأضاليل، وأنه لا يخففهم شيء مثل كلمة الجهاد في سبيل الله، لذلك يسعون بكل ما أوتوا من قوة وضلال إلى تغيير مفاهيم الإسلام المحكمة الثابتة بحجة عدم مناسبتها للعصر أو أنها تخالف القوانين الدولية أو تنافي الرحمة والإنسانية
ومتى كان أعداء الإسلام يحملون من الرحمة والإنسانية ذرة؟!!
وماذا أفاد دعاة الحوار مع هؤلاء؟!!

هل أصبحت العلاقة بيننا وبين الكفار والفجار علاقة حمية قائمة على الخبة والاحترام المتبادل؟!!

إن هناك مسافة هائلة بين اعتبار الإسلام منهجا إلهيا، جاء ليقرر ألوهية الله في الأرض، وعبودية البشر جيّعا لإله واحد، ويصب هذا التقرير في قالب واقعي، هو المجتمع الإنساني الذي يتحرر فيه الناس من العبودية للعباد، بالعبودية لرب العباد، فلا تحكمهم إلا شريعة الله، التي يتمثل فيها سلطان الله، أو بتعبير آخر تمثل فيها ألوهيته .. فمن حقه إذن أن يزيل العقبات كلها من طريقه، ليخاطب وجdan الأفراد وعقولهم دون حواجز ولا موانع مصطنعة من نظام الدولة السياسي، أو أوضاع الناس الاجتماعية .. إن هناك مسافة هائلة بين اعتبار الإسلام على هذا النحو، واعتباره نظاما محليا في وطن بعينه. فمن حقه فقط أن يدفع الهجوم عليه في داخل حدوده الإقليمية! هذا تصور .. وذاك تصور .. ولو أن الإسلام

في كلتا الحالتين سيعجاهد .. ولكن التصور الكلي لبواحدة هذا الجهاد وأهدافه ونتائجـه، يختلف اختلافاً بعيداً، يدخل في صميم الاعتقاد كما يدخل في صميم الخطة والاتجاهـ. إن من حق الإسلام أن يتحرك ابتداءـ. فالإسلام ليس نحلةـ قومـ، ولا نظامـ وطنـ، ولكنه منهجـ إلهـ، ونظامـ عالمـ .. ومن حقهـ أن يتحركـ ليحطـمـ الحواجزـ من الأنـظـمةـ والأـوضـاعـ التي تغلـ من حريةـ «الإنسـانـ» في الاختـيارـ.

وحسـبـهـ أنهـ لاـ يهاجمـ الأـفـرـادـ ليـكـرـهـمـ علىـ اعتـنـاقـ عـقـيـدـتـهـ. إنـماـ يـهاـجـمـ الأـنـظـمـةـ والأـوضـاعـ ليـحـرـرـ الأـفـرـادـ منـ التـأـثـيرـاتـ الفـاسـدـةـ، المـفـسـدـةـ لـلـفـطـرـةـ، المـقـيـدـةـ لـحـرـيـةـ الاـخـتـيـارـ.

منـ حقـ الإـسـلـامـ أنـ يـخـرـجـ «الـنـاسـ» منـ عـبـادـةـ العـبـادـ إـلـىـ عـبـادـةـ اللـهـ وـحـدـهـ .. ليـحـقـقـ إـعـلـانـهـ العامـ بـرـبـوـبـيـةـ اللـهـ لـلـعـالـمـيـنـ، وـتـحـرـيرـ النـاسـ أـجـمـعـينـ .. وـعـبـادـةـ اللـهـ وـحـدـهـ لـاـ تـحـقـقـ - فيـ التـصـورـ الإـسـلـامـيـ وـفـيـ الـوـاقـعـ الـعـمـلـيـ - إـلـاـ فـيـ ظـلـ النـظـامـ الإـسـلـامـيـ. فـهـوـ وـحـدـهـ النـظـامـ الـذـيـ يـشـرـعـ اللـهـ فـيـ لـلـعـبـادـ كـلـهـمـ. حـاـكـمـهـمـ وـمـحـكـومـهـمـ.

أـسـوـدـهـمـ وـأـبـيـضـهـمـ. قـاـصـيـهـمـ وـدـانـيـهـمـ. فـقـيرـهـمـ وـغـنـيـهـمـ. تـشـرـيـعاـ وـاحـدـاـ يـخـضـعـ لـهـ الـجـمـيعـ عـلـىـ السـوـاءـ .. أـمـاـ فـيـ سـائـرـ الـأـنـظـمـةـ، فـيـعـدـ النـاسـ الـعـبـادـ، لـأـنـهـمـ يـتـلـقـونـ التـشـرـيعـ لـحـيـاـتـهـمـ مـنـ الـعـبـادـ. وـهـوـ مـنـ خـصـائـصـ الـأـلـوـهـيـةـ.

فـأـيـمـاـ يـشـرـ اـدـعـاـهـاـ قـوـلـاـ أـمـ لـمـ يـعـلـنـ هـذـاـ الـادـعـاءـ! وـعـمـلاـ، سـوـاءـ اـدـعـاـهـاـ قـوـلـاـ أـمـ لـمـ يـعـلـنـ هـذـاـ الـادـعـاءـ!

وـأـيـمـاـ يـشـرـ آـخـرـ اـعـتـرـفـ لـذـلـكـ الـبـشـرـ بـذـلـكـ الـحـقـ فـقـدـ اـعـتـرـفـ لـهـ بـحـقـ الـأـلـوـهـيـةـ، سـوـاءـ سـماـهـ بـاسـمـهـاـ أـمـ لـمـ يـسـمـهـاـ! وـالـإـسـلـامـ لـيـسـ بـحـرـدـ عـقـيـدـةـ. حـتـىـ يـقـنـعـ بـإـبـلـاغـ عـقـيـدـتـهـ لـلـنـاسـ بـوـسـيـلـةـ الـبـيـانـ. إنـماـ هـوـ منـهـجـ يـتـمـثـلـ فـيـ تـجـمـعـ تـنـظـيـمـيـ حـرـكـيـ يـزـحـفـ لـتـحـرـيرـ كـلـ النـاسـ. وـالـتـجـمـعـاتـ الـأـخـرـىـ لـاـ تـمـكـنـهـ مـنـ تـنـظـيمـ حـيـاـتـ رـعـاـيـاـهـاـ وـفـقـ منـهـجـهـ هـوـ.

وـمـنـ ثـمـ يـتـحـتـمـ عـلـىـ الـإـسـلـامـ أـنـ يـزـيلـ هـذـهـ الـأـنـظـمـةـ بـوـصـفـهـاـ مـعـوـقـاتـ لـلـتـحـرـرـ الـعـامـ. وـهـذـاـ - كـمـاـ قـلـنـاـ مـنـ قـبـلـ - مـعـنـ أـنـ يـكـوـنـ الـدـيـنـ كـلـهـ لـلـهـ. فـلـاـ تـكـوـنـ هـنـاكـ دـيـنـوـنـةـ وـلـاـ طـاعـةـ لـعـبـادـ مـنـ الـعـبـادـ لـذـاتـهـ، كـمـاـ هـوـ الشـأـنـ فـيـ سـائـرـ الـأـنـظـمـةـ الـتـيـ تـقـوـمـ عـلـىـ عـبـودـيـةـ الـعـبـادـ لـلـعـبـادـ! إـنـ الـبـاحـثـيـنـ الـإـسـلـامـيـنـ الـمـعـاصـرـيـنـ الـمـهـزـوـمـيـنـ تـحـتـ ضـغـطـ الـوـاقـعـ الـحـاضـرـ، وـتـحـتـ الـهـجـومـ

الاستشرافي الماكرو، يتحرجون من تقرير تلك الحقيقة. لأن المستشرفين صوروا الإسلام حركة قهر بالسيف للإكراه على العقيدة. والمستشركون الخباء يعرفون جيداً أن هذه ليست هي الحقيقة. ولكنهم يশوهون بواعث الجهاد الإسلامي بهذه الطريقة .. ومن ثم يقوم المنافقون - المهزومون - عن سمعة الإسلام، ينفي هذا الاتهام! فيلجماؤن إلى تلمس المبررات الدافعية! ويفغلون عن طبيعة الإسلام ووظيفته، وحقه في «تحرير الإنسان» ابتداء.

وقد غشى على أفكار الباحثين العصريين - المهزومين - ذلك التصور الغربي لطبيعة «الدين» .. وأنه مجرد «عقيدة» في الضمير لا شأن لها بالأنظمة الواقعية للحياة .. ومن ثم يكون الجهاد للدين، جهاداً لفرض العقيدة على الضمير! ولكن الأمر ليس كذلك في الإسلام. فالإسلام منهج الله للحياة البشرية. وهو منهج يقوم على إفراد الله وحده بالألوهية - متمثلة في الحاكمة - وينظم الحياة الواقعية بكل تفصيلاتها اليومية! فالجهاد له جهاد لتقرير المنهج وإقامة النظام. أما العقيدة فأمرها موكول إلى حرية الاقتئاع، في ظل النظام العام، بعد رفع جميع المؤثرات .. ومن ثم يختلف الأمر من أساسه، وتصبح له صورة جديدة كاملة.

وحيثما وجد التجمع الإسلامي، الذي يتمثل فيه المنهج الإلهي، فإن الله يمنحه حق الحركة والانطلاق لتسليم السلطان وتقرير النظام. مع ترك مسألة العقيدة الوجданية لحرية الوجдан .. فإذا كف الله أيدي الجماعة المسلمة فترة عن الجهاد، فهذه مسألة خطة لا مسألة مبدأ. مسألة مقتضيات حركة لا مسألة مقررات عقيدة. وعلى هذا الأساس الواضح يمكن أن نفهم النصوص القرآنية المتعددة، في المراحل التاريخية المتعددة. ولا الخلط بين دلالاتها المرحلية، والدلالة العامة لخط الحركة الإسلامية الثابت الطويل^{٢٨١}.

د- مراعاة سنة التدرج .

^{٢٨١} - معلم في الطريق بتحقيقي - (١ / ٨٤) وفي ظلال القرآن — موافقاً للمطبوع - (١٤٣٢ / ٣)
وانظر كتابي ((مراحل تشريع الجهاد في الإسلام)) وكتابي ((الملاخصة في أهداف القتال في الإسلام))

- فمن التيسير المطلوب مراعاة سنة التدرج جرياً على سنة الله - تعالى - في عالم الخلق، وعالم الأمر، واتباعاً لنهج التشريع الإسلامي في فرض الفرائض من الصلاة والصيام وغيرهما، وفي تحريم الحرمات كذلك . ولعل أوضح مثال على ذلك هو تحريم الخمر على مراحل معروفة في تاريخ التشريع الإسلامي . ولعل رعاية الإسلام للتدرج هي التي جعلته يبقى على "نظام الرق" الذي كان نظاماً سائداً في العالم كله عند ظهور الإسلام، وكان إلغاؤه يؤدي إلى زلزلة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، فكانت الحكمة في تضييق روافده بل ردمها كلها كلما وجد إلى سبيلاً وتوسيع مصارفه إلى أقصى حد، فيكون ذلك بمثابة إلغاء للرق بطريق التدرج .

الرد على من يزعم إلغاء الرق اليوم

قلت: وليس معنى ذلك إلغاؤه ^{نهائياً}، فالأحكام الشرعية الواردة في القرآن والسنة غير قابلة للنسخ، والرقُ أمر مرتبط بالجهاد في سبيل الله تعالى، وهو باق إلى يوم القيمة، والمقصود به في الدرجة الأولى هو جهاد الطلب، وقد غاب عن الوجود بعد سقوط الدولة العثمانية، وسيعود للحياة مرة أخرى بإذن الله تعالى، رغم أنف دعاة المزيمة، ودعاة الضلال .

والآن يزعمون أنهم ألغوه، وهم يسترّون الأمم والشعوب بلا حقٍ ولا ذنب، ولا يسمّي هذا رقاً عند أصحاب القانون الدولي - الكفري-والذي لم يكن تعبيراً عن آمال الأمم والشعوب ؟ وإنما كان إملاءاً من القوي على الضعيف، ومن ثم فإن الذين صاغوه لا يلتزمون به، فما هو إلا حبر على ورق ليس إلا، ومع ذلك فإن الحمقى والمعفّلين من قومنا يعولّون عليه كثيراً .

بل يزعمون - زوراً وهتانًا - أنه غير مخالف للإسلام !!!

يعني الذي تربوا عليه وألغوه، مما صدره لهم أعداء الإسلام.

- وهذه السنة الإلهية في رعاية التدرج ينبغي أن تتبع في سياسة الناس عندما يراد تطبيق نظام الإسلام في الحياة اليوم بعد عصر العزو الثقافي والتشريعي والاجتماعي للحياة الإسلامية . فإذا أردنا أن نقيم "مجتمعاً إسلامياً حقيقياً" فلا نتوهم أن ذلك يتحقق بحرة

فلم، أو بقرار من ملك أو رئيس أو مجلس قيادة أو برلمان ! وإنما يتحقق ذلك بطريق التدرج، وذلك بالإعداد والتهيئة الفكرية والنفسية والأخلاقية والاجتماعية، وإيجاد البديل الشرعية للأوضاع المحرمة التي قامت عليها مؤسسات عدة لأزمنة طويلة .

- لا يعني بالدرج هنا مجرد التسويف وتأجيل التنفيذ، واتخاذ الكلمة التدرج تكاء لتمويل الدعوة إلى دين الله، لا بل التدرج الوعي المخطط له، وهو المنهج الذي سلكه النبي - ﷺ

- لتغيير الحياة الجاهلية إلى حياة إسلامية .

- وكما عبر عنه عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه خامس الخلفاء الراشدين - فقد أراد أن يعود بالحياة إلى هدي الخلفاء الأربع، لكن بعد أن يتمكن ويسرك الخيوط في يديه، وكان له ابن يقال له: عبد الملك، فيه فتوة، وحماس، وحيوية وتقى، فأنكر على أبيه البطء، وعدم الإسراع في إزالة كل بقايا الانحراف والمظالم، حتى تعود الحياة إلى سيرتها الأولى أيام الراشدين، إذ قال له يوما: مالك يا أبى لا تنفذ الأمور؟ فوالله ما أبالي، لو أن القدر غلت بي وبك في الحق .

فكان جواب الأب الفقيه: لا تعجل يا بني، فإن الله ذم الخمر في القرآن مرتين، وحرمها في الثالثة، وإنني أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة، فيدعوه جملة، فيكون من ذا فتنة... إلخ^{٢٨٢} يريد الخليفة الراشد أن يعالج الأمور بحكمة ودرج، مهتماً بسنة الله - تعالى

- في تحريم الخمر، فهو يجرعهم الحق جرعة جرعة، ويمضي بهم إلى المنهج المنشود خطوة خطوة، وهذا هو الفقه الصحيح .

هـ- تصحيح ثقافة المسلم .

- من المهم واللازم اليوم وخلال تقييف المسلمين في دينهم: أن نعرف ما ينبغي أن يقدم لهم، وما ينبغي أن يؤخرا، وما ينبغي أن يمحى من ثقافة المسلم، ولا بد من دراسة المهم والنافع من العلوم، لا التي تضيع وقته دون فائدة تذكر !

و- الاهتمام بما اهتم به القرآن أولاً .

^{٢٨٢} انظر: المواقف للشاطبي ٢/٩٤ طبعة دار المعرفة بيروت . وآفاث على الطريق كامل - (١٥ / ١) ونحوه في "سيرة عمر بن عبد العزيز" ٦٠ لابن عبد الحكم

- فما اهتم به القرآن كل الاهتمام، وكرره في سورة آل عمران، وأكده في أمره ونفيه، ووعده ووعيده، يجب أن تكون له الأولوية والتقديم والعنابة في تفكيرنا وفي سلوكنا، وفي تقوينا وتقديرنا. وذلك مثل الإيمان بالله - تعالى - وبرسالته إلى أئبيائه، وبالدار الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب، وجنة ونار. ومثل أصول العبادات والشعائر، ومثل أصول الفضائل ومكارم الأخلاق ومحاسن الصفات، ومثل الكلام عن الجهاد في سبيل الله فهو يأتي بعد العبادات الحضة مباشرة، ومثل الكلام عن أعداء الإسلام ومعرفة طبعتهم والخذر منهم، وكيفية التخلص منهم، ومثل بيان طبيعة الإيمان والكفر وصفات المؤمنين وصفات الكافرين وصفات المنافقين، حتى لا تلتبس هذه الأمور في نفس المؤمن .

وأما ما اهتم به القرآن اهتماماً قليلاً فنعطيه مثل ذلك القدر من الاهتمام ولا نبالغ فيه. فهذا معيار لا ينطوي، لأن القرآن الكريم هو عمدة الملة وأصل الدين وينبوع الإسلام، والسنة إنما تأتي شارحة ومبينة. والله - تعالى - يقول: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلّٰتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا} (٩) سورة الإسراء فهو يهدي للي هي أقوم في عالم الضمير والشعور، بالعقيدة الواضحة البسيطة التي لا تعقيد فيها ولا غموض، والتي تطلق الروح من أثقال الوهم والخرافية، وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والبناء، وترتبط بين نواميس الكون الطبيعية ونوماميس الفطرة البشرية في تناسق واتساق.

ويهدي للي هي أقوم في التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه، وبين مشاعره وسلوكه، وبين عقيدته وعمله، فإذا هي كلها مشدودة إلى العروة الوثقى التي لا تنفص، متطلعة إلى أعلى وهي مستقرة على الأرض، وإذا العمل عبادة متى توجه الإنسان به إلى الله، ولو كان هذا العمل متاعاً واستمتاعاً بالحياة.

ويهدي للي هي أقوم في عالم العبادة بالموازنة بين التكاليف والطاقة، فلا تشق التكاليف على النفس حتى تمل وتبأس من الوفاء. ولا تسهل وتترخص حتى تشيع في النفس الرخاوة والاستهانة. ولا تتجاوز القصد والاعتدال وحدود الاحتمال.

ويهدي للي هي أقوم في علاقات الناس بعضهم بعض: أفرادا وأزواجا، وحكومات وشعوب، ودول وأجناس، ويقيم هذه العلاقات على الأسس الوطيدة الثابتة التي لا تتأثر بالرأي والهوى ولا تميل مع المودة والشنان ولا تصرفها المصالح والأغراض. الأسس التي أقامها العليم الخبير لخلقه، وهو أعلم من خلق، وأعرف بما يصلح لهم في كل أرض وفي كل حيل، فيهديهم للي هي أقوم في نظام الحكم ونظام المال ونظام الاجتماع ونظام التعامل الدولي اللائق بعالم الإنسان.

ويهدي للي هي أقوم في تبني الديانات السماوية جميعها والربط بينها كلها، وتعظيم مقدساتها وصيانة حرماها فإذا البشرية كلها بجميع عقائدها السماوية في سلام ووئام.

«إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلّٰتِي هِيَ أَقْوَمُ» .. «وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا، وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا» فهذه هي قاعدته الأصلية في العمل والجزاء. فعلى الإيمان والعمل الصالح يقيم بناءه. فلا إيمان بلا عمل، ولا عمل بلا إيمان. الأول مبتور لم يبلغ تمامه، والثاني مقطوع لارتكبة له. وبهما معا تسير الحياة على التي هي أقوم .. وبهما معا تتحقق الهدایة بهذا القرآن.

فأما الذين لا يهتدون بهدى القرآن، فهم مترون لهوى الإنسان. الإنسان العجوز الجاهل بما ينفعه وما يضره، المندفع الذي لا يضبط انفعالاته ولو كان من ورائها الشر له: «وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا» .. ذلك أنه لا يعرف مصائر الأمور وعواقبها. ولقد يفعل الفعل وهو شر، ويعجل به على نفسه وهو لا يدرى.

أو يدرى ولكنه لا يقدر على كبح جماحه وضبط زمامه .. فأين هذا من هدى القرآن الثابت الهدایي؟

ألا إنما طريقة مختلفان: شتان شتان. هدى القرآن وهو الإنسان! ومن الإشارة إلى الإسراء وما صاحبه من آيات والإشارة إلى نوح ومن حملوا معه من المؤمنين والإشارة إلى قصة بني إسرائيل وما قضاه الله لهم في الكتاب، وما يدل عليه هذا القضاء من سنن الله في

ويقول: {يَا أَهْلَ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفِفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنِ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبْلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ يَأْذِنَهُ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }

(١٦) سورة المائدة

يا أهل الكتاب إنما أرسلنا محمدا رسول الله، وختام النبيين ليبين لكم كثيرا من الأحكام التي أنزلها الله في التوراة والإنجيل، وكتتم تخفونها (كالرحم للزاني المحسن، وكصفات محمد، والبشرة به التي حرفاها وحملتموها على معان أخرى، ومثل الأحكام التي أخفياها ونسيتموها كنسيان اليهود ما جاء في التوراة من أخبار الحساب والجزاء في الآخرة، وقد أظهر الرسول لهم كل ذلك) ومع هذا فقد كان الرسول الكريم يغفو عن كثير مما كانوا يخفونه، ولا يظهر الكثير مما كانوا يكتمونه .

ثم يقول تعالى مخاطبا أهل الكتاب: إنهم قد جاءهم نور من الله وكتاب مبين، فالنور هو النبي الذي لو لا ما جاء به من المدى والقرآن، لما عرفوا الدين الحق، ولا ما طرأ على التوراة والإنجيل من تبديل وتحريف، والكتاب هو القرآن .

يهدي الله بالقرآن، من أراد اتباع رضوان ربه، إلى طريق الجنة والسلامة، ومنهاج الاستقامة، ويخرجهم من ظلمات الكفر والجهل والظلم إلى نور الإيمان والحق والعدل، بإذن ربها، ويهديهم إلى الطريق القويم .^{٢٨٤}

لقد كان أهل الكتاب يستكثرون أن يدعوهם إلى الإسلام نبي ليس منهم ..نبي من الأميين الذين كانوا يتعالون عليهم من قبل ويتعاملون لأنهم هم أهل الكتاب وهؤلاء أميون! فلما أراد الله الكراهة هؤلاء الأميين بعث منهم خاتم النبيين، وجعل فيهم الرسالة الأخيرة، الشاملة للبشر أجمعين. وعلم هؤلاء الأميين، فإذا هم أعلم أهل الأرض وأرقاهم تصورا

^{٢٨٣} - في ظلال القرآن — موافقاً للمطبوع - (٤ / ٢٢١٥)

^{٢٨٤} - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (١ / ٦٨٥)

واعتقاداً وأقوالهم منهجاً وطريقاً، وأفضلهم شريعة ونظاماً، وأصلحهم مجتمعاً وأخلاقاً .. و كان هذا كله من فضل الله عليهم ومن إنعامه بهذا الدين وارتضائه لهم ..

وما كان للأميين أن يكونوا أوصياء على هذه البشرية لو لا هذه النعمة وما كان لهم - وليس لهم بعد - من زاد يقدموه للبشرية إلا ما يزودهم به هذا الدين ..

وفي هذا النداء الإلهي لأهل الكتاب، يسجل عليهم أنهم مدعوون إلى الإسلام. مدعوون للإيمان بهذا الرسول ونصره وتأييده، كما أخذ عليهم ميثاقه. ويسجل عليهم شهادته - سبحانه - بأن هذا النبي الأمي هو رسوله إليهم - كما أنه رسول إلى العرب، وإلى الناس كافة - فلا مجال لإنكار رسالته من عند الله أولاً ولا مجال للادعاء بأن رسالته مقتصرة على العرب، أو ليست موجهة إلى أهل الكتاب ثانياً: «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا، يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفِونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوُنَا عَنْ كَثِيرٍ» .. فهو رسول الله إليكم. ودوره معكم أن يبين لكم ويوضح ويكشف، ما تواطأتم على إخفائه من حقائق كتاب الله الذي معكم .. سواء في ذلك اليهود والنصارى .. وقد أخفى النصارى الأساس الأول للدين .. التوحيد ..

وأخفى اليهود كثيراً من أحكام الشريعة كترجمة الزاني، وتحريم الربا كافة. كما أخفوا جميعاً خبر بعثة النبي الأمي «الذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ» .. كما أنه - ﷺ - يعفو عن كثير مما أخفوه أو حرفوه مما لم يرد به شرعه. فقد نسخ الله من أحكام الكتب والشائع السابقة ما لم يعد له عمل في المجتمع الإنساني، مما كانت له وظيفة وقنية في المجتمعات الصغيرة الخاصة، التي بعث إليها الرسول من قبل لفترة محدودة - في علم الله - من الزمان، قبل أن تحيي الرسالة الشاملة الدائمة، وتسقى - وقد أكملها الله وأتم بها نعمته ورضيها للناس ديناً - فلم يعد فيها نسخ ولا تبديل ولا تعديل.

ويبيّن لهم طبيعة ما جاء به هذا الرسول، ووظيفته في الحياة البشرية، وما قدر الله من أثره في حياة الناس. «قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ. يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُّلَ السَّلَامِ. وَيَخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» ..

وليس أدق ولا أصدق ولا أدل على طبيعة هذا الكتاب .. القرآن .. وعلى طبيعة هذا
المنهج .. الإسلام ..

من أنه «نور» .. إنها حقيقة يجدها المؤمن في قلبه وفي كيانه وفي حياته وفي رؤيته وتقديره
للأشياء والأحداث والأشخاص ..

يجدها بمجرد أن يجد حقيقة الإيمان في قلبه .. «نور» نور تشرق به كينونته فتشف وتحف
وترف. ويشرق به كل شيء أمامه فيتضح ويكتشف ويستقيم.

ثقلة الطين في كيانه، وظلمة التراب، وكثافة اللحم والدم، وعراة الشهوة والتزوة .. كل
أولئك يشرق ويضيء ويتجلّى .. تخف الشقلة، وتشرق الظلمة، وترق الكثافة، وترف
العراة ..

واللبس والغبش في الرؤية، والتراجح والتردد في الخطوة، والجبرة والشروع في الاتجاه
والطريق البهيم الذي لا معالم فيه .. كل أولئك يشرق ويضيء ويتجلّى .. يتضح المدف
ويستقيم الطريق إليه و تستقيم النفس على الطريق ..

«نور. وَكِتَابٌ مُبِينٌ» .. وصفان للشيء الواحد .. لهذا الذي جاء به الرسول الكريم
.. «يَهْدِي بِهِ اللَّهُ - مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ - سُبْلَ السَّلَامِ وَيُنْهِرُ جُهُونَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى الْتُّورِ
بِإِذْنِهِ، وَيَهْدِيْهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

لقد رضي الله الإسلام دينا .. وهو يهدي من يتبع رضوانه هذا ويرتضيه لنفسه كما رضيه
الله له .. يهديه ..

«سبل السلام» .. وما أدق هذا التعبير وأصدقه إنه «السلام» هو ما يسكنه هذا الدين في
الحياة كلها .. سلام الفرد.

سلام الجماعة. وسلام العالم .. سلام الضمير، وسلام العقل، وسلام الجوارح .. سلام
البيت والأسرة، وسلام المجتمع والأمة، وسلام البشر والإنسانية .. السلام مع
الحياة. والسلام مع الكون. والسلام مع الله رب الكون والحياة .. السلام الذي لا تجده
البشرية - ولم تجده يوما - إلا في هذا الدين وإنما في منهجه ونظامه وشريعته، ومجتمعه
الذي يقوم على عقيدته وشريعته.

حقاً إن الله يهدي بـهذا الدين الذي رضيه، من يتبع رضوان الله، «سبل السلام» .. سبل السلام كلها في هذه الجوانب جمـيعها .. ولا يدرك عـمق هذه الحقيقة كما يـدرـكـها من ذـاقـ سـبـلـ الـحـرـبـ فيـ الـجـاهـلـيـاتـ الـقـدـيـمةـ أوـ الـحـدـيـثـ .. ولا يـدرـكـ عـمقـ هذهـ الحـقـيقـةـ كماـ يـدرـكـهاـ منـ ذـاقـ حـرـبـ القـلـقـ النـاـشـيـ منـ عـقـائـدـ الـجـاهـلـيـةـ فيـ أـعـماـقـ الـضـمـيرـ. وـحـرـبـ القـلـقـ النـاـشـيـ منـ شـرـائـعـ الـجـاهـلـيـةـ وـأـنـظـمـتـهاـ وـتـخـبـطـهاـ فيـ أـوـضـاعـ الـحـيـاـةـ.

وقد كان المخاطبون بهذه الكلمات أول مرة يعرفون من تجربتهم في الجاهلية معنى هذا السلام. إذ كانوا يذوقونه مذاقاً شخصياً ويلذذون هذا المذاق المريض .. وما أحوجنا نحن الآن أن ندرك هذه الحقيقة والجاهلية من حولنا ومن بيننا تذيق البشرية الويـلات .. من كل ألوان الحرب في الضـمـائـرـ وـالـمـجـتمـعـاتـ قـرـونـ! ما أحوجنا نـحنـ الـذـينـ عـشـناـ فيـ هـذـاـ السـلـامـ فـتـرـةـ منـ تـارـيـخـنـاـ ثـمـ خـرـجـنـاـ مـنـ السـلـامـ إـلـىـ الـحـرـبـ الـتـيـ تـحـطـمـ أـرـواـحـنـاـ وـقـلـوـبـنـاـ، وـتـحـطـمـ أـخـلـاقـنـاـ وـسـلـوـكـنـاـ، وـتـحـطـمـ مجـتمـعـاتـنـاـ وـشـعـوبـنـاـ .. بينما نـمـلـكـ الدـخـولـ فيـ السـلـمـ الـتـيـ منـحـهـاـ اللهـ لـنـاـ حـيـنـ نـتـبـعـ رـضـوـانـهـ وـنـرـضـيـ لـأـنـفـسـنـاـ ماـ رـضـيـهـ اللهـ لـنـاـ! إـنـاـ نـعـانـيـ مـنـ وـيـلـاتـ الـجـاهـلـيـةـ وـإـلـاسـلـامـ مـنـاـ قـرـيبـ. وـنـعـانـيـ مـنـ حـرـبـ الـجـاهـلـيـةـ وـسـلـامـ إـلـاسـلـامـ فيـ مـتـنـاـوـلـ أـيـدـيـنـاـ لـوـ نـشـاءـ .. فـأـيـةـ صـفـقـةـ خـاـسـرـةـ هـذـهـ الـتـيـ نـسـبـدـ فـيـهـاـ الـذـيـ هـوـ أـدـيـ بالـذـيـ هـوـ خـيـرـ؟ وـنـشـتـرـيـ فـيـهـاـ الصـلـالـةـ بـالـمـهـدـىـ؟ وـنـؤـثـرـ فـيـهـاـ الـحـرـبـ عـلـىـ السـلـامـ؟

إنـاـ نـمـلـكـ إنـقـاذـ الـبـشـرـيـةـ مـنـ وـيـلـاتـ الـجـاهـلـيـةـ وـحـرـبـهاـ الـمـشـبـوـبةـ فيـ شـتـىـ الصـورـ وـالـأـلوـانـ. وـلـكـنـاـ لـاـ نـمـلـكـ إنـقـاذـ الـبـشـرـيـةـ، قـبـلـ أـنـ نـنـقـذـ نـحـنـ أـنـفـسـنـاـ، وـقـبـلـ أـنـ نـفـيـءـ إـلـىـ ظـلـالـ السـلـامـ، حـيـنـ نـفـيـءـ إـلـىـ رـضـوـانـ اللهـ وـنـتـبـعـ مـاـ اـرـتـضـاهـ. فـنـكـونـ مـنـ هـؤـلـاءـ الـذـينـ يـقـولـ اللهـ عـنـهـ إـنـهـ يـهـدـيـهـمـ سـبـلـ السـلـامـ .

«وَيُنْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ» .. وـالـجـاهـلـيـةـ كـلـهاـ ظـلـمـاتـ .. ظـلـمـةـ الشـبـهـاتـ وـالـخـرـافـاتـ وـالـأـسـاطـيرـ وـالـتـصـورـاتـ. وـظـلـمـةـ الشـهـوـاتـ وـالـتـرـعـاتـ وـالـانـدـفـاعـاتـ فيـ التـيـهـ. وـظـلـمـةـ الـحـيـرـةـ وـالـقـلـقـ وـالـانـقـطـاعـ عـنـ الـمـهـدـىـ وـالـوـحـشـةـ مـنـ الـجـنـابـ الـآـمـنـ الـمـأـنـوسـ. وـظـلـمـةـ اـضـطـرـابـ الـقـيـمـ وـتـخـلـخـلـ الـأـحـكـامـ وـالـقـيـمـ وـالـمـواـزـينـ. وـالـنـورـ هـوـ الـنـورـ .. هـوـ ذـلـكـ الـنـورـ الـذـيـ تـحـدـثـنـاـ عـنـهـ آـنـفـاـ فـيـ الـضـمـيرـ وـفـيـ الـعـقـلـ وـفـيـ الـكـيـانـ وـفـيـ الـحـيـاـةـ وـفـيـ الـأـمـورـ ..

«وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ» .. مستقيم مع فطرة النفس ونوميسها التي تحكمها. مستقيم مع فطرة الكون ونوميسه التي تصرفه. مستقيم إلى الله لا يلتوي ولا تلتبس فيه الحقائق والاتجاهات والغايات ..^{٢٨٥}

وقال - تعالى - : {وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجَنَّا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} (٨٩) سورة النحل.

واذكر - أيها الرسول - حين نبعث يوم القيمة في كل أمة من الأمم شهيداً عليهم، هو الرسول الذي بعثه الله إليهم من أنفسهم وبسلفهم، وجئنا بك - أيها الرسول - شهيداً على أمتك، وقد نزلنا عليك القرآن توضيحاً لكل أمر يحتاج إلى بيان، كأحكام الحلال والحرام، والثواب والعقاب، وغير ذلك، ولن يكون هداية من الضلال، ورحمة لمن صدق وعمل به، وبشارة طيبة للمؤمنين بحسن مصيرهم.

٤- الأولويات في مجال العمل :

أ- أولوية العمل الدائم على العمل المنقطع .

- لقد بين القرآن الكريم كما وضحت السنة النبوية أن الأعمال عند الله - تعالى - متفاوتة المراتب، وأن هناك الأفضل والأحب إلى الله - تعالى - من غيره. ولكن هذا التفاوت ليس اعتباطياً، وإنما هو مبني على معايير وأسس ينبغي أن تراعي، ومنها أن يكون العمل أدوم، أي: أن يداوم عليه فاعله ويواظب عليه، بخلاف العمل الذي يقع منه بعض المرات في بعض الأوقات. قالت عائشة: قال رسول الله ﷺ: خذُوا مِنَ الْعَمَلِ مَا تُطِيقُونَ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَمْلُكُ حَتَّى تَمَلُّوا، وَكَانَ أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَدْوَمَهَا، وَإِنْ قَلَّ، كَانَ إِذَا صَلَّى صَلَةً دَائِرَةً عَلَيْهَا يَقُولُ أَبُو سَلَمَةَ: قَالَ اللَّهُ: {الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَالَاتِهِمْ دَائِمُونَ} [المعارج]. متفق عليه^{٢٨٦}.

^{٢٨٥} - في ظلال القرآن - موافقاً للمطبوع - (٨٦١ / ٢)

^{٢٨٦} - صحيح البخاري - المكتبة - (٦٤٦٥) وصحيح مسلم - المكتبة - (١٨٦٦) وصحيح ابن حبان - (٤) / (٤٤٦) (١٥٧٨).

ب- أولوية العمل الأطول نفعاً وأبقى أثراً .

- إن امتداد العمل وبقاوته زماناً مطلوب ومفضل عند الله - عز وجل -، وكلما كان النفع به أطول، كان أفضل وأحب إلى الله. ومن أحل ذلك فُضلت الصدقة بما يطول النفع به، عن أبي أمامة قال قال رسول الله - ﷺ - «أفضل الصدقات ظل فسطاط في سبيل الله ومتى حادم في سبيل الله أو طرفة فحل في سبيل الله» ^{٢٨٧}.

وعن أبي كبيشة السلولي، قال: سمعت عبد الله بن عمرو، يقول: قال رسول الله - ﷺ - أربعون حصلة أعلاهن: متى حادم في سبيل الله أو طرفة فحل في سبيل الله» ^{٢٨٨}.
أربعون حصلة أعلاهن: متى حادم في سبيل الله أو طرفة فحل في سبيل الله» ^{٢٨٧}.
أربعون حصلة أعلاهن: متى حادم في سبيل الله أو طرفة فحل في سبيل الله» ^{٢٨٨}.
أربعون حصلة أعلاهن: متى حادم في سبيل الله أو طرفة فحل في سبيل الله» ^{٢٨٧}.
أربعون حصلة أعلاهن: متى حادم في سبيل الله أو طرفة فحل في سبيل الله» ^{٢٨٨}.

منيحة: المنيحة هي الناقة أو الشاة يعطيها الرجل رجلاً آخر يحلبها، وينتفع بلبنها، ثم يعيدها إليه.

تشميست العاطس: بالشين والسين، والشين أعلى، وهو أن تقول له: يرحمك الله، ونحو ذلك، وهو في الأصل: الدعاء، وكل داع بخير: مشمت.

- ومن هنا كان فضل الصدقة الجارية التي يستمر نفعها وأثرها بعد وفاة المتصدق بها، مثل الأوقاف الخيرية التي عرفها المسلمون منذ عصر النبوة، وتميزت الحضارة الإسلامية بسعتها وكثرتها وتنوعها، حتى استواعت كل جوانب البر ونواحي الخير، مما شمل كل ذوي الحاجات من بني الإنسان بل امتد خيرها إلى الحيوان !

فعن أبي هريرة، أن النبي - ﷺ - قال: إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعوه له. رواه مسلم ^{٢٨٩}.

صدقة جارية: الصدقة الجارية هي الدارة المتصلة، كالوقف وما يجري مجرها.

^{٢٨٧} - سنن الترمذى- المكتـ (١٧٢٧) حسن - الطروقة : الأئـى الـى بلـتـ أـن يـطـلـاـها الفـحلـ - الفـسـطـاطـ : الخـيـمةـ

^{٢٨٨} - صحيح البخارى- المكتـ (٢٦٣١) وشعب الإيمـان - (٥ / ٧٢) (٣١١٢)

^{٢٨٩} - صحيح مسلم- المكتـ (٤٣١٠) وصـحـيـحـ اـبـنـ حـيـانـ - (٧ / ٢٨٦) (٣٠١٦)

ج- أولوية العمل المتعددي النفع على العمل القاصر النفع .

- فالعمل الأكثر نفعاً مفضل على غيره، وعلى قدر نفعه لآخرين يكون فضله وأجره عند الله - تعالى - .

فَعَنْ عُمَرَ، أَنَّ رَجُلًا، جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسُ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ، وَأَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْسِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دِيَنًا، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوَعًا، وَلَئِنْ أَمْشَى مَعَ أَخِّي لِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكُفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ شَهْرًا فِي مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ، وَمَنْ كَفَ غَضَبَةُ سَرَّ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَ أَمْضَاهُ، مَلَأَ اللَّهُ قَلْبَهُ رَجَاءً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى يُبَشِّهَا لَهُ بَيْتُ اللَّهِ قَدَمَهُ يَوْمَ تَرْزُولُ الْأَقْدَامُ ". الطبراني ٢٩٠ .

- ومن هنا كان كل عمل يتعلق بإصلاح المجتمع ونفعه أفضل من العمل المقصور النفع على صاحبه، فَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَلَا أَحْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصَّلَاةِ، وَالصِّيَامِ، وَالصَّدَقَةِ؟ قَالُوا: بَلَى قَالَ: إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ قَالَ: وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالَقَةُ . رواه أحمد ٢٩١ .

الحالقة: الحصلة التي من شأنها أن تخلق، أراد: أنها حصلة سوء تذهب الدين كما تذهب الموسى الشّعر.

- ومن هنا كان فضل الدعوة والعمل الوعي في سبيل الله أعظم أجرًا من الانقطاع إلى العبادة مرات ومرات . وكذلك قرر الفقهاء أن المتفرغ للعبادة لا يأخذ من الزكاة، بخلاف المتفرغ للعلم، لأنه لا رهبانية في الإسلام ٢٩٢ ، ولأن تفرغ المتبع لنفسه، وتفرغ طالب العلم لمصلحة الأمة ! وعلى قدر من ينتفع بعلمه ودعوته يكون أجره وموته، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبَعَهُ

^{٢٩٠} - المعجم الصغير للطبراني - (٢ / ١٠٦) (٨٦١) والصحيفة (٩٠٦) وصحيف الحامع (١٧٦) حسن لغيرة

^{٢٩١} - مسند أحمد (علم الكتب) - (٨ / ٨٨٧) (٢٧٥٠٨) (٢٨٠٥٨) - صحيح

^{٢٩٢} - انظر الآداب الشرعية - (٢ / ٣٥)

لَا يَنْقُصُ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبَعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئاً. رواه مسلم ^{٢٩٣}.

وكذلك جاء فضل عمل الإمام العادل على عبادة غيره عشرات السنين، لأنّه في يوم واحد قد يصدر من القرارات ما ينصف آلاف المظلومين أو ملايينهم، ويرد الحق الضائع إلى أهله، ويعيد البسمة إلى شفاه حُرِّمت منها، وقد يصدر من العقوبات ما يقطع سبل المجرمين، ويستأصل شأفتهم، أو يفتح لهم باب المداية والتوبة.

فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «عَدْلُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِّنْ عِبَادَةٍ سِتِّينَ سَنَةً، قِيَامٌ لَيْلَهَا، وَصِيَامٌ نَهَارِهَا، وَجَوْرٌ سَاعَةٌ فِي حُكْمٍ أَشَدُّ وَأَعْظَمُ مِنْ مَعْصِيَةٍ سِتِّينَ سَنَةً» ^{٢٩٤}.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يَوْمٌ مِّنْ إِمَامٍ عَادِلٍ أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةٍ سِتِّينَ سَنَةً، وَحَدْدٌ يُقَامُ فِي الْأَرْضِ أَزْكَى فِيهَا مِنْ قَطْرٍ أَرْبَعِينَ يَوْمًا» ^{٢٩٥}.

وقد يهيء للناس من الأسباب، ويفتح لهم من الأبواب: ما يرد الشاردين إلى الله، ويهدي الضالين إلى طريقه، ويعين المنحرفين على الاستقامة. وقد يقيم من المشروعات البناءة والنافعة ما يساعد على إيجاد عمل لكل عاطل، وخبز لك جائع، ودواء لكل مريض، وبيت لكل مشرد، وكفاية لكل محتاج. وهذا ما جعل العلماء الأوائل يقولون: لو كانت لنا دعوة مستجابة لدعوناها للسلطان (أي: الرئيس أو الحاكم)، فإن الله يصلح بصلاحه خلقاً كثيراً.

د- أولوية العمل في أزمة الفتنة والشدائد .

- أي في الأزمة الصعبة على الأمة، فالعمل الصالح هنا دليل القوة في الدين والصلابة في اليقين والثبات على الحق كما أن الحاجة إلى صالح الأعمال في هذا الزمن أشد من الحاجة إليه فيسائر الأزمان. بل إن العاملين في هذه الأزمة لهم الأجر الأكبر، قال أبو أمية

^{٢٩٣} - صحيح مسلم- المકتر - (٦٩٨٠) وصحيح ابن حبان - (١ / ٣١٨)(١١٢)

^{٢٩٤} - فضيلة العادلين من الولاة - (١ / ٨) [١٢] حسن

^{٢٩٥} - فضيلة العادلين من الولاة - (١ / ٨) [١٣] وشعب الإيمان - (٩ / ٤٨٣)(٦٩٩٥) والمعجم الكبير للطبراني

- (٣١ / ١٠) (١١٧٦٤) حسن

الشَّعْبَانِيُّ: أَتَيْتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ الْخُشْنَيِّ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا ثَعْلَبَةَ كَيْفَ تَقُولُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: {لَا يَضْرُكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} [المائدة: ٢] ؟ قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَقْدْ سَأَلْتَ عَنْهَا حَبِيرًا: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: بَلْ اتَّسَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَنَاهُوا عَنِ الْمُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتُ شُحًّا مُطَاعِعًا، وَهُوَ مُتَبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْتَرَّةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ نَفْسَكَ، وَدَعْ أَمْرَ الْعَوَامَ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا، الصَّبَرُ فِيهِنَّ مِثْلُ قَبْضٍ عَلَى الْحَجْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِهِ، قَالَ وَزَادَنِي عَيْرُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْهُمْ ؟ قَالَ: خَمْسِينَ مِنْكُمْ.^{٢٩٦}

الشح: البخل الشديد، وطاعته: أن يتبع الإنسان هوى نفسه لبخله، وينقاد له.-دنيا مؤثرة: أي حبوبية مشتهاة.

هـ- أولوية عمل القلب على عمل الجوارح .

- إن أعمال القلوب الباطنة مفضلة على أعمال الجوارح الظاهرة، لأن الأعمال الظاهرة نفسها لا تقبل عند الله - تعالى - ما لم يصحبها عمل باطن هو أساس القبول، وهو النية فعن عمر بن الخطاب، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّمَا الْأَعْمَالَ بِالنِّيَةِ، وَإِنَّمَا لِأَمْرِئِ مَا تَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ أَمْرَأَةً يَتَرَوَّجُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ". متفق عليه.^{٢٩٧}

ولأن القلب هو حقيقة الإنسان، ومدار صلاحه أو فساده عليه، فعن الشعبي قال: سمعتُ التعمان بن بشير يقول: سمعتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "وَأَوْمَأَ الْتُّعْمَانَ يَأْصِبِعَهُ إِلَى أَذْنِيْهِ إِنَّ الْحَلَالَ بَيْنَ وَالْحَرَامِ بَيْنَ، وَبَيْنَ ذَلِكَ مُشْتَبِهَاتٍ، لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ، قَدْ اسْتَبَرَ لِدِينِهِ، وَعَرَضَهُ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ، وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي، يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى، يُوْشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنْ لَكُلُّ مَلِكٍ حَمَى، وَإِنْ حَمَى اللَّهُ مَحَارِمُهُ" وفي رواية عن التعمان بن بشير قال: خطبنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: "الْحَلَالُ بَيْنَ وَالْحَرَامُ

^{٢٩٦} - صحيح ابن حبان - (٢ / ١٠٩) (٣٨٥) صحيح

^{٢٩٧} - صحيح البخاري- المختصر - (٦٦٨٩) وصحيح مسلم- المختصر - (٥٠٣٦) وشعب الإيمان - (٩ / ١٦٠)

بَيْنَ، وَيَنْهَا مُشْتَهَاتٌ "فَذَكَرَهُ وَقَالَ: الشُّبَهَاتُ وَزَادَ "أَلَّا، وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْعَةً، إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الْجَسَدُ، أَلَّا وَهِيَ الْقُلُبُ" متفق عليه ^{٢٩٨} .

- وتقوى الله - تعالى - هي وصية الله للأولين والآخرين، وهي أساس الفضائل والخيرات والمكاسب في الدنيا والآخرة وهي في حقيقتها ولبها أمر قلبي، فعن أبي سعيد، مولى عبد الله بن عاصم، قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: لَا تَحَاسِدُوا، وَلَا تَنَاجِشُوا، وَلَا تَبَاغِضُوا، وَلَا تَدَابِرُوا، وَلَا يَعِنْ أَحَدُكُمْ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ، وَكُوْنُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْرَاجَانَ، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَعْذِلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا، وَأَشَارَ يَدَهُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَاتٍ، حَسْبُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ ^{٢٩٩} .

أي كرر ثلاث مرات مع الإشارة الحسية بيده إلى صدره ليثبتها في العقول والأنفس .

- وللأسف فإن بعض المتدينين عامة والدعاة خاصة يركزون على بعض الأعمال والآداب التي تتعلق بالظاهر أكثر من الباطن، وبالشكل أكثر من الجوهر، مثل تقصير ثوب الرجل ! وإحفاء الشراب، وإعفاء اللحى، وصورة حجاب المرأة، وعدد درجات المنبر، وطريقة وضع اليدين أو القدمين أثناء القيام في الصلاة، إلى غير ذلك من الأمور التي تتعلق بالصورة والشكل أكثر مما تتعلق بالجوهر والروح، فهذه - مهما كان وضعها - لا تأخذ الأولوية في الدين .

وليس معنى كلامنا إهانة، بل لا بد من الأخذ بعين الاعتبار الأهم فالمهم .

- وإننا نلاحظ - للأسف الشديد - أن كثيراً من يدققون في تلك الأمور الظاهرة وأمثالها - وليس كلهم - يغفلون هذا التدقيق ولا يكتثرون به في أمور أشد خطراً وأعمق أثراً، مثل بر الوالدين، وصلة الأرحام، وأداء الأمانات، ورعاية الحقوق، وإتقان العمل، وإعطاء كل ذي حق حقه، والرحمة بخلق الله، ولا سيما الضعفاء منهم، والتورع عن احترام

^{٢٩٨} - صحيح البخاري- المكتـ - (٥٢) وصحيح مسلم- المكتـ - (٤١٧٨) وشعب الإيمان - (٤٩٢ / ٥٣٥٥)

(٥٣٥٦)

^{٢٩٩} - مسند أحمد (علم الكتب) - (٣ / ١٣١) (٧٧٢٧) (٧٧١٣) - صحيح مسلم- المكتـ - (٦٧٠٦)

اليقينية، إلى غير ذلك مما وصف الله - تعالى - به المؤمنين في كتابه، مثل أوائل سورة الأنفال {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجَلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلَيَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادُهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقْيِمُونَ الصَّلَاةَ وَمَمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) } [الأنفال: ٢ - ٤]، وأوائل سورة المؤمنين { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ حَاسِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ الْلَّعْنِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلرِّزْكَةِ فَاعْلَوْنَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَرْوَاحِهِمْ أَوْ مَا مَلَكُتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مُلُومِينَ (٦) فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرْثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١) } [المؤمنون: ١ - ١١]، وأواخر سورة الفرقان { وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا حَاطَبُهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ لِرَبِّهِمْ سُجْدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًا وَمُقَاماً (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً (٦٧) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَيْهَا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَمَ اللَّهُ إِلَيْهَا بِالْحَقِّ وَلَا يَرْتُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً (٦٨) يُضَاعِفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لَا يَشْهُدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُوا بِاللَّعْنِ مَرُوا كَرَاماً (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمِيَّانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَرْوَاحِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرْةً أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُولَئِكَ يُخْرِجُونَ الْعُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَلَيَلْقَوْنَ فِيهَا تَحْيَةً وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسْنَتْ مُسْتَقَرًا وَمُقَاماً (٧٦) قُلْ مَا يَعْبُدُ بَعْضُهُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبُتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً (٧٧) } [الفرقان: ٦٣ - ٧٧]، وغيرها. وللأسف الشديد أيضاً نجد بعض المتشددين على أنفسهم وعلى الناس في أمور مثل اللحم الحلال المذبوح بطريقة شرعية قطعية، وتحريفهم أشد التحرّي في ذلك،

وتفتيشهم عن احتمال أن يكون في الطعام أثر من لحم الخنزير أو دهنه، ولو كان واحداً في المائة أو في الألف، وهو لا يبالي أن يأكل لحم إخوانه ميتاً في اليوم عدة مرات {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا احْتَبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظُّنُنِ إِنَّ بَعْضَ الظُّنُنِ إِثْمٌ وَلَا تَجْسِسُوا وَلَا يَعْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُّهُبْ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهُتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَابُ رَّحِيمٌ} (١٢) سورة الحجرات، حتى إنه ليتصيد لهم الشبهات، أو يختلق لهم التهم، أو يصدقها ويشيعها إن لم يكن هو مختلقها!

و- اختلاف الأفضل باختلاف الزمان والمكان والحال .

- إن الأولوية والأفضلية في كثير من الأمور لا تكون أولوية مطلقة في الزمان والمكان والأشخاص والأحوال وإن تفاوت؛ بل الغالب أنها تتفاوت بتفاوت المؤثرات الزمانية والبيئية والشخصية، وهذا أمثلة كثيرة :

• أفضل الأعمال الدينية :

فقد اختلف علماؤنا: أي هذه الأعمال أفضل وأكثر مشوبة عند الله: الزراعة أم الصناعة أم التجارة؟ والذي دعاهم إلى هذا الاختلاف ما ورد في فضل كل منها :

ففي فضل الزراعة

عن أنسٍ - ﷺ - قالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَعْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ » ^{٣٠٠} .

وعن جابرٍ قالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَعْرِسُ غَرْسًا إِلَّا كَانَ مَا أَكَلَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ وَمَا سُرِقَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ وَمَا أَكَلَ السَّبَعُ مِنْهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ وَمَا أَكَلَ الطَّيْرُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ وَلَا يَرَوُهُ أَحَدٌ إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ » ^{٣٠١} .

وعن أم مبشر الانصارية، قالت: دخلَ على رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَأَنَا فِي نَخْلٍ لِي، فَقَالَ: " لِمَنْ هَذَا النَّخْلُ؟ " قُلْتُ: لِي، قَالَ: " مَنْ غَرَسَهُ مُسْلِمٌ أَوْ كَافِرٌ؟ " قُلْتُ: مُسْلِمٌ، قَالَ:

^{٣٠٠} - صحيح البخاري- المكتن - (٢٣٢٠) وصحيح مسلم- المكتن - (٤٠٥٥)

^{٣٠١} - صحيح مسلم- المكتن - (٤٠٥٠) - يرزا : يأخذ منه وينقصه

مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَعْرِسُ غَرْسًا أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا فِي أَكْلَ مِنْهُ إِنْسَانٌ، أَوْ طَيْرٌ، أَوْ سَبَعٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةً " ٣٠٢ .

وَعَنْ أَنَسَ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبَيْدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةُ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُولَ حَتَّى يَعْرِسَهَا فَلَيَفْعُلْ . ٣٠٣ .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ: " مَنْ أَمْسَى كَالًا مِنْ عَمَلٍ يَدِيهِ أَمْسَى مَغْفُورًا لَهُ " . رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ . ٣٠٤ .

وَفِي فَضْلِ الصَّنَاعَةِ :

عَنِ الْمُقْدَامِ بْنِ مَعْدِيِّ كَرَبَ صَاحِبِ التَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ حَدَّثَهُ عَنِ التَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: " مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَكَانَ دَاؤُدَ لَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدِهِ " أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي الصَّحِيفَةِ . ٣٠٥ .

وَفِي فَضْلِ التَّجَارَةِ :

عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الْأَمِينُ الْمُسْلِمُ مَعَ الشُّهَدَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " . ٣٠٦ .

وَعَنْ سَلْمَانَ، قَالَ: " التَّاجِرُ الصَّدُوقُ مَعَ السَّبَعَةِ فِي ظَلِّ عَرْشِ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالسَّبْعَةُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةُ ذَاتُ حُسْنٍ وَمَيْسِمٍ إِلَى نَفْسِهَا فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ، وَرَجُلٌ ذُكِرَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسَاجِدِ مِنْ حُبِّهِ إِيَّاهَا، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَكَادَتْ يَمْيِنُهُ تُخْفِي مِنْ شِمَالِهِ، وَرَجُلٌ لَقِيَ أَخَاهُ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّكَ

٣٠٢ - شعب الإيمان - (٥ / ١٤٩) (٣٢٢٢) وصحيح مسلم - المكتن - (٤٠٥٦) .

٣٠٣ - مسند أحمد (علم الكتب) - (٤ / ٤٩٣) (١٢٩٨١) (١٣٠١٢) - صحيح .

٣٠٤ - المعجم الأوسط للطبراني - (٧٧٣٣) حسن لغيره .

فيه سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس روى عنه جماعة وقال الذهبي في الكاشف (٢١٣٩) وثقة

٣٠٥ - صحيح البخاري - المكتن - (٢٠٧٢) وشعب الإيمان - (٢ / ٤٣٤) (١١٧٠) .

٣٠٦ - شعب الإيمان - (٢ / ٤٣٧) (١١٧٥) حسن .

فِي اللَّهِ، وَقَالَ الْآخَرُ: وَأَنَا أُحِبُّكَ فِي اللَّهِ حَتَّى تَصَادِرَا عَلَى ذَلِكَ، وَرَجُلٌ نَّشَأَ فِي الْخَيْرِ
مِنْ هُوَ غَلَامٌ^{٣٠٧} .

وَعَنْ أَبِي حَرَّةَ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا نَضْرَةَ يَقُولُ: التَّاجِرُ الصَّدُوقُ بِمَنْزِلَةِ الشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ
تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ^{٣٠٨} .

وَعَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: التَّاجِرُ الْأَمِينُ الصَّادِقُ مَعَ الصَّدِيقِينَ وَالشَّهِيدَاءِ. قَالَ: فَذَكَرْتَ ذَلِكَ
لِإِبْرَاهِيمَ فَقَالَ: صَدَقَ الْحَسَنُ، أَوْ لَيْسَ فِي جَهَادٍ؟^{٣٠٩} .

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ}: أَوْلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ التَّاجِرُ الصَّدُوقُ^{٣١٠} .

قال العلماء: لا نفضل واحدة منهم بإطلاق، بل التفضيل يكون بحسب حاجة المجتمع
إليها: فحيث تقل الأقوات ويكون المجتمع في حاجة إلى غذائه اليومي الذي لا عيش له إلا
به، تكون الزراعة أفضل من غيرها لحماية الأمة من الجوع وتوفير الأمن الغذائي،
وخصوصاً إذا كان في الزراعة بعض المشقة والصعوبة، فالصبر عليها يكون من أفضل
الأعمال .

وأما حيث تكثر الأقوات وتتسع دائرة الزراعة، ويحتاج الناس إلى الصناعات المختلفة
للاستغناء عن الاستيراد من ناحية، ولتشغيل الأيدي العاملة من ناحية أخرى، وحماية
حرمات الأمة وحدودها - بالنسبة للصناعات الحربية - من ناحية ثالثة، ولتفادي نقص
الكمالية الإنتاجية للأمة من ناحية رابعة، فهنا تكون الصناعة أفضل. وأما حين توفر الزراعة
والصناعة، ويحتاج الناس إلى من ينقل ما تنتجه هذه وتلك من بلد إلى آخر، فهو وسيط
جيد بين المنتج والمستهلك، وكذلك عندما يسيطر على السوق تجار جشعون محتكرون
ومستغلون لحاجات جماهير الخلق ومتلاعبون بأسعار السلع، فهنا تكون التجارة أفضل،

^{٣٠٧} - شعب الإيمان - (١١ / ٣٣٣)(٨٦١٣) فيه انقطاع

^{٣٠٨} - مصنف ابن أبي شيبة - (٧ / ٢٧١)(٢٣٥٤٦) صحيح مرسلا

^{٣٠٩} - مصنف ابن أبي شيبة - (٧ / ٢٧١)(٢٣٥٤٧٦) صحيح مرسلا

^{٣١٠} - مصنف ابن أبي شيبة - (١٤ / ١٤٤)(٣٧١٩٦-٣٧١٩٧) صحيح لغيره

وخصوصاً إذا كان من الرجال الذين { لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا يَبْعَثُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَنَقَّلُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ} (٣٧) سورة النور. وأحوج ما تحتاج إليه أمتنا في عصرنا هو التكنولوجيا المتطرفة، وكذلك تطور مناهجها ونظمها التعليمية، بما يعيد إليها مكانتها العالمية، يوم كانت لها حضارة متميزة، عميقة الجذور، بأسقة الفروع، وأن تستشرف المستقبل وتنظر إليه من خلال ما يطلبه منها الإسلام، وما ينشده أهله، وما يتطلع إليه العالم من المعرفة به عقيدة ونظاماً وحضارة . وإن تحصيل هذه التكنولوجيا المتقدمة والتتفوق فيها، وفي العلوم الموصولة إليها أصبح فريضة وضرورة، فريضة يوجها الدين، وضرورة يحتمها الواقع، وهي في مقدمة الأولويات للأمة اليوم .

• أفضل العبادات :

وقد اختلف العلماء بالنسبة لأفضل العبادات بالنسبة للفرد اختلافاً بعيداً، وتعددت أقوالهم وتبaint، والقول المرجح ما ذكره الإمام ابن القيم، وهو أن ذلك يختلف من شخص إلى آخر، ومن وقت إلى آخر، ومن مكان إلى آخر، ومن حال إلى آخر. فالأفضل في وقت حضور الصيف مثلاً: القيام بمحقه، والاشتغال به عن الورد المستحب، وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل. والأفضل في أوقات السحر: الاشتغال بالصلوة والدعاة والذكر والاستغفار. والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته: عيادته، وحضور جنازته وتشييعه .

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذاء الناس لك: أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم، دون الهرب منهم، فعن ابن عمر، عن النبي ﷺ أنه قال: المُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ، وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ، أَعْظَمُ أَجْرًا مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُهُمْ، وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ قَالَ: حَجَّاجٌ: حَيْرٌ مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُهُمْ ٣١١... وهكذا .

٥- الأولويات في مجال المأمورات :

أ- أولوية الأصول على الفروع .

- وذلك بتقدسيم ما يتصل بالإيمان بالله - تعالى - وتوحيده، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأركان الإيمان كما بينها القرآن الكريم، قال الله - تعالى - : {لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُؤْلِمُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَسْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حِبْهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبُأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبُأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} (١٧٧) سورة البقرة،

وقال - تعالى - : {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ أَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرَسُولِهِ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رَسُولِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطْعَنَا عُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} (٢٨٥) سورة البقرة.

وقال - تعالى - : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكُفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرَسُولِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} (١٣٦) سورة النساء.

ب- أولوية الفرائض على السنن والنواول .

- إن فقه الأولويات يقتضي أن نقدم الأوجب على الواجب، والواجب على المستحب، وأن نتساهم في السنن والمستحبات ما لا نتساهم في الفرائض والواجبات، وأن نؤكد أمر الفرائض الأساسية أكثر من غيرها، وبخاصة الصلاة والزكاة الفريضتان الأساسيةان اللتان قرن الله بينهما في القرآن الكريم في ثمانية وعشرين موضعًا، وجاءت عدة أحاديث صحيحة في ذلك، فعن حَمْظَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ، سَمِعْتُ عَكْرَمَةَ بْنَ حَالَدَ يُحَدِّثُ طَاؤُسًا، أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِابْنِ عُمَرَ: أَلَا تَعْزُرُ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،

يَقُولُ: بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصِيَامِ رَمَضَانَ، وَحَجَّ الْبَيْتِ. مُتَفَقُ عَلَيْهِ ^{٣١٢}.

- ومن الخطأ إذن اشتغال الناس بالسفن والتطوعات من الصلاة والصيام والحج عن الفرائض، فنرى بعض المنتسبين إلى الدين من يقوم كل الليل، ثم يذهب إلى عمله الذي يتراضى عليه أجراً وهو متعب كليل القوة، فلا يقوم بواجبه كما ينبغي ، ولو علم أن إحسان العمل فريضة: عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ، قَالَ: شَتَّانٌ حَفَظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِخَ ذَبِيْحَتَهُ. ^{٣١٣}

وأن التفريط فيه خيانة للأمانة وأكل للمال - آخر الشهر - بالباطل، لوفر على نفسه ذلك القيام لأنه ليس أكثر من نفل، لم يلزمه الله به ولا رسوله .

ومثله من يصوم الاثنين والخميس، فيتبعه الصيام، وخصوصاً في أيام الصيف، فيمضي إلى عمله مكدوداً مهدوداً، وكثيراً ما يؤخر مصالح الناس بتأثير الصوم عليه. والصوم هنا نفل غير واجب ولا لازم وإنجاز المصالح واجب ولازم !

فَعَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلاً أَنْ يُتَقْنَهُ " ^{٣١٤}.

وعن أبي هريرة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أن رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ « لَا يَحِلُّ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَصُومَ وَزَوْجُهَا شَاهِدٌ إِلَّا يَإِذْنَهُ، وَلَا تَأْذَنَ فِي بَيْتِهِ إِلَّا يَإِذْنَهُ، وَمَا أَنْفَقَتْ مِنْ نَفَقَةٍ عَنْ غَيْرِ أَمْرِهِ فَإِنَّهُ يُؤْذَى إِلَيْهِ شَطْرُهُ » ^{٣١٥}.

وذلك لأن حقه عليها أوجب من صيام النافلة. وكذلك نرى بعض المسلمين الذين يمحجون تطوعاً بعد الفريضة مرات عديدة، مع أن كثيراً من الفقراء يحتاجون إلى المال، وكثيراً من

^{٣١٢} - صحيح البخاري- المكتبة - (٨) و صحيح مسلم- المكتبة - (١٢٢) و صحيح ابن حبان - (١ / ٣٧٣) (١٥٨)

^{٣١٣} - صحيح مسلم- المكتبة - (٥١٦٧) و صحيح ابن حبان - (١٣ / ٢٠٠) (٥٨٨٤)

^{٣١٤} - شعب الإيمان - (٧ / ٢٢٣) (٤٩٣٠) صحيح

^{٣١٥} - صحيح البخاري- المكتبة - (٥١٩٥)

المناطق تحتاج إلى المراكز الدعوية لتعليم الناس أمور الدين، وكثيراً من الناس يموتون لأنهم لا يجدون الدواء المناسب !!

وهو لاء لو فقهوا دينهم وعرفوا شيئاً من فقه الأولويات، لقدموا مساعدة مشاريع دعوية وإنسانية كثيرة على استمتاعهم الروحي بالحج التطوعي !!

ج- أولوية فرض العين على فرض الكفاية .

- كما أن الفرائض مقدمة في الرتبة على النوافل بلا نزاع، فالفرائض في نفسها متفاوتة، ففرض العين مقدم على فرض الكفاية. وقد دلت الأحاديث النبوية على ذلك، وأنظر مثال ما جاء في شأن بر الوالدين والجهاد في سبيل الله حينما يكون الجهاد فرض كفاية، وهو جهاد الطلب لا جهاد الدفع. فقد روى الشیخان عن عبد الله بن عمرو، قال: جاء رجُلٌ إلى النبي ﷺ، يستأذنه في الجهاد، فقال: أَحَىٰ وَالدَّائِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَفِيهِمَا فَجَاهَدْ^{٣١٦} (أي الخدمة والرعاية والطاعة...).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: جاء رجُلٌ إلى النبي ﷺ - فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ جِئْتُ أُبَايِعُكَ عَلَى الْهِجْرَةِ وَتَرَكْتُ أَبْوَيَّ يَيْكِيَانِ. قَالَ: «فَارْجِعْ إِلَيْهِمَا وَأَضْحِكُهُمَا كَمَا أَبْكَيْتُهُمَا»^{٣١٧} .

وعن أنس بن مالك، قال: أتى رجُلُ النبي ﷺ، فقال: إِنِّي أَشْتَهِي الْجِهَادَ وَلَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ قال: فَهَلْ بَقِيَ أَحَدٌ مِنْ وَالدَّيْكَ؟ فقال: أُمِّي قال: فَأَبْلِي اللَّهَ عُذْرًا فِي بَرَّهَا، فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ فَأَنْتَ حَاجٌ وَمُعْتَمِرٌ وَمُجَاهِدٌ إِذَا رَضِيَتْ عَنْكَ أُمُّكَ، فَاتَّقِ اللَّهَ وَبَرَّهَا "الطبراني"^{٣١٨} .
وعن معاوية بن جاهمة السلمي أن جاهمة جاء إلى النبي ﷺ - فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَدْتُ أَنْ أَغْزُوَ وَقَدْ جِئْتُ أَسْتَشِيرُكَ. فَقَالَ «هَلْ لَكَ مِنْ أُمٌّ؟» . قَالَ نَعَمْ . قَالَ «فَالْأَرْمَهَا فَإِنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ رِجْلِهَا» . رواه النسائي^{٣١٩} .

^{٣١٦} - صحيح البخاري- المکتـ - (٣٠٠٤) وصحيح مسلم- المکتـ - (٦٦٦٨) وصحيح ابن حبان - (٢) /

(٣١٨)(٢١)

^{٣١٧} - مسند الحمیدي - المکتـ - (٦١٢) صحيح

^{٣١٨} - المعجم الصغير للطبراني - (١٤٤ / ١١) حسن

وعن معاوية بن جاهمة، عن أبيه، قال: أتيت رسول الله ﷺ أستشيره في الجهاد، فقال النبي ﷺ: "ألك والدان؟" قلت: نعم، قال: "الرمهما فإن الجنة تحت أرجلهم" ^{٣٢٠}.

• فروض الكفاية تتفاوت :

- وفروض الكفاية نفسها تتفاوت، فهناك فروض كفاية قام بها بعض الناس، وربما أصبح فيها فائض، وفروض كفاية أخرى لم يقم بها عدد كافٍ، أو لم يقم بها أحد قط. ففي زمن الإمام الغزالي عاب على أهل عصره أنهم تكددوا في طلب الفقه، وطلبه فرض كفاية، على حين تخلّفوا عن ثغرة في واحب كفائي آخر، مثل علم الطب، حتى إن البلد يوجد بها خمسون متفقاً، ولا يوجد بها إلا طبيب من أهل النزعة، مع ضرورة الطب الدنيوية ومع أن للطب مدخلاً في الأحكام الشرعية، والأمور الدينية. ففرض الكفاية الذي لم يقم به أحد يكون الاشتغال به أولى من قام به بعض، ولو لم يسد كل الحاجة، وفرض الكفاية الذي قام به عدد غير كافٍ يكون الاشتغال به أولى من فرض آخر قام به عدد كافٍ، وربما زائد عن الحاجة. وقد يصبح فرض الكفاية في بعض الأحيان فرض عين على زيد أو عمرو من الناس؛ لأنه وحده الذي اجتمع له مؤهلاته، ووجد الموجب لقيامه، ولم يوجد المانع منه.

كما إذا احتاج بلد ما إلى فقيه يفتي الناس، وهو وحده الذي تعلم الفقه، أو هو وحده قادر على تحصيله. ومثله المعلم والخطيب والطبيب والمهندس، وكل ذي علم أو صنعة يحتاج إليها الناس، وهو يملكتها دون غيره !

د- أولوية حقوق العباد على حق الله المجرد.

- فرض الأعيان تتفاوت فيما بينها أيضاً، ولقد رأينا الشريعة تؤكّد في كثير من أحكامها تعظيم ما يتعلّق بحقوق العباد.

فرض العين، المتعلق بحق الله - تعالى - وحده يمكن التسامح فيه، بخلاف فرض العين المتعلق بحقوق العباد. فقد قال العلماء: إن حقوق الله - تعالى - مبنية على المسامحة،

^{٣١٩} - سنن النسائي - المكتبة - (٣١١٧) صحيح

^{٣٢٠} - المعجم الكبير للطبراني - (٤١٨ / ٢) صحيح

وحقوق العباد مبنية على المشاحة. ولهذا إذا كان الحج مثلاً واجباً، وأداء الدين واجباً، فإن أداء الدين مقدم، فلا يجوز لل المسلم أن يقدم على الحج حتى يؤدي دينه، إلا إذا استأذن من صاحب الدين، أو كان الدين مؤجلاً، وهو واثق من قدرته على الوفاء به !

- ولأهمية حقوق العباد هنا - وبخاصة الحقوق المالية - صح الحديث أن الشهادة في سبيل الله - وهي أرقى ما يطلبه المسلم للتقرب إلى ربه - لا تسقط عنه الدين !

فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - قَالَ « يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلُّ ذَنْبٍ إِلَّا الدَّيْنَ ». رواه مسلم ^{٣٢١}.

- وعن زيد بن خالد الجهنمي أن رجلاً من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ مُوْفِي يوم خير، فذكروه لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ، فقال: صلوا على صاحبكم، فتغيرت وجوه القوم من ذلك، فقال: إن صاحبكم غل في سبيل الله ففتحنا متابعه، فوجدنا خرزاً من خرز اليهود لا يساوي درهمين ^{٣٢٢}.

فمن أجل درهفين أعرض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ - عن الصلاة عليه، ليكون في ذلك أبلغ زاجر عن الطمع في المال العام، قل أو كثر !!

- هذه الأحاديث تدل على تعظيم حقوق الخلق، ولا سيما ما يتعلق بالمال، سواء أكان خاصاً أم عاماً، فلا يجوز أخذه من غير حله، وأكله بالباطل، وإن كان تافهاً، لأن المهم هو المبدأ، ومن احترأ على أخذ القليل، يوشك أن يجترئ على الكثير، والصغرى تحرر إلى الكبيرة، ومعظم النار من مستصغر الشرر .

هـ- أولوية حقوق الجماعة على حقوق الأفراد

- إن الفرائض المتعلقة بحقوق الجماعة مقدمة على الفرائض المتعلقة بحقوق الأفراد. فإن الفرد لا بقاء له إلا بالجماعة، ولا يستطيع أن يعيش وحده، فهو مدين بطبعه، كما قال القدماء، أو هو حيوان اجتماعي كما قال الحدثون، فالماء قليل بنفسه، كثير بجماعته. بل هو عدم بنفسه، موجود بجماعته . ومن هنا كان الواجب المتعلق بحق الجماعة أو الأمة أكمل من

^{٣٢١} - صحيح مسلم - المكتبة - (٤٩٩١)

^{٣٢٢} - صحيح ابن حبان - (١١ / ٤٨٥٣) حسن

الواجب المتعلق بحق الفرد. ومن الأمثلة على ذلك: فك الأسرى وتخلصهم من ذل الأسر، مهما كلف ذلك من الأموال. لأن كرامة هؤلاء الأسرى من كرامة الأمة الإسلامية، وكرامة الأمة فوق الحرمة الخاصة لأموال الأفراد، فعن أبي موسى - رض - قال قال رسول الله ص «فُكُوا الْعَانِي - يعني الأسير - وَاطْعِمُوا الْجَائِعَ وَعُودُوا الْمَرِيضَ» ^{٣٢٣}. وكذلك إذا اقتضت ظروف الدولة فرض ضرائب عادلة على القادرين وأهل اليسار لحفظ هيبة الدولة ونظامها، فإن الشرع يؤيد ذلك ويوجبه، كما نص على ذلك الفقهاء، وإن كان الكثير منهم في الأحوال المعتادة لا يطالب الناس بحق في المال غير الركاة ^{٣٢٤} !

و- أولوية الولاء للأمة والجماعة على الولاء للقبيلة والفرد .

- كانت القبيلة في المجتمع الجاهلي هي أساس الانتساع ومحور الولاء، وكان ولاء الرجل لقبيلته في الحق وفي الباطل. وكان شعار كل منهم: " انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً " على ظاهر معناها !! فلما أن جاء الإسلام جعل ولاء المسلمين لأمتهم وربّهم - من خلال القرآن الكريم والسنّة - على القيام لله شهداء بالقسط، لا يمنعهم من ذلك عاطفة الحب لقريب، ولا عاطفة البغض لعدو! فالعدل يجب أن يكون فوق العواطف، وأن يكون لله، فلا يحابي من يحب، ولا يحيف على من يكره. قال الله - تعالى - : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُوْنُوا قَوَّامِينَ بِالْقُسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوْ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَبَعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلُوْا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} (١٣٥) سورة النساء.

يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، كونوا قائمين بالعدل، مؤذين للشهادة لوجه الله تعالى، ولو كانت على أنفسكم، أو على آبائكم وأمهاتكم، أو على أقاربكم، مهما كان شأن المشهود عليه غنياً أو فقيراً؛ فإن الله تعالى أولى بهمما منكم، وأعلم بما فيه صلاحهمما، فلا يحملنّكم الهوى والتعصب على ترك العدل، وإن تحرفوا الشهادة بأسنتكم

^{٣٢٣} - صحيح البخاري- المكتن - (٣٠٤٦)

^{٣٢٤} - انظر الموسوعة الفقهية الكويتية - (٣٥ / ١٣)

فتأنوا بها على غير حقيقتها، أو تعرضوا عنها بترك أدائها أو بكتمانها، فإن الله تعالى كان عليماً بدقائق أعمالكم، وسيجازيكم بها.

وقال - تعالى - : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُوْنُوا قَوَامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءِ بِالْقُسْطِ وَلَا يَجْرِيْ مَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} (٨) سورة المائدة.

يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله محمد ﷺ كونوا قوامين بالحق، ابتغاء وجه الله، شهداء بالعدل، ولا يحملنكم بعضُ قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا بين الأعداء والأحباب على درجة سواء، فذلك العدل أقرب لخشية الله، واحذروا أن تجوروا. إن الله خبير بما تعملون، وسيجازيكم به.

واستخدم الرسول - ﷺ - بعض عبارات الجاهلية، وأعطتها مفهوماً جديداً، لم يكن لهم به عهد، فعن أنس بن مالك، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: انْصُرْ أَخَاهُ ظَالِمًا، أَوْ مَظْلُومًا، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا، فَكَيْفَ أَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟ قَالَ: تَكْفُهُ عَنِ الظُّلْمِ. ^{٣٢٥}

قال الإمام أحمد رحمة الله: "ومعنى هذا أنَّ الظالم مظلومٌ من جهته كما قال الله عز وجل: {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا، أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ} [النساء: ١١٠]، فكما يبغى أن ينصر المظلوم - إذا كان غير نفس الظالم ليدفع الظلم عنه - كذلك يبغى أن ينصر إذا كان نفس الظالم ليدفع ظلمه عن نفسه، وإنما أمر كل واحد بنصرة أخيه المسلم، إذا رأه يظلم وقدر على نصره؛ لأنَّ الإسلام إذا جمعهما صارا كالبدن الواحد، كما أنَّ أخوة النسب لو جمعتهما كأنَّ كالبدن الواحد، والذين أقوى من القرابة، وأولى بالمحافظة عليه منها، وإلى هذا وقعت الإشارة بقوله عز وجل: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخْوَيْكُمْ} [الحجرات: ١٠]. ^{٣٢٦}

- كما حذر - عليه الصلاة والسلام - من الدعوة للعصبية، أو القتال تحت رايتها، فمن قُتل تحتها فقتلته جاهلية، فعن جعفر بن مطعم أنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ «لَيْسَ مِنَ

^{٣٢٥} - صحيح البخاري- المكتن - (٦٩٥٢) وصحيح ابن حبان - (١١ / ٥٧١) (٥١٦٧)

^{٣٢٦} - شعب الإيمان - (١٠ / ٨٤)

دعا إلى عصبيةٍ وليس منا من قاتل على عصبيةٍ وليس منا من مات على عصبيةٍ ». رواه أبو داود ^{٣٢٧}.

وعن خصيلة بنت وائلة بن الأسعق أتتها سمعت أباها، يقول: قلت: يا رسول الله، ما العصبية؟ قال: أن تعين قومك على الظلم ». رواه أبو داود ^{٣٢٨}.

وكم أنكر النبي - ﷺ - "العصبية" وبريء منها، ومن دعا إليها، أو قاتل عليها، أو مات عليها، فإنه دعا إلى "الجماعة" [ال المجتمع وحفظه] وأكده أمرها، بقوله وفعله وتقريره، وحذر من الفرقة والخلاف والانفراط والشذوذ، فعن عرفة بن شريح الأشعري قال رأيت النبي - ﷺ - على المنبر يخطب الناس فقال: «إنه سيكُون بعدي هناتٌ وهناتٌ فمن رأيتموه فارق الجماعة أو يريد تفريق أمّة محمد - ﷺ - كائنًا من كان فاقتلوه فإن يد الله على الجماعة فإن الشيطان مع من فارق الجماعة يركض ». ^{٣٢٩}

وعن السائب بن مهجان، من أهل الشام من أهل إيلاء، وكان قد أدرك أصحاب رسول الله ﷺ في حديث ذكره، قال: لما دخل عمر رضي الله عنه الشام حمد الله وأشنى عليه ووعظ وذكر، وأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر ثم قال: إن رسول الله ﷺ قام علينا خطيباً كثيامي فيكم فما بنتقو الله وصلة الرحم وصالح ذات الين و قال: "عليكم بالجماعة؛ فإن يد الله على الجماعة، وإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين بعد، لا يخلون رجلاً بامرأة، فإن الشيطان ثالثهما، ومن ساعته سيته، وسرته حسته فهو أمارة المسلمين المؤمن، وأمارة المنافق الذي لا تسوءه سيته ولا تسره حسته إن عمل خيراً لم

^{٣٢٧} - سنن أبي داود - المكتبة - (٥١٢٣) حسن لغيره

^{٣٢٨} - المعجم الكبير للطبراني - (١٥ / ٤٧٢) (٤٧٢ / ١٧٦٩٦) وسنن أبي داود - المكتبة - (٥١٢١) ومن طريق آخر المعجم الكبير للطبراني - (١٥ / ٤٥٦) (٤٥٦ / ١٧٦٥٨) والإصابة (١٠٣٨٧) حسن

في سنته فسيلة بنت وائلة بن الأسعق وقيل جميلة روى عنها جماعة ووثقها ابن حبان التهذيب (١١٩٠٠) وتمذيب الكمال (٧٨٠٦) والراوي عنها سلمة بن بشر الدمشقي روى عنه جماعة وذكره ابن حبان في ثقاته التهذيب (٢٩٠٦)

وسلكت عليه أبو حاتم ٤/١٥٧

قلت: وله متابع تام عند الطبراني

^{٣٢٩} - سنن النسائي - المكتبة - (٤٠٣٧) صحيح - يركض : يتحرك ويضطرب

يرجع من الله في ذلك ثواباً، وإن عمل شرًا لم يخف من الله في ذلك الشّرّ عقوبة، وأحملوا في طلب الدنيا فإن الله قد تكفل بأرزاقكم وكل ميسّر له عمله الذي كان عاملاً، استعينوا بالله على أعمالكم فإنه يمحو ما يشاء ويثبت وعنه ألم الكتاب "عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَعَلَيْهِ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللهِ. السَّلَامُ عَلَيْكُمْ" هذه خطبة عمر بن الخطاب على أهل الشّام، أثرها عن رسول الله ﷺ .^{٣٣٠}

وعن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: نصر الله عبداً سمع مقالتي فوعاهما وبلغها غيره، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه، ثلاث لا يغلّ عليهم المؤمن: إخلاص العمل لله، ومناصحة المسلمين، ونزوّم جماعتهم، فإن دعوّتهم تأتي من ورائهم، وقال: يد الله على الجماعة، فمن شد عن يد الله لن يضر الله شدوده".^{٣٣١}

وعن النعمان بن بشير، قال: قال النبي ﷺ على المنيّر: من لم يشكّر القليل، لم يشكّر الكثير، ومن لم يشكّر الناس، لم يشكّر الله. التحدث بنعمته الله شكر، وتركها كفر، والجماعة رحمة، والفرق عذاب. رواه أحمد.^{٣٣٢}

وعن أبي سعيد الإسكتندراني قال: قال رسول الله ﷺ: "الجماعة برّكة، والشّرّ برّكة، والسّحور برّكة، تحرّروا فإنه يزيد في القوّة، وهو من السنة تحرّروا ولو على جرّع من ماء صلوات الله على المتسحرّين".^{٣٣٣}

وعن عبد الله بن عمر قال: خطبنا عمر بالجایة فقال: إني قمت فيكم كمّقام رسول الله - ﷺ - فينا فقال: "أوصيكم بأصحابي، ثمَّ الذين يلونهم، ثمَّ يفسّو الكذب حتى يحلف الرجل، ولا يسْتَحْلِف، وحْتَى يشهَدَ ولا يُسْتَشْهَد عَلَيْكُم بالجماعة، وإيّاكُم

^{٣٣٠} - شعب الإيمان - (١٣ / ٤٢٦) (٤٢٦ / ١٠٥٧٤) صحيح

^{٣٣١} - مسند الشاميين - ٣٦٠ - (٢ / ٢) (٢٦٠ / ١٣٠٢) صحيح

^{٣٣٢} - مسند أحمد (علم الكتب) - (٦ / ٢٩٧) (٢٩٧ / ١٨٤٤٩) - صحيح الجامع (٣٠١٤) والشعب (

٤٤١٩ و ٩١١٩) وكشف الأستار - (٢ / ٢٥٣) (٢٥٣ / ١٦٣٧) حسن لغيرة

^{٣٣٣} - مسند ابن الجعدي (٢٨٦١) ضعيف

وَالْفُرْقَةَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنَ الْاِثْنَيْنِ أَبْعَدُ، لَا يَخْلُونَ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ ثَلَاثَ مَرَارٍ إِلَّا كَانَ ثَالِثَهُمَا شَيْطَانٌ، مَنْ أَرَادَ بُحْبُوْحَةَ الْجَنَّةِ فَلَيَنْزِمِ الْجَمَّاعَةَ، مَنْ سَرَّتْهُ حَسَّنَتْهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتْهُ فَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ " ٣٣٤ .

- والملاحظ أن الشريعة الإسلامية تغرس روح الجماعة في أفراد الأمة، وهي لم تغفل أمر المجتمع في عبادتها ومعاملتها وآدابها وجميع أحكامها، فهي تعدد الفرد يكون "لبننة" في بنية المجتمع، أو "عضوًا" في بنية جسده الحي. فعن أبي موسى، أن النبي ﷺ قال: إنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبَنِيَّانَ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا وَشَبَكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ مُتَفَقٌ عَلَيْهِ ٣٣٥ .

وعن عَامِرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ يَخْطُبُ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِهِمْ، وَتَرَاحِمِهِمْ، وَتَعَافُطِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ شَيْءٌ، تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمْمِ ٣٣٦ .

تداعى له: تداعى البناء: إذا تبع بعضه بعضاً في الانهدام، لأن أجزاءه قد دعا بعضها بعضًا.

وعَنِ النَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: الْمُؤْمِنُونَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ، إِنْ اشْتَكَى رَأْسُهُ اشْتَكَى كُلُّهُ، وَإِنْ اشْتَكَى عَيْنُهُ اشْتَكَى كُلُّهُ ٣٣٧ .

٦- الأولويات في مجال المنهيات :

- كما أن هناك تفاوتاً في المأمورات ودرجاتها ومستوياتها: من مستحب إلى واجب إلى فرض كفاية إلى فرض عين إلى تفاوت في فروض الأعيان .. إلخ، هناك تفاوت أيضاً في جانب المنهيات، وهي مراتب متفاوتة غاية التفاوت، أعلىها بلا شك: الكفر بالله - تعالى ، وأدنىها: المكروه ترتيباً، أو ما يُعَبَّر عنه بـ " حلاف الأولى " .

٣٣٤ - عشرة النساء للإمام للنسائي - الطبعة الثالثة - (١ / ٢٣٩-٣٢٧) (٢٣٩-٧٩٨١) - وسنن الترمذى برقـم (٢٣١٨) والمستدرك للحاكم برقـم (٣٨٧) صحيح

٣٣٥ - صحيح البخارى- المكتر - (٤٨١) وصحيح مسلم- المكتر - (٦٧٥٠) وصحيح ابن حبان - (١ / ٤٦٧) (٢٣١)

٣٣٦ - مسند أحمد (علم الكتب) - (٦ / ٢٧٦) (١٨٣٧٣) - ١٨٥٦٣ - صحيح مسلم- المكتر - (٦٧٥١)

٣٣٧ - مسند أحمد (علم الكتب) - (٦ / ٢٨١) (١٨٣٩٣) - ١٨٥٨٣ - صحيح مسلم- المكتر - (٦٧٥٣)

- والكفر أيضا درجات بعضها دون بعض :

• **كفر الإلحاد والجحود:** وهو الذي لا يؤمن صاحبه بأن لله رب، ولا أن له ملائكة أو كتاباً أو رسلاً مبشرين ومنذرين، ولا أن هناك آخرة يُجزى الناس فيها بما عملوا خيراً أو شرًا. فهو لا يعترفون بألوهية ولا نبوة ولا رسالة ولا جزاء أخروي، بل هم كما قال القرآن عن أسلاف لهم يقولون: {إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاةُ الدُّنْيَا تَمُوتُ وَتَحْيَى وَمَا تَحْنُ بِمَبْعَثَيْنِ} (٣٧) سورة المؤمنون.

وهذا شر أنواع الكفر، وصدق الله العظيم إذ يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِهِ وَمَنْ يَكُفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} (١٣٦) سورة النساء.

يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه داوموا على ما أنتم عليه من التصديق الجازم بالله تعالى وبرسوله محمد ﷺ، ومن طاعتهم، وبالقرآن الذي نزله عليه، وبجميع الكتب التي أنزلها الله على الرسل. ومن يكفر بالله تعالى، وملائكته المكرمين، وكتبه التي أنزلها هداية خلقه، ورسله الذين اصطفاهم لتبلغ رسالته، واليوم الآخر الذي يقوم الناس فيه بعد موتهم للعرض والحساب، فقد حرج من الدين، وبعدَ بعدهاً كبيراً عن طريق الحق.

• **كفر الشرك:** وهذا دون السابق، وذلك مثل شرك عرب الجاهلية، فقد كانوا يؤمنون بوجود الإله، وبخالقيته للسماء والأرض والناس وبتدبره لأمر الرزق والحياة والموت، ولكنهم أشركوا بالله وعبدوا معه أو من دونه آلة أخرى في الأرض أو في السماء. وفي هذا يقول القرآن الكريم: {وَلَئِنْ سَأَلْتُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ} (٦١) سورة العنكبوت.

{قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْنَ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ} (٣١) سورة يومنس .

• **كفر أهل الكتاب:** ودون هذا الكفر: كفر أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وكفرهم من جهة تكذيبهم برسالة محمد - ﷺ -، الذي بعثه الله - تعالى - بالرسالة

الخاتمة، وأنزل عليه الكتاب الخالد، مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل من جهة، ومصححاً لها من جهة أخرى، وفي هذا يقول الله - تعالى - : {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمَهِيمَنَا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّسِعْ أَهْوَاءُهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَا جَاءَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لَيْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُبَيِّنُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} (٤٨) سورة المائدة.

وكفراهم أيضاً من حيث أنهم حرفوا التوراة والإنجيل اللتين نزلتا على موسى وعيسى عليهما السلام .

وبالرغم من ذلك فإن لهم وضعاً خاصاً في الشريعة، وهم أنفسهم درجات فمنهم المسلم الطيب ومنهم المحارب ومنهم ... ومنهم ... فإن كانوا خاضعين لقوانين الإسلام فهم أهل ذمة ينطبق عليهم قانون أهل الذمة، وإلا كانوا محاربين فيخربون بين ثلات إما الإسلام وإما دفع الجزية عن يد وهم صاغرون وإما الحرب، قال تعالى: {قَاتَلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحِرِّمُونَ مَا حَرَمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْظِمُوا الْجِزِيرَةَ عَنْ يَدِهِ وَهُمْ صَاغِرُونَ} (٢٩) سورة التوبة.

• **كفر أهل الردة:** وهو شر أنواع الكفر. قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ فَتَالِ فِيهِ قُلْ قُتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفُرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدُ الْحَرَامُ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبُرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفَتْنَةُ أَكْبُرُ مِنَ القُتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنِ دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَطَاعُو وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنِ دِينِهِ فَيُمْتَأْنِ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبَطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (٢١٧) سورة البقرة

• **كفر النفاق:** وهو من أغلظ أنواع الكفر وأشدتها خطراً على الحياة الإسلامية والوجود الإسلامي، قال تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا

يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمَنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا تَحْنُّ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمْلَدُهُمْ فِي طُعْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبَحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) } [البقرة: ٨ - ١٦].

التفريق بين الأكبر والأصغر من الكفر والشرك والنفاق :

- فالكفر الأكبر هو ما ذكرناه سابقاً، وعقوبته ذكرها الله - تعالى - في قوله: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبَعُ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} (١١٥) سورة النساء.

فأما من لم يتبيّن له المدى بأن لم تبلغه الدعوة أصلاً، أو بلغته بلوغاً مشوّهاً لا يحمل على النظر والبحث فيها، فهو معذور، وقد قال الله - تعالى - : {مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضْلُلُ عَلَيْهَا وَلَا تَنْزِرُ وَازِرَةً وِزَرَّ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَعْثَرَ رَسُولًا} (١٥) سورة الإسراء.

قلت: اليوم لا عذر لأحد من أهل الأرض في ترك الإسلام، فقد بلغتهم دعوة الإسلام عن طريق النت وغيره من وسائل الإعلام ويشكل صحيح ودقيق، فلا عذر لهم عند الله تعالى .

- ونعتقد أن المسلمين مسؤولون - إلى حد كبير - عن ضلال أمم الأرض، وجهلهم بحقائق الإسلام، واعتناقهم لأباطيل خصومه، وعليهم أن يبذلوا جهوداً أكبر وأصدق في تبليغ رسالتهم، ونشر دعوهم لدى كل قوم بمساهم، حتى يبيّنوا لهم ويشبّتوا لهم عالمية الإسلام حقاً .

هل المسلمين مسؤولون عن ضلال أهل الأرض ؟

قلت: الضعفاء لا يلتفت إليهم أحد، فقبل تبليغ دعوة الإسلام لهؤلاء وتحمّل المسلمين المسؤولية في ذلك، يجب أن ننتبه لأمر في غاية الخطورة، وهو أننا ندعوا الناس اليوم إلى دين غير مطبق على الواقع قد حاربه أهله في عقر داره وتنكروا له، فيستطيع

أي واحد من هؤلاء المدعوين أن يقول لنا: كلامكم جميل ولكن أروني أين هو على الواقع، وما أكثر الذين يحملون الكلام المسؤول، فإذا نظرت إليهم أثناء تطبيقه تستطيع أن تكشفهم بسهولة، فكان من أوجب الواجبات السعي لإيجاد دولة تبني الإسلام عقيدة وعبادة وشريعة ومنهج حياة، لتبين للناس إمكانية تطبيق الإسلام وصلاحيته لكل زمان ومكان، ولتدفع عن الدعاة إلى الله لا أن تسلّمهم إلى الكفار والفحار ليسيموهم أشد أنواع العذاب بحجّة محاربة الإرهاب - كما يحدث اليوم - !!! فالإسلام لم ينتشر في الأرض إلا بعد وجود الدولة الإسلامية، ولكن فقهاء المزيمة والتطبيع والخوار لا يعلمون .

ونسي هؤلاء أن الذي يرفض التحاكم إلى الإسلام أنه ليس مسلم ولو صام وصلى وزعم أنه مسلم، قال تعالى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} (٦٥) سورة النساء ومرة أخرى نجدنا أمام شرط الإيمان وحدة الإسلام. يقرره الله سبحانه بنفسه. ويفسر عليه بذاته. فلا يبقى بعد ذلك قول لقائل في تحديد شرط الإيمان وحدة الإسلام، ولا تأويل ملزول .

اللهم إلا محاكمة لا تستحق الاحترام .. وهي أن هذا القول مرهون بزمان، و موقف على طائفة من الناس! وهذا قول من لا يدرك من الإسلام شيئاً ولا يفقهه من التعبير القرآني قليلاً ولا كثيراً. فهذه حقيقة كلية من حقائق الإسلام جاءت في صورة قسم مؤكدة مطلقة من كل قيد .. وليس هناك مجال للوهم أو الإيهام بأن تحكيم رسول الله - ﷺ - هو تحكيم شخصه. إنما هو تحكيم شريعته ومنهجه. وإنما لم يبق لشريعة الله وسنة رسوله مكان بعد وفاته - ﷺ - وذلك قول أشد المرتدین ارتداداً على عهد أبي بكر - رضي الله عنه - وهو الذي قاتلهم عليه قتال المرتدین: بل قاتلهم على ما هو دونه بكثير. وهو مجرد عدم الطاعة لله ورسوله، في حكم الزكاة وعدم قبول حكم رسول الله فيها، بعد الوفاة! وإذا كان يكفي لإثبات «الإسلام» أن يتحاكم الناس إلى

شريعة الله وحكم رسوله .. فإنه لا يكفي في «الإيمان» هذا، ما لم يصاحب الرضى النفسي، والقبول القلبي، وإسلام القلب والجنان، في اطمئنان! هذا هو الإسلام .. وهذا هو الإيمان .. فلتتضرر نفس أين هي من الإسلام وأين هي من الإيمان! قبل ادعاء الإسلام وادعاء الإيمان! وبعد أن يقرر أن لا إيمان قبل تحكيم رسول الله - ﷺ - وقبل الرضى والتسليم بقضائه، يعود ليقول: إن هذا المنهج الذي يدعون إليه وهذه الشريعة التي يقال لهم: تحاكموا إليها - لا لسوتها - وهذا القضاء الذي يتحتم عليهم قبوله والرضاء به ... إنه منهج ميسّر، وشريعة سهلة، وقضاء رحيم .. إنه لا يكلفهم شيئاً فوق طاقتهم ولا يكلفهم عنتاً يشق عليهم ولا يكلفهم التضحية بعزيز عليهم .. فالله يعلم ضعف الإنسان ويرحم هذا الضعف. والله يعلم أئمّة لو كلفوا تكاليف شاقة، ما أداها إلا قليل منهم .. وهو لا يريد لهم العنت، ولا يريد لهم أن يقعوا في المعصية .. ومن ثم لم يكتب عليهم ما يشق، وما يدعو الكثيرين منهم للتقدير والمعصية^{٣٣٨}.

فما يمكن أن يجتمع الإيمان، وعدم تحكيم شريعة الله، أو عدم الرضى بحكم هذه الشريعة. والذين يزعمون لأنفسهم أو لغيرهم أنهم «مؤمنون» ثم هم لا يحكمون شريعة الله في حياهم، أو لا يرضون حكمها إذا طبق عليهم .. إنما يدعون دعوى كاذبة وإنما يصطدمون بهذا النص القاطع: {وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ} (٤٣) سورة المائدة. فليس الأمر في هذا هو أمر عدم تحكيم شريعة الله من الحكام فحسب بل إنه كذلك عدم الرضى بحكم الله من الحكمين، بخراجهم من دائرة الإيمان، مهما ادعوه باللسان^{٣٣٩}.

- أما الكفر الأصغر فهو العاصي مهما يكن مقدارها في الدين، وصاحبها - عند جمهور العلماء - فاسق أو عاص لا كافر. {إِنَّ اللَّهَ لَا يَعْفُرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ وَيَعْفُرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَ إِثْمًا عَظِيمًا} (٤٨) سورة النساء

^{٣٣٨} - في ظلال القرآن - موافقاً للمطبوع - (٢ / ٦٩٦)

^{٣٣٩} - في ظلال القرآن - موافقاً للمطبوع - (٢ / ٨٩٥)

- ومن الشرك الأصغر: يسير الرياء والخلف بغير الله .

فَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، أَنَّهُ خَرَجَ يَوْمًا إِلَى مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَوَجَدَ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ قَاعِدًا عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ يَبْكِي؟ فَقَالَ: مَا يُبْكِيْكَ؟ قَالَ: يُبْكِنِي شَيْءٌ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: إِنَّ يَسِيرَ الرِّيَاءَ شَرُكٌ، وَإِنَّ مَنْ عَادَ لِلَّهِ وَلِيًّا، فَقَدْ بَارَزَ اللَّهَ بِالْمُحَارَبَةِ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْأَبْرَارَ الْأَقْتَيَاءَ الْأَخْفَيَاءَ، الَّذِينَ إِذَا غَابُوا لَمْ يُفْتَنُّهُوا، وَإِنْ حَضَرُوا لَمْ يُدْعَوْا وَلَمْ يُعْرَفُوا، قُلُوبُهُمْ مَصَابِحُ الْهُدَى، يَخْرُجُونَ مِنْ كُلِّ عَبْرَاءٍ مُّظْلِمَةٍ .^{٣٤٠}

وَعَنْ سَعْدِ بْنِ عَبْيَدَةَ، قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ أَبْنِ عُمَرَ فَحَلَفَ رَجُلٌ بِالْكَعْبَةِ، فَقَالَ أَبْنُ عُمَرَ: وَيَحْكَ لَا تَقْعُلْ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: مَنْ حَلَفَ بِعَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ .^{٣٤١}

- وأما النفاق الأصغر فهو نفاق العمل والسلوك، وهو الذي يخلق بأخلاق المنافقين، ويسلك سلوكهم، وإن كانت عقيدته سليمة، وهو ما حذرت منه الأحاديث الصاححة، مثل الحديث المتفق عليه عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: أربع من كُنَّ فيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهَا كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النَّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا حَدَثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا حَاصَمَ فَحَرَ .^{٣٤٢}

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ إِذَا حَدَثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أَؤْتَمِنَ خَانَ» متفق عليه .^{٣٤٣}

^{٣٤٠} - سنن ابن ماجة- ط- الرسالة - (٥ / ١٢٦) (٣٩٨٩) وموسوعة السنة النبوية - (٥ / ٢٤٧) (٦٣٥٣) صحيح

لغيره

عادي: حارب الذين يطيعون الله ويتبعون أوامره ، بارز: أعلن حربه مع الله تعالى - الأخفياء : الذين يعكفون على عبادة الله ويتركون الرياء وحب الظهور - مصابيح المدى : لكتة إيمانهم أضاء الله بصائرهم - غباء مظلمة : جهالات مفسدة أى يهديهم الله إلى الحق فيبعدون عن كل الفتن

^{٣٤١} - صحيح ابن حبان - (١٠ / ٢٠٠) (٤٣٥٨) صحيح

^{٣٤٢} - صحيح البخاري- المكتـ - (٣٤) وصحيح مسلم- المكتـ - (٢١٩) وصحيح ابن حبان - (١) /

(٤٨٨) (٤٥٤)

^{٣٤٣} - صحيح البخاري- المكتـ - (٣٣) وصحيح مسلم- المكتـ - (٢٢٠)

وفي رواية لمسلم: وَقَالَ «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ» ^{٣٤٤}.

وهذه الأحاديث وأمثالها هي التي جعلت الصحابة - رضوان الله عليهم - يخافون على أنفسهم النفاق، وفي صحيح البخاري <<كتاب الإيمان>> باب خوف المؤمن من أن يحيط عمله وهو لا يشعر وقال إبراهيم التيمي: "ما عرضت قوله على عملي إلا خشيت أن أكون مكذباً" وقال ابن أبي مليكة: "أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ، كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول: إنه على إيمان جبريل وميكائيل" ويدرك عن الحسن: "ما خافه إلا مؤمن ولا أمنه إلا مُنافق. وما يُحذِّر من الإصرار على النفاق والعصيان من غير توبة، لقول الله تعالى: ولم يصرُوا على ما فعلوا وهم يعلمون" وعن حديقة، قال: دُعِيَ عمر، لجنازة، فخرج فيها أو بريدها فتعلقت به فقلت: اجلس يا أمير المؤمنين، فإنه من أولئك، فقال: نشِدْتُك الله أنا منهم، قال: لا ولا أُبرئ أحداً بعدهك ^{٣٤٥}.

وأما المعاصي فتقسم إلى :

أ- الكبائر، ومنها كبار معاصي القلوب كالكبير والحسد والبغضاء، الشح المطاع، الموى المتبوع، الإعجاب بالنفس، حب الدنيا على الآخرة، حب الجاه والمنصب ولو قاد ذلك إلى ظلم الغير، اليأس من رحمة الله تعالى -، الأمان من مكر الله - سبحانه -، حب انتشار الفاحشة ...

وأما كبار الأعمال فقد وردت في آيات وأحاديث كثيرة، ومنها: قتل النفس بغير الحق، أكل الربا، السحر، أكل مال اليتيم، عقوق الوالدين، شرب الخمر، الزنى، قطع الطريق، الانتحار، قذف المصنفات، ... الخ.

والكبائر - عموماً - تتفاوت في درجاتها، فعن حميد بن عبد الرحمن، سمعت عبد الله بن عمرو، يقول: قال رسول الله ﷺ: إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل، والديه قالوا: يا

^{٣٤٤} - صحيح مسلم - المكتبة - (٢٢٢)

^{٣٤٥} - كشف الأستار - (١ / ٣٩١) (٨٣١) صحيح

رَسُولُ اللَّهِ، وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ أَبَوِيهِ؟ قَالَ: يَسُبُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ، فَيَسُبُ أَبَاهُ، وَيَسُبُ الرَّجُلُ أُمَّهُ، فَيَسُبُ أُمَّهُ.^{٣٤٦}

وقد فرقت الشريعة بين المعصية التي سببها الظلم (كالربا) والمعصية التي سببها الضعف (كالزنى)، عنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَنْظَلَةَ غَسِيلِ الْمَلَائِكَةِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: دِرْهَمٌ رِبَّا يُأْكُلُهُ الرَّجُلُ وَهُوَ يَعْمَلُ، أَنْشَدُ مِنْ سِتَّةِ وَثَلَاثِينَ زَيْتَةً.^{٣٤٧}

بـ- الصغار. وبعد الكبائر تأتي صغار المحرمات المقطوع بحرمتها (١٠٠%)، وقد سمتها الشريعة لــمــا، وهذه لا يكاد أحد يسلم من الإلــام بها حينــا من الزــمن، ولــهــذا تــفــرق عنــ الكــبــائــرــ بأنــهاــ تــكــفــرــهــاــ الــصــلــوــاتــ الــخــمــســ، وــصــلــاــةــ الــجــمــعــةــ إــلــىــ الــجــمــعــةــ، وــرــمــضــانــ إــلــىــ رــمــضــانــ مــكــفــرــاتــ مــاــ بــيــهــمــاــ، إــذــاــ اــجــتــبــتــ الــكــبــائــرــ" رــوــاــهــ مــســلــمــ.^{٣٤٨}

وقال تعالى: {الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمْ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذَا أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذَا أَنْتُمْ أَجِنَّةٍ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُرَكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} (٣٢) سورة النجم

وقال تعالى: {إِنَّ تَحْتِبُوْا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ تُكَفِّرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنَدْخِلُكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا} (٣١) سورة النساء

إن تبتعدواــ أيــهاــ المؤــمنــونــ عنــ كــبــائــرــ الذــنــوــبــ كــاــلــإــشــرــاــكــ بــالــلــهــ وــعــقــوــقــ الــوــالــدــيــنــ وــقــتــلــ الــنــفــســ بــغــيــرــ الــحــقــ وــغــيــرــ ذــلــكــ، نــكــفــرــ عــنــكــمــ مــاــ دــوــنــاــ مــنــ الصــغــاــرــ، وــنــدــخــلــكــمــ مــدــخــلــاــ كــرــيــمــاــ، وــهــوــ الــجــنــةــ.

أما الكــبــائــرــ فــلاــ يــكــفــرــهــ إــلــاــ التــوــبــةــ النــصــوــحــ، قــالــ تــعــالــيــ: {وَالَّذِينَ لَمْ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَيْهَا آخرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَرْتُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً} (٦٨)

^{٣٤٦} - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٢ / ٧٠٨) (٧٠٢٩) وصحيح البخاري - المكتــر - (٥٩٧٣)

^{٣٤٧} - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٧ / ٣٣٤) (٢١٩٥٧) - ٢٢٣٠٣ - والصــحــيــحــةــ (١٠٣٣) وــصــحــيــحــ الــجــامــعــ

(٣٣٧٥) صــحــيــحــ

^{٣٤٨} - صحيح مسلم - المكتــر - (٥٧٤) وــشــعــبــ الــإــيمــانــ - (٥ / ٢٣٠) (٣٣٤٧)

يُضَاعِفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَاوَأْ (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) { [الفرقان: ٦٨ - ٧١]

والشريعة - وإن ساحت وخففت في الصغار - قد حذرت من الاستهانة بها والإصرار عليها، فإن الصغير إذا أضيف إلى الصغير أصبح كبيراً !

وما يلحق بالمعاصي البدع الاعتقادية والعملية . والبدع ليست كلها في مرتبة واحدة، فهناك بدع مغلوطة وبدع مخففة، وبدع متفق عليها وبدع مختلف فيها. وهناك بدع مغلوطة تصل بصاحبها إلى درجة الكفر مثل الفرق التي خرجت على أصول الملة الإسلامية، وهناك بدع مغلوطة ولكنها لا تصل بصاحبها إلى الكفر، وإنما تصل به إلى الفسق فسوق الاعتقاد ^{٣٤٩} .

وبعد الصغار تأتي الشبهات: وهي الأمور التي لا يعلم حكمها كثير من الناس ويشتبهون في حلها أو حرمتها، فهي - إذن - ليست كالمحرمات المقطوع بها، ولا يجوز لنا أن نردها إلى درجة الحرام الصريح، فإن من أخطر الأمور - تذويب الحدود بين مراتب الأحكام الشرعية، فعن عامر، قال: سمعت النعمان بن بشير يخطب وأهوى ياصبعيه إلى أذنيه، يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: الحلال بين الحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات، فمن أثق الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراغي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الحسد موضع إذا صلح الحسد كله، وإذا فسادت فسد الحسد كله، ألا وهي القلب ^{٣٥٠} .

وفي أدنى مراتب المنهيات تأتي المكروهات: والمقصود منها هنا المكروه التزكيي الذي هو إلى الحلال أقرب، والمكروه - كما يعرفه العلماء - : ما كان في تركه أجر ولم يكن في فعله وزر، فلا عقاب - إذن - على من ارتكب المكروه التزكيي وإنما قد يعاتب، فلا

^{٣٤٩} - انظر الموسوعة الفقهية الكويتية - (٨ / ٢١)

^{٣٥٠} - مصنف ابن أبي شيبة - (٦ / ٥٦٠) (٢٤٣٥) صحيح - وهو في الصحيحين

ينبغي أن ينكر مثل ذلك فكيف من يشدد في إنكاره!! كما لا يجوز أن يشغل الناس محاربة المكرهات وهم واقعون في المحرمات الصرحية ! .

٧- الأولويات في مجال الإصلاح (أي أثناء عملية الإصلاح) :

أ- تغيير الأنفس قبل تغيير الأنظمة، وهذا لا بد من التربية قبل الجهاد، وحتى الجهاد نفسه مراتب :

- جهاد النفس. - جهاد الشيطان (جهاد الشكوك والشبهات) .
- جهاد الكفار والمنافقين وفق شروط وضوابط .

ب- تقديم كل ما يتعلق بتنقية الفكر وتصحيح التصور وتصويب منهج النظر والعمل وهو ما يسمى بأولوية المعركة الفكرية، ولها مجالان :

- ١ - معركة فكرية خارج الساحة الإسلامية (مع غير المسلمين) .
- ٢ - معركة فكرية داخلية (داخل المسلمين أنفسهم) .

أما الأولى فلها قواعدها وضوابطها وآدابها، وأما الثانية فهي التي ستتكلم عنها فيما يلي .
لا شك أن لدينا - المسلمين - تيارات متعددة :

١) التيار الخرافي، وله عدة صفات، منها :

- الخرافية في الاعتقاد. - الابتداع في العبادة. - الجمود في الفكر . - التقليد الأعمى المتعصب (دون فهم). - السلبية في السلوك .

٢) التيار الحرفى، وله عدة صفات، منها :

- الجدلية في العقيدة. - الشكلية في العبادة. - الظاهرية في الفقه . - الجزئية في الاهتمام. - الجفاف في الروح. - الخشونة في الدعوة . - الضيق بالخلاف .

٣) تيار الرفض والعنف: وهو تيار يقوم على رفض المجتمع بجميع مؤسساته، وهذا التيار عدة صفات، منها :

- الشدة والصرامة في الالتزام بالدين. - الاعتزاز بالذات اعتزازا يؤدي إلى التكبر على المجتمع . - سوء الظن بالآخرين. - استعجال الأشياء قبل أو أنها في الإصلاح . - ضيق الأفق

في فهم الدين وفهم الواقع وفهم السنن الكونية والاجتماعية . - المسارعة إلى التكفير . -
التخاذل القوءة سبيلاً إلى تحقيق الأهداف .

قلت: ولا علاقة لهذا التيار بالتيار الجهادي الحركي، الذي جاءت النصوص القطعية
بمدحه وبيان صفاته، وقد أفردته بكتاب ^{٣٥١} .

٤) التيار الوسطي: الذي يقوم على التوازن والوسطية في فهم الدين والحياة والعمل
لتمكين الدين، وله صفات ومميزات تميزه عن غيره، منها :

- فقهه للدين فقها شاملاً متزناً عميقاً .
- فقهه لواقع الحياة دون تهوين ولا تهويل: واقع المسلمين وواقع غيرهم .
- فقه سنن الله وقوانينه التي لا تتبدل، وخصوصاً سنن الاجتماع البشري .
- فقه مقاصد الشريعة وعدم الجمود على ظواهرها .
- فقه الأولويات وهو مرتبط بأنواع أخرى من الفقه .
- فقه الاختلاف وآدابه (نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضاً فيما اختلفنا فيه)،
الجمع بين الأصالة والمعاصرة .
- الموازنة بين ثوابت الشرع ومتغيرات العصر .
- الإيمان بأن التغيير الفكري والنفسي والخلقي أساس كل تغيير حضاري .
- تقديم الإسلام مشروعًا حضاريًا متكاملاً لبعث الأمة وإنقاذ البشرية .
- اتخاذ منهج التيسير في الفتوى والتبيشير في الدعوة .
- إبراز القيم الاجتماعية والسياسية في الإسلام، مثل: الحرية والكرامة والشورى والعدالة
الاجتماعية وحقوق الإنسان .
- الحوار بالحسنى مع المخالفين من غير المسلمين، ومع المسلمين المغروبين عقلياً والمهزومين
روحياً .

^{٣٥١} - انظر كتابي ((المفصل في تخريج أحاديث الطائفة المنصورة))

- فهم الجهاد فيما صحيحاً بأنواعه كلها دون استثناء ومعرفة أو قاها المعتبرة وضوابطه الشرعية .

والتيار الوسطي هو التيار الذي نريده ونسعى إليه، فهو المعبر الحقيقي عن الإسلام، كما أنزل الله - تعالى - في كتابه، وكما هدى إليه رسوله - ﷺ - في سنته وسيرته، وكما فهمه وطبقه الراشدون المهديون من أصحابه، وكما فقهه التابعون لهم بمحاسن من خير قرون هذه الأمة .

قلت: الكلام النظري يقنع الناس، ولكنك إذا وضعته على المحك تظهر حقيقته، فأصحاب هذا التيار الوسطي - على حد زعمهم - قد تخلوا عن كثير من الثوابت الشرعية تحت ضغط الواقع، أو بحجة عدم مناسبتها لعصرنا، أو عدم صلاحيتها، أو إرضاءً للكفار والفجار، ومن ثم لم يعد تياراً وسطياً، كما يزعم أصحابه، بل أصحاب التيارات الأخرى يزعمون أنهم يمثلون تيار الوسطية، وعندما يأتون بالأدلة تعرف الوسطية التي يدعون إليها فهي وسطية غير صحيحة في حقيقة الأمر .^{٣٥٢}



^{٣٥٢} - انظر الوسطية في القرآن الكريم للعمر والصلابي

المبحث الحادي والعشرون

معرفة سنن الله الكونية في القرآن الكريم

ومن الأمور التي لا بد للداعية معرفتها والبحث عنها وفهمها: سنن الله الكونية في القرآن الكريم منها :

١- في سورة القصص شرح مُسْتَفِيدٌ لِعَوْاقِبِ الْحُكْمِ الْفَرْدِيِّ وَالْاسْتِبْدَادِ السِّيَاسِيِّ، وشرح آخر لعواقب الطُّغْيَانِ الْاِقْتَصَادِيِّ وَالْاِغْتِرَارِ بِالْمَالِ الْعَرِيضِ، أَوْ جَزْءِ الْمُوْلَى - تبارك اسمه - في هذه الْخُلُصَةِ: {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} (٨٣) سورة القصص.

تلك الآخِرَةُ الَّتِي تَحْدُثُ عَنْهَا الَّذِينَ أَوْتَوْا الْعِلْمَ. الْعِلْمُ الْحَقُّ الَّذِي يَقُومُ بِالْأَشْيَاءِ قِيمَتِهَا الْحَقِيقِيَّةِ. تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ الْعَالِيَّةُ الْبَعِيْدَةُ الْآفَاقِ. تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ «نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا» ..

فَلَا يَقُومُ فِي نُفُوسِهِمْ خَاطِرُ الْاِسْتِعْلَاءِ بِأَنفُسِهِمْ لَأَنفُسِهِمْ وَلَا يَهْجُسُ فِي قُلُوبِهِمُ الْاعْتِزَازُ بِذَوَاهُمْ وَالْاعْتِزَازُ بِأَشْخَاصِهِمْ وَمَا يَتَعْلَقُ بِهَا. إِنَّمَا يَتَوَارَى شَعُورُهُمْ بِأَنفُسِهِمْ لِيَمْلأُهَا الشَّعُورُ بِاللَّهِ، وَمِنْهُجِهِ فِي الْحَيَاةِ. أَوْ تِلْكَ الَّذِينَ لَا يَقِيمُونَ لِهَذِهِ الْأَرْضِ وَأَشْيَائِهَا وَأَعْرَاضِهَا وَقِيمَهَا وَمُوازِينُهَا حَسَابًا. وَلَا يَبْغُونَ فِيهَا كُلُّ ذَلِكَ فَسَادًا. أَوْ تِلْكَ هُمُ الَّذِينَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُمُ الدَّارَ الْآخِرَةَ. تِلْكَ الدَّارُ الْعَالِيَّةُ السَّامِيَّةُ.

«وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» الَّذِينَ يَخْشَوْنَ اللَّهَ وَيَرْأَبُونَهُ وَيَتَحَرَّجُونَ مِنْ غَضَبِهِ وَيَتَعَوَّنُونَ رَضَاهُ^{٣٥٣}. يقول الأستاذ أبو الحسن الندوبي في كتابه القيم: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟».. عن هذه القيادة الخيرة الفذة في التاريخ كله، وتحت عنوان «عهد القيادة الإسلامية»: «الأئمة المسلمين وخصائصهم»: «ظهر المسلمين، وتزعموا العالم، وعزلوا الأمم المزيفة

من زعامة الإنسانية التي استغلتها وأساءت عملها، وساروا بالإنسانية سيراً حثيثاً متزناً عادلاً، وقد تتوفرت فيهم الصفات التي تؤهلهم لقيادة الأمم، وتضمن سعادتها وفلاحتها في ظلهم وتحت قيادتهم.

«أولاً: أنهم أصحاب كتاب متزل وشريعة إلهية، فلا يقتنون ولا يشترعون من عند أنفسهم. لأن ذلك منع الجهل والخطأ والظلم، ولا يختبئون في سلوكهم وسياساتهم ومعاملتهم للناس خطط عشوائية، وقد جعل الله لهم نوراً يمشون به في الناس، وجعل لهم شريعة يحكمون بها الناس «أَوَمَنْ كَانَ مِنَ الْمُتَّقِينَ فَأَكَبَّهُنَا وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا؟» وقد قال الله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقُسْطِ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَنَّا تَعْدِلُوا. اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىِ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ».

ثانياً: - أنهم لم يتولوا الحكم والقيادة بغير تربية خلقية وتربيـة نفس، بخلاف غالـبـ الأمم والأفراد ورجالـ الحكومةـ فيـ الماضيـ والـحـاضـرـ، بلـ مـكـثـواـ زـمـنـاـ طـوـيـلاـ تـحـتـ تـرـبـيـةـ مـحـمـدـ - ﷺـ وإـشـرافـهـ الدـقـيقـ، بـيزـكـيـهـ وـيـؤـدـبـهـ، وـيـأـخـذـهـ بـالـزـهـدـ وـالـورـعـ وـالـعـفـافـ وـالـأـمـانـةـ وـالـإـيـشـارـةـ وـخـشـيـةـ اللـهـ، وـعـدـمـ الـاسـتـشـارـافـ لـلـإـمـارـةـ وـالـحـرـصـ عـلـيـهـاـ. عـنـ أـبـيـ مـوـسـىـ، قـالـ: دـخـلـتـ عـلـىـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺـ أـنـاـ وـرـجـلـانـ مـنـ بـنـيـ عـمـيـ، فـقـالـ أـحـدـ الرـجـلـيـنـ: يـاـ رـسـوـلـ اللـهــ، أـمـرـتـاـ عـلـىـ بـعـضـ مـاـ وـلـأـكـ اللـهــ، وـقـالـ أـلـخـرـ مـثـلـ ذـلـكـ، قـالـ: فـقـالـ: إـنـاـ وـالـلـهـ لـأـ نـوـلـيـ هـذـاـ الـعـمـلـ أـحـدـاـ سـالـهـ وـلـأـحـدـاـ حـرـصـ عـلـيـهـ ٣٥٤ـ»ـ.

ولا يزال يقرع سمعهم: «تـلـكـ الدـارـ الـأـخـرـةـ تـجـعـلـهـ لـلـذـينـ لـاـ يـرـيـدـونـ عـلـوـاـ فـيـ الـأـرـضـ وـلـاـ فـسـادـاـ وـالـعـاقـبـةـ لـلـمـتـقـيـنـ»ـ ..

فـكـانـواـ لـاـ يـتـهـافـتوـنـ عـلـىـ الـوـظـائـفـ وـالـمـنـاصـبـ، فـضـلـاـ عـنـ أـنـ يـرـشـحـوـهـمـ لـلـإـمـارـةـ، وـيـزـكـوـهـمـ، وـيـنـشـرـوـهـمـ دـعـيـةـ لـهـ، وـيـنـفـقـوـهـمـ أـمـوـالـ سـعـيـاـ وـرـاءـهـاـ. فـإـذـاـ تـوـلـوـاـ شـيـئـاـ مـنـ أـمـورـ النـاسـ لـمـ يـعـدـوـهـ مـعـنـمـاـ أـوـ طـعـمـاـ أـوـ ثـنـاـ لـمـ أـنـفـقـوـهـ مـاـ مـالـ أـوـ جـهـدـ بـلـ عـدـوـهـ أـمـانـةـ فـيـ عـنـقـهـمـ،

٣٥٤ - مصنف ابن أبي شيبة - (١٧ / ٣٧٠)(٣٣٢٠٨) صحيح

وامتحانا من الله ويعلمون أنهم موقوفون عند رجيم، ومسؤولون عن الدقيق والجليل، وتذكروا دائمًا قول الله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤْدُوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا، وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ» .. وقوله .. «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ، وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ، لِيَنْلُوْكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ» ..

«ثالثا: أنهم لم يكونوا خدمة جنس، ورسل شعب أو وطن، يسعون لرفاهيته ومصلحته وحده ويؤمنون بفضله وشرفه على جميع الشعوب والأوطان، لم يخلقوا إلا ليكونوا حكاما، ولم تخلق إلا لتكون محكومة لهم.

ولم يخرجوا ليؤسسوا إمبراطورية عربية ينعمون ويرتعون في ظلها، ويسمخون ويتذكرون تحت حمايتها، ويخرجن الناس من حكم الروم والفرس إلى حكم العرب وإلى حكم أنفسهم! إنما قاموا ليخرجوا الناس من عبادة العباد جمِيعاً إلى عبادة الله وحده. وتلك حقيقة كان يعلنها الصحابة وقادة المسلمين في غزوائهم. ثُمَّ بَعَثَ سَعْدُ جَمَاعَةً مِنَ السَّادَاتِ مِنْهُمْ، التَّعْمَانُ بْنُ مَقْرَنٍ، وَفُرَاتُ بْنُ حَيَّانَ، وَحَنْظَلَةُ بْنُ الرَّبِيعِ التَّمِيمِيُّ، وَعَطَّارُ بْنُ حَاجِبٍ، وَالْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ، وَالْمُغَيْرَةُ بْنُ شَعْبَةَ، وَعَمْرُو بْنُ مَعْدِيَكَرَبَ، يَدْعُونَ رُسْتَمَ إِلَى اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - فَقَالَ لَهُمْ رُسْتَمٌ: مَا أَقْدَمْتُمْ؟ فَقَالُوا: جَنْتَا لِمَوْعِدِ اللَّهِ إِيَّانَا، أَخْذَنَا بِلَادَكُمْ وَسَيِّئَتْكُمْ وَأَبْنَائَكُمْ وَأَخْذَنَا أَمْوَالَكُمْ، فَنَحْنُ عَلَى يَقِينٍ مِنْ ذَلِكَ. وَقَدْ رَأَيْتُ رُسْتَمَ فِي مَنَامِهِ كَأَنَّ مَلَكًا نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ، فَخَتَمَ عَلَى سِلَاحِ الْفَرْسِ كُلِّهِ، وَدَفَعَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَدَفَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - إِلَى عُمَرَ.

وَذَكَرَ سَيِّفُ بْنُ عُمَرَ، أَنَّ رُسْتَمَ طَاولَ سَعْدًا فِي الْلَّقَاءِ حَتَّى كَانَ بَيْنَ خُرُوجِهِ مِنَ الْمَدَائِنِ وَمُلْتَقَاهُ سَعْدًا بِالْقَادِسِيَّةِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، كُلُّ ذَلِكَ لَعْلَهُ يَضْحِجُ سَعْدًا وَمَنْ مَعَهُ لِيَرْجِعُوا، وَلَوْلَا أَنَّ الْمَلِكَ اسْتَعْجَلَهُ مَا التَّقَاهُ؛ لَمَّا يَعْلَمُ مِنْ غَلَبَةِ الْمُسْلِمِينَ لَهُمْ وَنَصْرِهِمْ عَلَيْهِمْ، لَمَّا رَأَى فِي مَنَامِهِ، وَلَمَّا يَتَوَسَّهُ، وَلَمَّا سَمِعْ مِنْهُمْ، وَلَمَّا عَنْهُ مِنْ عِلْمٍ التُّجُومُ الَّذِي يَعْتَدُ صَحَّتُهُ فِي نَفْسِهِ؛ لَمَّا لَهُ مِنَ الْمُمَارَسَةِ لِهَذَا الْفَنِّ. وَلَمَّا دَنَا حِيَشُ رُسْتَمَ مِنْ سَعْدٍ، أَحَبَّ سَعْدًا نَبْلَعَ عَلَى أَخْبَارِهِمْ عَلَى الْجَلَلِيَّةِ، فَبَعَثَ سَرِيَّةً لِتَأْتِيهِ بِرَجُلٍ مِنَ الْفَرْسِ، وَكَانَ فِي السَّرِيَّةِ طُلَيْحَةُ الْأَسْدِيُّ الَّذِي كَانَ ادْعَى النُّبُوَّةَ ثُمَّ تَابَ، وَتَقَدَّمَ الْحَارِثُ مَعَ أَصْحَابِهِ حَتَّى رَجَعُوا،

فَلَمَّا بَعَثَ سَعْدُ السَّرِيرَةَ اخْتَرَقَ طُلَيْحَةَ الْجِيُوشَ وَالصُّفُوفَ، وَتَخَطَّى الْأَلْوَفَ، وَقَتَّلَ جَمَاعَةً مِنَ الْأَبْطَالِ حَتَّى أَسْرَ أَحَدَهُمْ، وَجَاءَ بِهِ لَا يَمْلِكُ مِنْ نَفْسِهِ شَيْئًا، فَسَأَلَهُ سَعْدٌ عَنِ الْقَوْمِ، فَجَعَلَ يَصْفُ شَجَاعَةَ طُلَيْحَةَ، فَقَالَ: دَعْنَا مِنْ هَذَا وَأَخْبِرْنَا عَنْ رُسْتَمَ، فَقَالَ: هُوَ فِي مِائَةِ أَلْفٍ وَعَشْرِينَ أَلْفًا، وَيَتَّبَعُهَا مِثْلُهَا، وَأَسْلَمَ الرَّجُلُ مِنْ فُورِهِ رَحْمَةُ اللَّهِ.

قَالَ سَيْفٌ عَنْ شِيُوخِهِ: وَلَمَّا تَوَاجَهَ الْجِيَشَانَ بَعَثَ رُسْتَمٌ إِلَيْهِ بِرَجْلٍ عَاقِلٍ عَالِمٍ بِمَا أَسْأَلَهُ عَنْهُ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ الْمُغَيْرَةَ بْنُ شَعْبَةَ، - صَاحِبُ الْمُغَيْرَةِ - فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ جَعَلَ رُسْتَمَ يَقُولُ لَهُ: إِنَّكُمْ جِيَرَانُنَا وَكُنُّا نُحْسِنُ إِلَيْكُمْ وَنَكْفُفُ الْأَذَى عَنْكُمْ، فَأَرْجُعُوكُمْ إِلَى بَلَادِكُمْ وَلَا نَمْنَعُ تِجَارَكُمْ مِنِ الدُّخُولِ إِلَى بَلَادِنَا، فَقَالَ لَهُ الْمُغَيْرَةُ: إِنَّا لَيْسَ طَلَبَنَا الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا هَمْنَا وَطَلَبَنَا الْآخِرَةَ، وَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا قَالَ لَهُ: إِنِّي قَدْ سَلَطْتُ هَذِهِ الطَّائِفَةَ عَلَى مَنْ لَمْ يَدْنُ بِدِينِي، فَأَنَا مُنْتَقِمٌ بِهِمْ مِنْهُمْ، وَأَجْعَلُ لَهُمُ الْغَلَبَةَ مَا ذَامُوا مُقْرِبِينَ بِهِ، وَهُوَ دِينُ الْحَقِّ لَا يَرْغَبُ عَنْهُ أَحَدٌ إِلَّا ذَلَّ، وَلَا يَعْتَصِمُ بِهِ إِلَّا عَزَّ، فَقَالَ لَهُ رُسْتَمُ: فَمَا هُوَ؟ فَقَالَ: أَمَّا عَمُودُهُ الَّذِي لَا يَصْلُحُ شَيْءٌ مِنْهُ إِلَّا بِهِ، فَشَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَالْإِقْرَارُ بِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَقَالَ: مَا أَحْسَنَ هَذَا! وَأَيُّ شَيْءٍ أَيْضًا؟ قَالَ: وَإِخْرَاجُ الْعِبَادِ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، قَالَ: وَحَسَنُ أَيْضًا، وَأَيُّ شَيْءٍ أَيْضًا؟ قَالَ: وَالنَّاسُ بُنُوَادَمَ، فَهُمْ إِخْوَةُ لَأَبٍ وَأُمٍّ، قَالَ: وَحَسَنُ أَيْضًا، ثُمَّ قَالَ رُسْتَمُ: أَرَأَيْتَ إِنْ دَخَلْنَا فِي دِينِكُمْ، أَتْرُجُونَ عَنْ بَلَادِنَا؟ قَالَ: إِنِّي وَاللَّهِ، ثُمَّ لَمَّا نَقْرَبَ بَلَادَكُمْ إِلَيْهِ فِي تِحَارَةٍ أَوْ حَاجَةٍ، قَالَ: وَحَسَنُ أَيْضًا، قَالَ: وَلَمَّا خَرَجَ الْمُغَيْرَةُ مِنْ عِنْدِهِ ذَاكَ رُسْتَمُ رُؤْسَاءَ قَوْمِهِ فِي الْإِسْلَامِ، فَأَنْفَوْا مِنْ ذَلِكَ وَأَبْوَا أَنْ يَدْخُلُوْا فِيهِ، قَبَحُهُمُ اللَّهُ وَأَخْرَاهُمْ، وَقَدْ فَعَلُ.

قَالُوا: ثُمَّ بَعَثَ إِلَيْهِ سَعْدٌ رَسُولًا آخَرَ بِطَلَبِهِ، وَهُوَ رَبِيعُ بْنُ عَامِرٍ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ وَقَدْ زَيَّنُوا مَجْلِسَهُ بِالنَّمَارِقِ الْمُذَهَّبَةِ وَالزَّرَابِيِّ الْحَرَرِيِّ، وَأَظْهَرَ الْيَوْمَاقِتَ وَاللَّالَائِ الشَّمِينَةَ، وَالرِّينَةَ الْعَظِيمَةَ، وَعَلَيْهِ تَاجُهُ، وَعِنْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَمْنَعَةِ الشَّمِينَةِ، وَقَدْ جَلَسَ عَلَى سَرِيرِ مِنْ ذَهَبٍ، وَدَخَلَ رَبِيعٌ بِشِيَابِ صَفِيقَةِ وَسَيْفِ وَتُرْسِ وَفَرَسِ قَصِيرَةِ، وَلَمْ يَزَلْ رَاكِبَهَا حَتَّى دَاسَ بِهَا عَلَى طَرَفِ الْبُسَاطِ، ثُمَّ نَزَلَ وَرَبَطَهَا بِعَضِ تِلْكَ الْوَسَائِدَ، وَأَقْبَلَ وَعَلَيْهِ سَلَاحُهُ وَدِرْعُهُ وَبَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ، فَقَالُوا لَهُ: ضَعْ سِلَاحَكَ، فَقَالَ: إِنِّي لَمْ أَتِكُمْ، وَإِنَّمَا جَهْتُكُمْ حِينَ

دَعَوْتُمُونِي، فَإِنْ تَرَكْتُمُونِي هَكَذَا وَإِلَّا رَجَعْتُ. فَقَالَ رُسْتُمُ: أَئْذَنُوا لَهُ، فَأَقْبَلَ يَوْكَأُ عَلَى رُمْحِهِ فَوْقَ النَّمَارِقِ فَخَرَقَ عَامِتَهَا، فَقَالُوا لَهُ: مَا جَاءَ بِكُمْ؟ فَقَالَ: اللَّهُ ابْتَعَثَنَا لِنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، وَمِنْ ضَيْقِ الدُّنْيَا إِلَى سَعْتَهَا، وَمِنْ حَوْرِ الْأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الْإِسْلَامِ، فَأَرْسَلَنَا بِدِينِهِ إِلَى خَلْقِهِ لِنَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، فَمَنْ قَبْلَ ذَلِكَ قَبْلَنَا مِنْهُ وَرَجَعْنَا عَنْهُ، وَمَنْ أَبْيَ قَاتَلْنَاهُ أَبْدَا حَتَّى نُفْضِيَ إِلَى مَوْعِدِ اللَّهِ؟ قَالُوا: وَمَا مَوْعِدُ اللَّهِ؟ قَالَ: الْجَنَّةُ لِمَنْ مَاتَ عَلَى قِتَالِ مَنْ أَبْيَ، وَالظَّفَرُ لِمَنْ بَقِيَ. فَقَالَ رُسْتُمُ: قَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتُكُمْ، فَهَلْ لَكُمْ أَنْ تُنَوَّحُوا هَذَا الْأَمْرُ حَتَّى تَنْتَظِرُوهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، كَمْ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ؟ أَيُومًا أَوْ يَوْمَيْنِ؟ قَالَ: لَا، بَلْ حَتَّى تُكَاتِبَ أَهْلَ رَأْيِنَا وَرُؤْسَاءَ قَوْمَنَا. فَقَالَ: مَا سَنَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ تُنَوَّحَ الْأَعْدَاءُ عِنْ الْلَّقَاءِ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَ، فَانْظُرُ فِي أَمْرِكَ وَأَمْرِهِمْ، وَاخْتُرْ وَاحِدَةً مِنْ ثَلَاثَ بَعْدَ الْأَجَلِ. فَقَالَ: أَسِيْدُهُمْ أَنْتَ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنَّ الْمُسْلِمُونَ كَالْجَسَدِ الْوَاحِدِ يُجِيرُ أَدْنَاهُمْ عَلَى أَعْلَاهُمْ. فَاجْتَمَعَ رُسْتُمُ بِرُؤْسَاءِ قَوْمِهِ، فَقَالَ: هَلْ رَأَيْتُمْ قَطُّ أَعْزَّ وَأَرْجَحَ مِنْ كَلَامِ هَذَا الرَّجُلِ؟ فَقَالُوا: مَعَادُ اللَّهِ أَنَّ تَمِيلَ إِلَى شَيْءٍ مِنْ هَذَا وَتَدَعَ دِينَكَ لِهَذَا الْكَلْبِ! أَمَا تَرَى إِلَى ثِيَابِهِ؟

فَقَالَ: وَيَكُمْ لَا تَنْتَظِرُوهُ إِلَى الشَّيْابِ، وَأَنْظُرُوهُ إِلَى الرَّأْيِ وَالْكَلَامِ وَالسَّيَرَةِ، إِنَّ الْعَرَبَ يَسْتَخِفُونَ بِالشَّيَابِ وَالْمَأْكَلِ، وَيَصُونُونَ الْأَحْسَابَ. ^{٣٥٥} ..

فِي الْأَمْمِ عِنْدَهُمْ سَوَاءٌ، وَالنَّاسُ عِنْدَهُمْ سَوَاءٌ. النَّاسُ كُلُّهُمْ مِنْ آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تَرَابٍ. لَا فَضْلٌ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ إِلَّا بِالْتَّقْوَى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَقَاكُمْ». فَلِمَ يَخْلُ هُؤُلَاءِ بِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ دِينٍ وَعِلْمٍ وَتَحْذِيبٍ عَلَى أَحَدٍ، وَلَمْ يَرَاعُوا فِي الْحَكْمِ وَالْإِمَارَةِ وَالْفَضْلِ نَسْبًا وَلُوْنًا وَوَطْنًا، بَلْ كَانُوا سَحَابَةً اتَّظَمِنَتِ الْبَلَادُ وَعَمِّتِ الْعِبَادُ، وَغَوَادِي مِزْنَةَ أَتْنِي عَلَيْهَا السَّهْلُ وَالْوَعْرُ، وَانْتَفَعَتْ بِهَا الْبَلَادُ وَالْعِبَادُ عَلَى قَدْرِ قِبْوَلِهَا وَصَلَاحِهَا.

^{٣٥٥} - الْبَدَائِيَّةُ وَالنَّهَايَةُ لِابْنِ كَثِيرٍ - موافَقَةُ الْمُطبَوعِ - (٧ / ٤٦) وَتَارِيَخُ الرَّسُولِ وَالْمُلُوكِ - (٢ / ٢٦٧) حَسَنٌ

في ظل هؤلاء وتحت حكمهم استطاعت الأمم والشعوب - حتى المضطهدة منها في القديم - أن تناول نصيتها من الدين والعلم والتهذيب والحكومة، وأن تساهم العرب في بناء العالم الجديد، بل إن كثيرة من أفرادها فاقوا العرب في بعض الفضائل، وكان منهم أئمة هم تيجان مفارق العرب وسادة المسلمين من الأئمة والفقهاء والمحاذين ..

«رابعا: إن الإنسان جسم وروح، وهو ذو قلب وعقل وعواطف وجوارح، لا يسعد ولا يفلح ولا يرقى رقيا متزنا عادلا حتى تنمو فيه هذه القوى كلها نموا متناسبا لائقا بها، ويتغذى غذاء صالحا، ولا يمكن أن توجد المدنية الصالحة البينة إلا إذا ساد وسط ديني خلقي عقلي جسدي يمكن فيه للإنسان بسهولة أن يبلغ كماله الإنساني. وقد أثبتت التجربة أنه لا يكون ذلك إلا إذا مكنت قيادة الحياة وإدارة دفة المدنية بين الذين يؤمّنون بالروح والمادة، ويكونون أمثلة كاملة في الحياة الدينية والخلقية، وأصحاب عقول سليمة راجحة، وعلوم صحيحة نافعة» ..

إلى أن يقول تحت عنوان: «دور الخلافة الراشدة مثل المدنية الصالحة»: «وكذلك كان، فلم نعرف دورا من أدوار التاريخ أكمل وأجمل وأزهرا في جميع هذه النواحي من هذا الدور - دور الخلافة الراشدة - فقد تعاونت فيه قوة الروح والأخلاق والدين والعلم والأدوات المادية في تنشئة الإنسان الكامل. وفي ظهور المدنية الصالحة .. كانت حكومة من أكبر حكومات العالم، وقوه سياسية مادية تفوق كل قوة في عصرها، تسود فيها المثل الخلقية العليا، وتحكم معايير الأخلاق الفاضلة في حياة الناس ونظام الحكم، وتزدهر فيها الأخلاق والفضيلة مع التجارة والصناعة، ويساير الرقي الخلقي والروحي اتساع الفتوح واحتفال الحضارة، فتقل الجنایات، وتتندر الجرائم بالنسبة إلى مساحة المملكة وعدد سكانها ورغم دواعيها وأسبابها، وتحسن علاقه الفرد بالفرد، والفرد بالجماعة، وعلاقة الجماعة بالفرد. وهو دور كما لي لم يحلم الإنسان بأرقى منه، ولم يفترض المفترضون أزهى منه ..».

هذه بعض ملامح تلك الحقبة السعيدة التي عاشتها البشرية في ظل الدستور الإسلامي الذي تضع «سورة العصر» قواعده، وتحت تلك الرأية الإيمانية التي تحملها جماعة الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر.

فأين منها هذا الضياع الذي تعانيه البشرية اليوم في كل مكان، والخسار الذي تبوء به في معركة الخير والشر، والعماء عن ذلك الخير الكبير الذي حملته الأمة العربية للبشر يوم حملت رأية الإسلام فكانت لها القيادة.

ثم وضعت هذه الرأية فإذا هي في ذيل القافلة. وإذا القافلة كلها تعطوا إلى الضياع والخسار. وإذا الرايات كلها بعد ذلك للشيطان ليس فيها رأية واحدة لله. وإذا هي كلها للباطل ليس فيها رأية واحدة للحق. وإذا هي كلها للعماء والضلال ليس فيها رأية واحدة للهوى والنور، وإذا هي كلها للخسار ليس فيها رأية واحدة للفلاح! ورأية الله ما تزال. وإنما لترقب اليد التي ترفعها والأمة التي تسير تحتها إلى الخير والمهدى والصلاح والفالح.

ذلك شأن الربح والخسر في هذه الأرض. وهو على عظمته إذا قيس بشأن الآخرة صغير. وهناك هناك الربح الحق والخسر الحق. هناك في الأمد الطويل، وفي الحياة الباقية، وفي عالم الحقيقة.. هناك الربح والخسر: ربح الجنة والرضوان، أو خسر الجنة والرضوان. هناك حيث يبلغ الإنسان أقصى الكمال المقدر له، أو يرتكس فنهر آدميته، وينتهي إلى أن يكون حجرا في القيمة ودون الحجر في الراحة: **وَمَنْ يَنْظُرُ الْمَرءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ: يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا**^{٣٥٦}

٢- في سورة يوسف، وفي أصوات فُصولٍ مُثيرةٍ من الغربة والسجن والإغْرَار والظلم، يَبِرُّ^{٣٥٧} قانونان جَلِيلان: {إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيغُ أَحْرَ الْمُحْسِنِينَ} (٩٠) سورة يوسف.

فالصبر والتقوى تناول بهما سعادة الدارين والتمكين في الأرض، والرضى والرضوان .

^{٣٥٦} - في ظلال القرآن — موافقاً للمطبوع - (٥ / ٢٧١٤) و ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين - (١٢٨ / ١)

والآخر ... {يَا بَنِيَّ اذْهِبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَأسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيَأسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ } (٨٧) سورة يوسف
الأول تهْجُّ خُلُقِيُّ صَارِمٌ في جَدْوِيِّ الْاسْتِقَامَةِ، والثَّانِي الْاسْتِنَادُ إِلَى اللَّهِ فِي ارْتِقَابِ مُسْتَقْبِلٍ أَفْضَلُ مِنْهُمَا أَظْلَمَتِ الْآفَاقَ فِي مَرَأَيِّ الْعَيْنِ، فَهَلْ تَتَمَّ تَنْشِيَّةِ الشَّابِ عَلَى هَذِهِ الْقَوَاعِدِ؟ أَمْ أَنَّ التَّعَلُّقَ بِالْقُسْوَرِ هُوَ دِيدُّنَا؟!

٣- بدأت سورة محمد بهذه الآية: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ} (١) سورة محمد.

أَلَا تَلْمَحُ فِي هَذَا الْمَطْلُعِ الْحَاسِمِ أَنَّ الْإِلَحَادَ - مِنْهُمَا صَاحِبَةُ مِنْ عِلْمٍ - مَسْئُومُ النَّهَايَةِ، وَأَنَّ الْكُفَّارَ وَالْفَتَّانِينَ مِنْهُمَا بَلَغُ ذُكْرَهُمْ لَا بَدْ أَنْ يُحْرِمُوا بِرَكَاتَ اللَّهِ وَيُوَاجِهُوا الْفَشَلَ وَالْدَّمَارَ، وَأَنَّ التَّعْوِيلَ إِنَّمَا يَكُونُ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْإِصْلَاحِ؟

وَهَذِهِ الْأَعْمَالُ الَّتِي أَضْلَلَتْ رِبَّا كَانَ الْمَقْصُودُ مِنْهَا بِصَفَةِ خَاصَّةِ الْأَعْمَالِ الَّتِي يَأْمُلُونَ مِنْ وَرَائِهَا الْخَيْرَ. وَالَّتِي يَبْدُو عَلَى ظَاهِرِهَا الْصَّالِحَةُ. فَلَا قِيمَةُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ مِنْ غَيْرِ إِيمَانٍ. فَهَذَا الْصَّالِحُ شَكْلِيُّ لَا يَعْبُرُ عَنْ حَقِيقَةِ وِرَاءِهِ.

وَالْعِرْبَةُ بِالْبَاعِثِ الَّذِي يَصْدِرُ عَنْهُ الْعَمَلُ لَا بِشَكْلِ الْعَمَلِ. وَقَدْ يَكُونُ الْبَاعِثُ طَيْبًا. وَلَكِنَّهُ حِينَ لَا يَقُومُ عَلَى الْإِيمَانِ يَكُونُ فَلْتَةً عَارِضَةً أَوْ نِزْوَةً طَارِئَةً. لَا يَتَصَلُّ. مِنْهُجٌ ثَابِتٌ وَاضْعَفُ فِي الْضَّمِيرِ، مِتَّصِلٌ بِخَطْ سِيرِ الْحَيَاةِ الْعَرِيْضِ، وَلَا بِنَامُوسِ الْوُجُودِ الْأَصْلِيلِ. فَلَا بَدْ مِنْ إِيمَانٍ لِيُشَدَّ النَّفْسُ إِلَى أَصْلِ تَصْدِرِهِ فِي كُلِّ اجْتِهَادِهِ، وَتَتَأَثَّرُ بِهِ فِي كُلِّ اِنْفَعَالِهِ. وَحِينَئِذٍ يَكُونُ لِلْعَمَلِ الْصَّالِحِ مَعْنَاهُ. وَيَكُونُ لَهُ هَدْفُهُ وَيَكُونُ لَهُ اطْرَادُهُ وَتَكُونُ لَهُ آثَارُهُ وَفَقَدْ الْمِنْهُجُ الْإِلَهِيُّ الَّذِي يَرْبِطُ أَجْزَاءَ هَذَا الْكَوْنِ كُلَّهُ فِي النَّامُوسِ وَيَجْعَلُ لِكُلِّ عَمَلٍ وَلِكُلِّ حَرْكَةٍ وَظِيفَةٍ وَأَثْرًا فِي كِيَانِ هَذَا الْوُجُودِ، وَفِي قِيَامِهِ بِدُورِهِ، وَإِنْتِهِيَّهِ إِلَى غَايَتِهِ.

وَفِي الْجَانِبِ الْآخِرِ: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ» ..

والإيمان الأول يشمل الإيمان بما نزل على محمد. ولكن السياق يبرزه ويظهره ليصفه بصفته: «وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ» ويؤكد هذا المعنى ويقرره. وإلى جوار الإيمان المستكן في الضمير، العمل الظاهر في الحياة. وهو ثمرة الإيمان الدالة على وجوده وحيويته وانبعاثه.

وهؤلاء: «كَفَرُوا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ» .. في مقابل إبطال أعمال الذين كفروا ولو كانت حسنات في شكلها وظاهرها. وبينما يبطل العمل ولو كان صالحا من الكافرين، فإن السيئة تغفر للمؤمنين. وهو تقابل تام مطلق يبرز قيمة الإيمان وقدره عند الله، وفي حقيقة الحياة .. «وَأَصْلَحَ بِالْهُمْ» .. وإصلاح البال نعمة كبرى تلي نعمة الإيمان في القدر والقيمة والأثر. والتعبير يلقي ظلال الطمأنينة والراحة والثقة والرضى والسلام. ومتى صلح البال، استقام الشعور والتفكير، واطمأن القلب والضمير، وارتاحت المشاعر والأعصاب، ورضيت النفس واستمتعت بالأمن والسلام .. وماذا بعد هذا من نعمة أو متعة؟ ألا إنه الأفق المشرق الوضيء الرفاف.

ولم كان هذا وكان ذاك؟ إنما ليست المصادفة. وليس الجزاف. إنما هو أمر له أصله الثابت، المرتبط بالناموس الأصيل الذي قام عليه الوجود يوم خلق الله السماوات والأرض بالحق، وجعل الحق هو الأساس: «ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَتَّبَعُوا الْبَاطِلَ، وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا أَتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ» ..

والباطل ليست له جذور ضاربة في كيان هذا الوجود ومن ثم فهو ذاهم هالك وكل من يتبعه وكل ما يصدر عنه ذاهم كذلك. ولما كان الذين كفروا اتبعوا الباطل فقد ضلت أعمالهم، ولم يبق لهم منها شيء ذو غناء.

والحق ثابت تقوم عليه السماوات والأرض، وتضرب جذوره في أعماق هذا الكون. ومن ثم يبقى كل ما يتصل به ويقوم عليه. ولما كان الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم، فلا جرم كفر عنهم سيئاتهم وأصلاح بالهم.

فهو أمر واضح مقرر يقوم على أصوله الثابتة، ويرجع إلى أسبابه الأصيلة. وما هو فلتة ولا مصادفة ولا جزاف «كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ». وكذلك يضع لهم القواعد التي

يقيسون إليها أنفسهم وأعمالهم. فيعلمون المثل الذي ينتمون إليه ويقاسون عليه. ولا يختارون في الوزن والقياس! ^{٣٥٧}.

٤- الرغبة والرهبة أحاسيس مخوننة تلمسُها وراء الطمع الجامح والخوف المذل، فهل يُعاني من ذلك إنسان أو شعب يفهم قول الله تعالى: {مَا يَقْتَحِمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلٌ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (٢) سورة فاطر؟! ورحمة الله تتمثل في مظاهر لا يحصيها العد ويعجز الإنسان عن مجرد ملاحظتها وتسجيلها في ذات نفسه وتكوينه، وتكرّبهما بما كرمه وفيما سخر له من حوله ومن فوقه ومن تحته وفيما أنعم به عليه مما يعلمه ونما لا يعلمه وهو كثير.

ورحمة الله تتمثل في الممنوع تمثلها في الممنوع.ويجدها من يفتحها الله له في كل شيء، وفي كل وضع، وفي كل حال، وفي كل مكان ..يجدها في نفسه، وفي مشاعره ويجدها في نفسه، وفي مشاعره ويجدها فيما حوله، وحيثما كان، وكيفما كان.ولو فقد كل شيء مما يعده الناس فقده هو الحرمان ..ويفتقدها من يمسكها الله عنه في كل شيء، وفي كل وضع، وفي كل حالة، وفي كل مكان.ولو وجد كل شيء مما يعده الناس علامه الوجдан والرضوان! وما من نعمة - يمسك الله معها رحمته - حتى تقلب هي بذاتها نعمة.وما من محنـة - تحفـها رحـمة الله - حتى تكون هي بذاتها نعـمة ..ينـام الإـنسـان عـلـى الشـوك - مع رحـمة الله - فإذا هو مـهـادـ.وينـام عـلـى الـحرـير - وقد أـمـسـكـتـ عـنـه - فإذا هو شـوكـ القـتـادـ.ويـعـالـجـ أـعـسـرـ الـأـمـورـ - بـرـحـمةـ اللهـ - فإذا هي هـوـادـهـ وـيـسـرـ.ويـعـالـجـ أـيـسـرـ الـأـمـورـ وقد تخلـتـ رـحـمةـ اللهـ - فإذا هي مشـقـةـ وـعـسـرـ.ويـخـوـضـ بـهـاـ المـخـاـفـ وـالـأـخـطـارـ فإذا هي أـمـنـ وـسـلـامـ.ويـعـرـ بـدـوـنـهاـ الـمـاهـجـ وـالـمـسـالـكـ فإذا هي مـهـلـكـةـ وـبـوـارـ! ولا ضـيقـ معـ رـحـمةـ اللهـ.إـنـاـ الضـيقـ فيـ إـمـسـاـكـهاـ دـوـنـ سـوـاهـ.لـاـ ضـيقـ وـلـوـ كـانـ صـاحـبـهاـ فيـ غـيـاـهـ السـجـنـ،ـأـوـ فيـ جـحـيمـ العـذـابـ أـوـ فيـ شـعـابـ الـمـلـاـكـ.وـلـاـ وـسـعـةـ معـ إـمـسـاـكـهاـ وـلـوـ تـقـلـبـ الإـنـسـانـ فيـ أـعـطـافـ النـعـيمـ،ـوـلـيـ مـرـاعـيـ الرـخـاءـ.فـمـنـ دـاـخـلـ النـفـسـ بـرـحـمةـ اللهـ تـنـفـحـرـ يـنـابـيعـ السـعـادـةـ

والرضا والطمأنينة. ومن داخل النفس مع إمساكها تدب عقارب القلق والتعب والنصب والكد والمعاناة! هذا الباب وحده يفتح وتعلق جميع الأبواب، وتوصد جميع النوافذ، وتسد جميع المسالك .. فلا عليك.

فهو الفرج والفسحة واليسر والرخاء .. وهذا الباب وحده يغلق وتفتح جميع الأبواب والنوافذ والمسالك فما هو بنافع. وهو الضيق والكرب والشدة والقلق والعناء! هذا الفيض يفتح، ثم يضيق الرزق. ويضيق السكن. ويضيق العيش، وتخشن الحياة، ويشوك المضجع .. فلا عليك. فهو الرخاء والراحة والطمأنينة والسعادة. وهذا الفيض يمسك. ثم يفيض الرزق ويقبل كل شيء.

فلا جدوى. وإنما هو الضنك والخرج والشقاوة والبلاء! المال والولد، والصحة والقوه، والجاه والسلطان .. تصبح مصادر قلق وتعب ونكد وجهد إذا أمسكت عنها رحمة الله. فإذا فتح الله أبواب رحمته كان فيها السكن والراحة والسعادة والاطمئنان.

ييسط الله الرزق - مع رحمته - فإذا هو متاع طيب ورخاء وإذا هو رغد في الدنيا وزاد إلى الآخرة. ويسك رحمته، فإذا هو مثار قلق وخوف، وإذا هو مثار حسد وبغض، وقد يكون معه الحرمان ببعض أو مرض، وقد يكون معه التلف بأفراط أو استهتار.

وينجح الله الذرية - مع رحمته - فإذا هي زينة في الحياة ومصدر فرح واستمتاع، ومضاعفة للأجر في الآخرة بالخلف الصالح الذي يذكر الله. ويسك رحمته فإذا الذرية بلاء ونكد وعنت وشقاء، وسهر بالليل وتعب بالنهار! ويهد الله الصحة والقوه - مع رحمته - فإذا هي نعمة وحياة طيبة، والتذاذ بالحياة. ويسك نعمته فإذا الصحة والقوه بلاء يسلطه الله على الصحيح القوي، فينفق الصحة والقوه فيما يحطم الجسم ويفسد الروح، ويدخر السوء ليوم الحساب! ويعطي الله السلطان والجاه - مع رحمته - فإذا هي أداة إصلاح، ومصدر أمن، ووسيلة لادخار الطيب الصالح من العمل والأثر. ويسك الله رحمته فإذا الجاه والسلطان مصدر قلق على فوئهما، ومصدر طغيان وبغي بعهما، ومثار حقد وموجدة على صاحبهما لا يقر له معهما قرار، ولا يستمتع بجاه ولا سلطان، ويدخر بعهما للآخرة رصيدا ضخما من النار! والعلم الغزير. والعمr الطويل. والمقام الطيب. كلها تتغير وتبدل من حال

إلى حال .. مع الإمساك ومع الإرسال .. وقليل من المعرفة يشمر وينفع، وقليل من العمر
بيارك الله فيه. وزهيد من المتع يجعل الله فيه السعادة.

والجماعات كالآحاد. والأمم كالأفراد. في كل أمر وفي كل وضع، وفي كل حال .. ولا
يصعب القياس على هذه الأمثال! ومن رحمة الله أن تحس برحمة الله! فرحمة الله تضمنك
وتغمرك وتفيض عليك. ولكن شعورك بوجودها هو الرحمة. ورجاؤك فيها وتطلوك إليها
هو الرحمة. وثقتك بها وتوقعها في كل أمر هو الرحمة. والعقاب هو العذاب في احتجابك
عنها أو يأسك منها أو شكك فيها. وهو عذاب لا يصبه الله على مؤمن أبدا. «إِنَّمَا لَا يَيْأسُ
مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ».

ورحمة الله لا تزع على طالب في أي مكان ولا في أي حال. وجدها إبراهيم - عليه السلام
- في النار.

ووجدتها يوسف - عليه السلام - في الجب كما وجدتها في السجن. ووجدتها يوئس -
عليه السلام - في بطん الحوت في ظلمات ثلاثة. ووجدتها موسى - عليه السلام - في اليم
وهو طفل مجرد من كل قوة ومن كل حراسة، كما وجدتها في قصر فرعون وهو عدو له
متربص به ويبحث عنه. ووجدتها أصحاب الكهف في الكهف حين افتقدوها في القصور
والدور. فقال بعضهم لبعض: «فَأَوْوُا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ». ووجدتها
رسول الله - ﷺ - وصاحبها في الغار والقوم يتبعونهما ويقصون الآثار .. ووجدتها كل من
آوى إليها يأسا من كل ما سواها. منقطعا عن كل شبهة في قوتها، وعن كل مظنة في رحمة،
فاصدا باب الله وحده دون الأبواب.

ثم إنه متى فتح الله أبواب رحمته فلا ممسك لها. ومتى أمسكها فلا مرسل لها. ومن ثم فلا
مخافاة من أحد.

ولا رجاء في أحد. ولا مخافاة من شيء، ولا رجاء في شيء. ولا خوف من فوت وسيلة،
ولا رجاء مع الوسيلة.

إنما هي مشيئة الله. ما يفتح الله فلا ممسك. وما يمسك الله فلا مرسل. والأمر مباشرة إلى الله .. «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» .. يقدر بلا معقب على الإرسال والإمساك. ويرسل ويسك وفق حكمة تكمن وراء الإرسال والإمساك.

«ما يَفْتَحَ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكٌ لَهَا» .. وما بين الناس ورحمة الله إلا أن يطلبواها مباشرة منه، بلا وساطة وبلا وسيلة إلا التوجه إليه في طاعة وفي رحاء وفي ثقة وفي استسلام. «وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسَلٌ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ» .. فلا رجاء في أحد من خلقه، ولا خوف لأحد من خلقه. فما أحد بمرسل من رحمة الله ما أمسكه الله.

آية طمأنينة؟ وأي قرار؟ وأي وضوح في التصورات والمشاعر والقيم والموازين تقره هذه الآية في الضمير؟! آية واحدة ترسم للحياة صورة جديدة وتنشئ في الشعور قيماً لهذه الحياة ثابتة وموازين لا تهتز ولا تتأرجح ولا تتأثر بالمؤثرات كلها. ذهبت أم حاءت. كبرت أم صغرت. جلت أم هانت. كان مصدرها الناس أو الأحداث أو الأشياء! صورة واحدة لو استقرت في قلب إنسان لصمد كالطود للأحداث والأشياء والأشخاص والقوى والقيم والاعتبارات. ولو تضافر عليها الإنس والجن. وهم لا يفتحون رحمة الله حين يمسكها، ولا يمسكوها حين يفتحها .. «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» ..

وهكذا أنشأ القرآن بمثل هذه الآية وهذه الصورة تلك الفئة العجيبة من البشر في صدر الإسلام. الفئة التي صنعت على عين الله بقرآنها هذا لتكون أداة من أدوات القدرة، تنشئ في الأرض ما شاء الله أن ينشئ من عقيدة وتصور، وقيم وموازين، ونظم وأوضاع. وتقر في الأرض ما شاء الله أن يقر من نماذج الحياة الواقعية التي تبدو لنااليوم كالأساطير والأحلام. الفئة التي كانت قدرها من قدر الله يسلطه على من يشاء في الأرض فيمحو ويبثت في واقع الحياة والناس ما شاء الله من محو ومن إثبات. ذلك أنها لم تكن تتعامل مع ألفاظ هذا القرآن، ولا مع المعاني الجميلة التي تصورها .. وكفى .. ولكنها كانت تعامل مع الحقيقة التي تتمثلها آيات القرآن، وتعيش في واقعها بها، ولها ..

وما يزال هذا القرآن بين أيدي الناس، قادرًا على أن ينشئ بآياته تلك أفراداً وفجعات تمحو وتبث في الأرض - بإذن الله - ما يشاء الله .. ذلك حين تستقر هذه الصور في القلوب، فتأخذها جداً، وتمثلها حقًا. حقًا تحسه، كأنها تلمسه بالأيدي وتراه بالأبصار .^{٣٥٨}

إن اضطراب الأعصاب ومستشفيات الأمراض النفسية وحوادث الانتحار تملأ أقطار الغرب، لِضُوب هذه الرُّوحانِيَّة وانطلاق الجماهير وراء الماديات لا تدرى سواها . فكيف حَصَنَّا أنفسنا من هذه الأُوبَة ؟ ..

٥- قال الله - تعالى - في سورة يومنس: { فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جَنِّتُمْ بِهِ السُّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢) } [يومنس: ٨١، ٨٢] .

فلما ألقوا حبالم وعصيهم قال لهم موسى: إنَّ الذي جئتم به وأقيتموه هو السحر، إن الله سُيُذْهَب ما جئتم به وسيُبْطِلُهُ، إن الله لا يصلاح عمل من سعى في أرض الله بما يكرهه، وأفسد فيها بعصيته.

ويثبَّت الله الحق الذي جئتم به من عنده فِي عَلِيهِ عَلَى باطلكم بكلماته وأمره، ولو كره المجرمون أصحاب المعاصي مِن آل فرعون.

وهكذا كل مفسد عمل عملاً واحتال كيداً، أو أتى بِمَكْرٍ، فإن عمله سيُبْطِلُ ويُضْمحل، وإن حصل لعمله روجان في وقت ما، فإن مآلِه الاضمحلال والحق.

وأما المصلحون الذين قصدُهم بِأعمالهم وجه الله تعالى، وهي أعمال ووسائل نافعة، مأمور بها، فإن الله يصلاح أعمالهم ويرقيها، وينميتها على الدوام، فألقى موسى عصاه، فتلقفت جميع ما صنعوا، فبطل سحرهم، واضمحل باطلهم .^{٣٥٩}

٦- قال الله - سبحانه - في سورة الرعد: { أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَأَلَتْ أُوْدِيَّةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّأِيًّا وَمِمَّا يُوَقِّدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مُّثْلُهُ كَذَلِكَ

^{٣٥٨} - في ظلال القرآن - موقعاً للمطبوع - (٥ / ٢٩٢١)

^{٣٥٩} - تفسير السعدي - (١ / ٣٧١)

يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقُّ وَالْبَاطِلُ فَأَمَّا الزَّبْدُ فَيَذْهَبُ حُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ
كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ {١٧} سورة الرعد.

ضرب الله سبحانه مثل الحق والباطل. ماء أنزله من السماء، فحرّت به أودية الأرض بقدر صغرها وكبّرها، فحمل السيل غثاء طافياً فوقه لا نفع فيه. وضرب مثلاً آخر: هو المعادن يوقدون عليها النار لصهرها طلباً للزينة كما في الذهب والفضة، أو طلباً لمنافع ينتفعون بها كما في النحاس، فيخرج منها خبثها مما لا فائدة فيه كالذى كان مع الماء، مثل هذا يضرب الله المثل للحق والباطل: فالباطل كغثاء الماء يتلاشى أو يُرمى إذ لا فائدة منه، والحق كالماء الصافي، والمعادن النقيّة تبقى في الأرض للانتفاع بها، كما بين لكم هذه الأمثال، كذلك يضرّها للناس؛ ليتضح الحق من الباطل والهوى من الضلال.

وإنزال الماء من السماء حتى تسيل به الوديان يتناسق مع جو البرق والرعد والسحب الثقال في المشهد السابق ويؤلف جانباً من المشهد الكوني العام، الذي تجري في جوهه قضايا السورة وموضوعاتها. وهو كذلك يشهد بقدرة الواحد القهار .. وأن تسيل هذه الأودية بقدرها، كل بحسبه، وكل مقدار طاقته ومقدار حاجته يشهد بتدبّر الخالق وتقديره لكل شيء .. وهي إحدى القضايا التي تعالجها السورة .. وليس هذا أو ذلك بعد إلا إطاراً للمثل الذي يريد الله ليضربه للناس من مشهود حياتهم الذي يمرون عليه دون انتباه.

إن الماء ليترى من السماء فتسيل به الأودية، وهو يلم في طريقه غثاء، فيطفو على وجهه في صورة الزبد حتى ليحجب الزبد الماء في بعض الأحيان. هذا الزبد نافش راب منتفخ .. ولكنه بعد غثاء والماء من تحته سارب ساكن هادئ .. ولكنه هو الماء الذي يحمل الخير والحياة .. كذلك يقع في المعادن التي تذاب لتصاغ منها حلية كالذهب والفضة، أو آنية أو آلة نافعة للحياة كالحديد والرصاص، فإن الخبث يطفو وقد يحجب المعدن الأصيل. ولكنه بعد خبث يذهب ويقي المعدن في نقاء ..

ذلك مثل الحق والباطل في هذا الحياة. فالباطل يطفو ويعلو وينتفخ ويبدو رابياً طافياً ولكنه بعد زبد أو خبث، ما يلبث أن يذهب جفاء مطروحاً لا حقيقة له ولا تماسك فيه. والحق يظل هادئاً ساكناً. وربما يحسبه بعضهم قد انزوى أو غار أو ضاع أو مات. ولكنه هو الباقي

في الأرض كالماء الحبي والمعدن الصربيح، ينفع الناس.»**كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ**« وَكَذَلِكَ يَقُرِرُ مَصَائِرُ الدُّعَوَاتِ، وَمَصَائِرُ الاعْتِقَادَاتِ. وَمَصَائِرُ الْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ. وَهُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ، الْمَدِيرُ لِلْكَوْنِ وَالْحَيَاةِ، الْعَلِيمُ بِالظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، وَالْحَقُّ وَالْبَاطِلُ وَالْبَاقِي وَالْزَّائِلُ^{٣٦٠}.

وإن الإنسان ليجد مصداق قول الله هذا في كل من يلقاه من الناس معرضاً عن هذا الحق الذي تضمنه دين الله، والذي جاء به في صورته الكاملة محمد رسول الله .. فإن هي إلا جبالات مَؤَوفَةٌ مطْمُوسَةٌ. وإن هي إلا كينونات معطلة في أهم حوانبها بحيث لا تلتقي إيقاعات هذا الوجود كله من حولها، وهو يسبح بحمد ربه وينطق بوحدانيته وقدرته وتدبيره وتقديره.

وإذا كان الذين لا يؤمنون بهذا الحق عمياً - بشهادة الله سبحانه - فإنه لا ينبغي لمسلم يزعم أنه يؤمن برسول الله، ويؤمن بأن هذا القرآن وحي من عند الله .. لا ينبغي لمسلم يزعم هذا الزعم أن يتلقى في شأن من شؤون الحياة عن أعمى! وبخاصة إذا كان هذا الشأن متعلقاً بالنظام الذي يحكم حياة الإنسان أو بالقيم والموازين التي تقوم عليها حياته أو بالعادات والسلوك والتقاليد والآداب التي تسود مجتمعه .. وهذا هو موقفنا من نتاج الفكر - غير الإسلامي - بحملته - فيما عدا العلوم المادية البحتة وتطبيقاتها العملية مما قصده رسول الله - ﷺ - بقوله: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِشَؤُونِ دُنْيَاكُمْ». فإنه ما ينبغي فقط لمسلم يعرف هدى الله ويعرف هذا الحق الذي جاء به رسول الله، أن يقعد مقعد التلميذ الذي يتلقى من أي إنسان لم يستجب لهذا المهدى ولم يعلم أنه الحق .. فهو أعمى بشهادة الله سبحانه .. ولن يرد شهادة الله مسلم .. ثم يزعم بعد ذلك أنه مسلم!!! إنه لا بد لنا أن نأخذ هذا الدين مأخذ الجد وأن نأخذ تقريراته هذه مأخذ الجزم .. وكل تقيع في مثل هذه القضية هو تقيع في العقيدة ذاتها إن لم يكن هو رد شهادة الله - سبحانه - وهو الكفر البوح في هذه الصورة! وأعجب العجب أن ناساً من الناس اليوم يزعمون أنهم مسلمون

ثم يأخذون في منهج الحياة البشرية عن فلان وفلان من الذين يقول عنهم الله سبحانه: إنهم عمي. ثم يظلون يزعمون بعد ذلك أنهم مسلمون! إن هذا الدين جد لا يحتمل المزدوجية، وجزم لا يحتمل التمييز، وحق في كل نص فيه وفي كل كلمة .. فمن لم يجد في نفسه هذا الجد وهذا الجزم وهذه الثقة فما أغني هذا الدين عنه. والله غني عن العالمين !»

وما يجوز أن ينقل الواقع الجاهلي على حسن مسلم، حتى يتلقى من الجاهلية في منهج حياته وهو يعلم أن ما جاءه به محمد - ﷺ - هو الحق وأن الذي لا يعلم أن هذا هو الحق «أعمى». ثم يتبع هذا الأعمى، ويتلقي عنه، بعد شهادة الله سبحانه وتعالى .^{٣٦١}

إن حياة الناس لا تصلح إلا بأن يتولى قيادتها المبصرون أولو الألباب الذين يعلمون أن ما أنزل إلى محمد - ﷺ - هو الحق. ومن ثم يوفون بعهد الله على الفطرة، وبعهد الله على آدم وذراته، أن يعبدوه وحده، فيدينوا له وحده، ولا يتلقوا عن غيره، ولا يتبعوا إلا أمره ونهاه. ومن ثم يصلون ما أمر الله به أن يوصل، ويخشون ربهم فيخافون أن يقع منهم ما نهى عنه وما يغضبه ويخافون سوء الحساب، فيجعلون الآخرة في حسابهم في كل حاجة وكل حركة ويصيرون على الاستقامة على عهد الله ذاك بكل تكاليف الاستقامة ويفسرون الصلاة وينفقون مما رزقهم الله سرا وعلانية ويدفعون السوء والفساد في الأرض بالصلاح والإحسان ..

إن حياة الناس في الأرض لا تصلح إلا بمثل هذه القيادة المبصرة التي تسير على هدى الله وحده والتي تصوغ الحياة كلها وفق منهجه وهديه .. إنما لا تصلح بالقيادات الضالة العمياء، التي لا تعلم أن ما أنزل على محمد - ﷺ - هو الحق وحده والتي تتبع - من ثم - مناهج أخرى غير منهج الله الذي ارتضاه للصالحين من عباده .. إنما لا تصلح بالإقطاع والرأسمالية، كما أنها لا تصلح بالشيوعية والاشراكية العلمية! ..

إنها كلها من مناهج العمى الذين لا يعلمون أن ما أنزل على محمد - ﷺ - هو وحده الحق، الذي لا يجوز العدول عنه، ولا التعديل فيه .. إنها لا تصلح بالشيفراتية كما أنها لا تصلح بالديكتاتورية أو الديمقراطية! فكلها سواء في كونها من مناهج العمى، الذين يقيمون من أنفسهم أربابا من دون الله، تضع هي مناهج الحكم ومناهج الحياة، وتشريع للناس ما لم يأذن به الله وتعبدhem لما تشرع، فتجعل دينونthem لغير الله ..

وآية هذا الذي نقوله - استمداد من النص القرآني - هو هذا الفساد الطامي الذي يعم وجه الأرض اليوم في جاهلية القرن العشرين. وهو هذه الشقة النكدة التي تعانيها البشرية في مشارق الأرض وغارتها .. سواء في ذلك أوضاع الإقطاع والرأسمالية، وأوضاع الشيوعية والاشتراكية العلمية! .. وسواء في ذلك أشكال الديكتاتورية في الحكم أو الديموقратية! .. إنها كلها سواء فيما تلقاء البشرية من خلالها من فساد ومن تحلل ومن شقاء ومن قلق .. لأنها كلها سواء من صنع العمى الذين لا يعلمون أن ما أنزل على محمد من ربها هو الحق وحده ولا تلتزم - من ثم - بعهد الله وشرعه ولا تستقيم في حياتها على منهجه وهديه.

إن المسلم يرفض - بحكم إيمانه بالله وعلمه بأن ما أنزل على محمد هو الحق - كل منهج للحياة غير منهج الله وكل مذهب اجتماعي أو اقتصادي وكل وضع كذلك سياسي، غير المنهج الوحيد، والمذهب الوحيد، والشرع الوحيد الذي سنه الله وارتضاه للصالحين من عباده.

ومجرد الاعتراف بشرعية منهج أو وضع أو حكم من صنع غير الله، هو بذاته خروج من دائرة الإسلام لله فالإسلام لله هو توحيد الدينونة له دون سواه.

إن هذا الاعتراف فوق أنه يخالف بالضرورة مفهوم الإسلام الأساسي، فهو في الوقت ذاته يسلم الخلافة في هذه الأرض للعمى الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض .. فهذا الفساد في الأرض مرتبط كل الارتباط بقيادة العمى! ..

ولقد شققت البشرية في تاريخها كله وهي تتخطى بين شتى المناهج وشتى الأوضاع وشتى الشرائع بقيادة أولئك العمي، الذين يلبسون أردية الفلسفه والمفكرين والمشرعين والسياسيين على مدار القرون. فلم تسعدهم قط ولم ترتفع «إنسانيتها» قط، ولم تكن في مستوى الخلافة عن الله في الأرض قط، إلا في ظلال المنهج الرباني في الفترات التي فاءت فيها إلى ذلك المنهج القويم^{٣٦٢}.

٧- قال الله - تعالى - في سورة المائدة: {قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَيْرُ وَالْطَّيْبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَيْرِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولَئِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (١٠٠) سورة المائدة.
قل - أيها الرسول -: لا يستوي الخبيث والطيب من كل شيء، فالكافر لا يساوي المؤمن، والعاصي لا يساوي الطيع، والجاهل لا يساوي العالم، والمبتدع لا يساوي المتابع، والمال الحرام لا يساوي الحلال، ولو أعجبك - أيها الإنسان - كثرة الخبيث وعدد أهله. فاتقوا الله يا أصحاب العقول الراجحة باجتناب الخبائث، و فعل الطيبات؛ لتفلحوا بنيل المقصود الأعظم، وهو رضا الله تعالى والفوز بالجنة^{٣٦٣}.

إن المناسبة الحاضرة لذكر الخبيث والطيب في هذا السياق، هي مناسبة تفصيل الحرام والحلال في الصيد والطعام. والحرام خبيث، والحلال طيب .. ولا يستوي الخبيث والطيب ولو كانت كثرة الخبيث تغير وتعجب. ففي الطيب متعاف بلا معقبات من ندم أو تلف، وبلا عقابيل من ألم أو مرض .. وما في الخبيث من لذة إلا وفي الطيب مثلها على اعتدال وآمن من العاقبة في الدنيا والآخرة .. والعقل حين يتخلص من الموى بمحالطة التقوى له ورقابة القلب له، يختار الطيب على الخبيث فينتهي الأمر إلى الفلاح في الدنيا والآخرة: «فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولَئِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» ..

هذه هي المناسبة الحاضرة .. ولكن النص - بعد ذلك - أفسح مدى وأبعد أفقاً. وهو يشمل الحياة جميماً، ويصدق في مواقف شتى:

^{٣٦٢} - في ظلال القرآن - موافقاً للمطبوع - (٤ / ٢٠٧٥)

^{٣٦٣} - التفسير الميسر - (٢ / ٢٧٤)

لقد كان الله الذي أخرج هذه الأمة، وجعلها خير أمة أخرجت للناس، يعدها لأمر عظيم هائل .. كان يعدها لحمل أمانة منهجه في الأرض، لتسقى عليه كما لم تستقم أمة قط، ولتقييمه في حياة الناس كما لم يقم كذلك قط. ولم يكن بد أن تراض هذه الأمة رياضة طويلة. رياضة تخلعها أولاً من جاهليتها وترفعها من سفح الجاهلية الهاابطة وتمضي بها صعداً في المرتقى الصاعد إلى قمة الإسلام الشاملة ثم تعكف بعد ذلك على تنمية تصوراتها وعاداتها ومشاعرها من رواسب الجاهلية وتربيتها إرادتها على حمل الحق وتبعاته. ثم تنتهي بها إلى تقييم الحياة جملة وتفصيلاً وفق قيم الإسلام في ميزان الله .. حتى تكون ريانة حقاً .. وحتى ترتفع بشريتها إلى أحسن تقويم .. وعندئذ لا يستوي في ميزانها الخبيث والطيب ولو أعجبها كثرة الخبيث! والكثرة تأخذ العين وتهول الحس. ولكن تمييز الخبيث من الطيب، وارتفاع النفس حتى تزنها ميزان الله، يجعل كفة الخبيث تشيل مع كثرته، وكفة الطيب ترجح على قلته .. وعندئذ تصبح هذه الأمة أمينة ومؤمنة على القوامة .. القوامة على البشرية .. تزن لها ميزان الله وتقدر لها بقدر الله وتحتار لها الطيب، ولا تأخذ عينها ولا نفسها كثرة الخبيث! و موقف آخر ينفع فيه هذا الميزان .. ذلك حين ينتفش الباطل فتراه النفوس رايه و تؤخذ الأعين بمظهره وكثرته وقوته .. ثم ينظر المؤمن الذي يزن ميزان الله إلى هذا الباطل المنتفش، فلا تضطرب يده، ولا يزوج بصره، ولا يختل ميزانه ويختسار عليه الحق الذي لا رغوة له ولا زبد ولا عدة حوله ولا عدد .. إنما هو الحق .. الحق المجرد إلا من صفتة وذاته وإلا من ثقله في ميزان الله وثباته وإلا من جماله الذاتي وسلطانه! لقد رب الله هذه الأمة بمنهج القرآن، وقوامة رسول الله - ﷺ - حتى علم - سبحانه - أنها وصلت إلى المستوى الذي تؤمن فيه على دين الله ..

لا في نفوسها وضمائرها فحسب، ولكن في حياتها ومعاشرها في هذه الأرض، بكل ما يضطرب في الحياة من رغبات ومطامع، وأهواء ومشاركات، وتصادم بين المصالح، وغلاب بين الأفراد والجماعات. ثم بعد ذلك في قوامتها على البشرية بكل ما لها من تبعات جسام في خضم الحياة العام.

لقد رباهما بشتى التوجيهات، وشتى المؤثرات، وشتى الابتلاءات، وشتى التشريعات وجعلها كلها حزمة واحدة تؤدي دورا في النهاية واحدا، هو إعداد هذه الأمة بعقيدتها وتصوراتها، ومشاعرها واستجاباتها، وبسلوكها وأخلاقها، وبشريعتها ونظامها، لأن تقوم على دين الله في الأرض، ولأن تتولى القوامة على البشر ..

وحقق الله ما يريد به هذه الأمة .. والله غالب على أمره .. وقامت في واقع الحياة الأرضية تلك الصورة الوضيعة من دين الله .. حلماً يتمثل في الواقع .. وملك البشرية أن ترسمه في كل وقت حين تجاهد لبلوغه فيعيتها الله .^{٣٦٤}

٨- قال الله - تعالى - في سورة آل عمران: {إِنَّ يَنْصُرُكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلُكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلِيَتَوَكَّلُ كُلُّ الْمُؤْمِنُونَ} (١٦٠) سورة آل عمران.

أي: إن يمددكم الله بنصره ومعونته { فلا غالب لكم } فلو اجتمع عليكم من في أقطارها وما عندهم من العدد والعدد، لأن الله لا مغالب له، وقد قهر العباد وأخذ بنواصيهم، فلا تتحرك دابة إلا بإذنه، ولا تسكن إلا بإذنه.

{ وإن يخذلكم } ويكلكم إلى أنفسكم { فمن ذا الذي ينصركم من بعده } فلا بد أن تنخدلوه ولو أغانكم جميع الخلق.

وفي ضمن ذلك الأمر بالاستنصار بالله والاعتماد عليه، والبراءة من الحول والقوة، ولهذا قال: { وعلى الله فليتوكل المؤمنون } بتقسيم المعمول يؤذن بالحصر، أي: على الله توكلوا لا على غيره، لأنه قد علم أنه هو الناصر وحده، فالاعتماد عليه توحيد محصل للمقصود، والاعتماد على غيره شرك غير نافع لصاحبه، بل ضار.

وفي هذه الآية الأمر بالتوكل على الله وحده، وأنه بحسب إيمان العبد يكون توكله .^{٣٦٥}

^{٣٦٤} - في ظلال القرآن — موافقاً للمطبوع - (٩٨٣ / ٢)

^{٣٦٥} - تفسير السعدي - (١ / ١٥٤)

إن التصور الإسلامي يتسم بالتوازن المطلق بين تقرير الفاعلية المطلقة لقدر الله - سبحانه وتعالى - وتحقق هذا القدر في الحياة الإنسانية من خلال نشاط الإنسان وفاعليته وعمله .. إن سنة الله تجري بترتيب النتائج على الأسباب.

ولكن الأسباب ليست هي التي «تنشئ» النتائج. فالفاعل المؤثر هو الله. والله يرتب النتائج على الأسباب بقدرها ومشيئتها .. ومن ثم يطلب إلى الإنسان أن يؤدي واجبه، وأن يبذل جهده، وأن يفي بالتزاماته. وبقدر ما يوفى بذلك كله يرتب الله النتائج ويحققها .. وهكذا تتخلل النتائج والعواقب متعلقة بمشيئة الله وقدره. هو وحده الذي يأذن لها بالوجود حين يشاء، وكيفما يشاء .. وهكذا يتوازن تصور المسلم وعمله. فهو يعمل ويبذل ما في طوفه وهو يتعلق في نتيجة عمله وجهده بقدر الله ومشيئته. ولا حتمية في تصوره بين النتائج والأسباب. فهو لا يحتم أمراً بعينه على الله! وهنا في قضية النصر والخذلان، بوصفهما نتيجتين للمعركة - آية معركة - يرد المسلمين إلى قدر الله ومشيئته ويعلّقهم بإرادة الله وقدرتهم: إن ينصرهم الله فلا غالب لهم. وإن يخذلهم فلا ناصر لهم من بعده .. وهي الحقيقة الكلية المطلقة في هذا الوجود. حيث لا قوّة إلا قوّة الله، ولا قدرة إلا قدرته، ولا مشيئة إلا مشيئته.

وعنها تصدر الأشياء والأحداث .. ولكن هذه الحقيقة الكلية المطلقة لا تعفي المسلمين من اتباع المنهج، وطاعة التوجيه، والنهوض بالتكاليف، وبذل الجهد، والتوكل بعد هذا كلّه على الله: «وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ كُلُّ الْمُؤْمِنُونَ» .. وبذلك يخلص تصور المسلم من التماس شيء من عند غير الله ويتصلّ قلبه مباشرة بالقوّة الفاعلة في هذا الوجود فينفض يده من كل الأسباب الزائفة والأسباب الباطلة للنصرة والحماية والالتجاء ويتوكّل على الله وحده في إحداث النتائج، وتحقيق المصاير، وتدبير الأمر بحكمته، وتقبل ما يجيء به قدر الله في اطمئنان أيا كان.

إن التوازن العجيب، الذي لا يعرفه القلب البشري إلا في الإسلام .^{٣٦٦}

^{٣٦٦} - في ظلال القرآن — موافقاً للمطبوع - (١٥٠٣ / ١١).

٩- قال الله - تعالى - في سورة السجدة: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} (٢٤) سورة السجدة.

وَجَعَلْنَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ هَدَاةً وَدُعَاةً إِلَى الْخَيْرِ، يَأْتِمُّهُمُ النَّاسُ، وَيَدْعُونَهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ وَعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ وَطَاعَتْهُ، وَإِنَّا نَالُوا هَذِهِ الْدَّرْجَةَ الْعَالِيَّةَ حِينَ صَبَرُوا عَلَى أَوْامِرِ اللَّهِ، وَتَرَكُوا زَوَاجَهُ، وَالْدُّعْوَةَ إِلَيْهِ، وَتَحْمُلُّ الْأَذَى فِي سَبِيلِهِ، وَكَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَحْجَجَهُ يُوقِنُونَ^{٣٦٧}.

{وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ} أي: من بني إسرائيل {أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا} أي: علماء بالشرع، وطرق الهدایة، مهتدین في أنفسهم، يهدون غيرهم بذلك الهدی، فالكتاب الذي أنزل إلىهم، هدی، والمؤمنون به منهم، على قسمين: أئمة يهدون بأمر الله، وأتباع مهتدون بهم.

والقسم الأول أرفع الدرجات بعد درجة النبوة والرسالة، وهي درجة الصديقين، وإنما نالوا هذه الدرجة العالية بالصبر على التعلم والتعليم، والدعوة إلى الله، والأذى في سبيله، وكفوا أنفسهم عن جماحها في المعاصي، واسترسالها في الشهوات.

{وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} أي: وصلوا في الإيمان بآيات الله، إلى درجة اليقين، وهو العلم التام، الموجب للعمل، وإنما وصلوا إلى درجة اليقين، لأنهم تعلموا تعلمًا صحيحًا، وأخذوا المسائل عن أدلةها المفيدة لليقين.

فما زالوا يتعلمون المسائل، ويستدللون عليها بكثرة الدلائل، حتى وصلوا لذاك، وبالصبر واليقين، ثُنَالُ الْإِمَامَةِ فِي الدِّينِ^{٣٦٨}.

١٠- قال الله - سبحانه وتعالى - في سورة الأنفال: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَأْكُلْ مُغَيِّرًا نَعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (٥٣) سورة الأنفال. يخبر الله تعالى عن تمام عدله في حكمه في أمور العباد، وأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه. وأنه إنما أخذ قريشاً - بکفرها بنعم الله إذ بعث فيهم رسولاً

^{٣٦٧} - التفسير الميسر - (٣٠٣ / ٧)

^{٣٦٨} - تفسير السعدي - (٦٥٦ / ١)

يتلو عليهم آيات ر Hickem، فكذبه الكفار منهم وأخرجوه وحاربوه - كما أخذ الأمم المكذبة قبلهم بذنوبهم .^{٣٦٩}

{ ذلك } العذاب الذي أوقعه الله بالأمم المكذبة وأزال عنهم ما هم فيه من النعم والنعم، بسبب ذنوبهم وتغييرهم ما بأنفسهم، فإن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم من نعم الدين والدنيا، بل يقيها ويزيدهم منها، إن ازدادوا له شكرًا. { حتى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ } من الطاعة إلى المعصية فيكفروا نعمة الله ويدلواها كفرا، فيسلبهم إياها وغيروا عليها عليهم كما غيروا ما بأنفسهم.

ولله الحكمة في ذلك والعدل والإحسان إلى عباده، حيث لم يعاقبهم إلا بظلمهم، وحيث جذب قلوب أوليائه إليه، بما يذيق العباد من النكال إذا حالفوا أمره .^{٣٧٠}

إذن فذرية آدم بدأ أولًا بتغيير نعمة الإيمان إلى الكفر، ومن شكر النعم إلى جحودها، فجزاهم الله تعالى بالطوفان وبالصواعق وبالهلاك؛ لأنهم غيروا ما بأنفسهم، ولو أنهم عادوا إلى شكر الله وعبادته؛ لأن العزم نعم الأمان والاستقرار والحياة الطيبة.

ويلفتنا المولى سبحانه وتعالى إلى أن اتباع المنهج يزيد النعم ولا ينقصها، فيقول: { وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرْبَى آمَنُوا وَأَتَقْوَاهُ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ } [الأعراف: ٩٦]. وطبقاً لهذا القانون الإلهي نجد أن تغيير الناس من الإيمان إلى الكفر لا بد أن يقابله تغيير من نعمة الله عليهم وإلا لأصبح منهج الله بلا قيمة، والمثال أن كل طالب يدخل امتحاناً ولكن لا ينجح إلا من ذاكر فقط، وأما من لم يستذكر فإنه يرسب؛ حتى لا تكون الدنيا فوضى. ولو أن الله سبحانه وتعالى أعطى من اتبعوا المنهج نفس العطاء الذي يعطيه من لا يتبعون المنهج فما هي قيمة المنهج؟.

إذن لا بد أن يدخل الإنسان إلى الإيمان، وأن يكون هذا الإيمان متغللاً في أعماقك وليس أمراً ظاهرياً فقط، فلا تدع الإصلاح وأنت تفسد، ولا تدع الشرف والأمانة وأنت تسرق، ولا تدع العدل وأنت تظلم الفقير وتحابي الغني؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لا يعطي

^{٣٦٩} - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (١ / ١٢١٤)

^{٣٧٠} - تفسير السعدي - (١ / ٣٢٤)

نعمه الظاهرة والباطنة إلا من يتبعون منهجه. وإذا رأيت قوماً عمّ فيهم الفساد فاعلم أن نفوسهم لم تتغير رغم أنهم يتظاهرون باتباع المنهج الإلهي.

وإن شكونا من سوء حالنا فلنعرف أولاً ماذا فعلنا ثم نغيره إلى ما يرضي الله عز وجل فيغير الله حالنا. ولذلك إذا وجدت كل الناس يشكون فاعلم أن هذا قد حدث بسبب أن الله غير نعمه عليهم؛ لأنهم غيروا ما بأنفسهم. أي أن حالتهم الأولى أنهم كانوا في نعمة ومنسجمين مع منهج الله، فغيروا انسجامهم وطاعتهم فتغيرت النعمة، أي أن هناك تغييرين أساسين، أن يغير الله نعمة أنعمها على قوم، وهذا لا يحدث حتى يغيروا ما بأنفسهم.

وقوله تعالى: { وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [الأنفال: ٥٣].

أي أن الله تعالى يعلم حقيقة ما يفعلون ويسمع سرّهم وجههم، ولذلك إذا غيروا، سمع الله سبحانه وعلم؛ لأن التغيير إما أن يكون بالقول وإما أن يكون بالفعل، فإن كان التغيير بالقول فالحق سبحانه يسمعه ولو كان مجرد خواطر في النفوس، وإن كان التغيير بالعمل فالحق يراه ويعلمه ولو كان في أقصى الأرض^{٣٧١}.

إنه، من جانب، يقرر عدل الله في معاملة العباد فلا يسلبهم نعمة وهبهم إياها إلا بعد أن يغيروا نوایاهم، وينبذلوا سلوكهم، ويقلبوا أوضاعهم، ويستحقوا أن يغير ما بهم مما أعطاهم إياه للابتلاء والاختبار من النعمة التي لم يقدروها ولم يشكروها .. ومن الجانب الآخر يكرم هذا المخلوق الإنساني أكبر تكريماً، حين يجعل قدر الله به ينفذ ويحرر عن طريق حركة هذا الإنسان وعمله و يجعل التغيير القدر في حياة الناس مبنياً على التغيير الواقعي في قلوبهم ونواياهم وسلوكهم وعملهم، وأوضاعهم التي يختارونها لأنفسهم .. ومن الجانب الثالث يلقي تبعة عظيمة - تقابل التكريم العظيم - على هذا الكائن. فهو يملك أن يستبقى نعمة الله عليه ويملك أن يزداد عليها، إذا هو عرف فشكر كما يملك أن يزيل هذه النعمة عنه إذا هو أنكر وبطر، وانحرفت نوایاها فانحرفت خطاه.

^{٣٧١} - تفسير الشعراوي - (١٢٠٠) /

وهذه الحقيقة الكبيرة تمثل جانباً من جوانب «التصور الإسلامي لحقيقة الإنسان» وعلاقة قدر الله به في هذا الوجود وعلاقته هو بهذا الكون وما يجري فيه .. ومن هذا الجانب يتبين تقدير هذا الكائن في ميزان الله وتكريمه بهذا التقدير كما تبين فاعلية الإنسان في مصير نفسه وفي مصير الأحداث من حوله فيبدو عنصراً إيجابياً في صياغة هذا المصير - بإذن الله وقدره الذي يجري من خلال حركته وعمله ونيته وسلوكيه - وتنفي عنه تلك السلبية الذليلة التي تفرضها عليه المذاهب المادية، التي تصوره عنصراً سلبياً إزاء الاحتمالات الجبارية. حتمية الاقتصاد، واحتمالية التاريخ، واحتمالية التطور .. إلى آخر الاحتمالات التي ليس للكائن الإنساني إزاءها حول ولا قوة، ولا يملك إلا الخضوع المطلق لما تفرضه عليه وهو ضائع خانع مذلول !

كذلك تصور هذه الحقيقة ذلك التلازم بين العمل والجزاء في حياة هذا الكائن ونشاطه وتصور عدل الله المطلق، في جعل هذا التلازم سنة من سننه يجري بها قدره، ولا يظلم فيها عبد من عبده: «وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِّلْعَبِيدِ» .. «فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فَرْعَوْنَ وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ» .. «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ مُّغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُعَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ» .. والحمد لله رب العالمين ٣٧٢ ..

هذه القوانين العشرة السابقة نموذج لما يكفل الحضارات ويُحَسِّن الأمم. ودراستها حياة ونماء للعقائد والأخلاق، ومهما كان الوزن لفروع الفقه فهذه الأصول أسبق، والعكوف عليها أجدى، ذلك أنها حقائق، والمقابل لها أباطيل، أو أنها معروفة، والمقابل لها منكر. أما الاختلاف في كثير من الأحكام الفقهية فلا يُعَدُّو أن يكون وجهات نظرٍ قد تكون متساوية الأجر عند من يصوّبون كل اجتهاد، أو مُتَفَاوِتَةً الأجر عند من يرون المحتهدين عُرْضاً للخطأ والصواب !!



أهم المصادر

١. أيسير التفاسير لأسعد حومد
٢. التفسير المنير في العقيدة و الشريعة و المنهج
٣. التفسير الميسر
٤. تفسير ابن أبي حاتم
٥. تفسير ابن كثير - دار طيبة
٦. تفسير الطبرى - مؤسسة الرسالة
٧. تفسير القرطبي - موافق للمطبوع
٨. في ظلال القرآن — موافقاً للمطبوع
٩. الترغيب والترهيب
١٠. السنن الكبيرى للإمام النسائي الرسالة
١١. السنن الكبيرى للبيهقي - المكت
١٢. المجالسة وجوه علم (٣٣٣)
١٣. المدخل إلى السنن الكبيرى
١٤. المستدرك للحاكم مشكلا
١٥. المسند الجامع
١٦. المطالب العالية بروايات المسانيد الشمانية (٨٥٢)
١٧. المعجم الأوسط للطبراني
١٨. المعجم الصغير للطبراني
١٩. المعجم الكبير للطبراني
٢٠. تمذيب الآثار للطبرى
٢١. جامع الأحاديث
٢٢. جامع الأصول في أحاديث الرسول
٢٣. دلائل النبوة للبيهقي
٢٤. سنن أبي داود - المكت
٢٥. سنن ابن ماجة - طبع مؤسسة الرسالة

٢٦. سنن الترمذى- المكتز
٢٧. سنن الدارقطنى- المكتز
٢٨. سنن الدارمى- المكتز
٢٩. سنن النسائي- المكتز
٣٠. شرح مشكل الآثار (٣٢١)
٣١. شرح معانى الآثار (٣٢١)
٣٢. شعب الإيمان (٤٥٨)
٣٣. صحيح ابن حبان
٣٤. صحيح ابن حزيمة مشكل
٣٥. صحيح البخارى- المكتز
٣٦. صحيح مسلم- المكتز
٣٧. عشرة النساء للإمام للنسائي - الطبعة الثالثة
٣٨. غاية المقصد في زوائد المسند ١
٣٩. غاية المقصد في زوائد المسند ٢
٤٠. كشف الأستار
٤١. جمجم الروايد
٤٢. مسند أبي عوانة مشكلا
٤٣. مسند أبي يعلى الموصلى مشكل
٤٤. مسند أحمد (عالم الكتب)
٤٥. مسند أحمد ط الرسالة (٢٤١)
٤٦. مسند احمد بن حنبل (بأحكام شعيب الأرناؤوط)
٤٧. مسند البزار (المطبوع باسم البحر الرخار
٤٨. مسند الحميدي - المكتز
٤٩. مسند الشاميين ٣٦٠
٥٠. مسند الطيالسي
٥١. مصنف ابن أبي شيبة
٥٢. مصنف عبد الرزاق مشكل

٥٣. معرفة الصحابة لأبي نعيم (٤٣٠)
٥٤. موسوعة السنة النبوية
٥٥. موطن مالك - المكر
٥٦. ركائز الإيمان للعلامة محمد قطب بتحقيقه
٥٧. الخلاصة في أحكام الاجتهاد والتقليل
٥٨. الخلاصة في شرح حديث الولي
٥٩. الواضح في أركان الإيمان
٦٠. سيرة ابن هشام
٦١. الرُّهْدُ لِأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ
٦٢. التَّوَاضُعُ وَالْخُمُولُ لِابْنِ أَبِي الدُّنْيَا
٦٣. سير أعلام النبلاء - (١) / (٣٧٨)
٦٤. <http://alboraq.info/showthread.php?t=٣٧٩٢١>
٦٥. القرآن منهاج حياة - (٣ / ٦٠)
٦٦. الفقيه والمُنْفَقُه للخطيب البغدادي
٦٧. <http://www.daawa-.info.net/books>
٦٨. حلية الأولياء (١٢١٧٧)
٦٩. إحياء علوم الدين
٧٠. البرهان المؤيد
٧١. المدخل لابن الحاج
٧٢. <http://services.islamweb.net/media/index.php?page=article.١٣٣٠٨&lang=A&id=٤٨١٨٧>
٧٣. <http://www.ikhwanonline.com/Article.asp?ArtID=.٢٦٣&SecID=٢٦٣>
٧٤. قصة أصحاب القرية للمؤلف
٧٥. معجم أسامي شيوخ أبي بكر الإسماعيلي
٧٦. مذكرة في فقه الدعوة
٧٧. دلائل الشبهة لأبي نعيم الأصبهاني

٧٨. منهاج الرسول صلى الله عليه وسلم في تصحيح الأخطاء
٧٩. الاعتقاد للبيهقي
٨٠. دلائل التبوة لأبي نعيم الأصبهاني
٨١. أخلاق النبي لأبي الشيخ الأصبهاني
٨٢. تربية الأولاد في الإسلام للنابسي
٨٣. <http://montada.rasoulallah.net/index.php?showtopic=.٨٣.٢٦٥>
٨٤. مجموع الفتاوى لابن تيمية
٨٥. فتاوى الشبكة الإسلامية معدلة
٨٦. أصول الفقه على منهج أهل الحديث - الرقمية
٨٧. الترغيب بالجنة والترهيب من النار للمؤلف
٨٨. الخلاصة في فضائل الأعمال للمؤلف
٨٩. موسوعة فقه الابلاء للمؤلف
٩٠. الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي
٩١. الإيمان والعمل الصالح سبب النجاح والفلاح للمؤلف
٩٢. مجلة المنار
٩٣. فضائل الصحابة لعبد الله بن أحمد
٩٤. تفسير السعدي
٩٥. الخلاصة في فقه الابلاء للمؤلف
٩٦. فتح الباري شرح صحيح البخاري - ط دار الفكر -
٩٧. فقه الأولويات للدكتور يوسف القرضاوي
٩٨. المسودة لآل تيمية
٩٩. السنة النبوية وأثرها في اختلاف الفقهاء - ط ١ - للمؤلف
١٠٠. زاد المعاد لابن القيم
١٠١. معالم في الطريق بتحقيقني
١٠٢. مراحل تشرع الجihad في الإسلام للمؤلف
١٠٣. الخلاصة في أهداف القتال في الإسلام للمؤلف
١٠٤. المواقف للشاطبي طبعة دار المعرفة بيروت

آفات على الطريق كامل	. ١٠٥
الآداب الشرعية لابن مفلح	. ١٠٦
فضيلة العادلين من الولاة	. ١٠٧
الموسوعة الفقهية الكويتية	. ١٠٨
الإصابة لابن حجر	. ١٠٩
المفصل في تحرير أحاديث الطائفة المنصورة للمؤلف	. ١١٠
الوسطية في القرآن الكريم للعمر والصلابي	. ١١١
الشاملة ٣	. ١١٢
برنامنج قالون	. ١١٣

الفهرس العام

٥	المبحث الأول
٥	تعريف
٥	علم فقه الدعوة :
٥	هل هذا العلم بدعّة؟
٥	معنى كلمة "دعوة" في اللغة:
٥	ماذا نسمّي من يعمل بالدعوة؟
٥	أصناف الدعوة وأصناف الدّعّاة :
٦	الداعية إلى الله :
٦	الدعوة إلى الله واجب تقييل :
٦	أهداف الدعوة التي نعيّنها :
٧	حكم الدعوة إلى الله والأدلة على ذلك:
٨	هل الدعوة فرض عين أم فرض كفاية؟
٩	هل الدعوة فرض على الرجال وحدهم، أم تشمل النساء؟
١٠	الدعوة ضرورة اجتماعية :
١٣	فضل الدعوة إلى الله :
١٥	المبحث الثاني
١٥	خصائص الدعوة الإسلامية
٥٤	المبحث الثالث
٥٤	أساليب الإقناع وطرقه المختلفة
٥٤	الحكمة في الدعوة:
٥٥	إلى أي شيء ندعو الناس؟
٥٥	عوامل (أسباب) نجاح الدعوة :
٥٨	المبحث الرابع
٥٨	قواعد وأسس لفهم الصحيح

٦٢	المبحث الخامس
٦٢	درجات الإصلاح في نظر الدعوة الصحيحة
٦٣	المبحث السادس
٦٣	من صفات الداعية الناجح
٦٣	١ - حسن الصلة بالله - تعالى - أوّلاً وقبل كل شيء :
٦٤	٢ - الصدق :
٦٦	٣ - الأمانة :
٦٩	٤ - الإخلاص :
٧٢	* دلائل الإخلاص *
٧٦	* من ثمرات الإخلاص *
٧٧	* من بواعث الإخلاص *
٨٢	٦ - الصبر :
٨٧	٧ - الحرص :
٨٨	٨ - الأمل والثقة بنصر الله :
٩٢	٩ - الوعي والفقه :
٩٣	١٠ - حسن الخلق :
٩٤	المبحث السابع
٩٤	موقف الداعي من المجتمع
٩٥	المبحث الثامن
٩٥	القواعد والأصول المرتبطة بالدعوة وفنونها
٩٥	- مقاصد الشريعة :
٩٥	١ - الضروريات :
٩٥	٢ - الحاجيات :
٩٥	٣ - التحسينيات أو التكميليات :
٩٧	شروط التصدي للمنكر :
٩٨	- إنكار المنكر أربع درجات :

١٠٠	المبحث التاسع
١٠٠	قواعد أساسية في الدعوة إلى الله - تعالى -
١٠٠	١) القدوة قبل الدعوة.
١٠٣	٢) التأليف قبل التعريف.
١١٠	٣ - عدم تعنيف المدعو ولو بالكلمة مع الرفق به .
١١٢	هل كان تكسير النبي إبراهيم عليه السلام للأصنام خطأ !!؟؟
١٢٠	٤ - أن تُذْنِيَ المدعو منك وتُلَاطِفْهُ وتشَكِّلْهُ في وجهه ولا تَتَّبِعْ عوراته.
١٢٣	٥ - أن تُعْطِيَ وجهك حين التحدث إليه، ولا تُقاطِعْهُ ولا تَسْتَهِزَّ بقوله .
١٢٥	٦ - أن تُحاورَه دونَ تَعَالٍ (تكبِّرٌ) عليه، وأنْ تُنْزِلَهُ مَنْزَلَتَهُ .
١٢٦	٧ - أن تُسْرِرَ إليه بالموعظة ولا تُكَاشِفَهُ بين الناس .
١٢٨	٨ - إعطاؤه بعضَ المَهَايَا والعَطَايَا تَأْلِيْفًا لقلبه .
١٣٠	٩ - أن تَسْتَشِرَ هَمَّتَهُ بما يَقْتَحِمُ قَلْبَهُ للحق مع مُدَارَاه سَفَهَهُ إنْ كَانَ سَفِيْهَا .
١٣٦	١٠ - أن تَتَجَنَّبَ معه الخلافات الفقهية وترُكَ المَرَءُ المَذْمُومُ .
١٣٨	المبحث العاشر
١٣٨	التعريف قبل التكاليف
١٤٥	المبحث الحادي عشر
١٤٥	الدرج في التكاليف
١٥٢	المبحث الثاني عشر
١٥٢	التسيسير لا التعسir، والتيسير لا التعقيـد
١٥٥	المبحث الثالث عشر
١٥٥	الأصول قبل الفروع
١٥٧	المبحث الرابع عشر
١٥٧	الترغيب قبل الترهيب أو البشارة قبل النذارة
١٦٢	المبحث الخامس عشر
١٦٢	التفهيم لا التلقين
١٦٥	المبحث السادس عشر

١٦٥	التربية لا التعرية
١٦٩	المبحث السابع عشر
١٦٩	١٦٩ تلميذ إمام (أستاذ وذي تجربة) لا تلميذ كتاب
١٧٢	المبحث الثامن عشر
١٧٢	نصائح لا بد من مراعاتها أثناء الدعوة
١٨٠	المبحث التاسع عشر
١٨٠	قواعد في التصورات والأساليب والوسائل
١٨٠	١/ الدعوة إلى الله سبيل السجادة في الدنيا والآخرة :
١٨٢	٢/ لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خيرا لك من حمر النعم :
١٨٣	٣/ الأجر يقع بمجرد الدعوة ولا يتوقف على الاستجابة :
١٨٥	٤/ على الداعية أن يصل إلى رتبة المبلغ وأن يسعى إلى البلاع :
١٨٧	٥/ على الداعية أن يقدم الجهد البشري وهو يطلب المدد الرباني :
١٨٨	٦/ الداعية مرآة دعوته والنموذج المعيّر عنها: (لا ينفصل الداعي عن دعوته) :
١٨٩	٧/ خاطبوا الناس على قدر عقولهم :
١٩٠	٨/ الابتلاء سنة الله - تعالى - وهو السبيل إلى تمثيل الدعوة وصياغة النفس وفق العقيدة :
١٩٤	٩/ مجال الدعوة واسع فليتخيّر الداعية لدعوته :
١٩٥	١٠/ الزمن عنصر فعال من عناصر الدعوة :
١٩٦	١١/ الدعوة فن وقيادة وهي تقوم على التخطيط والمتابعة :
١٩٦	- هنالك نوعان من الأهداف :
١٩٧	جمع المعلومات أساس الخطة :
١٩٧	الزمن عنصر فعال في الخطة :
١٩٧	العين الساهرة (المتابعة) :
١٩٨	١٢/ الدعوة صورة أكيدة من صور الجهاد ومقدمّة على القتال :
٢٠٣	١٣/ الدعوة سلعة شريفة لا تباع بالأعراض الدنيوية :
٢٠٥	١٤/ التعرّف على المدعو عامل أساسي في كسبه :
٢٠٦	١٥/ المعاصرة ومعرفة البيئة العامة من أسباب نجاح الدعوة :

٢٠٨	المبحث العشرون.....
٢٠٨	الخلاصة في فقه الأولويات.....
٢٠٨	تعريفه :
٢١٢	ارتباط فقه الأولويات بغيره من أنواع الفقه :
٢١٢	١- فقه الموازنات
٢١٣	٢- فقه المقاصد:
٢١٤	٣- فقه المصوص نصوص الشريعة الجزئية :
٢٢٤	* أهم الأولويات التي لا بد من مراعاتها
٢٢٤	١- أولوية الـ (كيف) على الـ (كم)، (أولوية الكيفية على الكمية)
٢٢٧	٢- الأولويات في مجال العلم والفكر :
٢٢٧	أ- أولوية تقديم العلم على العمل.....
٢٢٨	ب- أولوية الفهم على مجرد الحفظ
٢٢٩	ج- أولوية المقاصد على الظواهر:.....
٢٢٩	د- أولوية الاجتهاد على التقليد (في الأمور المستجدة والطارئة)
٢٣٠	هـ- أولوية الدراسة والتخطيط لأمور الدنيا
٢٣٠	و- الأولويات في الآراء الفقهية
٢٣١	٣- الأولويات في مجال الفتوى والدعوة :
٢٣١	أ- أولوية التخفيف والتيسير على التشديد والتعسir
٢٣٤	ب- الاعتراف بالضرورات الطارئة في حياة الناس سواء أكانت فردية أم جماعية
٢٣٥	ج- تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان
٢٣٦	الرد على من يزعم تغير بعض أحكام الإسلام الثابتة ومنها الجهاد
٢٤١	د- مراعاة سنة التدرج
٢٤٢	الرد على من يزعم إلغاء الرق اليوم
٢٤٣	هـ- تصحيح ثقافة المسلم
٢٤٣	و- الاهتمام بما اهتم به القرآن أولاً.....
٢٥٠	٤- الأولويات في مجال العمل :
٢٥٠	أ- أولوية العمل الدائم على العمل المنقطع

٢٥١	ب- أولوية العمل الأطول نفعاً وأبقى أثراً .
٢٥٢	ج- أولوية العمل المتعدي النفع على العمل القاصر النفع .
٢٥٣	د- أولوية العمل في أزمة الفتنة والشدائدين .
٢٥٤	هـ- أولوية عمل القلب على عمل الجوارح .
٢٥٧	و- اختلاف الأفضل باختلاف الزمان والمكان والحال .
٢٦٠	٥- الأولويات في مجال المأمورات :
٢٦١	أ- أولوية الأصول على الفروع .
٢٦١	ب- أولوية الفرائض على السنن والموافق .
٢٦٣	ج- أولوية فرض العين على فرض الكفاية .
٢٦٤	د- أولوية حقوق العباد على حق الله المجرد .
٢٦٥	هـ- أولوية حقوق الجماعة على حقوق الأفراد .
٢٦٦	و- أولوية الولاء للأمة والجماعة على الولاء للقبيلة والفرد .
٢٧٠	٦- الأولويات في مجال المنهيات :
٢٧٣	هل المسلمون مسؤولون عن ضلال أهل الأرض ؟
٢٨٠	٧- الأولويات في مجال الإصلاح (أي إثناء عملية الإصلاح) :
٢٨٣	المبحث الحادي والعشرون
٢٨٣	معرفة سنن الله الكونية في القرآن الكريم